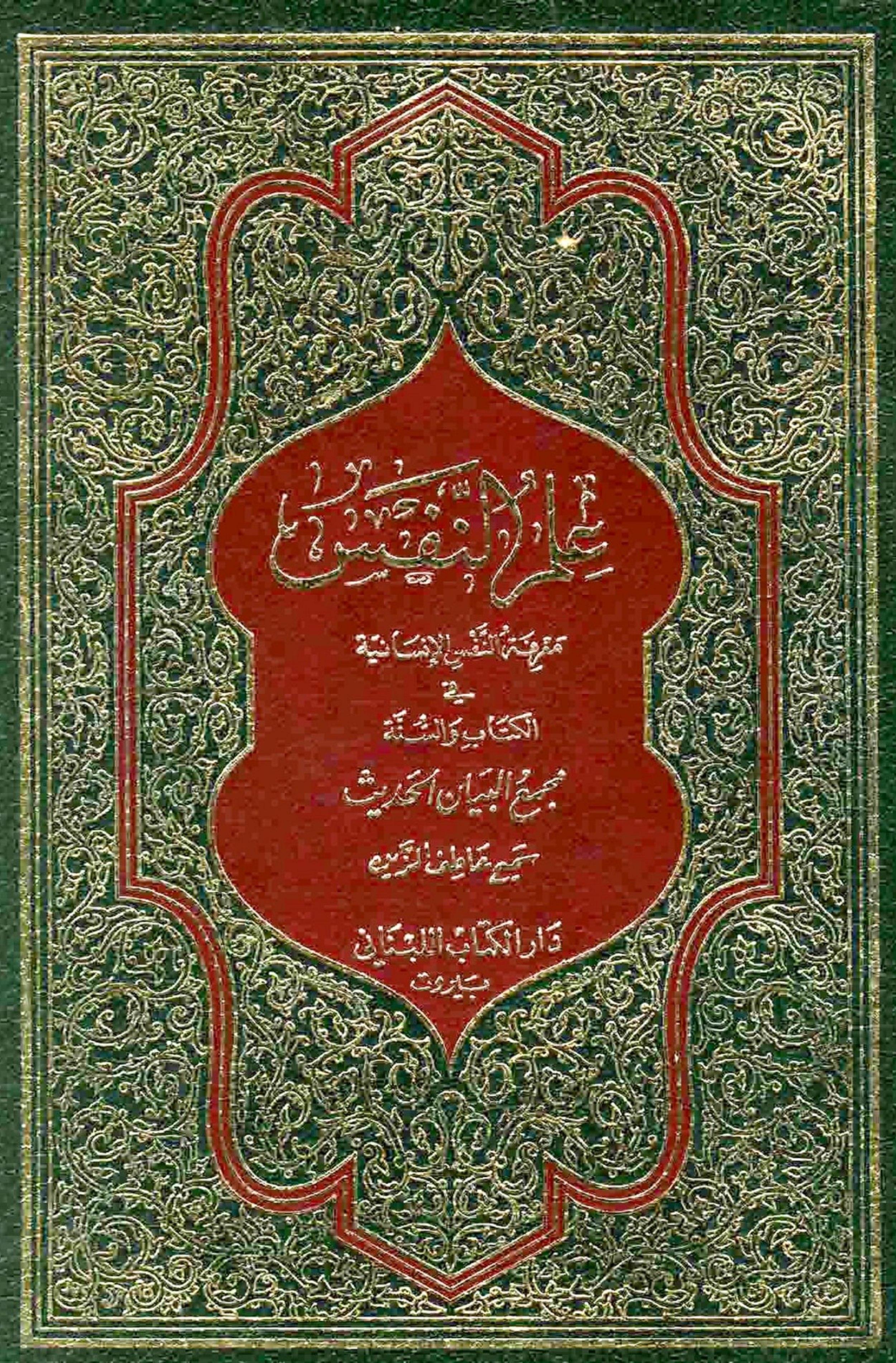

علم النفس
معرفة النفس الإنسانية
في
الكتاب والسنة
مجمع البيان الحديث
سميح عاطف الزين
دار الكتاب اللبناني
بيروت

علم النفس

مَعرِفة النَّفْسِ الإنسانيّة
في
الكتابِ والسُّنَّة

عِلمُ النفس

مجمعُ البيانِ الحديث

سَميح عاطف الزّين

المجلّد الأول

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

دار الكتاب اللبناني
دار الكتاب المصري

إهداء

إلى جدّي علي ، وجدّتي آسيا ،
إلى والدي عاطف ووالدتي فاطمة ،
اللهمّ ارحمهم جميعًا كما ربّوني صغيرا .
إلى بعض نفسي التي أَسكنُ إليها ،
إلى التي ألهمها الله تعالى فشجعتني على اخراج
هذا الكتاب إلى حيّز الوجود ،
زوجتي خديجة هاشم الزين .
إلى من هم نجوم يضيئون في زوايا الدنيا ، ويعملون
بقضاء الله تعالى ، فلم يعبدوا إلاّ إيّاه ،
وبوالديهم احسانًا ...
إليكم يا أولادي : خير الله ، خيرات ، سناء ، هدى ،
محمّد أسامه ، محمّد المهدي ، علي ، حسن ، مريم ، عبير .
إلى كل من أنار لي الطريق للهدى .
إلى كل من أعانني في سبيل إعلاء كلمة الله .
أهدي كتابي هذا .

سميح عاطف الزين

قصّة النفس الإنسانية، من بداية خلقها إلى غاية رجوعها إلى ربها، قصّة متسلسلة متشعبة. وقد أتى القرآن الكريم على فصول هذه القصة بما يقرب من ثلاثمائة آية ـ هذه الآيات البينات وغيرها تعالج مختلف حالات النفس الإنسانية: خلقاً وتكويناً، ومسارَ حياة، ومآلاً بعد الموت. ومن عجب أن كثيراً من العلماء يبحثون عن معرفة النفس الإنسانية في غير كتاب الله فلا يجدونها.

رحلة النفس الإنسانية في كتاب الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[1]، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾[2]، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[3]، ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[4] ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾[5]، ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[6]، ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[7]، ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾[8]

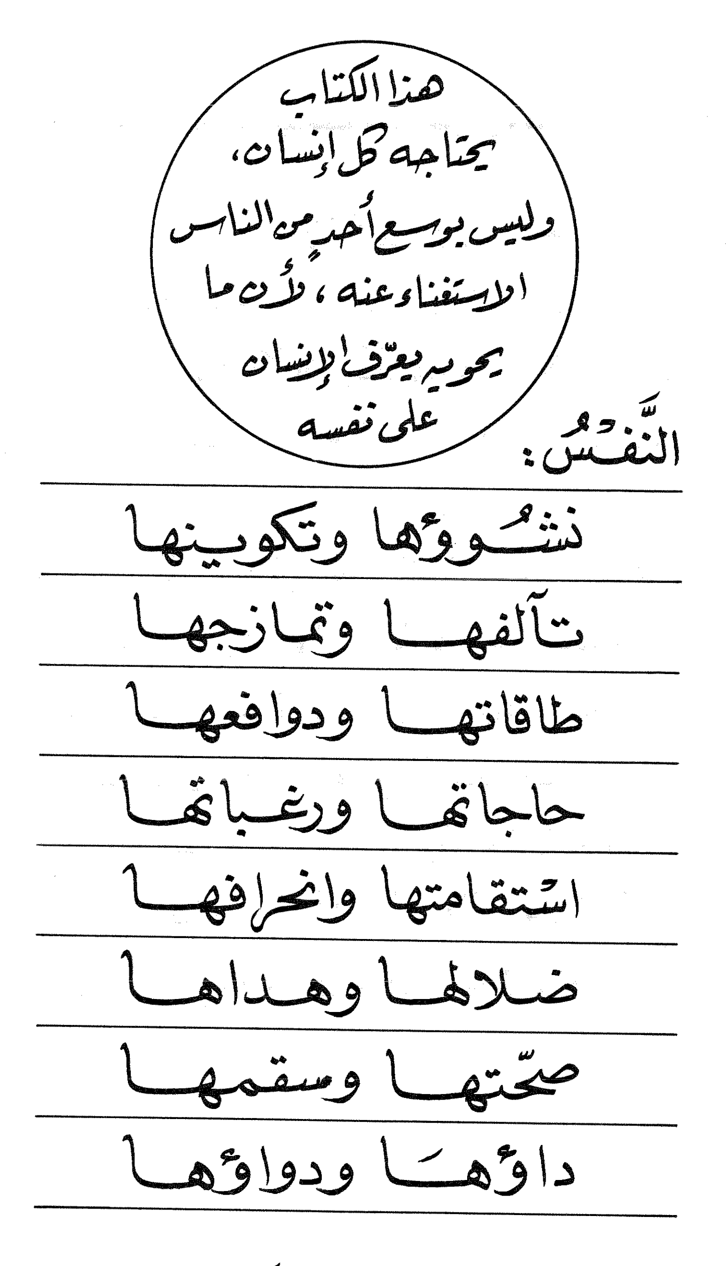
---

(١) النساء: ١.
(٢) ق: ١٦.
(٣) الشمس: ٧.
(٤) المدثر: ٣٨.
(٥) يوسف: ٥٣.
(٦) النجم: ٣٢.
(٧) البقرة: ٢٣٣.
(٨) الطارق: ٤.

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[9] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[10] ، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[11] ، ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[12] ، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾[13] ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[14] ، ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾[15] ، ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾[16] ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾[17] ، ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾[18] ، ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[19] ، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ ﴾[20] ، ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[21] ، ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[22]

---

(٩) الذاريات : ٢١ .
(١٠) الرعد : ١١ .
(١١) يونس : ١٠٠ .
(١٢) السجدة : ١٣ .
(١٣) آل عمران : ١٤٥ .
(١٤) الأنبياء : ٣٥ .
(١٥) القيامة : ٢ .
(١٦) الزمر : ٥٦ .
(١٧) البقرة : ١٥٣ .
(١٨) النحل : ١١١ .
(١٩) آل عمران : ٢٥ .
(٢٠) آل عمران : ٣٠ .
(٢١) البقرة : ٢٨١ .
(٢٢) الفجر : ٣٠ .

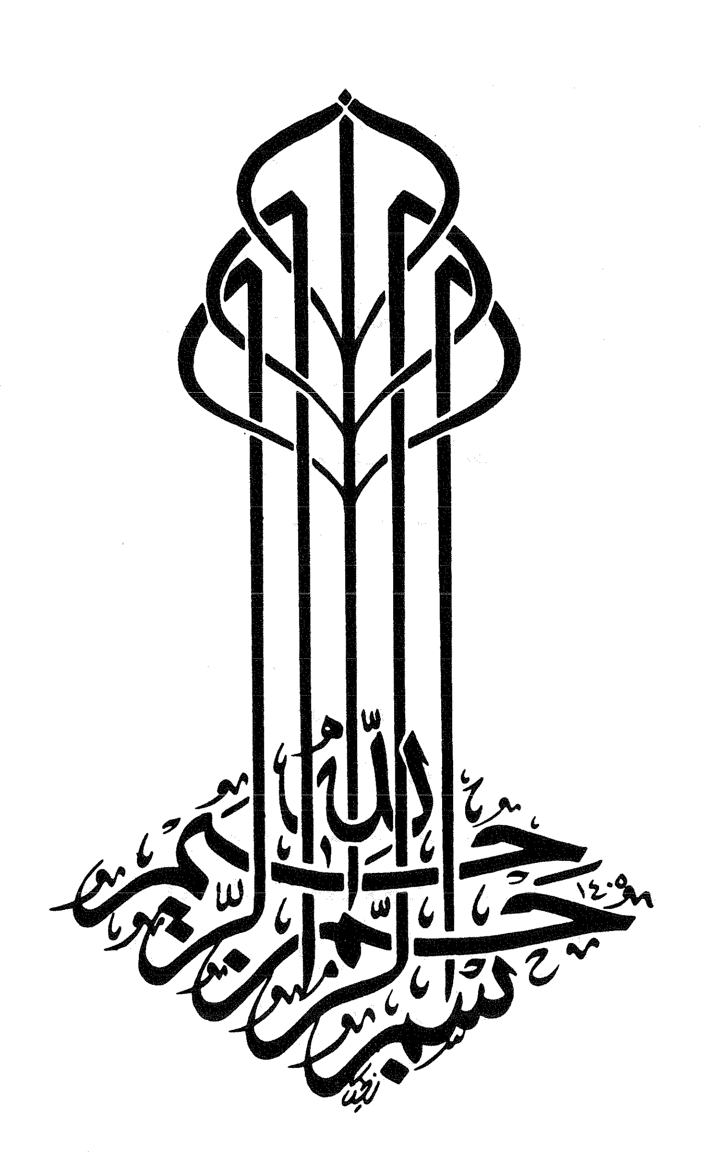


تلك موضوعات حاول هذا الكتاب معالجتها.
وبعد ذلك هل يمكن لأحدٍ من الناس
الاستغناء عنه يا ترى؟

عالجنا في المجلد الأول من هذا الكتاب كثيراً من الأمراض النفسية، وأشرنا إلى أمور كثيرة في مجاهدة النفس والمعالجات النفسية كي نتمكن من الوصول إلى الأمان النفسي، ومن ثم إلى السعادة النفسية. وقد جاءت تلك المعالجات أحياناً في صلب المواضيع، وأحياناً في خواتيمها. هذا بالإضافة إلى تكرار بعضِ الآيات القرآنية، أو جزءٍ من آية مباركة، وتوضيح المعاني والمقاصد التي تتضمنها بما يناسب أجواء الموضوعات التي وردت فيها.

والمجلد الثاني يتضمن مختلف المعالجات النفسية وفق عناوينها وأسمائها، بعد شرحٍ الأمراض النفسية التي وضعت لها تلك المعالجات، أي أننا نشخّص الداء ونَصِفُ الدواء.

ولذا أدعوك أيها القارىء الكريم أن تكون في حالة انتباه وتفكّر أثناء قراءتك لهذا الكتاب، الذي هو لا يستغني عنه أحد ـ حسب رأينا ـ مهما كان واسع الاطلاع، لأنه يتعلق بوجوده كياناً ونَفْساً. ولا يظنّنّ أحد منِ الناس نفسه خالياً من مرضٍ نفسي، لأنه لا يوجد إنسانٌ حيٌّ إلاّ وتداهمه الحياة بالمشكلات والمصاعب أو يتأثر بالعوامل التي تسبب له الأمراض النفسية، إلاَّ الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى لمعالجة النفوس وشفائها. فتلك الفئة التي اختارها الْبَارِىءُ، من بين الناس جميعاً، كانت تتمتع بالصحة النفسية الكاملة، وما عداها من الناسِ فإن كل فرد مريض نفسياً، ولكن يختلف الأفراد عن بعضهم بعضاً بنوع الأمراض التي تعتري نفوسهم، ودرجتها، بحسب التكوين والبيئة، وظروف الحياة وملابساتها.


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

معرفة النفس الانسانيّة

تَلَمُّسُ الفكر الفلسفي للنفس

حكاية النفس مع الفلاسفة قديمة قدم الفلسفة نفسها. إن معرفة ماهية النفس أو حقيقتها، وعلاقتها بالبدن، وتلمُّس القوى الكامنة فيها، وإلى أين مصيرها.. إلى ما هنالك من أمور تتصل بالنفس، كانت مثار الاهتمام من قبل الفلاسفة منذ عصور قديمة.

ورغم تشعب آراء الفلاسفة حول ماهية النفس فقد التقوا على وصفها بأنها «جوهر روحاني بسيط، مجرد عن المادة، قائم بذاته، لا حيّز له. وهو لا يتغير بتغير الظواهر النفسية، ولا يتبدّل بتبدّلها».

وإنَّ النفس متعلقة بالبدن فهي التي تقوم على تحريكه وتسييره، إلّا أنها في النهاية مفارقة لهذا البدن، لأنها من تكوين مختلف، فهو ينحل ويفنى، بينما هي لا يطالها الانحلال أو الفناء، بل تبقى بعد انحلال البدن، وتنتقل إلى عالم جديد. على أنها ما دامت في البدن، فهي الباعث على حدوث الإحساس، والتفكير، والعواطف، وما إلى ذلك مما يصدر عن الإنسان من حركات

وسكنات. وقد اتفق الفلاسفة على أن في النفس ـ هذا الجوهر ـ قوى متعددة: كقوة الذاكرة، وقوة الإرادة، وقوة التخيل، وقوة الاستدلال الخ . . .

وكان يطلق على الأبحاث التي تدور حول النفس «علم الروح» أو «علم العقل». إذ لم يميز القدامى ما بين «النفس» و «الروح»، كما يحدث اليوم، بل كانتا، في نظرهم، شيئاً واحداً، ما ورائياً، غير ظاهر للعيان . . . أما تسمية «علم النفس» ـ كما هو معروف في الوقت الحاضر ـ فتعود إلى أصل يوناني، وهي مشتقة من اللفظتين اليونانيتين psychû (روح) و logos (علم). هذا وإنَّ المفهوم الذي يقول بعلم الروح أو علم العقل ظلَّ متداولاً في القرون الوسطى، وقد استعمله أيضاً الفلاسفة اللاهوتيون أنفسهم.

النفس لدى فلاسفة اليونان

اقتبس اليونانيون مفاهيم شتى عن النفس، وذلك من خلال معتقدات الشرق القديمة وأساطيره. ومن تلك المعتقدات نظرية التناسخ التي تقول بانتقال الروح من إنسان لإنسان، وهي هندية المصدر. والعقيدة الزرادشتية التي تقول بأن هنالك نفسين تسيطران على العالم: إحداهما شريرة والأخرى خيرة. ومنها أيضاً الفرعونية التي كانت تعتقد بفكرة الخلود، فالروح عندها تفارق الجسد مؤقتاً، لتعود إليه فيما بعد. من هنا نشأت عند الفراعنة فكرة حفظ الأجسام (التحنيط) وبقائها مستعدة لاستقبال الأرواح التي ستعود إليها فيما بعد.

ونجد مثل تلك المعتقدات البدائية لدى جميع الأمم الساميّة، بل إن جميع القبائل والشعوب، (البدائية منها خاصة)، تعتقد بوجود

الشياطين، وبالنفوس الشريرة التي تحدث الأمراض في الناس. وفكرة الشيطان فكرة عامة لدى شعوب الغرب والشرق على السواء. وكثيراً ما قامت معتقدات الشعوب البدائية على أفعال الشياطين أو الجان. . . والعرب، كغيرهم من الشعوب الساميّة، عرفوا فكرة الشياطين، وفكرة الجان. وكانوا في جاهليتهم - بالإضافة إلى عبادة الأصنام والأوثان - يقرُّون بوجود ملائكة ويقولون عنهم بأنهم إناث، وينسبونهم إلى الله تعالى، على أنهم «بنات الله» كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم. .

وتلك المعتقدات الشرقية كان اليونانيون قد عرفوها، ولكنهم لم يبقوها في إطارها الخرافي أو الوهمي، بل أنشأوا حولها تصورات عن النفس وفق مذاهب ونظريات متعددة، شملت أيضاً العقل والمنطق. فإذا أخذنا سقراط مثلاً، نجده صاحب الشعار المكتوب على مدخل معبد «دلفي»: «إعرف نفسك بنفسك». وما يزال هذا الشعار يتردد حتى اليوم على ألسنة الناس، كقيمة معنوية هامة لمعرفة الإنسان نفسه. وسقراط كان من أكثر الفلاسفة القدامى اهتماماً بمعرفة النفس وطبيعتها ومصيرها، كما بحث في العقل وعلاقته بالنفس.

أما أفلاطون فقال بأن النفس هي جوهر الحياة. . وقسم النفس إلى ثلاثة أقسام: النفس الغضبية، والنفس الشهوانية، والنفس العاقلة. إلَّا أن هذه الأقسام تشكل في النهاية وحدة موحدة، أي أن النفس واحدة وإن تعددت قواها أو اتجاهاتها. وهي جوهر باقٍ، خالد لا يفنى أبداً. ولذلك اعتقد أفلاطون بالتقمّص أي بعودة الروح إلى جسد ما. وهذه العودة تُفرض على النفس، بصورة دائمة، كلما فني الجسد الذي كانت فيه من قبل. .

وبعد أفلاطون، أنشأ تلميذُهُ أرسطو مذهباً منظماً عن النفس. وقد

اعتبر أن النفس جزء من علم الطبيعة. وقال إن العقل هو الأصل، وهو مبدأ الحياة في الإنسان. وعن هذا العقل تصدر الظواهر النفسية جميعها.

هذه لمحة سريعة وخاطفة عن معتقدات فلاسفة اليونـان في النفس. وسوف يكون على هذا النمط نهجنا في هذا الكتاب، بحيث لا نتوخى إلَّا الإلمام السريع بمختلف النـظريات أو المـدارس أو المناهج التي قام عليها علم النفس من قبل ومن بعدُ، لأن غايتنا هي معرفة النفس الإنسانية، من مصدرها الحقيقي، من ينبوعها الصافي والأصيل، من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ولذلك لا نجد حاجة في الاقتباس من أي مصدر آخر، ومن أي ناحية أتى، أو التوسع في مفاهيم علم النفس إلَّا بقدر ما يفرضه علينا البحث من وضع القارىء الكريم في الجو الفكري السائد، وذلك بصورة جزئية وقليلة جداً، تمهيداً لنقله إلى المفاهيم الصحيحة عن النفس الإنسانية.

النفس عند فلاسفة العرب

لقد تأثر فلاسفة العرب بالفلسفة اليونانية إلى حدٍ بعيد، بل كانت أبحـاثهم الفلسفية تستقي من مختلف نـظريات الفـلاسفة اليـونان، فتماشيها أو تزيد عليها، ومن ثَمَّ تتخذ منهجاً خاصاً في محاولة توفيقية ما بين الفكر اليوناني والفكر الإسلامي. ذلك أن ما جاء به القرآن الكـريم من آيات تتحـدث عن النفس، وما انتهت إليـه أحـاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حولها، جعلت أولئك الفلاسفة يكوِّنون مفاهيم جديدة عن النفس وخاصة فيما يعود إلى مصيرها بعد هذه الحياة الدنيا، باعتبارها محل الثواب والعقاب في الآخرة.

وقد بحث معظم فلاسفة العرب في النفس، ولا سيما الفارابي وابن سينا. ولكن آراء ابن سينا تبقى ذات الشأن الأهم، نظراً لما أحدثت من تأثير في الفكر الأوروبي، ولا سيما إبّان القرون الوسطى. ولذا سوف نكتفي هنا ببعض ما ذهب إليه ابن سينا حول النفس، بصورة مختصرة كثيراً، تكاد تكون أقرب للإشارة منها إلى تبيان أفكار هذا الفيلسوف العربي.

إن أول ما قام به ابن سينا هو التدليل أو البرهان على إثبات وجود النفس. وبراهينه كانت التالية:

١ ـ البرهان الطبيعي، الذي يدل على أن الحركة في الجسم تأتي من شيء. وهذا الشيء هو النفس.

٢ ـ خصائص الإنسان التي لا توجد عند الحيوان، كالنطق، والانفعالات من ضحك أو بكاء أو خجل.. وهي خصائص موجودة فيه بسبب النفس التي لديه.

٣ ـ برهان الاستمرار ويعني أن النفس ثابتة ومستمرة، بينما البدن في تحلل وانتقاص. ولذا فالنفس مغايرة للبدن.

٤ ـ برهان وحدة النفس: إن وظائف النفس عديدة، مختلفة، وتنتفع من بعضها بعضاً. ولكن النفس مع ذلك واحدة، جامعة، تنظّم جميع تلك الوظائف وتربط فيما بينها بما يؤلف في النهاية وحدة متماسكة.

٥ ـ برهان الرجل الطائر: ويقضي هذا البرهان بافتراض لو أن «الإنسان خلق دفعة واحدة وخلق كاملاً، وهو يهوي في هواء أو خلاء هوياً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدماً... وفرّق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تُقَسْ.. لا يثبت هذا الرجل طرفاً من أعضائه، ولا باطناً من

أحشائه، ولا قلباً، ولا دماغاً ولا شيئاً من الأشياء من خارج، ولا يثبت لها طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً، بل كان يثبت ذاته ولو أمكنه في تلك الحالة أن يتخيل يداً أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطاً في ذاته».

ويقول ابن سينا إن النفس جوهر مغاير للجسم، وهي تستطيع أن تكون بدون بدن، ولكنها لا تكون قبله بل توجد معه. من أجل ذلك تبقى ولا تفنى بفناء الجسد. وهي واحدة بالنوع ولكنها كثيرة بالعدد.

والنفس عند ابن سينا ثلاثة أقسام:

١ ـ النفس النباتية وهي «كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد ويربو ويتغذى».

٢ ـ النفس الحيوانية وهي محركة (شهوانية وغضبية) ومدركة. ومنها المفكرة، الوهمية، الحافظة، الذاكرة...

٣ ـ النفس الإنسانية وهي عاملة (العقل العملي) وعاقلة (العقل النظري).

وتتم المعرفة في النفس، إما بالإدراك الحسي الظاهر أي عن طريق الحواس الخمس: السمع، البصر، الشم، اللمس والذوق، وإما بالإدراك الحسي الباطن، ومركزه الدماغ، أي الإدراك العقلي (العقل ووظيفته).

وقد كان لآراء ابن سينا في النفس آثار هامة في الشرق والغرب، ومنها على سبيل المثال: نظرية الحدس، التي قال بها فيما بعد برغسون. وبرهان الرجل الطائر وهو قريب من استنتاج ديكارت: «أنا أفكر فإذن أنا موجود». وإيمانه بأن لبعض النفوس تأثيراً في أجسام

الآخرين أي قدرة على تحريك هذه الأجسام. . إلى ما هنالك من آراء وأفكار أخرى لابن سينا ما تزال أبحاث علم النفس الحديثة تأخذ بكثير منها.

النفس في فلسفة القرون الوسطى

ظهر في القرون الوسطى بعض الفلاسفة اللاهوتيين. وكانت مناقشاتهم في أكثرها تدول حول طبيعة السيد المسيح بن مريم (عليهما السلام) من الناحيتين اللاهوتية والناسوتية وما ينبثق عن ذلك من مفاهيم روحية. .

وإلى جانب اللاهوتيين برز فلاسفة آخرون كانت لهم اتجاهات متعددة في الفلسفة. ويرى كثيرون أن الفلسفة الحديثة بدأت مع ديكارت صاحب النزعة الميكانيكية والنزعة الذاتية في تفسيره للإنسان.

لقد ميّز ديكارت ما بين النفس والبدن، وأعطى الأهمية الأولى للعقل، معتبراً أن المعرفة ـ وهي من نتاج العقل ـ إنما تتم بواسطة النفس. أما البدن فيقوم بالحركة الآلية، المتغيرة، المتبدلة. وعلى هذا فإن ما هو في النفس يكون روحانياً، بينما كل ما هو في البدن يكون حركياً، وقد يكون غامضاً. تلك هي الثنائية ـ ما بين النفس والجسد ـ التي أخذ بها ديكارت. وقد ظلت آراؤه سائدة حتى عهد قريب، حين رفضتها المدارس النفسية المعاصرة التي تنادي بوحدة الإنسان ككل، غير قابل للتجزئة. إلّا أن تأثير ديكارت في الفلسفة، برز في دعوته للبحث المنهجي، الحر، القائم على الشك. وقد مهد الطريق في مجال بحوث النفس أمام غيره من الفلاسفة، ولا سيما «لوك» و «كونديلاك» اللذين قالا بالمذهب الترابطي أو مذهب تداعي المعاني، بمعنى أن الفكر هو عبارة عن ترابط معانٍ، وهذا الترابط يحصل بشكل

تلقائي. وعلى ذلك فالإدراك يكون عبارة عن مجموعة من الأحاسيس، التي يشكل كل واحد منها جزءاً من هذه المجموعة. فيكون الإدراك، بمختلف أجزائه ـ أحاسيسه ـ هو الذي ينتج العمليات الذهنية العليا، والأفكار المعقدة، مع ما يطرأ عليها من تحولات وما تُقدم من نماذج.

وبعد المذهب الترابطي، نادى «دي بيران» بفلسفة مادية طبيعية، واستعمل في مجال علم النفس، منهج الاستبطان وذلك من خلال تحليله «للأنا» التي تدرك بالجهد الإرادي وحده: «أنا أريد، فإذن أنا موجود». وقد كان للأخلاق والدين مكان بارز في آراء هذا الفيلسوف، إذ كان يؤمن بأن الدين قادر على أن يحل كل مشكلة يمكن أن تطرحها الفلسفة...

ثم جاءت، فيما بعد، الفلسفة المعروفة بالانتقائية التي تجمع وتؤالف ـ بشكل منهجي ـ بين مختلف الآراء والأفكار والنظريات التي توافقها، مهما كان مصدرها وأياً كان المذهب الفكري الذي تنتمي إليه. وقد حمل أصحاب هذه الفلسفة لواء التعليم والثقافة ونقلوه إلى أوائل هذا القرن الذي حفل بأبحاث متقدمة في مجال علم النفس.

علم النفس كعلم مستقل

عرفنا أن أصل «علم النفس» يعود إلى اللفظتين اليونانيتين: روح وعلم. ولكنه في اللغات الأوروبية اتخذ التسمية التي جرى تعريبها بكلمة «السيكولوجيا». والاستعمال النهائي «للسيكولوجيا» يعود إلى العالم الألماني (كريستيان وولف wolf) في المؤلفات التي كتبها. وقد ظلت قليلة الاستعمال في القرن الثامن عشر، حتى اعتمدها (كانت) في أبحاثه، فانتشرت وأصبحت سائدة في جميع أبحاث علم النفس. وقد جهد «علم النفس» ـ إبّان القرن التاسع عشر ـ في أنْ يستقل عن

الفلسفة، وأن يكوِّن لنفسه منهجاً خاصاً. فراحت المجلات الباحثة في علم النفس تتكاثر تدريجياً في ألمانيا وفرنسا وأميركا، وتزداد معها المـؤلفات والدراسات في هذا الحـقل حتى أواخر القـرن التاسع عشـر حيث أنشيء أول مختبر لـ«علم النفس» في ليبتسـغ (عـام ١٨٧٩). وظلت أبحاث علم النفس تزداد وبشكل ملحوظ حتى حلّ القرن العشرون، فإذا بـ«علم النفس» قد شقَّ طريقه كسائر العلوم الأخرى، واستقل عن الفلسفة كعلم خاص له مناهجه وقوانينه ومجالاته الخاصة به وحده. حتى أن أحدهم عبَّر عن ذلك بقوله: «لقد صارت سائر العقول المستقيمة متفقة اليوم ـ عام ١٩٠٣ ـ على الإقرار بأن «علم النفس» هــو علم على ذات الـدرجـة التي هي للفيـزيـاء والفيزيولوجيا.

المنهج الحقيقي في معرفة النفس

يجب علينا، قبل الخوض في مناهج البحث في علم النفس، أن نحدد المنهج الحقيقي للمفاهيم الأساسية في معرفة النفس الإنسانية. وذلك أن معالجة هذا الموضوع لا يمكن أن تخضع للمنهج الغربي الذي يهددها بالوقوع في الاجتهاد الذاتي، والتأويلات الفردية النابعة من الهوى والظن.. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا . . .﴾[1].

وتتضح المفاهيم النفسية الأساسية من خلال المنظور القرآني لمعرفة حقيقة النفس الإنسانية، وليس من خلال فكرة الصراع وتكوين الشخصية في السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل. ولا من خلال فكرة اللاشعور التي جعل منها اليهود ضربة موجهة لعقل الإنسان وإرادته الواعية. ولا من خلال قدرِية الحتمية النفسية التي جعلها علم النفس الغربي ميراثاً مفروضاً وقدراً محتوماً لا يستطيع الإنسان منه خلاصاً.

---

(١) النجم: ٢٨.

لقد اتضح أن معظم علماء النفس الغربيين لا يدرسون معرفة النفس، وإنما يدرسون السلوك النفسي فحسب، ولهذا فإن معارفهم، حول حقيقة النفس الإنسانية وأوصافها وخصائصها، هي مجرد دراسةٍ سطحيّةٍ للمظاهر النفسية قامت على التخمينات والاجتهادات الذاتية..

أما مجال التعرّف على النفس الإنسانية فيُستقى من كتاب الله تعالى ومن هدى النبوة الشريفة. وشتان بين نبع الحكمة الإلٰهي وبين شطحات الفكر الذاتي. فحين يقول، عزّ من قائل: ﴿ونفسٍ وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها﴾. ينبري أصحاب مدرسة الشخصية والتحليل النفسيّ، وعلى رأسهم «فرويد» ليعلنوا أنَّ القانون الذي يحكم دنيا النفس هو قانون الغاب الذي يقرر: إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب.

المصطلحات النفسية:

يذهب البعض إلى إنكار أهمية المصطلحات، ويرددون عبارةً اشتهرت كثيراً وهي: لا مشاحة في الاصطلاح. لكن هذا القول مرفوض من جانب المفكرين بشكل قاطع. فالمصطلح هو المرحلة الأخيرة لاستقرار دلالة معينة في الأذهان. وبناء عليه فإذا كان هذا المصطلح ينطوي على خلل معيّن في التصورات انتقل هذا الخلل إلى بقية المفاهيم.

وإننا نتعرَّض لمصطلحين في علم النفس الإسلامي مع مقارنتهما بما يقابلهما في علم النفس الغربي، وبذلك يتضح الفارق بين المفهومين.

١ - الكبت يقابله في الإسلام مصطلح: الكظم

بالرغم من أن النظريات الجديدة في علم النفس لم تعترف

بالجانب اللاشعوري وأغفلته تماماً في أبحاثها فإن مصطلح «الكبت» ظل مستخدماً في كتابات العديد من المفكرين الغربيين والمستغربين، وهو يعني لديهم بأن الإنسان مغلوبٌ على أمره، وأن الحتمية النفسية هي قدره المحتوم. والكبت عند الغربيين هو مصطلح نفسي حديث. وهو عمل لا شعوري تلقائي مشتق من كبت الغيظ. تقول: كبت فلان غيظه في قلبه، أي لم يخرجه.

أما الكظم في المفهوم الإسلامي فهو القدرة على الإمساك بالهيجان النفسيّ من غضب وثورة وأذى، وصاحبه يكون في موقف اختيار. فحينما يكظم غيظه يختار الأفضل والأصلح. وهنا يكون فعل الكظم واقعاً عن وعي الفرد وليس ناشئاً عن الكبت النفسي الذي يقول به علماء الغرب. وأما لفظ الكبت كما جاء في القرآن الكريم فهو مصدر لكبت، يقال: كبت الله العدوَّ أي أذلَّهُ وأخزاه. قال تعالى: ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1] أي كما أُذِلَّ وأُخزيَ الذين من قبلهم وقال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾[2] أي يُذلهم ويُخزيهم.

٢ ـ الحتمية يقابلها في الإسلام مصطلح: الفطرة.

ظهر مصطلح الحتمية بشكل واضح في علوم الميكانيكا، ثم انتقل إلى العلوم الإنسانية كالأخلاق والتاريخ وعلم النفس.

إن مصطلح الحتمية يقرر بأن السّلوك يخضع، وفقاً لعلم النفس

---

(١) المجادلة: ٥.

(٢) آل عمران: ١٢٧.

الغربي، للتكوين الطفولي في السنوات الخمس الأولى من حياة الإنسان.

إن البديل لمصطلح (الحتمية) هو مصطلح (الفطرة). وهذا الأخير هو أفضل وأشمل. فالفطرة موجودة في الإنسان كما هي موجودة في الناموس الكوني. يقول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1]. ويقول عزّ من قائل: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

هذه الفطرة المشار إليها في الآيتين الكريمتين تسمح بتجاوز مفهوم الحتمية في ما يتعلق بالسلوك البشري، فهي لا تلتزم بقواعده التعسفية التي تجبر الإنسان على سلوكٍ معيّن، بل هي تفتح باب الالتجاء إلى الله تعالى والسير على صراطه المستقيم. فهو - سبحانه - الذي يقبل التوبة عن عباده، ويجعل منها ميلاداً جديداً يجبُّ ما قبله، ليرجع الإنسان بعدها إلى الاستقامة والصلاح.

وانطلاقاً من هذين المصطلحين نقول للذين يكتبون أو يحاضرون في علم النفس عليهم أنْ يتحققوا من المصطلحات الإسلامية أولاً ثم يعودوا إلى المصطلحات الغربية حتى لا يقعوا في متاهات المصطلحات التي تتنافى مع الواقع وتكون في أكثر الأحيان غير مطابقة لمدلولاتها.

مناهج البحث في علم النفس

إن مناهج البحث في «علم النفس» كثيرة ومتنوعة، لأن هذه المناهج من وضع الإنسان، والإنسان لا يستطيع أن يحيط بمعرفة النفس من جميع جوانبها.

---

(1) الروم: ٣٠. (2) الأنعام: ١٤.

وعلم النفس ليس من العلوم الطبيعية أو العلـوم الماديـة التي تخضع لقوانين معينة، وقواعد محددة، بل هو علم يتناول الإنسان في أعماقه، وفي سلوكه الخارجي، مما يجعل من العسير وضع معايير ثابتة تحدده، وتضعه في أطر ودوائر مرسومة، أو ضمن مقاييس تحدد درجة انفعالاته النفسية.. وقد يكون ممكناً مراقبة السلوك الخارجي للإنسان ومعرفة اتجاهات صاحبه، ولكن المعرفة للسلوك الخارجي تكون محدودة، ومتغيرة من إنسان لآخر. أما سبر أغوار النفس، والوقوف على أسرارها فمن الصعب جداً ـ إن لم يكن من المستحيل ـ بلوغهما وفقاً للمعايير الفكرية التي يضعها الناس، أياً كانت اختصاصاتهم ومداركهم، ومهما بلغت من العمق أو القوة.. ذلك أن الجوهر النفساني، بنظرنا، هو من الأسرار المتعلقة بخلق الإنسان، وتكوينه من جسد وروح ونفس. فالله تعالى خلق الجسم الإنساني، ثم أمدَّه بالروح ـ بنفخة منه سبحانه ـ ثم جعل النفس، بعد الجسد والروح، لتكون محلاً للاكتساب والمعرفة والإدراك والانفعال... وقد انفرد ـ سبحانه ـ وحدَهُ بمعرفة دقائق خلق الإنسان، ولا سيما بروحه ونفسه، فلا يمكن إذن للعقل البشري أن يحيط بمكنونات هذا الخلق على حقيقته. من هنا نجد تلك التعددية في مذاهب «علم النفس» ومناهجه، وكثرة الآراء والتشعبات في نظرياته، حتى لنرى المدرسة الواحدة تتبع نظريات عدة ومختلفة، بل وربما ـ أحياناً ـ متناقضة فيما بينها، مما يؤكد نظرتنا إلى صعوبة معرفة النفس الإنسانية، من خلال ما هو قائم اليوم من نظريات ومناهج كنظرية الحدس، أو نظرية الاستبطان، أو المدارس الذاتية أو المناهج التجريبية السلوكية... بل إن الغرب ـ وذلك منتهى الخطأ ـ يحاول أن يقيس الإنسان على الحيوان، فأنشأ علماً خاصاً سماه «علم نفس الحيوان»، إلى جانب علم النفس البيولوجي، وعلم النفس

الاجتماعي، وعلم النفس التربوي... الخ...

ونظراً لتلك التعددية ـ التي لا تقع تحت حصر ـ ليس من الحكمة في بحثنا هذا التعرض لمدارس «علم النفس» وتسمياتها، وتعدادها، ومناهجها، وطرقها، وأساليبها في العمل.. بل سنكتفي بجولة فكرية عامة، مختصرة إلى أقصى حد، تبين منطلقات أو ركائز «علم النفس» في المعرفة، والمناهج الكبرى أو الاتجاهات الرئيسية التي اعتمدها هذا العلم للوصول إلى الغايات التي يهدف إليها.. وذلك يكون أجدى نفعاً وأبقى أثراً.

ويمكن القول بأن علم النفس ـ كعلم موضوعي مثل سائر العلوم الأخرى كما يذهب إليه العاملون فيه والداعون إليه ـ قد اتخذ، منذ بداية هذا العصر، عدة وجوه لاهتماماته، وكان أبرزها الاتجاهات الذاتية والموضوعية، والاتجاهات التجريبية، والاتجاهات العيادية، حتى ظهر أخيراً الاتجاه القائل بالتوفيق أو التوحيد ما بين المنهجين الأَسَاسِيَّيْنِ: التجريبي والعيادي.

الاتجاهات الذاتية والموضوعية

اتخذت هذه الاتجاهات وجهين رئيسيين:

الأول: يقوم على دراسة الظواهر النفسية، لاستخراج نماذج عامة (كما يفعل علماء النبات والحيوان الذين يقسمون النباتات والحيوانات إلى أجناس وأنواع محددة). ومن أجل ذلك يتم تجميع الظواهر النفسية المتشابهة، وتصنيفها في زمرٍ أو مجموعات، تكون لكل مجموعة منها مواصفات محددة ومتجانسة ومتقاربة إلى أبعد

الحدود. وانطلاقاً من هذه المجموعات يتم تأليف نماذج نفسية، وأنواع خلقية، وطبائع وسجايا كلية. على أنه يقتضي لذلك البحث عن منشأ الطبائع والسجايا، وعن العوامل التي تؤثر في تكوينها. وهذا ما يعرف بـ «علم الأثولوجيا» أو علم الأخلاق والعادات، كما ذهب إليه ستيوارت ميل.

الثاني: وهو لا يكتفي بتأليف النماذج النفسية العامة، أو الأنواع الخلقية، أو الطبائع والسجايا العامة التي توجد في النفس الإنسانية، بل يحاول كشف القوانين العامة التي تخضع لها تلك الظواهر النفسية. أي أنه يحاول أن يضع قوانين نفسية كما يفعل علم الحياة (الفيزيولوجيا) الخاص بالحيوان والنبات وذلك من خلال بحثه في وظائف الحياة العامة.

وعلى هذا فإن «علم النفس»، وهو يشمل جميع الطبائع، والأنواع الخلقية العامة، يعمل على البحث في الوظائف النفسية، والتفاعلات الذهنية، توخياً لكشف قوانينها العامة. وبذلك تكون غاية «علم النفس» الوصول إلى معرفة العلاقات الثابتة التي تربط مختلف التفاعلات النفسية ببعضها بعضاً، وذلك عن طريق القوانين التي توضع لها، طالما أن الظواهر النفسية ـ بحسب هذا الاتجاه ـ تخضع لقوانين خاصة بها، تماماً كما تخضع الظواهر الطبيعية للقوانين العائدة لها.

ويذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن «علم الأخلاق والعادات» ذاته إنما يحتاج إلى هذه السيكولوجيا القائمة على دراسة الظواهر النفسية وقوانينها، لأن تحديد الأنواع النفسية لا يمكن أن يحصل إلا إذا عرفت قوانين الظواهر النفسية. ويدللون على ذلك بأن علم الفيزيولوجيا لم يتوصل إلى تصنيف الموجودات الحيَّة، بصورة طبيعية

ومعقولة، إلا بعد أن تقدم أشواطاً بعيدة في معرفة ماهية الحياة، ووظائف الأعضاء.

النظرية الذاتية

إلَّا أن ذاك الاتجاه القائم على مقارنة «علم النفس» بسائر العلوم الطبيعية الأخرى ـ كالفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها ـ دحضه الفلاسفة المعروفون بفلاسفة التجربة، والذين أمكنهم فصل علم النفس عن الروحانيات وعوالم ما بعد الطبيعة، وذلك عندما قرروا تأسيس علم النفس على الملاحظة وعلى الاستقصاء الذاتي في البحث، بحيث يرجع العالم ـ وفق الطريقة الذاتية ـ إلى نفسه، فيصف ما يجري فيها من أحوال داخلية، ويصوغ على أساس تلك الملاحظة، وفي ضوء التقصّي الذاتي، نظريته في علم النفس، أي ما أمكنه الوصول إليه من أفكار وفق تجاربه الذاتية..

وقد اعتمدت الطريقة الذاتية على التحليل النفسي، وذلك بإرجاع الحياة النفسية إلى عناصرها الأولى.. ومن أشهر القائلين بالنظرية الذاتية «جيمس ميل» و«ستيوارت ميل».

النظرية الموضوعية

ومقابل النظرية الذاتية وجدت النظرية الموضوعية، وعلماء التاريخ الطبيعي هم أصحاب هذه النظرية. ذلك أنه من خلال دراستهم للحيوان، قاموا بوصف طبائع الحيوانات وغرائزها، ثم قابلوها بعادات الإنسان وسلوكه، ليصلوا بالتالي إلى تأسيس ما عرف بـ«السيكولوجيا المقارنة».

وقد اتسمت طريقتهم في البحث بالصفة الموضوعية الخارجية، أي نقيض الطريقة الذاتية. وذلك بعدما اعتبروا أن هذه الطريقة الذاتية الداخلية من شأنها أن تنسب للحيوان بعض الصفات الإنسانية، في حين أن شعور الحيوان غير معروف بماهيته وحقيقته، والنفاذ إليه غير ممكن، ولذلك تفادوا البحث في أحوال الحيوان الداخلية، مركِّزين على سلوكه الخارجي ومظاهر غرائزه بما سموه «سيكولوجيا السلوك». وهي طريقة في البحث تؤدي إلى معرفة سلوك الحيوان، وردود فعله الناشئة عن تأثير العوامل الخارجية. وعن هذه الطريقة نشأت «المدرسة السلوكية» صاحبة السيكولوجيا الموضوعية.

أهم طرق علم النفس

وإلى جانب البحث النظري الصرف، فقد ابتدع علماء النفس طرائق عديدة لتوضيح نظرياتهم أو تركيزها على أسس جديدة. وأبرز تلك الطرق كانت: طريقة التنويم المغناطيسي، وطريقة التحليل النفسي. وهذه الطريقة الأخيرة أوجدها الطبيب النمساوي «سيمون فرويد». وقد توخّى من خلالها، وعن طريق التحليل النفسي، النفاذ إلى أعماق اللا شعور. أي إلى باطن النفس حيث لا يستطيع الإنسان، في أحواله العادية، أن يدرك ما يختزنه هذا الباطن في أعماقه، إلّا أن يُستخرج منه بدون وعي وبصورة لا شعورية. وكان تركيز «فرويد» منصبّاً على تشخيص الأمراض العقلية، وتحليل الأحلام، ودراسة التصرفات الخاطئة والأفعال اللا إرادية.. وجميعها تعتبر أحوالاً نفسية خفية من شأنها أن تؤدي إلى إحداث الاضطرابات النفسية.

ورغم الشهرة التي لقيتها الطريقة الفرويدية في مجالات علم

النفس، ومثلها طريقة التنويم المغناطيسي، إلاَّ أن الأبحاث والتجارب قد أثبتت، فيما بعد، عدم قدرة كل من هاتين الطريقتين على معرفة حقيقة الأحوال النفسية، لا سيما بعدما ثبت بالبرهان عدم نجاحهما في التطبيق العملي، حيث تبين أن التنويم المغناطيسي ـ مثلاً ـ لا يؤثـر في جميع الأشخاص على حـد سواء، بل هنالك أشخاص لا يمكن تنويمهم مغناطيسياً أبداً، كما أثبت ذلك فرويد نفسه. وقد اتبع فرويد هذا الأسلوب لفترة من الزمن ثم تخلى عنه لعدم جدواه، كي يعتمد طريقة «التداعي الحر» وهي الطريقة التي يستلقي فيها المريض على أريكة، ويتولى الباحث أو الطبيب النفساني تشجيعه على التعبير عن كل ما يدور في ذهنه، كما يطلب إليه أن يتحدث عن أحلامه، وفي أثناء ذلـك يدوِّن الملاحـظات والبيانات التي يعـود من ثمَّ فيحللها في بحثه عن الرغبات والمخاوف، والأفكار والذكريات التي تكمن في داخل المريض بعيداً عن شعوره ووعيه بها. هذا ما ذهب إليه «فرويد» أخيراً.

وحتى طريقة التحليل النفسي تلك التي اتبعها (فرويد) فإنها لا تؤدي إلى النتائج المرجوة في معالجة النفس البشرية، طالما هنالك ابتعاد عن حقيقة هذه النفس، وعدم معرفتها عن طريق المصدر الوحيد الذي أوجدها، وهو الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ. وهذا ما يجعل جميع أبحاث (فرويد) القائمة على «اللا شعور» واهية من أساسها لا سيما وأن الشعور في الحقيقة هو أول مرتبة في وصول النفس إلى المعنى. وهو مرادف للإحساس أي للإدراك بالحس الظاهر، والمشاعر هي الحواس. والشعور، في علم النفس، هو الحـدْس النفسي الذي نطّلع به على حالاتنا الداخلية. وبذلك يتبين أن وجود حالات نفسية

لا شعورية محال، بل إن اللا شعور يتناقض مع الشعور، لأن وجود أحدهما يلغي الآخر.

قد يكون للحياة اللا شعورية معنى من الوجهة الفيزيولوجية إذ لا يمنـع وجود شيء فيزيولوجي لا شعوري. أما من الوجهة النفسية فلا يعقل وجوده، لأنك لا تستطيع أن تتصور نفساً لا تشعر، أو عقلاً لا يعقل.

وإذا سلّمنا بنظرية اللا شعور وخلّوها من التناقض لم نسلَم من الاعتراض. فقد يقال لنا: كيف يمكن إدراك اللا شعور ومعرفته؟ فإما أن يكون اللاشعور نفسياً، وإما أن يكون غير نفسي. وهذا الأخير لا دخل له في بحثنا. فأما إذا كان نفسياً فإنه لا يدرك بالملاحظة الخارجية أو بالملاحظة الداخلية لأن آلة هذا الإدراك هي الشعور. وإذن فإن وجود الحالات اللا شعورية وعدم وجودها سِيّان.

هذا وقد عمدت بعض الاتجاهات إلى التفريق بين علم الأمراض النفسية، وعلم الأمراض العقلية، معتبرةً أن النوع الثاني هو أحد فروع علم الطب البيولوجي الذي يهتم بمعرفة الأمراض العقلية، وأسباب وجودها، وتطورها، وبيان طرق معالجتها، في حين أن علم الأمراض النفسية علم نظري مجـرد، يحلل الحوادث المـرضية ويبحث في علاقات الاضطرابات النفسية، ليضع لهـا ـ حسب زعمهم ـ طرائق العلاج الخاصة، كتلك التي تطبق في حقل الحالات المرضية.

بل ذهبـت بعض الأبحاث في علم النفس إلى القول بوجود سيكولوجيا شعبية، عفوية، يعتمد عليها الناس في حياتهم وعلاقاتهم. وهذه السيكولوجيا الشعبية هي مزيج من التجربة والملاحظة والاستنتاج،

ويستعملها رجل السياسة، كما يستعملها رجل الإدارة، أو التاجر أو القائد العسكري، الذين يكمن نجاحهم في مدى معرفتهم بأحوال مَنْ يتعاطون معهم، وفي إدراكهم لحالاتهم النفسية.

ويقال أيضاً ـ في هذا المجال ـ إن الحياة نفسها تقتضي أن يكون لدى كل إنسان إلمام بشيء من هذه السيكولوجيا الشعبية. ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك معتبراً أنه ربما كانت هذه السيكولوجيا هي وراء نجاح أولئك القادة، من السياسيين والعسكريين، الذين كانوا يستفيدون من الظروف، ويسخرونها لمصالحهم، لأنهم كانوا يعرفون «من أين تؤكل الكتف»، فيخاطبون جماهيرهم بما يثير في نفوسها الحماس، ويدفعها للانقياد إلى رغباتهم، وإطاعة أوامرهم...

وبالإضافة إلى تلك النظريات والطرق التي اتبعت في علم النفس، وجدت أيضاً المناهج، ولعل أكثرها انتشاراً المنهجان التجريبي والعيادي.

المنهج التجريبي

ويقوم على مراحل ثلاث: الملاحظة، وضع الفرضية، إجراء التجربة. وهذا المنهج استقرائي، أي أنه ينطلق من الحوادث ليبحث عن الأسباب، وينشىء من ثمة القوانين.. وقد يطرح فكرة فرضية ثم لا يلبث أن يعود إلى الحوادث لمراقبة تلك الفكرة والتحقق منها.

ويعتمد المنهج التجريبي، في مجالات دراسته، على التعلم والإدراك، حيث يجري تحديد الظروف، بدقة متناهية، لإجراء التجربة موضوع البحث أو الدراسة. وهو منهج ـ كما يدل عليه اسمه ـ يخضع

الإنسان للمراقبة والتجربة. غير أن المشكلة تكمن في هذا الإنسان ـ الذي هو موضوع البحث ـ هل يتقبل الظروف التي يوضع بها لإجراء التجربة عليه بنفس التفاعلات النفسية التي كان عليها قبل إدخاله تحت ظل هذه الظروف؟ وما مدى تجاوبه مع الباحث؟ وهل يقبل بأن يفشي له جميع أسراره، أو أن يطلعه على خفاياه ـ التي يعرفها على الأقل ـ فكيف بتلك التي تُعشّش في أعماقه، ويكون هو ذاته يجهلها؟ فما مدى نفع التجربة ـ إذن ـ في هذه الأحوال، وما القوانين التي يمكن أن يصوغها هذا المنهج التجريبي في معرفة النفس البشرية؟ فالإنسان ليس مادةً مختبرية مثل ورقة الشجرة أو مثل الحجر الصلب، أو القضيب من الحديد، التي يمكن تحليلها ومعرفة عناصرها التي تتكون منها. . . إنه بشر من لحم ودم، وكتلة من العواطف والانفعالات، والإرادة، والعقل، ومختلف العناصر أو العوامل المعنوية التي تكوّن شخصيته التي يتميز بها عن الآخرين، فكيف نجعله مادة للاختبار والتجربة، ونطبق عليه قوانين المختبرات والتجارب والتحاليل؟!.

المنهج العيادي

يقوم هذا المنهج على مراقبة سلوك الشخص، وما يصدر عنه من أقوال وأفعال، عندما يكون مستلقياً على سرير في عيادة، والطبيب النفساني أو الباحث بقربه، يحاول أن يؤانسه، وأن يدفعه إلى التعبير عما يجول في داخله، وفي الوقت ذاته يسجل كل ما يقوم به هذا الشخص. . وقد تطول الجلسات العيادية، ويطول تدوين الملاحظات، ليعود الطبيب أو المعالج من بعدها، لمطابقة نتائج اختباراته هذه على القوانين العامة الموضوعة. وهناك مقاييس ودرجات، يعمد بواسطتها إلى قياس هذا الشخص وتحديد ما يريد تحديده لديه: إن لناحية درجة

ذكائه، أو مدى تخلفه العقلي، أو قوة الاضطرابات النفسية عنده الخ . . .

ويطبق المنهج العيادي على المرضى من الناس وغير المرضى . . وهو يبحث في الحالات الفردية فقط، كحالة إنسان بالغ لمعرفة الاضطرابات التي تسيطر عليه، أو كحالة الطفل الذي يبدو أنه يعاني من مشكلة معينة.

وهكذا يتبين لنا أن الطريقة التي يتبعها المنهج العيادي تتأثر بدرجة كبيرة، بما هو معروف بالتحليل النفسي.

ومن المقارنة بين المنهجين التجريبي والعيادي، يمكن استخلاص ما يلي: إن المنهج التجريبي «يستخدم التجربة والقياس، ووسائل ضبط المتغيرات الرقمية، والصياغات الكمية، ويستعمل الملاحظات والآلات والمقاييس والاختبارات» . . أما المنهج العيادي (أو الإكلينيكي) فيقوم على العلاقة الحميمة بين الباحث (والمريض) وعلى تعميق دراسة حالة فردية يؤخذ فيها الفرد على أنه وحدة متكاملة بحدّ ذاته. مما يجعل المنهج التجريبي يتمتع بصفات أعم وأوسع وأشمل. وهو أقرب للموضوعية من المنهج العيادي الذي هو أقرب إلى الفردي والخاص، لأنه يهتم بدراسة فرد معين، ويتعمق بدراسة هذا الفرد.

ولا مجال للمفاضلة بين المنهجين، لأن كلاً منهما يذهب في مجال خاص به، يختلف عن مجال المنهج الآخر، وإن كان كل منهما يستفيد من النتائج التي يتوصل إليها الآخر. . أما من حيث القيمة العلمية، وفي مجال المعرفة، فيذهب كثيرون إلى اعتبار المنهج العيادي أرفع مستوىً من المنهج التجريبي.

المنهج التوفيقي أو نظرية «لاغاش»

يعتبر «لاغاش» أن تعدد مدارس علم النفس، أكان من حيث الموضوع، أو المنهج، أو القواعد التي تضعها كل مدرسة، إنما هو تعدد في الظاهر فقط، لأن جميع السيكولوجيات تستقي من مصدر واحد هو النفس البشرية. ولذلك رأى «لاغاش» أنه من الضروري توحيد علوم النفس، وإن كان يغلب عليها اتجاهان رئيسيان هما: الاتجاه الطبيعي والاتجاه الإنساني.

فأما الاتجاه الطبيعي فيتمثل بالمدرسة السلوكية. وعلى هذا، فقد بات واضحاً أن موضوع علم النفس حسب الاتجاه الطبيعي إنما يهتم «بدراسة السلوك بكل مباحثه الخارجية والداخلية أي دراسة ردود الفعل التي هي مادية». وتكون غاية هذا المنهج في النهاية صياغة قوانين مشابهة لقوانين الطبيعة، وإقامة علاقات تهدف إلى شرح الظواهر أي إعادتها إلى المكوّنات والعناصر والأسباب الابتدائية الأولى.

وأما الاتجاه الإنساني، فهو عكس الاتجاه الطبيعي، يأخذ الأحداث النفسية على أنها حالات وعي، أو تجارب معاشة أو تعبيرات... فيكون بالتالي موضوع علم النفس غير مرتكز على السلوك الملاحظ بل على السلوك المُعاش، أو الوجود المُعاش...

ويعتبر «لاغاش» أن كل مدرسة من مدارس علم النفس تأخذ بالاتجاهين معاً، لتداخلهما مع بعضهما بعضاً، ولا تتفرَّد باعتماد اتجاه واحد فقط، من هنا دعوته إلى توحيد الاتجاهين. وهذا ما يؤدي - بنظره - إلى وجود «علم نفس واحد» لا علوم نفس متعددة.. وإذا ما وجدت متفرعات لعلم النفس الواحد، فهي جميعها تأخذ من بعضها،

وتتداخل بشكل قوي لتعود وتصبّ كلها في الاتجاهين: الطبيعي والإنساني. وكل من هذين الاتجاهين يتمتع بمحتوى متحرك، غير جامد، ويتطابق في العمل مع الطريقة التجريبية والطريقة العيادية. وذلك كله يُظهر أن هاتين الطريقتين لا تستغني إحداهما عن الأخرى، بل إنهما تتكاملان، لأن الغرض في النهاية هو دراسة التصرف الإنساني بكليته، أي دراسة الإنسان ككل واحد لا يتجزأ..

وقد يكون «لاغاش» ذهب بعيداً في نزعته التوفيقية هذه. لأن الأسس التي يقوم عليها المنهج التجريبي ليست هي ذاتها الأسس التي يقوم عليها المنهج العيادي، بل إن الفصل بين المنهجين في الأساليب والطرق هو أبعد بكثير مما ذهب إليه «لاغاش». ثم إن واقع علوم النفس تثبت، كما قلنا، اختلاف المدارس، وتعدد المناهج، وتنوع الطرق، فلا يمكن بالتالي اعتماد ذلك التوحيد مع وجود الاختلافات والتناقضات فيها..

تلك لمحات وجيزة عما ذهبت إليه «علوم النفس» بنظريّاتها ومذاهبها المتعددة..

نظرة في علوم النفس والاجتماع والتربية

أما نحن، فإننا نرى عكس ما يراه الغرب، في محاولاته و«علومه» لمعرفة النفس الإنسانية. فعندما نأخذ بتعاليم القرآن الكريم، وبالأحاديث النبوية الشريفة، كحقائق مطلقة - في كل شيء - تتكون لدينا معرفة تختلف عن معرفة الغرب حول طرائق التفكير والتصور.. إن الغرب وأتباعه، في مناهجهم الفكرية، يحاولون فهم سلوك الإنسان وفقاً لقوانين ومقاييس اصطناعية، وبحسب اختبارات وتجارب معملية مادية صِرفة.. بل كثيراً ما يقيسون السلوك الإنساني على ردود فعل

الحيوان بعد إجراء التجارب عليه، ولا سيما الحيوان الضعيف كالفأر والأرنب. وكل ذلك لصياغة تلك النظريات المترجرجة، والتصورات الخاطئة التي لا تلامس حقيقة خلق الإنسان من جسد وروح ونفس، والتي هي أبعد ما تكون عن معرفة النفس الإنسانية على حقيقتها، حتى صار يظهر لدى الناس ـ من جراء تلك النظريات والتصورات ـ تشابكٌ بين الأفكار المستمدَّة من الطريقةِ العقليةِ، وبين الأفكارِ المستمدّةِ منَ الطريقةِ العلميةِ التجريبية. ونظراً لهذا التشابكِ فإنهم يعتبرونَ أبحاثهم ودراساتهم حول النفس أو الاجتماع أو التربيةِ علوماً، ويعتبرونَ أفكارَها علميةً. لأنها قامَتْ على ملاحظات جرَى تتبّعها على الأطفالِ في ظروف مختلفة، أو على أعمال مختلفة لأشخاصٍ مختلفينَ في ظروفٍ مختلفةٍ، فسمّوا تكرارَ هذه الملاحظات تجاربَ. والحقيقةُ أنّ أفكارَ علومِ النفسِ، أو الاجتماعِ، أو التربيةِ، لَيْسَتْ أفكاراً علمية، لأنّ التجاربَ العلميةَ تقوم على إخضاع المادّةِ لظروفٍ وعواملَ غير ظروفها وعوامِلِها الأصليةِ، وملاحظة أثر هذا الإخضاع وتتبّع نتائجه كما يحصل في تجارب الفيزياء، أو الكيمياء، أو غيرها من التجارب على شتى أشياء الطبيعة وموجوداتها...

هذا في حين أن ملاحظةَ الإنسان في أوقات وأحوال مختلفة، كملاحظةِ الطّفل مثلاً في أحوال وأعمار مختلفة، وملاحظةِ الجماعات في بلدان وظروف مختلفة، لا يمكن أن تدخلَ في بحث التجارب العلميةِ، ولا تُعتبرُ طريقةً علميةً، بل تُعتبرُ ملاحظةً وتكرارَ ملاحظةٍ واستنتاجاً فحسب، ولذلك فهي طريقة عقلية. وعلى هذا فإنّ أفكار ما يسمى «علم النفس»، أو «علم الاجتماع»، أو «علوم التربية»، تعتبر أفكاراً عقلية، وتتخذ المفهوم الثقافي أكثر بكثير مما تتخذ المفهوم العلمي.

كما أنّ علومَ النفسِ والاجتماعِ والتربيةِ ـ وفقاً للمفاهيم السائدة ـ تعتبر من الأمور الظنية القابلة للخطأ، وليستْ مِنَ الأمورِ القطعيّةِ، لذلك لا يصحّ أن تُتّخذَ أساساً للحُكْمِ على الأشياءِ، ولا يجوزُ أن يُسْتَدَلّ بها على صحةِ الأشياءِ، أو عدمِ صحّتِهَا، لأنها ليستْ من قبيلِ الحقائقِ العلميةِ، أو القوانين العلمية، بَل هي معارف ظنّية. وهي، وإنْ تَمَّ التوصل إليها بالطريقةِ العقليةِ، إلا أنها ليستْ من قبيلِ الحكمِ بوجودِ الشيء، بلْ من قبيل الحكمِ على حقيقةِ الشيءِ. وهذا الحكمُ ظنيّ قطعاً، فيهِ قابليةُ الخطأ.

يضاف إلى ذلك أن هذه المعارفَ الثلاثَ المعروفة بعلوم النفسِ، والاجتماع، والتربية، إنما هي مبنيّة على أُسس مغلوطة، مما يجعل كثيراً من الأفكارِ التي تحتـويها أفكاراً مغلوطةً. فلو أخذنا مثلاً علمَ النفسِ لوجدناه مبنياً في جملتِه على نظرتِه للغرائز وللدماغ، لأنه يعتبر أنّ في الإنسان غرائزَ كثيرة، منها ما اكتُشِفَ ومنها ما لم يُكتشفْ. ولقد بنى علماءُ النفسِ على هذه النظرةِ للغرائزِ نظرياتٍ خاطئةً، فكان ذلكَ من الأسبابِ التي أدّتْ إلى الخطأ في كثيرٍ من الأفكارِ الموجودةِ في علم النفسِ. أمّا الدّماغُ، فعِلْمُ النفسِ يعتبرُهُ مُقَسّماً إلى مناطقَ، وكلّ منطقة لها قابليةٌ خاصّةٌ، وفي بعضِ الأدمغةِ قابلياتٌ ليستْ موجودةً في أدمغة أُخرى، وبناء على ذلكَ فإنّ بعضَ الناسِ فيهم قابليةٌ لفَهْم اللغات، وليس فيهم قابليةٌ لفَهْم الرياضيات، وبالعكس. وهكذا بُنيَتْ هذه النظرةُ الخاطئةُ على نظرّيات خاطئة.

والحقيقةُ فى هذا كلّه: أنّ المشاهدَ بالحسّ من تتبع الرّجع، أو ردِّ الفعلِ، يثبت أنّ في الإنسانِ طاقةً حيويّةً ذات مظهرين:

المظهر الأول: يَتَمَثّلُ في الحاجاتِ العضويّةِ، كالجوعِ والعطشِ وقضاءِ الحاجةِ.

المظهر الثاني: يتمثّلُ في الغرائز الثلاثِ: التدينِ، والنوعِ، وغريزةِ البقاءِ. وهذهِ الغرائزُ هيَ الشعور بالعجزِ، والشعورُ ببقاءِ النوعِ، والشعور ببقاء الذاتِ. ولا يوجدُ غيرُ ذلكَ. وما عدا هذا يكـونُ مظاهرَ لهذهِ الغرائزِ فقط.

أمّـا من ناحيةِ الدماغِ فالحقيقة أنّهُ واحدٌ، وأنّ تفاوتَ الأفكار واختلافَها تابعٌ لتفاوُتِ المحسوساتِ والمعلوماتِ السابقةِ واختلافها، ولقوّةِ الربطِ. ولا توجَدُ في دماغٍ قابليةٌ لا توجدُ في دماغٍ آخر، بل توجد في جميع الأدمغة قابلية التفكير في كلّ شيء. والأدمغةُ تتفاوتُ في قوةِ الرّبطِ وفي قوّةِ الإِحسَاسِ، كما تتفاوتُ الحواس الخمسُ قوّةً وضعفاً.

ولذلكَ يمكنُ إعطاءُ كلِّ فرْدٍ معلوماتٍ، ولديه قابليةٌ لهضمِها، ولا أساسَ لما جاءَ في علمِ النَّفسِ حول القابلياتِ في الأدمغة، كما مرّ سابقاً.

بناءً على ذلكَ فنظرة علمِ النفسِ للغرائز والدماغِ نظرةٌ خاطئة، أدّت إلى خطأ النظريّات التي بنيتْ على أساسها.

علم الاجتماع

أمّا علمُ الاجتماع فمبنيّ في جملتِه على نِظرتِه للفردِ والمجتمع. إنها نظرةٌ مبنيّةٌ على الفِطْرَةِ الفرديةِ، التي تنتقلُ من الفردِ إلى الأسرةِ، وإلى الجماعةِ، وإلى المجتمعِ، باعتبارِ أن المجتمعَ مكوّنٌ من أفرادٍ، ولهذا تَعتبرُ المجتمعاتِ منفصلةً، وما يصلحُ لمجتمعٍ لا يصلحُ لآخر. وبنى علماءُ الاجتماعِ على هذهِ النظرةِ نظريّاتٍ خاطئة، وكانَ ذلكَ هو السبب الرئيسيّ الذي أدّى إلى الخطأ في نظرياتِ علمِ الاجتماعِ.

وأمّا ما جاءَ في علمِ الاجتماعِ عنِ الجماعةِ من أنها أسرعُ إدراكاً للأمورِ وأقوى إثارةً للمشاعرِ منَ الفردِ الواحِدِ، فصحّةُ هذا القولِ لمْ تأتِ من ناحيةِ النظرةِ إلى المجتمعِ، وإنما أتَتْ منْ ناحية غلبةِ المعلوماتِ الكثيرةِ المتكرّرةِ على المعلوماتِ الفرديةِ.

وعلى هذا فكل ما بُنيَ على تلك النظرةِ إلى المجتمعِ فاسد، وما صحّ منهُ تأتي صحتهُ من كونِه ناتجاً عن سببٍ آخرَ. وهكذا فإنّ علمَ الاجتماعِ فاسدٌ، لأنّهُ مبنيّ على نظرةٍ فاسدةٍ.

علوم التربية

علومُ التربية مبنيّةٌ على «علم النفسِ» الذي قام على ملاحظة أحوال الأطفال وتحليلها ورصد أعمال الأفراد ومعرفة دوافعها، وهي متأثّرةٌ كذلك بنظريّات «علمِ الاجتماعِ» مما جعلَ الصحيحَ فيها يختلطُ بالفاسدِ، لأن ما بنيَ على علمِ النفسِ، وتأثّر بعلم الاجتماعِ هو فاسدٌ أيضاً.

وفسادُه أدّى إلى الوقوع في أفكارٍ تربويّةٍ فاسدةٍ، أدّتْ بدورها إلى فسادِ مناهج التعليمِ وطرقهِ. فاعتبارُ الطفل غيرَ قابلٍ لبعض العلومِ، وقابلاً للبعضِ الآخرِ هوَ اعتبارٌ فاسدٌ. ولذلكَ كانَ تقسيمُ التعليمِ إلى علميّ وأدبيّ يُعدّ تقسيماً فاسداً، مما أدّى إلى حرمانِ الكثيرينَ منْ تعلّمِ بعضِ العلومِ، أو حرمانِ غيرهم من مواصلةِ التعليمِ.

أمّا علوم التربية المبنيّة على ملاحظةِ أحوال الأطفالِ، وأعمالِ الأفرادِ في ظروفٍ مختلفةٍ، فإن ما كانَ منها موافقاً للواقع، كالتعب والراحة والنشاط الذهني وما شاكل ذلك، يُعتبر صحيحاً في جملته، وما كان غير موافق للواقع كتقسيم السنة إلى ثلاثة فصولٍ، وإعطاءِ أربعةِ

أشهرٍ عطلةً للتلميذ، والامتحانات وما شاكلها، فإنَّهُ خطأ في جملتهِ.

ومنْ هنا جاءَ خطأ النظرياتِ التربويةِ، وفسادُ علومِ التربيةِ في جملتها، ولا سيما ما بُنِيَ على علمِ النفسِ التقليدي، وتأثّرَ بعلمِ الاجتماعِ الظنّي.

وفي الموضوع الذي نعالجه في هذا الكتاب، أي موضوع معرفة النفس الإنسانية، لا نجد حاجةً للبحث في تفصيل تكوين الإنسان العضوي. ذلك أن تكوين هذا الإنسان، العظيم في خلقه، والمعقد في تركيبه، لم يُكتشف بعدُ من خواصّه إلّا القليل القليل، وبقي ما لم يكتشف منها ـ وهو الكثير ـ سرّاً مغلقاً لم تصل إليه علوم العصر حتى اليوم.

ولنأخذ مثلاً واحداً عن جزءٍ ماديّ من تكوين الإنسان: الدّماغ. فلو سألنا معظم المتخصصين في جراحة الدماغ: هل المعلومات التي تعرفونها عن الدماغ كافية وافية؟ هل هي كاملة تامة محيطة بموضوع الدماغ من كافة الوجوه؟ إذن لأجابوا: إننا لا نملك إلّا القليل من المعلومات في هذا الموضوع، وهي معلومات محدودة.

هذا بالنسبة لقدرة الإنسان على الإحاطة بكنه مادّةٍ ماثلةٍ بين يديه وهي الدماغ. وهي قدرة محدودة قاصرة. فكيف به بالنسبة لقدرته على الإحاطة بحقيقة النفس الإنسانية، وبما يعتمل في داخلها، والنفس ليست مادةً ماثلةً بين يديه أو واقعةً تحت حواسّه؟

تبارك الله الذي أحاط بكل شيء عِلْماً!..

أما السبب الرئيسي الذي أوقع تلك العلوم بما وقعت فيه من أخطاء فهو كونها تعيش في ظل ظروف وأوضاع فكرية وحياتية هي فاشلة في الأصل، كيف ذلك؟

فشل النظامين الرأسمالي والاشتراكي

إن كل الدلائل والتحاليل الموضوعية والواقعية تشير إلى فَشَل النظامين الاشتراكي والرأسمالي. . فالاتحاد السوفياتي حامل لواء النظام الاشتراكي الشيوعي لم يعد قادراً على إقناع الشعوب التي تدور في فلكه، أن تبقى على ما هي عليه من شظف العيش والتقشف، والحرمان من البحبوحة والرفاهية التي وعد بها النظام الاشتراكي دون أن يفيَ بوعده. والدليل على ذلك، ما يحدث في هذه الأيام من تغيّر جذريّ معادٍ للشيوعية، في أنظمة ألمانيا الشرقية، ورومانيا، وتشيكوسلوفاكيا، وقبلهما ـ بقليل ـ ما حدث في الصين وبولندا والمجر. كما أن رياح التغيير تجتاح اليوم جمهوريات روسيّا السوفياتية، في انقلاب جذري على الشيوعية التي بدأت تتهاوى من الداخل، وذلك برغم ادعاءات المنظِّرين والمدافعين عن النظام الذي ساد أوروبا الشرقية طيلة أجيال.

وليست الرأسمالية بنظام أفضل لبني البشر، فها هي تحكم على نفسها بنفسها أيضاً، ومن خلال البلد الذي يتزعّم محورها كله، ونعني به أميركا. فالشعب الأميركي الذي يمثل اثنين بالمائة (٢٪) من سكان العالم، يستهلك ستين بالمائة (٦٠٪) من مخدرات العالم، وذلك في ظل رأسمالية احتكارية، تسلب الفقير لتعطي الغني، وتبني الأمجاد على المؤامرات التي تحوكها لبلدان العالم الثالث، مستغلّة ثرواتها وخيراتها من أجل المصالح الحيوية لأميركا أو لبعض حلفائها في أوروبا. نعم لقد فشل النظام الرأسمالي في تحقيق سلامٍ نفسي، وتوازن مجتمعي لشعوب البلاد التي تخضع له، كما فشل النظام الاشتراكي في تأمين وفرة السلع الغذائية، وإشاعة أجواء الحرية. .

وفي ضوء هذه الأوضاع فإن القرن الحادي والعشرين سوف

يشهد ويلات أزمة قادمة ومؤكدة ستحل بالنظامين، وربما أتى بتغييرات من شأنها أن تقلب المقاييس الحاليّة رأساً على عقب، لتولّد نظاماً يكون جديراً بكرامة الإنسان..

وما اعتقادنا بحتمية هذا الانقلاب إلاَّ لأن غالبية الناس قد ارتمت في أحضان الرأسمالية أو الاشتراكية لفترات طويلة من الزمن، بعدت أثناءها بكليتها عن الله سبحانه وتعالى.. وانحازت الدول لهذه القوة أو تلك دون الانحياز إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ أو التفكير في النفوس البشرية التي تحكمها، والتي يقتضي أن توجهها نحو خالقها لتعبده وتشكره على ما وهبها من النعم والخيرات، حتى ضاعت نفوس الناس وصارت أسرى هذه الفوضى العارمة التي تعم الشرق والغرب.

وضياع النفس يعني ضياع الشخصية، وضياع الإنسان. ومن جراء هذا الضياع يتحول الإنسان إلى صورة مهزوزة لا تدرك قيمة النفس، ولا تفكر في مكرمة خلق الإنسان. فإلى متى يظل هذا العمى مسيطراً على البصائر، مقوِّضاً للقيم الدينية والمثل الإنسانية معاً؟!

ولم تصل الأحوال بالغرب والشرق إلى هذا الحد إلاَّ بسبب اتباع الطريقة العلمية في بحث كل شيء، والمغالاة في تقدير هذه الطريقة، وتطبيقها على شتى الأبحاث والمناهج لمختلف العلوم. من هنا كان المأزق الذي أوقع فيه الغرب نفسه وأوقع معه العالم الإسلامي، وذلك باعتماده مناهج للتفكير، في بحثه العلوم الإنسانية، لا تستقيم مع القيم الإنسانية، أو مع حقيقة الحياة والوجود الإنساني فيها.. بل لو نظرنا لأبعد من الواقع الحالي، لوجدنا أن مختلف المناهج التي استنَّها الناس لأنفسهم، قديماً وحديثاً، لم تستطع ـ وهذا طبيعي ـ مراعاة مختلف الاعتبارات في النفس الإنسانية، لكثرة تشعبها وتشابكها من

ناحية، وتناغمها وتناسقها من ناحية ثانية. ولا يقتصر هذا الأمر على النفس الإنسانية وحسب، بل يشمل الحياة البشرية كلها، في تاريخها الطويل الذي تقلبت فيه أفكارها على سبل الحياة ومناهجها بحيث كانت معادية في حقيقتها للحياة نفسها، وما ذلك إلّا لأن الناس، بابتداعهم تلك السبل والمناهج، لم يراعوا حق الله تعالى في خلقه وشؤون هذا الخلق..

وعليهِ فإن المنهاج الوحيد الذي يراعي مختلف اعتبارات الحياة، وشؤون الإنسان، هو منهاج الله تعالى. فقد خلق ـ سبحانه ـ الأرض وأوجد فيها الحياة، وخلقَ الإنسان على هذه الأرض، وأمدَّه ـ من جملة عطاياه ـ بقوة البصيرة التي تستجلي الحق والصواب، ثم أنزل له ـ من عليائه ـ رسالاتٍ تبين له المنهج القويم الذي يجب أن يسير عليه، فكان حتمياً أن يوافق هذا المنهج الوجود الإنساني، لأنه منزَّل من خالق الإنسان، وهو أعلم ـ سبحانه ـ بحقيقة تكوينه وفطرته، وبما أودعه من طاقات، وبما عليه القيام به من وظائف. فيكون منهج الله تعالى هو وحدَهُ القادر على تحقيق السلام النفسي، وتأمين التوازن الحياتي لهذا الإنسان عندما يمارس مختلف وجوه نشاطه من أجل خيره الفردي، وخير الجماعة، وخير البشرية كلها على حد سواء.. فأين منهج الخالق العظيم من هذه المناهج التي ابتكرها الإنسان، قديماً وحديثاً؟ إذ مهما بلغت هذه المناهج من التطور تبقى بعيدة عن المثل الأعلى. ولو أخذنا ما ابتكره الإنسان لمعرفة النفس الإنسانية، كمثال على منهجية تفكيره، لرأينا أن مختلف المناهج حول هذه النفس كانت تراوح بين الإفراط والتفريط، بين الكبت والتهور، بين تقييد الميول الفطرية أو إطلاق العنان لها بلا ضوابط ثابتة.

ولم تلتزم الجماعات البشرية جادّة الاعتدال في تاريخها الطويل،

ولم يقع التوازن في تصوراتها، وفي مختلف جوانب حياتها، إلاَّ عندما كانت تسْتقي من منهاج الدين الإلٓهي ومن ينابيعه الحقيقية، وقد اختارَ الله تعالى، العليم الحكيم، للناس كافة، الإسلامَ ديناً وعقيدة ومنهجاً للحياة، وختم به الرسالات السماوية، ليقيم الإنسانُ شريعة الله تعالى على الأرض، فتستقيم حينئذٍ الحياة الإنسانية على قواعدها الثابتة، وعلى صراطها المستقيم: تفكيراً وقولاً وفعلاً..

الطريقة العقلية هي الأساس

منهج الإسلام - إذن - هو منهج الحياة بلا ريب. ونجدُ هذا المنهج في القرآن الكريم، ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه، وقد أُنزل إلى الإنسان من ربِّه، ليعتمد هذا الإنسانُ الطريقةَ العقلية أساساً للتفكير، لأن القرآن نفسه سلك هذه الطريقة العقلية، أكان في إقامته البرهان، أم في بيانه الأحكام..

والأدلة على إقامة البرهان تبدو واضحة في هذه الآيات المباركة الكريمة: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾[1]. ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[2]. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[3]. وفي غير ذلك من الآيات القرآنية التي تأمر باستعمال الحواس لنقل الواقع، حتى يتم التوصل إلى النتائج الحقة.. وهذه الآيات تشير إلى الطريقة العقلية في إقامة البرهان، أي أنها تدعو العقلَ كي يتفكر في هذه المخلوقات، التي هي براهين حسية في واقع الحياة، على قدرة الله تعالى في الخلق. وما دام البرهانُ حسياً، فما على العقل إلاَّ أن يدركه..

وأما الأدلة على بيان الأحكام فمثلها أيضاً في هذه الآيات القرآنية المبينة. يقول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[4]. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ

---

(١) الطارق: ٥. (٢) الغاشية: ١٧. (٣) الأنبياء: ٢٢. (٤) المائدة: ٣.

﴿ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ . ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ . ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ . ﴿ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ . ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ . ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ . ﴿ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ . ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ . . وفي غيرها من الآيات الكريمة التي تعطي كلها أحكاماً محسوسة لوقائع حسية، سواء أكان الأمر عائداً إلى الحكم نفسه أم إلى الواقعة التي جاء بها الحكم. . فالأمر كله يتعلق بالطريقة العقلية.

والقرآن الكريم، عندما يعتمد الطريقة العقلية أساساً للتفكير، فإنما يخاطب الفكر من حيث هو «الحكم على الواقع»، كي يمكن من ثَمَّ تطبيق الأحكام الفكرية على أي وقائع قائمة، أو على جميع الوقائع التي يتناولها، وليصوغ بالتالي الحقيقة التي يريد الوصول إليها. وما من مطّلع أو عالم محقٍّ إلاَّ ويعرف أن الحقائق القرآنية ـ برمتها ـ هي حقائق نهائية وقاطعة بصورة مطلقة. بخلاف ما يصل إليه الجهد الإنساني ويسميه حقائق، فهذه تبقى ـ رغم كل الأدوات المتاحة التي يستعملها الناس ـ حقائق غير نهائية، وغير قاطعة، لأنها مقيدة بحدود التجارب البشرية والأدوات والظروف التي تمليها. فيصبح من الخطأ المنهجي ـ وبحكم المنهج العلمي الذي يقيمه الإنسان ذاته ـ أن تعلق الحقائق القرآنية النهائية التي هي من صنع الله العلي العليم، على حقائق غير نهائية، هي من نتاج جهد بشري قابل دائماً للتغيير، أو معرض للوقوع في الخطأ.

هذا فيما يتعلق بالحقائق العلمية أو بالفرضيات والنظريات التي تبنى على العلوم، من قبيل النظريات الكونية (كنظريات علم الفلك)، أو مختلف النظريات التي بحثت في نشأة الإنسان وأطواره، والتي تهتم بحياة الإنسان (كعلم النفس أو الاجتماع أو التربية)، أو النظريات التي

وضعت حول نشوء المجتمعات وما طرأ عليها من تطورات. . . كلّ هذه النظريات والفرضيات لا يمكن اعتبارها حقائق علمية قاطعة، حتى بقياس الإنسان نفسه. ولكن قيمة تلك النظريات والفروض تبقى في صلاحها أحياناً كسبل ممهدة، أو كأمثلة من أجل تفسير أكبر قدر ممكن من الظواهر: كونيةً كانت أو حياتية أو مجتمعية أو نفسية. وصلاحيتها تظل قائمة إلى حين ظهور نظرية جديدة، أو فرضية جديدة تفسر قدراً أكبر من إحدى الظواهر، أو تفسر هذه الظواهر بصورة أدق وأعمق، وربما أشمل وأعم. . من أجل ذلك تكون جميع هـذه النظريـات والفرضيات قابلة ـ دائماً ـ للتعديل والتبديل، أو النقص والإضافة، بل إنها قد تنقلب رأساً على عقب بظهور أدوات كشف جديـدة، أو بتفسيرات جديدة لمجموعة الملاحظات القديمة. . لذلك يمكن القول بأن كل ما ينتجه الفكر البشري حول تفسير الظواهر العلمية ما هو إلّا بمثابة نظريات أو فرضيات قابلة للتغيير، مما يجعلها بعيدة عن مفهوم الحقيقة العلمية المطلقة.

والقرآن الكريم، بخلاف ذلك تماماً، فإنه يخلو من النظريات والفرضيات بصورة مطلقة. وقد قامت محاولات لربط أو تقريب بعض التلميحات أو الإشارات القرآنية بالعلوم البشرية، ولا سيما ما يتعلق منها بالفلك أو الطب أو نشأة الإنسان أو غيرها. . وكل محاولة من هذا القبيل غير جائزة في الأصل، إذ إنها تحمل في طياتها خطأ منهجياً لا يليق بجلال القرآن الكريم، كما أن تلك المحاولات تنطوي على مغالطات كثيرة بعيدة كل البعـد عن المفاهيم القرآنية. ومن تلك المغالطات نقتصر على إيراد ثلاث هي:

المغالطة الأولى: وتكمن في هذا التفكير أو الشعور الذي جعل البعض يتوهم بأن للعلوم السيطرة التامة على الوجود البشري كله، مما

يجعل القرآن مجرد تابع لتلك العلوم. وهذا في الحقيقة نوع من التفكير أو الشعور الانهزامي، أو هو هزيمة داخلية في نفوس أصحاب هذه المقولة..

وقد دفع الوهمُ بهؤلاء المهزومين إلى القيام بمحاولات ترمي إلى البرهان على حقائق القرآن بتفسيرات واستدلالات مأخوذة من العلوم البشرية.. ولم يدرك هؤلاء الباحثون أو المفسرون أن القرآن الكريم هو كتابٌ من عند الله تعالى، فمواضيعه إذن كاملة، وحقائقه نهائية.. وهذا يعني أن القرآن الكريم ليس كتاب نظريات علمية، ولم ينزل ليكون علماً تجريبياً، فليس هو كتاب طب مثلاً، أو كتاب فلك، أو فيزياء أو كيمياء.. ليس شيء من ذلك في القرآن الكريم، كما يحاول بعض المتحمسين له الادعاء بذلك، ولا يجوز لهؤلاء المتحمسين - ذوي النوايا الطيبة - أن يؤخذوا بأبحاث البعض من أهل الكيد والدس الذين يزرعون في كل بلدٍ فريقاً من الاختصاصيين والعلماء، ويضعون تحت تصرفهم إمكانياتٍ مالية كبيرة، لوضع دراسات مبطنة هدفها المسّ بالقرآن الكريم وإظهاره بأنه مخالف لعلومهم و«منجزاتهم الرائعة» وهو - على كل حال - أجلّ من أن يمسّ لأنه محفوظ من رب العالمين. ولذلك فالقرآن المجيد هو غير العلوم التي هي من عند الناس، وهي العلوم ذاتها التي ما تزال تنقض اليوم ما أثبتته بالأمس، وتبرهن أيضاً أن ما توصلت إليه يظل محلاً للنظر، أي أنه غير نهائي ولا هو مطلق. وهذا طبيعي لأنه مقيد باحتمالات وإمكانيات وأدوات هي ذاتها غير قادرة على إعطاء حقيقة واحدة تتصف بالنهائية والإطلاق. وقد أكد القرآن الكريم هذه المحدودية للطاقة الفكرية لدى الإنسان، وذلك بقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.. بالقياس - طبعاً - إلى علم الله تعالى الواسع. وأكّدها في قوله تعالى

أيضاً: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[1]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

المغالطة الثانية: وهي الفهم السيء لطبيعة القرآن ووظيفته. فهذا الكتاب المبين قد تنزَّل ليعالج بناء الإنسان بما يوائم ويوفق ما بين طبيعته وطبيعة الوجود كله وفقاً للسنن الإلهية، وبما تسمح به طبيعة الإنسان بالنسبة إلى طبيعة الوجود، حتى لا يكون هناك تصادم بين الإنسان والكون، بل ـ على العكس ـ تكون هناك أُلْفة بينهما، فيحاول الإنسان التعرف على أسرار الكون، ويستخدم قدراته لاستجلاء أبعاده وخفاياه، التي يمكنه أن يكتشفها: بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق. والعقل هو الذي يهديه إلى ذلك. وما وُهب الإنسان هذا العقل من خالقه تعالى إلاَّ لكي يعمل ويكشف من العلم ما يقدر عليه، لا أن يتلقى هذا العلم تلقياً بالبداهة.

المغالطة الثالثة: وهي التأويل للنصوص القرآنية، وبطريقة فيها كثير من التمحّل والتكلّف، من أجل حمل هذه النصوص على نظريات وفرضيات ليس لها صفة الثبات والاستقرار، بل وجديدها في كل يوم يطمس قديمها.

وقد قلنا بأن مثل هذا التأويل لا يتفق وجلال القرآن الكريم، الذي يأبى ـ هو ذاته ـ أن تؤول نصوصه، أو بعض آياته، وفقاً لتلك النظريات والفرضيات التي لا تلامس جلال معانيه، ولا تداني سموَّ وظائفه.. ثم إن القرآن ـ بطبيعته ـ يخالفُ اتباع كل المناهج الأرضية

---

(1) الكهف: ١٠٩.
(2) لقمان: ٢٧.

التي فيها احتمال الخطأ أكثر من الصواب، والافتراض أقـوى من الحقيقة.

إذن لا مجال لتأويل النصوص القرآنية بما هو بعيد عنها، وبما تناقضه بحقائقها، بل ومحظور ـ على الناس ـ تفسير هذه النصوص لجعلها مطابقة للعلوم.. صحيح أن في القرآن الكريم إشارات تدل على بعض العلوم، ولكنها تبقى في دائرة الإشارة أو التنبيه أو التلميح فقط، لأن القرآن الكريم ليس كتاباً علمياً غايته تفصيل العلوم، ولذا فهو ـ وإن أشار إلى بعضها ـ لا يبحث في منطلقاتها ولا نهاياتها..

غير أن ذلك لا يعني أبداً أن القرآن ضد العلم والمعرفة، بل على العكس إنه يحضّ على العلم، ويطلب من الإنسان بإلحاح أن يتعلم، وبرهاننا على ذلك آيات كثيرة تشيد بالعلم وأهله. قال تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾. وهو ـ سبحانه ـ عندما أنزل القرآنَ، أمرَ جبريل الأمين أن يعلِّم خاتم النبيين القراءة: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، بل إن المكرمة التي تكرَّم بها الخالق ـ عز وجلّ ـ على آدم عليه السلام، وعلى بني آدم جميعاً، هي مكرمة العلم بواسطة العقل: ﴿وعلَّم آدم الأسماءَ كلها﴾.. وهذا ما يفرض على الإنسان أن يبحث وينقّب كي يكشف كل يوم علماً، وأن ينتفع بهذا العلم، لأن الغاية من كل علم هي نفع الإنسان وخيره.. بل نحن المسلمين، وإن كنا نعتبر معظم العلوم التي تتعلق بفهم حقيقة ماهية الكون والإنسان والحياة مجرد فرضيات ونظريات، علينا أن ننتفع منها إذا كان من شأنها أن تزيدنا معرفةً بحقيقة وجود الله تعالى، وبالكون والحياة والإنسان، لأنّ في ذلك كله ما يساعدنا على فهم نصوص قرآننا المجيد، وذلك من خلال تكوين التفكير الواعي والباحث لدينا، وليس من خلال تطبيق العلوم على القرآن كما أشرنا إليه آنفاً.

ولذلك كان لزاماً علينا، أن نميز بين نوعين من الإنجازات العلمية:

نوع يمثل الحقائق الثابتة النهائية التي تمَّ التوصُّل إليها عن طريق البحث والتنقيب، كتلك التي تتعلَّق بعلم الفلك؛ وتتناول الأرض ودورانها وحركتها في الفضاء[1] أو كالتي تتناول البرزخ الفاصل بين المياه العذبة والمياه الملحة في البحار[2]...

ونوع آخر يمثل المظاهر الآنيّة القابلة للتغيير والنقض، تمَّ

---

(١) يقول الله تعالى في سورة المرسلات:
﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً﴾ المرسلات: ٢٥.
وكفت يعني ضمَّ. والكفات في معاجم اللغة العربية: هو الطائر الذي يطير مسرعاً وهو قابض بجناحيه شيئاً يخصّه.
فهذه الآية الكريمة، كان يمكن أن يقتصر تفسيرها على أن الأرض تضم المخلوقات الأحياء على ظهرها والأموات في جوفها، إلّا أنَّه بعد ثبات الاكتشاف العلمي حول الأرض ودورانها، أصبح المعنى الذي تتناوله الآية الكريمة:
ألم نجعل الأرض تسير في الفضاء بسرعة وهي حاضنة لكم يا بني البشر أحياءً وأمواتاً، كما هي حاضنة لغيركم من مخلوقات الله تعالى، رغم تلك السرعة القصوى التي تسير عليها، وهكذا يكون الاكتشاف العلمي للأرض بصورته النهائية، قد أكَّدَ قطعية النص القرآني.

(٢) ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾ الرحمن: ١٩.
المارج: المضطرب، المتحرك، وقيل المختلط، ويقال: مرج الأمر: اختلط.
والبرزخ: الحاجز بين الشيئين. مرج البحرين: خلط طرفيهما عند التقائهما من غير أن يختلط جملتهما؛ وتقسيم الماء على هذا النحو من الكرة الأرضيَّة لم يأتِ مصادفةً، ولا جزافاً؛ فهو مقدَّر تقديراً عجيباً، وتصبّ جميع الأنهار، تقريباً، في البحار، وهي التي تنقل إليها أملاح الأرض فلا تغيِّر طبيعة البحار، ولا تبغي عليها، ولا يتجاوز كل منها حدّه المقدّر ووظيفته المرسومة.
ومستوى سطح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تمر خلاله وتصبّ فيه، ولا يغمر مجاريها بمائه الملح، فيحولها عن وظيفتها، ويبغى على طبيعتها ما دام هناك حاجز من طبيعتها، من صنع الله العليم الخبير.

التوصُّل إليها عن طريق الملاحظة والاختبار.

وهذا النوع الأخير لا يُعَوَّل عليه في فهم إشارات أو تلميحات القرآن الكريم، لأنه قد ينقض بما يغيّره أو يُلغيه، بينما الحقائق القرآنية قطعية ونهائية... قال تعالى واصفاً قرآنه المجيد: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾(١).

ولا يخفى أنّ الاكتشافات العلمية، ليست إلّا إدراكاً لأشياء موجودة أصلاً في هذا الكون. ومع ذلك فإن لهذه الاكتشافات فضلاً كبيراً على بني البشر، إذ أنها كشفت عن بعض البصائر غشاوتها، وعن بعض القلوب أقفالها، وردّتها إلى الإيمان الصحيح، بالله العليِّ القدير الذي، بفضله، هديت العقول إلى هذه الاكتشافات، فتوصَّلت إلى رؤية بديع صنعه في هذا الكون العجيب... ومثل ذلك يأخذ بأواصر المسلمين من الإيمان التبعيّ التقليديّ، إلى الإيمان المستنير القائم على هدى الله ورؤية عظمته في عجائب خلقه... وممّا نفى الريب، كذلك، من قلوب أهل الكتاب من ذوي الاختصاص في علوم البحار أو الفلك، أو الطب(٢)... إلخ فاهتدوا، وأقبلوا على الإسلام يتخذونه

---

(١) فصلت: ٤٢.

(٢) وفي حقل العلوم الطبيّة، فقد كان له في آيات الله البيِّنات إشارات حسيَّة، واضحة، ولكن أسرارها بقيت بعيدة عن مدارك البشر، ومنها آية مباركة بقي الناس عنها غافلين حتى أواخر هذا القرن، حيث قيّض لها طبيب فرنسي، جرّاح، هو «موريس بوكاي». جاء هذا الطبيب المؤمن، ليكشفها، ويدلّ عليها؛ ففي القرآن الكريم: أنّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما خرج ببني إسرائيل من مصر، تَتَبَّعهم الطاغية فرعون بجنوده حتى إذا بلغوا شاطىء البحر، لم يعد أمامهم مفرّ من الوقوع في قبضة فرعون وجنوده، أو الخوض في لجة البحر فيقضون غرقاً. عندها أتى الوحي إلى سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من ربِّه تعالى، أن اضرب البحر بعصاك، فانفلق البحر اثنتي عشرَ درباً لاثنتي عشرَ سبطاً، وعبر بنو إسرائيل تلك الدروب حتى الشاطىء الثاني، ولمَّا سارع فرعون وجنده للّحاق بهم في البحر، شاءَ الله تعالى القضاء عليهم فأعاد البحر إلى عهده، =

ديناً، وعلى القرآن يجعلونه هادياً، بعدما رأوا بعض الحقائق العلمية ماثلة في ما يتضمنه القرآن الكريم، منذ أنزله ربّ العالمين سبحانه على قلب نبيِّه محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي ذلك كلِّه تصديق لما جاء في كتاب الله المجيد:

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

القرآن والعلوم البشرية

فالحقيقة ـ إذن ـ أن القرآن الكريم، كرسالة سماوية، شيء، والعلوم البشرية شيء آخر. . ولذلك كان الانتفاع بالعلوم شيئاً، وكان تأويل النصوص القرآنية، بما يوافق تلك العلوم، شيئاً آخر. . فلا علم، ولا انتفاع بعلم، هو الذي يثبت الحقائق القرآنية، أو هو الذي يبعث على حب القرآن، والتعلق بروائع بيانه، وعظيم محتواه. . ذلك أن للقرآن المجيد طبيعة خاصة، قادرة على أن تجذب إليها كل عقل نيّر، وقلب صافٍ، وأن تغرس فيهما محبة هذا القرآن والتمسك بأهدابه. . لا بل إن طبيعة القرآن، باتباعها الطريقة العقلية، تدفع بالإنسان إلى التفكّر

= وغرق جند فرعون جميعاً، حتّى إذا أدرك فرعون أنَّه غارقٌ لا محالة قال: «آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» فجاءه الردّ، فوراً من العليّ الأعلى: ﴿الآن وقد عصيت قبل، وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ (يونس/٩١ و٩٢). وبعد ثلاثة آلاف سنة، جاء الطبيب الجراح «بوكاي» ليثبت علميّاً سرّ هذه الآية المعجزة؛ حيث أن مومياء فرعون الموجودة في متحف مصر، ما هي إلا مومياء الطاغية نفسه الذي لحق موسى عليه السلام وبني إسرائيل، وقد أنجى الله بدنه، وما زال عليه آثارٌ من ملح البحر، حتى يومنا هذا، بواسطة التحنيط، ليكون عبرة لمن يأتي بعده من الأجيال. فسبحان الله العليّ القدير.

(١) المدثر: ٣١.

والتأمل والتبصّر ليأتي بعدها دور العمل النافع الخيِّر. وها هو القرآن يأخذ بيدنا لنكون عقلانيين عالمين، عاملين، في آن واحد. يقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(1). هذا عن العقل والتفكير، أما عن العمل فيقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(2).

ومن عجائب القرآن الكريم، أنه أنزل ليخرج الناسَ من الجهل والظلمات إلى العلم والنور، ليخلصهم من الكفر ويهديهم إلى الإيمان. يخاطب الله تعالى رسولَهُ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(3).

هذه خاصية واحدة من خصائص القرآن: إخراج الناس من الظلمات إلى النور.. والظلمات كهوف داكنة تعمي البصائر، وتغطي القلوب.. أما النور فضياء للنفوس، يفتح البصائر على الحق، ويهديها إلى الطريق القويم..

إنه كتاب أنزله الله تعالى للناس يدعوهم بقوة، ويحرّضهم بشدة لأن يتدبروا نصوصَهُ كي تُريَهُم، ما يريدُ الله تعالى أن يُريهم من آياته العظمى في آفاق الكون الشاسع، وفي أنفسهم كبشر، حتى يتبين لهم أنَّ ما خلق ـ سبحانه ـ كان حقاً في روعة صنعه، وعظيم إحكامه، ودقة نظامه... ومثل هذا التدبّر للنصوص القرآنية هو الذي يكشف مدى مدلولاتها في تصوراتنا، ومدى معانيها في أفكارنا.. فالدعوة ـ إذن ـ عظيمة الشأن، واسعة المدى في تدبّر القرآن: إنْ لمعرفة حقيقة الخلق أكان في الآفاق أو في الأنفس، وإنْ في العمل الذي يقوم على المعرفة والفعل.. وهذا يجب أن يكون وفقاً لنصوص القرآن وحدها، بحقائقها النهائية

---

(1) فصلت: ٥٣. (2) التوبة: ١٠٥. (3) إبراهيم: ١.

والمطلقة، من غير أن نحمّلها ما لا تحمل من فروض ونظريات علمية، ومن غير أن نجعل لهذه الفرضيات والنظريات المقام الأول، ثم نلحق بها الآيات القرآنية إلحاقاً، وكأنها تبعٌ لها. ولعلَّ في بعض الأمثلة ما يوضح هذا الأمر.

يقول الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1].

من الثابت أن الكون قائم على نظام دقيق، وعلى إحكام متناهٍ، رغم اتساعه الهائل، ومداه الشاسع وما فيه من عوالم المجرات والأجرام والنجوم التي ما تزال بعيدة عن متناول معرفة الإنسان. ولقد أُتيح لعلم الفلك أن يكتشف كل يوم جديداً في هذا الكون ولكنَّ اكتشافاته، يبدو أنها لم تكُ شيئاً يذكر، منذ عام ١٦٠٩ عندما نظر العالم الإيطالي (غاليلو) بأول تلسكوب أرضي إلى نجوم الكون ومجراته، بالقياس إلى ما تكشفت معرفته اليوم، وفي هذا العام ١٩٩٠ ميلادي بالذات، حيث أمكن لرواد المكوك الفضائي الأميركي «ديسكفوري» أن يضعوا تلسكوباً عملاقاً خارج الأرض أسموه «هابل» وقدَّروا له أن يدور حولها خمسة عشر عاماً، لتوفير أكبر قدر ممكن من المعلومات عن حوالي عشرين تربليون نجم وكوكب، كما قدر هذا العدد حتى الآن، بحيث ستكون لعلماء الفلك قدرة أكبر على اكتشاف ومعرفة ما غمض من أسرار كثيرة عن هذا الكون العظيم، بخلقه الإلهي، الذي لا يزال حوالي تسعين بالمائة من أسراره هذه من المعميات الخاضعة للتأويلات والاجتهادات الفلكية.

ومع أنه إنجاز يحمل بصمات جهود جبارة، «مرآة قطرها ٢,٤ متر وبإمكانه تركيز الضوء على أي نسق أو منظومة من الكاميرات والآلات، وتسجيل وتحليل الإشعاعات وتحويلها إلى نبضات إلكترونية

---

(١) الفرقان: ٢.

وإرسالها إلى الأرض بمعدل لم يعهده أحد من قبل، حيث يمكنه إرسال معلومات تكفي لملء موسوعة مكوّنة من ثلاثين جزءاً خلال ٤٢ دقيقة». ومع ذلك كله فهو لا يساوي شيئاً يذكر بإزاء آيات الخلّاق العليم.

ومما لا شك فيه أن إضافة ما سيقدمه «هابل» من معلومات دقيقة وهامة إلى ما تتولاه سائر التلسكوبات الأرضية العملاقة الأخرى، سيبين للناس إعجاز الهندسة الإلهية وعظمتها، وسيرى العلماء ما لم تقع عليه عين بشر من قبل، مما قد يمكنهم من حلِّ العديد من الرموز والأسرار التي لا يزال العقل البشري، أشبه بطفل، إزاء حلها.

لقد كان العلماء ينظرون إلى الكون من خلال الضوئي المرئي الذي تستخدم معه التلسكوبات البصرية ذات المرايا أو العدسات والتي تقوم بتجميع الضوء واستنباط المعلومات الفلكية منه وتحليلها بأجهزة خاصة؛ أو من خلال موجات الراديو التي تستقبلها التلسكوبات العاملة بهذه الموجات. أما عمل «هابل» فسوف يكون استقبال وتجميع الموجات التي لا تستطيع التلسكوبات الأرضية تجميعها إلا بمقادير ضئيلة للغاية لأن الغلاف الجوي يمنع وصولها إلى الأرض بشكل شبه تام، ومنها موجات الأشعة البنفسجية، وتحت الحمراء. ولذلك فإنَّ إطلاق تلسكوب جديد فيما وراء الغلاف الجوي سوف يساعد على التقاط هذه الموجات والحصول منها على معلومات مما لا يقدر غيره من التلسكوبات على ذلك.

وهكذا فإن مهمة «هابل» سوف تكون متعددة، ومنها البحث عن اكتشاف مجرات ونجوم وكواكب جديدة، وتتبع موجات المد العالية من الطاقة التي تدور في دوامات بسرعة مخيفة حول الثقوب السوداء في أعماق الكون. وسيقوم «هابل» بتلك المهمة من خلال تتبع والتقاط ما

يسمى بالخلفية الإشعاعية الكونية، وهي عبارة عن موجات كهرومغناطيسية ميكرومترية اكتشفت عام ١٩٦٤ م. وتتبع هذه الأشعة قد يعني السباحة ضد الزمن، والقفز إلى الوراء عبر الزمن إلى العصور المبكرة من تاريخ الكون.

هذه الآفاق الجديدة لتقدم الاكتشافات العلمية وتطورها تنبىء بقدرة الله تعالى، الخالق العظيم، والمدبّر الحكيم لهذا الكون الهائل، وما يزال المدى بعيداً أمام الإنسان للإحاطة ولو بقليل من معجزة خلق الكون، ودلالتها الساطعة على قدرة الخالق، وعظيم حكمته، وبديع صنعه.

وهكذا يتبين لنا أن الله تعالى خلق هذا الكون كما خلق كل شيء آخر، وفق تقديره الحكيم. وما عمل الجبابرة من العلماء إلّا محاولة تلَمُّس نقطة من بحر هذا الخلق العظيم، حتى لجهة الشكل فقد استعاروا اسم «هابل» من اسم «هابيل» ابن آدم عليه السلام... ! فلو نظرنا إلى هذه الأرض التي نحيا عليه ـ وهي جزء صغير من هذا الكون ـ وعرفنا الخصائص التي تميزها عن غيرها من أجزاء الكون، لتبين لنا بأن خلقها كان مقدراً تقديراً بالغاً لتكون صالحة لوجود الحياة عليها. فالشكل الكروي للأرض، وما تحمل فوق سطحها، وفي سمائها، وما تحتوي في باطنها.. وارتباطها بالشمس: إن من حيث بعدها عنها هذا البعد، أو تلقي ضوئها وأشعتها، ووجود قمرها أيضاً على بعد محددٍ منها، وحجمها بالنسبة لحجم الشمس وحجم القمر.. ناهيك عن نظام الجاذبية، ودورة الأرض حول نفسها، ودورتها حول الشمس، وما ينتج عن الجاذبية والدوران من ليل ونهار وفصول، وما ينزل من مطر، أو تتصاعد من أبخرة وغازات.. كلُّ هذه الخصائص، وآلاف غيرها، هي التي جعلت الأرض صالحة للحياة. ولولا التوافق والانسجام بين مختلف تلك الخصائص التي تختص كل واحدة بعنصر

معيّن يكمّل العناصر الأخرى، لما كانت هنالك حياة على الأرض.

ومن البديهي القول: إن خلق الأرض بكل تلك الخصائص، ليس فلتة عارضة، ولا مصادفة عابرة، بل هو خلق مقدر تقديراً بكل دقة وإحكام..

ومما لا شك فيه أن ما توصلت إليه العلوم من كشفٍ للعناصر التي جعلت الأرض صالحة للحياة، يساعدنا في إدراك المدلول القرآني: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1].. هناك انتفاع من تلك النظريات العلمية، لأنها تقودنا إلى معرفة المعاني المقصودة من هذا النص القرآني، والتي يشير إليها النص «بالتقدير»..

وقس على ذلك أي أمر أو أية قضية ـ سواء تعلقت بآفاق الكون أم بالإنسان ـ يشير إليها القرآن، من قريب أو بعيد. فعلينا أن نتقصّى ما توصل إليه الجهد البشري حول ذاك الأمر أو تلك القضية حتى نستطيع أن نفهم المعنى القرآني فهماً صحيحاً. وهذا ليس جائزاً فقط، بل مطلوب الأخذ به.

ولكن ما هو غير جائز، ولا مقبول، أن نعتبر القرآن الكريم يحتوي صراحةً على جميع العلوم التي توصّل إليها الإنسان، أو أن نؤمن بنظرية علمية رفضها القرآن الكريم، أو نعتقد بفرضية فكرية تكون مخالفة للمدلول القرآني. ولنأخذ مثلاً على ذلك: نشأة الإنسان..

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[2]..

هذه هي الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم: إن النشأة الأولى

---

(1) الفرقان: ٢. (2) المؤمنون: ١٢.

للإنسان كانت من تراب الأرض أو صلصالها، وإنَّ هذا الجسد الترابي ـ في أصله ـ دخلته الحياة عندما نفخ الله تعالى فيه من روحه، ثم منحه ميزة المعرفة عندما علمه المعاني الكلية للأشياء جميعاً..

وعن هذه النشأة صاغ علماء الغرب نظرية معاكسة للحقيقة القرآنية، وذلك عندما ابتدع (دالاس) و(داروين) نظرية النشوء والارتقاء التي تعتبر أن نشوء الحياة بدأ من خلية واحدة تكوّنت في الماء، ثم راحت هذه الخلية تتطور، وتنتقل من نوع إلى نوع حتى وصلت إلى مرحلة الإنسان.. بمعنى أن أصل الكائنات الحية جميعاً: النبات، الحيوان والإنسان، هو ذاته بدأ من خلية واحدة لها ذات الخصائص والميزات!...

فإذا حاول بعضهم ـ بحجة التأويل أو التفسير ـ أن يقول بأن خلق الإنسان من طين الأرض ينطبق على نظرية النشوء والارتقاء، فإن هذا ليس من التأويل أو التفسير بشيء، بل هو أكبر الخطأ، وأشد المغالطة، لأنه يتعارض مع النص القرآني تماماً، ولا يألفه العقل البشري.

لا! لم يشر القرآن أبداً إلى نظرية «النشوء والارتقاء». وليس فيه أي نص أو معنىً يدل ـ ولو تلميحاً ـ على هذه النظرية. هذا ـ على الأقل ـ بالنسبة إلى القرآن الكريم...

أما بالنسبة إلى النظرية ذاتها فلم تتمتع بمواصفات الثبات والإطلاق، في يوم من الأيام. وقد ثبت ذلك بما دخل عليها من تعديل، في أقل من قرنٍ من الزمان، كاد يغيرها كلياً. كما ظهر أن نظريات الوراثة تنقضها برمتها، وذلك لقولها بأن كل نوع من أنواع الكائنات الحية يحتفظ بخصائصه، ولا يمكن أن ينتقل إلى نوع آخر:

فالإنسان يولد إنساناً، ويتطور في داخل الجنس الإنساني، فلا يمكن أن يكون من الحيوان ويتطور إلى إنسان. وكذلك كل حيوان أو نبات: فالأسد يبقى أسداً ولا يتحول إلى حمار. وكذلك الكلب، والفيل، والسمكة، والضفدعة، والعنكبوت.. وزهرة الأقحوان تبقى أقحواناً، وشجرة التين تبقى تيناً، وكذلك الزيتون، والرمان، والعنب، والبصل، والأرز... وهذا ما يجعل نظرية النشوء والارتقاء معرضة للنقض والبطلان، فتكون أبعد من أن تكون حقيقة علمية نهائية، بخلاف الحقيقة القرآنية التي هي نهائية، أولاً لأنها ثابتة بقولٍ من الله العزيز القدير، خالق الإنسان وكل شيء، وثانياً لأنها تثبت أصل النشأة الأولى للإنسان دون الولوج في تفصيلات هذه النشأة. فهي إذن نهائية في النقطة التي تستهدفها «وهي خلق الإنسان من طين». هذا ما تستهدفه الحقيقة القرآنية بلا زيادة ولا نقصان. وليس للعقل البشري، إن أرادَ أن يهتدي إلى هذه الحقيقة، إلَّا أن يبحث عن هذا الأصل، ويحاول أن يكون صادقاً في بحثه، لا أن يتخيل مجرد تخيلات لا تمت إلى الحقيقة بصلة..

الطريقة العقلية وقيمة الإنسان

وما أوردناه كان للتأكيد على أن الطريقة العقلية، التي اعتمدها القرآن الكريم، هي التي يجب أن يعتمدها العقل البشري كأساس للتفكير. سواء كانت الأبحاث الفكرية في الفلك أم في الطب أم في الفيزياء أم في الكيمياء.. فكيف عندما يكون البحث عن الإنسان، أو عن معرفة النفس الإنسانية. لأنه لا يجوز أن نطبق على معرفة الإنسان إلَّا هذه الطريقة العقلية وإلا ضاعت جميع جهودنا، عبثاً، وضاع معها الإنسان في متاهات النظريات والتقوّلات، والمقصود هو خلاف ذلك

تماماً لأن الإنسان مخلوق مميز بتركيبه، وطبيعته، ووظيفته على هذه الأرض. وقد تفرّد عن مخلوقات الأرض جميعاً في خَلْقه ومصيره. والإسلام قد قرّر التصور الصحيح والكامل عن الإنسان. فهو يراه في نصوص قرآنه المجيد، فريداً في الخِلْقَةِ، فذاً في الإدراك، وما وظيفته التي قدّرها الله تعالى له في الاستخلاف على الأرض إلَّا لتنبىء عن مدى خطورة المهمة التي ندب إليها، وأهمية الأمانة التي ارتضى حملها.. غير أن القرآن الكريم يؤكد ـ من ناحية ثانية ـ أن هذا الإنسان مبتلىً في حياته، ومحاسب في الآخرة على أعماله في دار الدنيا. إذ إن هذه الأعمال هي التي يتقرر في ضوئها مصيره: في الجنة أم في النار؟

ووجود الإنسان على الأرض، سيداً لمخلوقاتها، لا ينفي عنه تبعة الطاعة لخالقه، وعبوديته لربه تعالى، الذي خلقه فسواه، فعدله.. من هنا كان تكليفه بالاستخلاف، وبحمل الأمانة. وبمقدار ما وهبه الله تعالى من قوىً، فقد جعله في مواجهة ومصارعة قوى الأرض العاتية، من براكين وفيضانات ورياح وأمطار، وفي نفس الوقت سلّطه على ثرواتها وخيراتها الوفيرة. وله أن ينشىء فيها وينمّي ما يشاء لمنافعه، بل وأن يغيّر في معالم موجوداتها من الجبال والأودية والسهول والأنهار الخ... ولكنه في النهاية يجب أن يقرن ذلك كله بإقرار العبودية لربه، رب السماوات والأرض، وأن يحفظ عهده مع خالقه ومدبّره. وقد هداه القرآن الكريم إلى ذلك بقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ

﴿فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(١). وفي تفسير هذه الآيات الكريمة يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ألا إن الأرض التي تُقلّكم، والسماءَ التي تُظلّكمُ، مطيعتان لربِّكم، وما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما تَوَجُّعاً عليكم، ولا زُلفةً إليكم، ولا لخيرٍ ترجُوانِهِ منكم، ولكن أمرتا بمنافِعِكم فأطاعتا، وأُقيمتا على حدود مصالِحكم فقامتا».

عطاء جزيل من رب العالمين لإنسان الأرض، حتى بات هذا الإنسان ـ وربما كل فردٍ منه ـ عالَماً قائماً بذاته، فكان جديراً ألَّا تُبنى معرفة النفس الإنسانية، إلَّا وفق هذا المعطى الشامل، الذي يأخذ الإنسان كوحدة لا تتجزأ، وككلٍ لا يتفتت، لأن الغاية، في النهاية، بناءُ الإنسان المتكامل، الذي يقدر أن يحافظ على التراث الإنساني الذي وصل إليه من الماضي، وأن يشيد عوامل التقدم والتطور في الحاضر، وأن يصوغ الإمكانيات القويمة لمستقبلٍ أفضل وأرفع... ولن يكون ذلك إلَّا بواسطة الإنسان المتكامل، في نفسه وواقع حياته. وإلَّا كان الأمر بخلاف ذلك، أي عندما يهمل الإنسان وجوده، ويتنكّر لنفسه، ويجهل نعمة خَلْقه، فإنه يسفّ إلى مرتبة الحيوان، ويصبح أدنى إلى البهيمية أو الجماد، ويضيع عن كل قيمة إنسانية ـ بعد أن يخسر نفسه كلياً ـ مما يخالف فطرته التي فطره الله تعالى عليها، وبالتالي يجحد نعمة الخالق وفضله عليه..

ولأن المعوَّل عليه دائماً هو النفس الإنسانية، فقد وجب الاهتمام بهذه النفس، من خلال تربية واعية، حكيمة وفاعلة، ومن خلال دراسات ومناهج تعرف قيمة الإنسان وقدره، بعيدة عن المعطيات

(١) فصلت: ٩ ـ ١٣.

الحاضرة في «علم النفس» كما هي معروفة وشائعة اليوم في الغرب والشرق.

ومعرفة النفس لا بد أن تبدأ من منطلق صحيح، من منفذ يمكّن من الولوج إلى داخل النفس. فما هو هذا المنفذ، أو ما هو هذا الباب الذي يمكّن من الوصول إلى أعماق النفس البشرية؟

المدخل لمعرفة النفس

لقد استخدم الباحثون في النفس الإنسانية طرقاً مختلفة، وقد يكون بعضها صالحاً ـ في حدود دنيا ـ، وبعضها فاسداً، إلاَّ أنهم لم يدخلوا من الباب الأصلح، ونعني به البابَ الذي أوجده الله تعالى للنفس. يقول الله تعالى: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾[1]. والمقصود ليس البيوت التي نسكن فحسب، بل وأيضاً المسائل والقضايا التي تشغل بال الإنسان، ويريد معالجاتٍ لها. فيكون المعنى للنص القرآني: لا تطرقوا الأمور، ولا تبحثوا في القضايا والمسائل من جهات جانبية، أو ملتوية، بل اقصدوا المنافذ والجهات المستقيمة، ولا تسلكوا سبل المعرفة إلاَّ باتباع المنهج الصائب الذي يقود إلى حقيقة المعرفة، أية معرفة.. ولا خلاف بين العقلاء على أن منهج الله تعالى يسمو على المناهج جميعاً، وأن أبواب الله المشرعة للمعرفة لا تعدّ ولا تحصى، وهي وحدها التي توصل إلى المداخل الآمنة والسليمة. ولذا كانت وهمية ـ إلى حد بعيد ـ تلك المناهج التي اتبعوها في معرفة النفس الإنسانية، لأنها لم تتخذ منهج الله تعالى سبيلَها وطريقها.

وليس تجديفاً على الحقيقة القول بأن من يتبع منهج الله تعالى، في أي أمر من الأمور، لا بدَّ أن يهتدي إلى الحقائق المتعلقة بهذا

(١) البقرة: ١٨٩.

الأمر، ومن يخالف هذا المنهج، ويبعد عنه، فإنه يكون قد ضلَّ وأضلَّ معاً. ولا مجال للمقارنة بين علم نُعطاه من الله تعالى، وعلوم اصطناعية نأخذها من بني البشر. وهذا ما ينطبق على النفس البشرية التي يجب اتباع ما أنزل الله تعالى لنا بشأنها من آيات بيّنات، تدلّ على المنهج الذي يجب أن نعتمده لمعرفة هذه النفس. لأن هذا المنهج هو من صنع الله تعالى، تماماً كما هي النفس من صنعه وخلقه. وليس هنالك أدنى شك بأن من يخلق هو أدرى وأعلم بما خلق. وفي القياس على الفعل البشري ـ مع الفارق الكبير بين الله تعالى الخالق وبين الإنسان المخلوق ـ نجد أن من يخترع آلة أو أداةً، مثلاً، يكون أكثر معرفة من غيره بكيفية تشغيلها وإدارتها واستخدامها، كما أنه أدرى بكيفية معالجة أعطالها وإصلاحها عندما يطرأ عليها عطل أو تصاب بخلل. فإذا أيقن الإنسانُ بأن الله تعالى هو خالق النفس، وهذا ما ينبغي له أن يؤمن به ويستيقن منه ـ رغم إنكار المنكرين وجحود الجاحدين ـ فهو ـ إذن ـ سبحانه وتعالى أعلم بِما أودع فيها من طاقات وأسرار، ولذا كان محتماً أن نهتدي إلى معرفة هذه النفس عن طريق ما هدانا الله تعالى إليه. لأنه ـ سبحانه ـ هو الذي خلق الإنسان، وهو أعلم بطبيعته، وأسرار تكوينه، وخفايا نفسه. حيث يقول: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(١) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾(٢). فيكون سبيلنا لمعرفة النفس هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وليس سواهما.

والقرآن الكريم تنزل لهداية الإنسان، ولتعليمه، وتنظيم حياته.

---

(١) الملك: ١٤.
(٢) ق: ١٦.

فهو ـ إذن ـ كتاب يهدف لإصلاح الإنسان. ولذا نجد فيه وصفاً لأحوال النفس الإنسانية، ولأسباب انحرافها ومرضها، وطرق تربيتها وتهذيبها وعلاجها، كما نجد فيه كثيراً من الحقائق الأخرى عن الإنسان.

ونجد أيضاً في الحديث النبوي الشريف ما يوضّح الحقائق عن الإنسان وحياته النفسية، التي أوردها القرآن الكريم. وما أتى به الكتاب والسنة عن الحياة النفسية يعتبر حقائق مطلقة، ويقينية، وعلينا أن نأخذها مسلمات لبحث معرفة النفس.

والقرآن المجيد ـ بوصفه كتابَ الله تعالى المنزل للإنسان ـ قد قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغه للناس حتى يسيروا على هديه، ثم أُمِرَ الذين اهتدوا بهديه أن يحملوه دعوة واضحة خالصة لوجه الله تعالى كي يغنوا الفكر البشري، والنفس الإنسانية، بوفرة معارفه وفيوض آلائه حول خلق الإنسان، وما أودع فيه خالقه من حواس، ومن أعضاء ووظائف، وحول خلق السماوات والأرض وارتباط الإنسان بهما... إلى كثير من المعارف التي لا مجال لذكرها.. هذا الكتاب المبين يجب أن نرتكز عليه في معرفة وجودنا الإنساني، وفي معرفة النفس الإنسانية، كجزء من الوجود الإنساني، لأن فيه الطريق المستقيم التي تقود الإنسان إلى بلوغ النضوج الفكري، والتكامل الحياتي. وليس فيه قطّ مدعاة لمغالاة مغالٍ، أو كيد كائد، أو كراهية متعصب.. كما لا مجال للتستر وراء تأويله أو تفسيره بغرض العنصرية والحقد.. إنه كتاب مجيد، وقرآن حكيم، من لدن عزيز قدير، أنزله منهجاً للحياة كلها، منهجاً لتقويم علاقات الفرد والمجتمع، دون أن يدخل في جزئيات أو تفصيلات علمية بحتة.

وفي القرآن نجد خطاباً للفرد، وخطاباً للجماعة. إنه يواجه هذا

الإنسان في فرديته، وفي نزعته الجماعية، ونزعته الإنسانية. فهو إذن يخاطب جميع العقول والقلوب، يخاطب الناس، كل الناس، لإنشاء تصور خاص عن الوجود، ولإقامة نظام خاص في الحياة، وتكوين مجتمع خاص في العلاقات.

لقد أمرَ الله تعالى رسولَـهُ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلّغ هـذا القرآن «للإنسان»، وليس لأمة واحدة أو لشعب واحد. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[1]. وما كـان على الرسول إلاَّ البـلاغ المبين. فالذين آمنوا به وبما أنزل إليه من ربه عليهم أن ينشئوا أمةً جديدة في الأرض تضطلع بدور خاص في قيادة البشـرية، فتبني نمـوذجاً فـريداً من العلاقات المجتمعية والإنسانية غير مسبوق بنموذج مماثل، وتعيش حياة نموذجية غير موجودة من قبل، وتقرر قواعد لهذه الحياة غير معروفة من غيـرها. . ثم على هـذه الأمة أن تقـود الناسَ جميعـاً إلى الحياة النمـوذجية، والمجتمع النموذجي، فيستريح الناس من كثرة المشاكل والمآزق التي يتخبطون فيها، وتعمر الأرضُ بما يملأها من آيات الإيمان والتقديس، والروابط الأخلاقية الفاضلة، والعلاقات القائمة على التعاون والتكامل والتضامن من أجل البر والخير. .

هذا ما أراده القرآن الكريم ـ عموماً ـ وما يواجه به العقـول والنفوس معاً.

المدنية الحاضرة والإنسان

إن الإنسان، في هذه الحياة، هو ابن بيئته ومحيطه لا ابن طبيعته

---

(١) سبأ: ٢٨.

ومزاجه. بمعنى أن الأوضاع التي تحيط بالإنسان هي التي تقرر له حياة القلق أو حياة الطمأنينة.

وهذه الأوضاع ـ كما نعلم ـ تشمل ما يخص الإنسان كفرد، أو ما يتعلق بأسرته وأقاربه وأصدقائه، أو ما يحدث لوطنه، أو ما يشغله في هذا العالم. وهي متقلّبة متغيرة. فإذا تغيّرت نحو السيء أو الأسوأ ساد القلق حياة الإنسان واستبدّ به الاضطراب النفسيّ، مما يوقعه في الكآبة والانقباض، ويجعله عرضةً لأمراضٍ نفسيّة معقدة.

أما إذا تغيّرت الأوضاع نحو الحسن أو الأحسن فإن الراحة تعمّ حياة الإنسان ويغدو مرتاحاً إلى حاضره ومطمئناً إلى غده.

هذه الطمأنينة أو السكينة بإمكان الإنسان أن يحصل عليها مهما تقلبت الأوضاع من حوله، رخاءً أو شدّةً، عن طريق الإيمان بالله تعالى. فالإيمان يريح بال الإنسان، ويسلّحه بالصبر، وينزل في قلبه السكينة، ويجعله غيرَ بَطِرٍ من نعيمٍ ولا خائفٍ من سوء حتى لو أدّى به إلى الموت. يقول الله سبحانه وتعالى في قرآنه المجيد: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[1]. ويمكن الوصول إلى هذه الغاية عن طريق اتباع القرآن الكريم. ولكن ـ ويا للأسف ـ لم يراع الناسُ هذا القرآن وحقائقه، لأنهم لا يريدون مراعاة أنفسهم ومصالحهم. لذلك أهملوا طريقة القرآن، وتركوا منهج الله تعالى، وابتدعوا طرائق ومناهج للمعرفة، وأنماطاً ونظماً للعيش، ما خدمت الإنسانَ إلَّا بالشيء القليل. وخير ما ينبىء عن ذلك عيش الإنسان بواقعه الراهن. فهو على الرغم من أنَّهُ أقام حضارات ومدنياتٍ،

---

(١) محمد: ٥ ـ ٦.

وصروحاً للعلم والمعرفة والعمران، ما يزال القلق يعشش في نفسه، وما يزال الشقاء يخيم على حياته. بل نجده كلما أوغل في أنواع التمدن، كانت مدنياته سبباً زائداً في إرهاقه، وتعاسته، وضياعه. لقد قصّرت المدنيات المادية عمره، وأدخلت إلى نفسه الاضطراب، وإلى جسمه الأمراض، حتى قضت على أسباب الطمأنينة والسعادة عنده، رغم كل المظاهر البراقة المخادعة.

ويعبّر «ألكسيس كاريل» وهو أحد كتاب الغرب، عن هذه الحالة التعيسة التي وصل إليها الإنسان المتمدن في كتابه عن الإنسان، وعنوانه «الإنسان ذلك المجهول» فيقول: «إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا..

ومن الواضح أن العلم لا يتبع أية خطة، وإنما يتطور اعتباطاً. وبالجملة إن الاكتشافات تتطور دون إدراك سابق لنتائجها.. ومع ذلك فقد أحدثت هذه النتائج ثورة في العالم، وأوصلت حضارتنا إلى ما هي عليه الآن.. ولقد تقبَّل الإنسان المنازل التي تستخدم التدفئة بالبخار والإضاءة الكهربائية والمصاعد، لسبب واحد فقط وهو أن هذه المخترعات والاكتشافات مغرية ومريحة. ولكن لم يحسب أي حساب لتأثيرها المحتمل فيما بعد على البشر..

إن المدنية العصرية تتكون من مبان هائلة، بينما تمتلىء شوارعها الضيقة بمخلفات البترول، وذرات الفحم والغازات السامة. وتزدان هذه الشوارع بالمطاعم والبارات التي تقدم للناس الكحول التي تحرق

الكبد، وتحجب العقل، كما تقدم الأطعمة الكيماوية المغشوشة فتسمم الأجساد والنفوس.. وتمزق أعصاب القوم المنهكين ضوضاء سيارات الأجرة، والنقل والأوتوبيس، وتحتشد، في أسواقها المحصورة، الجماهير الغفيرة بصورة دائمة. وهكذا يتضح أن من خططوا لهذه المدن لم يقيموا وزناً لخير سكانها».

هذا ما ذهب إليه أحد كتاب الغرب نفسه، وهذه هي النتائج التي يحصدها الناس اليوم من العلوم العصريّة، ومن اعتمادهم الطرق والمناهج الفكرية على اختلافها وتناقضها.

وإنه لمن الثابت أن المجتمعات الأكثر شقاءً وإرهاقاً لأفرادها، ومجموعاتها، هي المجتمعات الأكثر مدنيةً وتقدماً تقنياً. وتغلب على حياة أفراد هذه المجتمعات الميول المادية على اختلافها، لأنهم ابتعدوا عن القيم المعنوية، وتركوا ـ أو كادوا ـ الإيمان الديني نهائياً. فالعقلية الغربية السائدة، إجمالاً، لا تنكر حقيقة وجود الله تعالى، ولكنها لا ترى فائدة ـ وهي أيضاً لا تفسح مجالاً ـ لتطبيق أوامر الله تعالى ونواهيه على النظم التي تعيش في ظلها، حتى أنها اصطنعت نمطاً جديداً للتفكير يقوم على العجز الفكري للإحاطة بالحياة ككل. وبات الأوروبي أو الأميركي أكثر ميلاً لأن ينسب الأهمية العلمية إلى العلوم التجريبية، أو إلى الأفكار التي يؤمِّل منها أن تؤثر في صلات الإنسان المجتمعية بطريقة ملموسة.. وبما أن حقيقة وجود الله تعالى لا تقع تحت هذا النمط الفكري القائم على المعادلات المادية والحسية، فإن التفكير المهيمن على الغرب يميل ـ بداءة ـ إلى إسقاط النظام الفكري المنسوب إلى منهج الله تعالى من دائرة الاعتبارات المادية أو العملية إسقاطاً نهائياً.

وتسيطر على ديانة العالم الغربي، اليوم، المغريات المادية، ولا أثر للروحانية فيها إلّا قليلاً.. أي أن الدين والدنيا ـ لدى أوروبا وأميركا ـ سواء. وتغلب على الناس هناك مادية تملك عليهم القلوب والعقول، وتخضع لها الشعور والإحساس. وهذه المادية هي التي تتحكم بالنفوس من غير أن يكون للديانات السماوية عموماً، والنصرانية خصوصاً ـ باعتبارها دين تلك البلدان ـ إلا تأثير يسير، اللهم إلا من حيث التعصب لبعض الطقوس والمعتقدات التي لا يرضى الله سبحانه عنها. وهذا ما يتضّح لكل ملاحظ لا ينخدع بوجود حشود من الناس في الكنائس أحياناً، ولا بمظاهر الطقوس الدينية التي تزيد من أبهة الكنيسة والتي يجد فيها الناس عادة مناسبات أو مظاهر للترويح عن النفس.

لا بل إن المجتمعات في الغرب، التي تدّعي المدنية، لا تقيم اعتباراً لمكرمة الخلق البشري، وهي تهدر قيمة النفس الإنسانية، في جزء كبير منها، سواء شعرت بذلك أم لم تشعر.. فها هي المرأة مثلاً في الغرب تلهث منذ الصباح الباكر وراء لقمة العيش، حيث تعمل خارج المنزل، مما جعلها تهمل ـ رغم إرادتها ـ الحياة العائلية، وواجبها القدسي المنوط بها في تربية الأطفال والاضطلاع بحمل مسؤولياتهم المعنوية، قبل المادية. لا بل إنها في اضطراب دائم، مشتتة الأفكار والنوازع، قلقة على الغد، وكل ذلك بسبب الأعباء المادية التي تواجهها. هذا عدا كثيرات، من ذوي الحظ التعيس والمنكود اللواتي يقدمن على بيع أجسادهن للمتعة أو لمواجهة أعباء الحياة. فبئس هذا الظلم للمرأة كفردٍ، وبئس تلك المجتمعات، كجماعات إنسانية. ولا يعتقدنَّ أحد أننا ضد المرأة التي تعمل، ولكنْ هنالك فارق كبير بين الأعمال التي تشغل المرأة وتنسيها بيتها وعائلتها،

وبين أعمال قد تترك لها مجالاً أوسع لتحقيق رسالتها في الوجود البشري. فهي قبل كل شيء، أم، وربة منزل، وسيدة مصونة في المجتمع البشري. وعلى عاتقها أمانة مقدسة، في تهـذيب النفس الإنسانية، وفي صقل المشاعر وتوطيد العلاقات الأسرية، لا يعدلها عمل مهما كانت نتائجه وآثاره على المجتمع.

وأما من حيث العلاقة بين الرجل والمرأة، في نظر الإسلام، فهي علاقة نظيفة محترمة، هدفها خدمة النوع البشري، عن طريق الإنجاب الذي يأتي من علاقة زوجية شرعية، لا من روابط الزنى والسفاح. إن بقاء النوع البشري، بل وتقدمه في مضامير المدنية والحضارة، يتوقف على المرأة، مثلما يتوقف على الرجل، فلا يجوز والحالة هذه إرهاق المرأة وإبعادها عن دورها الذي اختاره الله تعالى لها. وكل عمل بخلاف ذلك فإنما يعني تجاهلَ النفس الإنسانية على حقيقتها، وهدر هذه النفس ولو في نصفها ـ على الأقل ـ الذي تكوّنه المرأة.

المزيد من معرفة النفس

من هنا كانت دعوتنا إلى مزيد من معرفة النفس الإنسانية، لكي يمكن إعادة بناء المجتمعات البشرية وفقاً لمستلزمات إنسانية الإنسان. وليست هذه الدعوة إلا لأن هناك نظرتين مختلفتين إلى واقع الحياة، وطرق العيش، تسودان العالم كله اليوم. وهاتان النظرتان هما:

النظرة الأولى: تقوم على أن قسماً من الناس يريدون العيش بهناءة وطمأنينة، إن بالعمل والجد، وإن باتباع الـطرق الملتويـة. والحالة الثانية هي الغالبة على نفوس أبناء العصر. فهم يريدون هذه الحياة الدنيا داراً للمتع والراحة، ونيل أكبر قدر من اللذائذ وإشباع الشهوات...

والحقيقة أن النفس الإنسانية تمرّ بحالات مختلفة، إلاَّ أن تربيتها تربية صالحة تجعلها قادرة على تقبّل مختلف النتائج التي تترتب على تلك الحالات النفسية. فمثلاً إذا استيقن الإنسان أن الأوضاع تفرض عليه أن يبقى في شظف من العيش، فالرغيف الواحد يسعده. وإذا استيقن أنه في بحبوحة من العيش، فإن نفسه لا تعود تصبر على الشظف والفقر، حتى ولو كانت من النفوس التي لا تسعدها كثرة الرفاهية. فالنفس قد تكون في حالة رضىً أو سخط بحسب الظروف التي تحيط بها، وبما نربيها عليه. يقول الشاعر:

والنفس راغبــةٌ إذا رغَّبتهـــا   وإذا تُــردّ إلى قليـل تقنـــع

والله تعالى يقول في محكم التنزيل: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ وهذا يعني أن الإنسان يتجاوز حدَّه، ويستكبر شأنه، ويعدو طوره عندما يتوهم أنه أصبح مستغنياً عن خالقه، إلاَّ من عصمه الله تعالى ورأى في عطائه له وإغنائـه نعمة تستحق مزيداً من الشكر والحمد.

النظرة الثانية: وهي النظرة التي تقوم على مفاهيم إسلامية. فالنظرة الإسلامية ترى أن الإنسان محل للابتلاء في حياته، وأن هذه الدنيا هي دار اختبار له وامتحان. وهذا الاختبار هو الذي يقرر مصيره ومقامه يوم القيامة، يومَ يحاسب الإنسان على كل ما قام به في حياته في دار الدنيا. إنه يوم امتحان لا يجوز أن يُنسى، بل على العكس يجب الاستعداد له بكل عزم وثبات، وبكل إيمان وإخلاص، لأنه لا مجال، وقت الامتحان، للهو أو عبث، ولا لأعذار وندم، بل هنالك نتائج تترتب على أعمال سابقة، فإما الفوز وإما الخسران.

وقد يقدر الإنسان أن يفلت من الامتحان في هذه الدنيا، فلا

يحاسبُ من أحد على ما يأتيه، أما يوم الآخرة ـ يوم القيامة ـ فلا مجال للهروب منه أو الإفلات من قبضته، إنه محتوم على الإنسان أن يمرَّ فيه، لتجازى كل نفس بما كسبت..

ومن خلال النظرة الإسلامية هذه تنطلق جميع الأعمال وجميع المفاهيم والقيم، بما فيها العبادات التي يؤديها الإنسان سواء في منزله أم في أماكن العبادة. إلَّا أن لمكان العبادة، وفق هذه النظرة، مكانة خاصة من التقدير والاحترام، فلا يجوز أن يكون بيت يعبد فيه الله تعالى محلاً لأي لهو أو عبث، أو تفكير بغير العبادة والصلاة. والذين يحاولون الخروج على هذه الاعتبارات الدينية يلحقهم اللوم من الناس، والذم من الله تعالى.

ونحن المسلمين، تعني لنا هذه النظرة بجديتها الالتزام بها بصورة كاملة، لأنها إحدى السبل أو المفاهيم التي نبني على أساسها نفوسنا، وشخصيتنا الإسلامية، وفقاً لما يريده الله تعالى ورسوله الكريم. وقد يكون المزيد من معرفة النفس الإنسانية ضرورة لنا، لا غنى عنها، لأنه يوقفنا على حدود قدراتنا، وحدود المجهول الذي لا حيلة لنا وراءه. ومعرفة النفس ضرورية لنا أيضاً لكي نحدّد في ضوئها ما الذي نملك القدرة عليه، وما الذي لا نملك التصرف فيه، ويخرج عن طوقنا الإنساني. وعندما نعرف ـ تمام المعرفة ـ ما الذي يريده الله تعالى منّا، ولا نشغل بالذي يريده الله تعالى بنا، فإننا نلتزم عندها حدودَ الله تعالى، وحدود طاقتنا البشرية، فلا نهدر هذه الطاقة بلا جدوى، ولا نتخبَّط في هذه الحياة بلا هدى، كما يفعل الكثيرون منا اليوم، من غير تفكير أو شعور، فيعيشون بلا مبالاة كلّية، دون أن يتحرّجوا من شيء!...

ثم إن من الواجب الديني على المسلمين، أن يعرفوا النفس على حقيقتها لأنها هي محل الثواب والعقاب يوم الحساب. فعندما خلق الله تعالى الإنسان، خلق جسده أولاً من سلالة من طين، ثم أمدَّه بالروح التي تهبه الحياة، ولكن هذا التكوين من جسد وروح لم يضفِ على هذا المخلوق قيمة إنسانية، أي أنه لم يصبح إنساناً إلا بعد أن أمدَّه خالقه بملكة المعرفة: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾. ولكن أين تكمن المعرفة؟ إنها في النفس. وهنا تأتي الآية القرآنية الكريمة لتدل على إيجاد النفس، وذلك بقول الله تعالى: ﴿ونفس وما سوَّاها﴾. وهكذا صرنا نعرف أن خلق الإنسان اكتمل بهذه النفس التي فيها ملكة العلم والمعرفة، أي الملكة التي تقدر على الربط والتمييز والإدراك، لتكون هذه النفس محلاً للاختيار والاختبار.

وهنا لا بد من إعادة التأكيد على أمور ثلاثة:

الأمر الأول: هو أن معرفة النفس الإنسانية، بمفهوم الإسلام، تقضي أن لا تكون منفصلة عما يحيط بها من ظروف وظواهر مختلفة، كما تقضي بتجاوز حالاتها الظاهرة إلى حالاتها الداخلية، وما يحيط بها في الخفاء غير الملموس أو المحسوس لبني البشر.

الأمر الثاني: هو أن تكوين الإنسان من جسد وروح ونفس لا يعني أن أي عنصر من هذه العناصر الثلاثة منفصل عن الآخر، أو يعمل بمعزل عن غيره. بل ـ على العكس ـ إن هذه العناصر متآلفة، متواصلة، متفاعلة بارتباط وثيق، وتمازج كلي، بحيث يتوقف وجود أحدها على العنصرين الآخرين. وعليه فإذا تُوفيت النفس أو ذهبت إلى غير رجعة، خرجت الروح وفني الجسد. وإذا خرجت الروح ذهبت النفس وفني الجسد أيضاً. وإذا قطع الرأس، أو توقف القلب، أو

احترق الجسد، أو أصيب بما يعطّل الحياة فيه، خرجت الروح وأجابت النفس.

الأمر الثالث: هو أن الإسلام يأخذ التكوين الإنساني كلاً لا يتجزأ. فهو من ناحية الجسد يقصد هذه الصورة الرائعة للإنسان، بجميع أعضائه الخارجية والداخلية، والوظائف التي تؤديها هذه الأعضاء بدقة متناهية من أصغر شعيرة عصبية إلى أكبر عضو لدى الإنسان. يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (١) .. ويظهر هذا التقويم الأحسن بهذا المظهر الجسماني الذي يمتاز به المخلوق البشري عن سائر المخلوقات الأخرى من كائنات حية أو غير حية.

وأما من ناحية النفس فقد أورد القرآن الكريم بشأنها آيات كثيرة تبين جميع أحوالها، وهذه الأحوال ستكون مدار أبحاثنا في هذا الكتاب.

وأما عن الروح، فكما قلنا، أمرها مخفيٌّ عنا، وحقيقتها مطوية عن مداركنا. لقد أرادَ الله تعالى أن يبقي الروح سراً لحكمة ربانية، فما علينا إلّا أن نتقبَّل هذه الحكمة، لأنها في مصلحتنا بلا ريب، فالله سبحانه وتعالى لا يريد لعباده إلا الخير، لأنه هو اللطيف الخبير.

ونحن لو شرَّحنا الجسد واطلعنا على تركيبه، لأمكن لنا في حال مرضه معالجة ما يطرأ عليه أو يصيبه من خلل في الأعضاء والوظائف، ويعود الجسد بعد المعالجة معافىً سليماً.

وكذلك إذا مرضت النفس حاولنا معالجتها بما علَّمنا الله تعالى ورسوله الكريم من معالجاتٍ مبيَّنة في مصادرنا الإسلامية.

---

(١) التين: ٤.

بقيت الروح ـ التي لا نعلم عنها شيئاً ـ وهي قد تمرّ في حالات من المعافاة أو السقم، وهنا نقف عاجزين عن المداواة والمعالجة لأننا لا نعرف عنها شيئاً، وفق ما شاء الله تعالى، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وعندما يقف الإنسان على حقيقة الأفكار الإسلامية العائدة للوجود الإنساني، أو المتعلقة بالنفس الإنسانية، فإن معرفته عن النفس تكون منطلقة من أسسها الصحيحة، ويمكن أن تصل إلى حد الكمال بالنسبة لهذه النفس. وأهمية هذه المعرفة أنها تجعل الإنسان قادراً على توطين نفسه على التكامل في وجوده كله، لأن الإنسان مدعو لأن يتكامل في هذا الوجود. وهذا التكامل ليس موقوفاً على صغر الإنسان أو كبره، ولا على غناه أو فقره، ولا هو مرتبط بالمركز الأسروي أو المجتمعي، كما أنه ليس مقصوراً على بيئة معينة، أو على زمن دون آخر... إنه عمل متواصل، وجهد دائم، يجب على الإنسان أن يوطن نفسه عليه في كل مراحل حياته، وأن يقوّمها ويدربها على جليل الأعمال، وعلى اعتناق القيم السامية، والسبل القويمة... وقد يستدعي منه ذلك، في أحيان كثيرة، قهر النفس، لأن النفس أمارة بالسوء، فعليه أن يمارس هذا القهر، مهما عظمت آلامه، لكي تعود النفس إلى الاستقامة، وتنأى عن الانحرافات، فيتحقق للإنسان تكامله، وتتحقق له إنسانيته. وقديماً قال الشاعر:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته   أتطلب الربحَ مما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ

وتوطين النفس على التكامل هو أقوى دافع للإنسان كي يكون سليم الطويَّة، نقيَّ السريرة. فالأصل هو الداخل في الإنسان، هذه الأعماق في النفس التي تنطوي على الأسرار، وتخبىء الأفكار، وتحتوي العواطف،

وجميعها تتفاعل في النفس بحركية، وديناميكية لا تهدأ ولا تستكين.

والمظهر الخارجي له أيضاً تأثيره على النفس، وبقدر ما يحاول الإنسان المحافظة على لياقة هذا المظهر وإتقانه بكياسة واتزان، بقدر ما يحس بنوع من الارتياح الداخلي. هذا ما لم يغترَّ الإنسان بنفسه، ويزهو بمظهره، وعندئذٍ يطيح بنعمة الخلق التي وهبه إياها الله تعالى.

وقد دلَّنا القرآن الكريم على هذا الاغترار. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[1]. وهذا الاغترار يأتي قبل كل شيء من نفس الإنسان فيظهره متكبراً، متعجرفاً، لا يعجبه شيء لدى الآخرين، ويتطاول بهذا التكبر حتى على نعمة ربه تعالى الذي خلقه، فسواه، فعدله، جاحداً لفضل الله تعالى الذي يقدر أن يصوره كما يشاء، وأن يركبه في حياته كلها على الصورة التي يشـاء. فتعساً للمتكبرين، المغترين على جحودهم، وَصَغَارِ نفوسهم!

وعندما نذكر أمراض النفس فإن الغاية تكون العمل على شفائها من تلك الأمراض التي تتخبط بها. فالنفس، كما الجسد، لكل علله وأمراضه. ولكنَّ أمراض النفس غالباً ما تكون أشد إيلاماً في وقعها، وربما تكون معالجتها أصعب من أمراض الجسد. ذلك أن الوصفات العلاجية، أو العمليات الجراحية للجسد قد تشفي المريض أو المصاب، إذا ما صحَّ التشخيص أو نجحت الجراحة. بينما أمراض النفس قلَّما تكون الوصفات والمعالجات لها ناجعة وشافية، إلاَّ إذا توصلنا إلى معرفة هذه النفس على حقيقتها، وكانت لديها هي القابلية أو الاستعداد للشفاء. وهذه الصعوبة في

(١) الانفطار: ٦ ـ ٨.

معالجة النفس متأتية من طبيعة النفس الخفية، وما قد تحمل في طياتها من غموض وتعقيد. فقد يشعر الإنسان أحياناً بالانقباض أو الحبور من غير أن يعرف سبباً لهذا أو ذاك، ومثله شعوره بالقلق أو الراحة، بالكبت أو الانفراج.. إنها أحوال نفسية، متنوعة ومتعددة الأسباب والمظاهر، والإنسان غالباً ما يجهل تلك الأسباب في دخيلة نفسه.. ولذلك كان هناك تلازم بين صحة النفس وتكاملها، وبين مرض النفس وانحطاطها. وكما هو معروف، فإن أمراض النفس لا تنعكس على أصحابها وحدهم، بل كثيراً ما يتأثر الآخرون بأمراضهم، ولا سيما الأقربون إليهم، وخاصةً المحبين منهم.

وبما أن الإنسان يعيش مع غيره، وعليه التزامات مادية وأدبية ودينية، كانت صحة النفس من الحاجات الضرورية التي يجب الاهتمام بها، لما لها من تأثير على حياته الفردية، والعائلية، والمجتمعية والإنسانية. وترتبط صحة النفس بمدى علاجها الذي لا يكون إلا بمعرفة كافيةٍ لهذه النفس.

مصادر معرفة النفس

إن معرفة النفس الإنسانية لا تستقيم إلا بفهم دقيق للتصور الإسلامي للإنسان، والوقوف على وجهة نظر الإسلام في العوامل المكوّنة للشخصية السوية والصحة النفسية، أو أسباب أمراض النفس، وما ينجم عنها من سلوك منحرف يخالف منهج الحياة.

والأبحاث في النفس التي تدرس اليوم في المدارس والجامعات العربية والإسلامية مأخوذة جميعها من الغرب والشرق. وقد أشرنا إلى أنهم يعتمدون في وصف الإنسان، وفي ما يسمى «علم النفس» على نتائج البحوث التي يجرونها في بلادهم، ووفق تصورات وفلسفات خاصة بهم، تختلف عن تصوراتنا ومفاهيمنا.

فإذا أخذنا اهتمام «فرويد» مثلاً بالميل الجنسي، نجد أن ذاك الاهتمام يرجع إلى ثقافة العصر الذي عاش فيه هذا الطبيب النمساوي، والتي كانت تعتبر الجنس رذيلة سيئة، وعملية مشينة، على الإنسان الفاضل الابتعاد عنها بل ومقاومتها. ولذلك جاءت أبحاث «فرويد» مبالغاً فيها لدرجة أنه فسَّر جميع الأمراض النفسية على أنها ناشئة عن الكبت الجنسي.

والمجتمعات الغربية اليوم، يغلب عليها الاتجاه المادي، وديانتها ليست النصرانية - على حقيقتها - بل هذه المادية التي تخيم على العقول والنفوس. لذلك كان ابتعادها التام عن الموضوعات التي تهتم بالنواحي الدينية وحصر اهتمامها الكلّيّ بالنواحي المادية وحدها في مختلف المجالات.

ونحن، وإن كنا نحاول مراجعة ما وصلت إليه تلك الأبحاث والدراسات عن الإنسان وأحواله النفسية، إلاَّ أن جهودنا سوف تنصب على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كمصدرين أساسيين لمعرفة النفس الإنسانية، لأن هدفنا أن نقدم للجيل الصاعد، وللأجيال القادمة - بإذن الله تعالى - منطلقات وقواعد يرتكز عليها في معرفة النفس، لا مجرد نظريات تصاغ، أو تجارب على أشخاص أو حيوانات تقاس عليها بقية الناس، أو ابتداع مقاييس وقوانين تعتمد لمعالجة مرضانا.. أبداً لن نحاول ذلك، ولن نتأثر أيضاً بالاستنتاج الذي انتهى إليه الفلاسفة أو أهل المنطق وعلم الكلام. فكل ذلك لن يكون له علاقة بمواضيعنا إلا بالقدر الزهيد الذي يُوضِّح البحث أو يوجب إعطاء فكرة معينة..

لذلك، ولأن الهدف الوصول إلى فهم أدق، ومعرفة أعمق بالنفس الإنسانية، سوف يكون اعتمادنا على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

وما تُوصِّل إليه من فهم سليم. ذلك أن في هذين المصدرين ما يغني ويحقق الغاية المنشودة بعد بذل الوسع في الجهد، والإخلاص في النية والعمل.

والقرآن المجيد يتناول النفس الإنسانية في كثير من آياته الكريمة. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[1]. ويصف القرآن الكريم بأنه ﴿هدىً وشفاءٌ﴾. وبأنه تعالى أنزل في قرآنه شفاء، يقول تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2].

ونحن، من خلال تجاربنا البشرية نجد في نفوس الناس نوازع مختلفة. فهنالك نفوس كثيرة تعيش في الظلمات بعيدة عن النور، تخيم عليها أجواء الكفر والإلحاد. وهنالك نفوس كثيرة طغت عليها الميول المادية فأفقدتها سلامتها وجعلتها تعيش في الأوهام والضياع..

وفي مفاهيمنا الإسلامية أن الرسالات السماوية ما أنزلت إلاَّ لمعالجة الإنسان في نفسه ووجوده، ورد النفوس الشاردة، التائهة في صحارى الكفر إلى واحة الحق والإيمان، وإصلاح تلك النفوس بعد أن تمرغت في أوحال الفسق والفجور. فما من رسالة سماوية إلاَّ وكانت تهدف لإصلاح نفوس الناس، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

وتعاليم الله تعالى إلى عباده، تفرض عليهم أن يحاسبوا أنفسهم في كل حين حساباً ذاتياً، دقيقاً وشديداً، على ما أدركت تلك النفوس وميزت واختارت، وعلى ما سعت وباشرت وعملت. فإن كان في إدراكها زيغ أو

---

(١) الإسراء: ٨٢.

(٢) يونس: ٥٧.

انحراف وجب تقويمه، وإن كان في عملها تقصير أو نقصان وجب تلافيه أو إكماله، وإن كان منها ظلم أو فساد اقتضى نبذه واقتلاعه. . أما إذا جهل الإنسان هذا التقويم التهذيبي اليومي، أو تجاهل مساوىء نفسه وشرورها، كما يفعل كثيرون، على الرغم من معرفتهم لما تحتويه عقيدتهم الدينية من تهذيب للنفس وتقويم لاعوجاجها، فإن مثل هذا الإنسان لا يكون جاهلاً لحقيقة نفسه وحسب، بل ومنكراً لمكرمته الإنسانية، وجاحداً لاستخلافه في الأرض. وإنسان يصل إلى هذا الدرك من الانحطاط ربما يكون عزله عن مجتمعه أفضل له ولغيره، بل وموته أجدر من بقائه ضالاً مُضِلًّا، وذلك لكي لا يزداد غياً على غي، وفسقاً على فسق، ونفاقاً على نفاق. .

والرسول الكريم، الذي ساد على البشر جميعاً بالخلق العظيم، يوجهنا إلى تهذيب نفوسنا، وتقويم اعوجاجها بصورة دائمة ومتواصلة، في ما يأتيه الإنسانُ يومياً، لما له من أهمية في حياتنا، فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون، ومن لم يتفقد النقصان في عمله كان النقصان في عقله، ومن كان النقصان في عمله وعقله فالموت خير له من حياته».

هذا هو القانون التهذيبي الذي سنَّهُ محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وهو قانون يصلح لكل زمان ومكان من أجل محاسبة النفس وتقويمها نحو الصلاح والفلاح. وليس في حساب النفس أي خسارة للإنسان، بل هو ربح وفير ودائم لها، لأنه يؤدي إلى صحتها وسلامتها، بما يرضي الله تعالى ورسولَه الكريم. والنفس هي مستقر الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، والامتثال لأوامره ونواهيه. وحساب النفس أو مجاهدتها هو كالجهاد في سبيل الله تعالى سواء بسواء. بل هو الجهاد الأكبر. يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا

﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1]. ويقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه، في عودة لهم من إحدى الحروب: «انتهيتم من الجهاد الأصغر وبقي عليكم الجهاد الأكبر». فقالوا له: «وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟». قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هو جهاد النفس».

ومجمل القول إن الخالق العظيم ـ جلّ وعلا ـ إلى جانب ما جعل في الأرض كلّها من آياتٍ تدلّ عليه، جعل في النفس الإنسانية آياتٍ مثلَها للموقنين.

إنه سبحانه خلق هذه النفس، وجعل فيها قابليّة التكاثر فخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، ثم طالبهم جميعاً بالتّقوى.

وهو سبحانه الذي أودع في هذه النفس، حين خلْقها، نوازعَها نحو الخير أو الشرّ، وظلّلها برحمته حتى لا تميل إلى السوء. وتركها تخوض معترك الحياة، وأقام عليها حافظاً، وجعلها رهينةً بما تكسب. وعرّفها أنه سبحانه يعلم وساوسها وميولها، ويتحكّم بإيمانها وهداها.

وهو ـ سبحانه ـ الذي كتب عليها الموت عزّاً وقهراً. وأعلمها أنها، بعد الموت، ستجد ما عملت من خيرٍ مُحْضَراً، وما عملت من سوء. وستُجازى بما عملت: إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ.

وهكذا فإن من يتدبّر الآيات البيّنات التي ورد فيها ذكرُ النفس، في القرآن الكريم، يرى أن رعايةَ الله تعالى تظلُّ مُلازمةً لهذه النفس منذ خَلْقِها، ثم خِلالَ مسارِها في دار الدنيا، وإلى حين موتها. ويرى كذلك أن رحمته ـ سبحانه ـ تحوطها طيلة رحلتها هذه كي تظلّ مطهّرةً

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

من أدرانِ الذّنوب، مطمئنةً بنقاوةِ الإيمان. . إلى أن تَرْجِعَ إلى ربِّها راضيةً مرضيّةً، فيدخلها في عباده، ويدخلها في جنّته.

وفقنا الله تعالى إلى ما فيه مرضاته، وهدانا سبله، لكي نتمكن من تحقيق الغاية التي آلينا على أنفسنا بلوغها في هذا الكتاب وهي معرفة النفس الإنسانية معرفة حقيقية من خلال المنظور القرآنيّ والسنّة النبويّة الشريفة. وذلك بعون الله تعالى ، والله ولي التوفيق.



الفصْل الأوّل

- الخَلق
- النَّفس



الخلق

كلُّ من يدقق في آيات القرآن المجيد، يتبين له مقدار الأهمية التي يوليها كثير من هذه الآيات للخلق.. فهي تتناول كيفية خلق السماوات والأرض بجميع أجزائها، والمادة الأولى التي كانت تتكون منها وهي الماء. فأما السماوات فكانت بناءً دقيقاً متناسقاً على اتساع وامتداد لا يعلم مداهما إلَّا الله تعالى، وقد جُعلت طِباقاً، فوق بعضها بعضاً من غير تماسٍّ أو احتكاك، وسويت سبع سماواتٍ، بغير عمدٍ، ذات بروج وكواكب وزينة للناظرين. وأما الأرض فقد خلقها الله سبحانه كروية سابحة في الفضاء، وجعلها في الوقت نفسه ذات سطح يحتوي السهول والأودية والرواسي والبحار، وأنبت فيها من كل زوج بهيج . . .

وهذا الخلق، الذي أوجده الرحمان، ليس فيه أي تفاوت، أو تباين، بل جميعه قائم على نظام دقيق من الشمول، والاتساق، والانضباط، والتلاحم، بما يعجز الفكر البشري عن تصوره، أو اكتشاف أسراره.. وهاتان آيتان كريمتان تتبيّن منهما دقة هذا الخلق وتسييره كما شاء الله تعالى له وقدَّر. وذلك من جملة الحوار الذي كان يدور بين سيدنا موسى عليه السلام وفرعون الطاغية. إذ يسأله فرعون: ﴿ قَالَ

فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ

إن فرعون لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه، عندما قالا له: «إنا رسولا ربك».. ولذلك حاول أن يتهرب من هذه الحقيقة بدافع العناد والتجبُّر، فجاءه جواب موسى شاملاً، يبين الصفة التي تفردت بها العزة الإلّهية وهي الخلق، وتدبير هذا الخلق جميعاً، ﴿قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾. إنه ربنا، ورب السماوات والأرض، ورب جميع المخلوقات، الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها والخلقة التي فطره عليها. «ثم» أرشد كل مخلوق إلى وظيفته التي خلقه لها، وهداه إلى ما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها. ولفظة «ثم» لا تدل على أن هناك افتراقاً زمنياً بين خلق المخلوق وخلق وظيفته، وإنما هو افتراق في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته، فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه..

وهذا البيان الذي يلخّصه النص القرآني على لسان موسى عليه السلام، فيه أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا، والخلائق والأحياء. وكل ذرة فيه تنبض، وكل خلية فيه تحيا، وكل حي فيه يتحرك، وكل كائن فيه يتفاعل مع الكائنات الأخرى.. حتى الحصى الصغيرة أو حبة الرمل، أو ذرة التراب، لكل منها وظيفة تؤديها في تفاعلها وتناسقها مع غيرها من الكائنات.. وكلها تعمل، منفردة، ومجتمعة، ضمن إطار السنن والقوانين والنظم المودعة في تكوينها وفطرتها، من غير تعارض أو خلل أو فتور في لحظة من اللحظات!.

---

(١) طه: ٤٩ ـ ٥٠.

فكل كائن من الكائنات يعتبر عالَماً بذاته، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها، ضمن القانون العام، وفي توافق وانتظام تامَّين..

والإنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة بالكائنات فإنه يقف أمام المعرفة الحقيقية لأي كائن منها بمفرده، مقصراً، محدوداً في دراسة خواصه ووظائفه، وأمراضه وعلاجه، من غير أن تتناول هذه الدراسة خلقه، أو هدايته إلى وظائفه، فذلك خارج تماماً عن طوق الإنسان وقدرته، لأنه، هو نفسه، آية من خلق الله: وهبه وجوده على الهيئة التي وجد بها، للوظيفة التي خلق لها، كأي شيء من الأشياء. فسبحان الله الخالق، والرب الواحد، ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!.

وقد تناولنا موضوع الخلق هنا بعددٍ يسيرٍ فقط من الآيات القرآنية الكريمة، فالآيات التي تتحدث عن الخلق كثيرة، وكثيرة جداً، إذ يكفي الإشارة إلى أن لفظة «الخلق» وحدها قد وردت في القرآن الكريم ما يزيد على مائتي مرة. ولذلك اكتفينا بالقدر اللازم من الآيات التي يمكننا من خلالها وضع موضوعنا ضمن إطاره العام الشامل، ونعني به موضوع: معرفة النفس الإنسانية. وسوف يكون هكذا الحال بالنسبة إلى كل المواضيع الأخرى التي تتعلق بهذه النفس، وليس بخلقها فقط. لا سيما وأن الخلق يتناول كل ما في الكون والحياة والإنسان، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وبحثنا يتناول خلق الكون إجمالاً، وخلق الإنسان حَصْراً...

---

(١) غافر: ٥٧.

أولاً ـ خلق الكون

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[2].

أيتها المخلوقات في السماوات والأرض، وأنتم خاصةً يا بني البشر الذين أنزل إليكم هذا القرآن، إعلموا أنَّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض. وقد خلقها بتدبير وإتقان، وبحكمة بالغة، يدبّر كل أمر وفق هذه الحكمة فاعبدوه.. أفلا تذكرون؟ ولكن لماذا هذا التذكير؟ لأن القضية الأساسية في العقيدة هي: قضية الربوبية.. فقضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدي من المشركين. ويدل التاريخ البشري على أن الفطرة البشرية لا تستطيع التخلي عن الاعتقاد بوجود إله لهذا الكون، إلا في حالات نادرة غير سوية، وحتى في هذه الحالات فكثيراً ما يقولون بأن هنالك قوة مسيّرة لهذا الكون ولكنهم يجهلون كنه هذه القوة... فالقضية إذن هي الربوبية وقد كان البشر يشركون مع الله أرباباً يتوجهون إليهم بالعبادة، إما ليقربوهم إلى الله

(١) هود: ٧. (٢) يونس: ٣ ـ ٦.

زلفى، وإما ليكونوا شفعاء لهم عنده سبحانه. وأحياناً كان بعض الأفراد من البشر يدَّعون الربوبية، وهم الحكام الوثنيون القدامى كالنمروذ أيام إبراهيم عليه السلام، وفرعون أيام موسى عليه السلام وأشباههما.. فأولئك الحكام كانوا يشرعون لأنفسهم شرائع خاصة لحكم الناس واستعبادهم حتى يصل بهم الأمر إلى ادعاء الربوبية. وذلك منتهى الجهل والضلال والكفر..

والقرآن الكريم لا يريد أن يدخل هنا في جدل ذهني حول قضية الألوهية ولا حول قضية الربوبية، بل يحاول أن يذكر الناس مخاطباً فيهم الفطرة البشرية التي فطرهم الله تعالى عليها. وبهذا التوجه إلى المنطق الفطري يقول لهم: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض، أفلا تتذكرون؟ وإن كنتم لا تتذكرون هذه الحقيقة فانظروا إلى ما حولكم في خلق السماوات والأرض: هذه الشمس المضيئة، وهذا القمر المنير، وما ترونه من تعاقب الليل والنهار. وهذا الطير الغادي القافز الذي لا يستقر على حال. وهذا النبت النامي المتطلع إلى النمو والحياة. وهذه الأرحام التي تدفع، والقبور التي تبلع، وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة في تدافع وانطلاق.. هذه المخلوقات كلها أفلا تدركها حواسكم؟ بلى.. إذن من خلقها؟ إن ربكم الذي يستحق الربوبية والعبادة هو هذا الخالق، الذي خلق السماوات والأرض «في ستة أيام».. هذه الأيام الستة لا تدخل في المقاييس الزمنية التي أوجدتموها. ولا علاقة لهذه المقاييس، لا من قريب ولا من بعيد، بما يريده الله تعالى من هذا العدد، فهو غيب من غيب ربكم، لا يعرف الإنسان كنهه وسرَّه. إنه فقط إشارة إلى حكمة التدبير والتقدير والنظام الذي يسير به الكون من بدئه إلى منتهاه.

﴿ثم استوى على العرش﴾ والاستواء عل العرش كناية عن مقام

السيطرة العلوية الثابتة الراسخة. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن الحدوث وما يتعلق به من الزمان والمكان، لذلك لا يجوز السؤال: أين كان ـ سبحانه ـ قبل أن يستوي على العرش؟ فلفظة «ثم» تفيد هنا البعد المعنوي، لأنَّ القاعدة الكلية في الإسلام هي تنزيه الله سبحانه عن تعاقب الهيئات والحالات، وعن مقتضيات الزمان والمكان... لا يقدر الإنسان أن يعرف، وليس له أن يدخل في جدل ذهني حول هذا الأمر، بل عليه أن يؤمن بالقاعدة الكلية المذكورة، ثم ينصرف إلى التأمل في نفسه، وفي هذا الكون وآياته، ليدرك عظمة الخالق وقدرته سبحانه في تدبير الأمر كله.

وقد تكون هناك نظريات علمية كثيرة حول تكوين الكون، وما فيه من عجيب الصنع، ودقة التركيب، وما فيه من نُظُمٍ محكمةٍ تربُط بين مختلف أجزائه، وتجعله متماسكاً على الشكل الذي هو فيه.. مثل هذه النظريات موجودة ولا شك، ولكن ليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقاً من النظريات «العلمية» ـ حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق عليها، كما يبين لنا ذلك بعض العلماء في أحيان كثيرة ـ وقد أثبتنا في المقدمة ونعيد التكرار هنا للتأكيد بأن النظريات «العلمية» قابلة للتغيير أو التبديل بنظريات جديدة، وكثيراً ما اهتدى العلماء إلى فَرْضٍ جديد، وجدوه أقرب إلى تفسير الظواهر الكونية من الفرض القديم الذي قامت عليه النظرية الأولى.. وهذا ما لا يتفق مع القرآن لأن النص القرآني صادق بذاته، اهتدى العلم إلى الحقيقة التي يقررها النص أم لم يهتدِ. وهناك فرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية. فالحقيقة العلمية قابلة للتجربة ـ وإن كانت دائماً احتمالية وليست قطعية ـ أما النظرية العلمية فهي قائمة على افتراض يفسر ظاهرة كونية أو عدة ظواهر، وهي قابلة للتغيير والتبديل

والانقلاب. ومن ثَمَّ لا يُحمل القرآن عليها، ولا تُحمل هي على القرآن. فلها طريق غير طريق القرآن، ومجال غير مجال القرآن.

ولعلَّ القول بأن النظريات «العلمية» تتوافق مع النصوص القرآنية يتجافى مع جدِّية الإيمان بالقرآن الكريم، واليقين بصحة ما فيه، والاعتقاد بأنه من لدن حكيم خبير، أحكم آياته عن حكمة، وفصّلها عن علم ودراية. بل إنَّ العملَ بذلك يعتبر هزيمة للإيمان بالقرآن ناشئة عن الفتنة «بالعلم» وإعطائه أكبر من مجاله الطبيعي الذي لا يصدق ولا يوثق به إلا في دائرته، وإلى حين من الزمن، حتى يأتي علم آخر ينقضه، وينسفه من أساسه. لذلك ننصح من يحسب أنه، بتطبيق القرآن على «العلم»، إنما يخدم القرآن ويخدم الحقيقة، ننصحه أن يبتعد عن هذا الأمر حتى لا يعتبر إيمانه ناقصاً. فالحقائق العلمية التجريبية قد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل حريته، ويصل إلى النتائج التي يصل إليها. في حين أن القرآن أوكل نفسه بتربية هذا العقل على الصحة والسلامة والاستقامة وتحريره من الأوهام والأساطير والخرافات. كما عمل القرآن على إقامة نظام للحياة يكون لهذا العقل فيه مجاله الواسع بما يقوي الإيمان وتنتفع به البشرية.. ولم يتعرض القرآن للحقائق «العلمية» إلا نادراً، مثل أن الماء أصل الحياة، والعنصر المشترك في جميع الأحياء، ومثل أن جميع الأحياء أزواج، حتى النبات الذي يلقح من نفسه فهو يحتوي على خلايا التذكير والتأنيث...

وبعد هذا الاستطراد، لا بد لنا من العودة إلى النص القرآني: ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء، ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾.. وهذا يعني أنه سبحانه خلق السماوات والأرض في هذا الأمد، لتكون صالحة ومجهزة لحياة الجنس

البشري. كما جهز هذا الجنس باستعدادات وطاقات، وبنى قانون وجوده على ذات القانون الذي يحكم الكون، ثم ترك له (للإنسان) الاختيار في حياته، الذي يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعينه الله تعالى عليه ويهديه، أو أن يتجه إلى الضلال فيمد الله تعالى له فيه، أي أنه سبحانه ترك الناس يعملون ليبلوهم أيهم أحسن عملاً. فكأن خلق السماوات والأرض ـ مع سيطرة الله سبحانه على مقاليدهما ـ كان من أجل ابتلاء الإنسان، ليعظم هذا الابتلاء، ويشعر الناس بأهمية خلقهم وبجدية ابتلائهم، وبأن من وراء ما يقومون به في حياتهم هذه ما يجازون عليه: إما خيراً فنعيم، وإما شراً فجحيم.

وكما في القرآن الكريم هذا البيان للخلق، فإن فيه أيضاً إيقاظاً للوعي عند الكافرين إلى كثير من الحقائق التي يرونها من حولهم، ويدركونها بحواسهم، من مثل: أنه بدون الماء لا يمكن أن يكون هنالك كائن حي.. وأن في الأرض الجبال العالية حتى لا تميد بمن عليها.. وأن الفجاج والسبل وطرق المواصلات البرية والبحرية والجوية من أجل هدايتهم إلى وظائفهم، وتحصيل أرزاقهم، وتعارفهم فيما بينهم. فهذه كلها أشياء محسوسة، وهم يعلمون أنها ليست من صنع الإنسان. والقرآن الكريم يؤكد لهم أنها من صنع الله تعالى، أفلا يؤمنون بعد ذلك بربوبيته ـ سبحانه ـ وبأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له؟!... يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1]...

(١) الأنبياء: ٣٠ ـ ٣٣.

يتوجه النص القرآني إلى الكفار بدليل العلم: ﴿أولم يرَ﴾ أي أو لم «يعلم» الذين كفروا؟ وإن كانوا لا يعلمون: فليحاولوا أن يسألوا أهل العلم ليدركوا القدرة في خلق السماوات والأرض التي كانت مسدودة أو كأنها قطعة واحدة ففتقها الله تعالى، ليتم التكوين على أحسن ما يكون.

إن مسألة السماوات والأرض ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ مسألة جديرة بالتأمل كلما تقدم علم الفلك في محاولة جديدة لتفسير الظواهر الكونية. والنظرية القائمة اليوم تقول بأن المجموعة الشمسية ـ مثل سائر مجموعات النجوم الأخرى ـ كانت سديماً، ثم انفصلت وأخذت شكلها الحالي، حيث يوجد حولها مجموعة من الكواكب، ومنها الأرض، والقمر، والزهرة، والمريخ، وعطارد الخ... أما بالنسبة للأرض، فقد كانت قطعة من الشمس ذاتها ثم انفصلت عنها وبردت حتى صارت على تركيبها الذي نعرفه. ولكن تلك النظرية الفلكية التي تقول بانفصال الأرض عن الشمس، تقوم إلى جانبها نظريات أخرى، لا تقول بأن الأرض قد انفصلت حكماً عن الشمس، بل قد تكون انفصلت عن كوكب آخر، أو عن نجم آخر.. بمعنى أن انفصال الأرض عن الشمس لم يعد ثابتاً وجازماً بالمنظور العلمي..

أما الحقيقة القرآنية، والتي تؤيدها النظريات العلمية، التي جاءت بعدها بزمن بعيد، فهي تشير فقط إلى انفصال الأرض عن السماء.. كيف تم هذا الانفصال؟ وما هي السماء التي انفصلت منها؟ وهل كانت كتلة نارية ثم بـردت؟ وهل أصلها غير ذلك؟... تلك أمور لم يتعرض لها النص القرآني من قريب أو بعيد.. ومع ذلك فهو يؤكد حقيقة مطلقة ونهائية وهي: أن الأرض كانت ملتصقة بشيء ما، ثم فصلت عنه بأمر الله القدير ﴿ففتقناهما﴾ ليحصل هذا الفتق، أو هذا

الفصل، كما قدَّر له الخالق العظيم أن يحصل، وللغاية التي من أجلها كان خلقه.

وهكذا جاء علم الفلك ليثبت الحقيقة القرآنية حول فتق الأرض عن شيء آخر، فلا يكون ثمة تعارض بين القرآن وعلم الفلك بهذا الخصوص. ولكن ما تجدر الإشارة إليه هو أنه لم يثبت حتى الآن أن ثمة فائدة ترجى من معرفة المصدر أو الشيء الذي فصلت عنه الأرض. ولعدم هذه الجدوى، لم يعد هذا الأمر يشكل محوراً في أبحاث الفلكيين، لأن الاهتمام منصبّ اليوم ـ بعد اختراق جاذبية الأرض، وتركيز منظار (تلسكوب) جبار ما وراء الغلاف الجوي ـ على الوصول إلى كواكب أخرى، بعد غزو القمر خلال الستينات من هذا القرن، لعل الإنسان يجد فيها ما يروي ظمأه للمعرفة، وتعطشه للعلم.

أما فيما يتعلق بالماء، فإنه من الثابت سواء في نظر العالم أو الإنسان العادي، أنه لا شيء يحيا بدون الماء، فهو يدخل في تركيب كل جسم، وكل كائن حي بحاجة إلى الماء لبقائه حياً. وهذه الحقيقة التي يقررها القرآن هي حقيقة راهنة تدركها حواس الإنسان، فما عليه إلَّا أن يعرف بأن الله تعالى هو الذي ﴿جعل من الماء كل شيء حي﴾، لأنه هو خالق السماوات والأرض وما فيهن، ومن فيهنّ. . . أفلا يؤمن الذين كفروا ـ إذن ـ وهذه إحدى أهم الحقائق الكونية التي لا يستطيعون إنكارها؟!. .

﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾. . .

إن هذه الجبال الراسية هي التي تحفظ توازن الأرض فلا تميد ولا تضطرب بما عليها من مخلوقات. أما حفظ التوازن فقد يتحقق في صور شتى: فقد يكون توازناً بين الضغط الخارجي على الأرض،

والضغط الداخلي في جوفها. وقد يكون بروز الجبال في موضع معادلاً لانخفاض الأرض في موضع آخر. وعلى كل حال فإن هذا النص القرآني يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها..

﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون﴾. والفجاج في الجبال هي الفجوات بين حواجزها العالية، وتتخذ سبلاً وطرقاً. وهي تهديهم ـ بني البشر ـ إلى طرقهم في الأسفار. وذكر الفجاج مع الإشارة إلى الاهتداء، قد يثير في القلوب السبيل الذي يقودهم إلى الإيمان، كما يهتدون في فجاج الجبال إلى طرق أسفارهم..

﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾.

والسماء كل ما علا، ونحن نرى فوقنا ما يشبه السقف. والقرآن يقرر أن السماء سقف محفوظ من الخلل في هذا النظام الكوني الدقيق، ومحفوظ من الدنس باعتباره رمزاً للعلو الذي تتنزل منه آيات الله تعالى.

﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، كل في فلك يسبحون﴾.

وهذه حقيقة قرآنية أيضاً أصبحت ثابتة بالتجارب والبحوث العلمية. فالشمس كرة سابحة في فلك خاص بها. والقمر كرة سابحة في فلك الشمس، ومثله الأرض الكروية التي من دورتها حول نفسها يتعاقب الليل والنهار كما تتعاقب الفصول من دورتها حول الشمس. وقد رأى الإنسان بأم العين، في رحلته إلى القمر، كيف أن الأرض كرة تسبح في الفضاء، وهي ممسوكة بالنظام الدقيق الذي يسيِّرها، وبالنظام المتكامل الذي يسيِّر الكون بأسره.. إن هذه الظواهر الكونية آيات معروضة، فكيف يُعرِض الناس عن التفكر بآيات الله وجميل

صنعه في خلقه؟ إن هذه الظواهر لجديرة بأن تهدي القلب إلى وحدة الناموس، ووحدة الإرادة، ووحدانية الخالق المدبر القدير. يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عن خلق الله تعالى للعالم: «أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، بلا رويَّة أَجالها[١]، ولا تجربةٍ استفادها، ولا حركةٍ أحدثها، ولا همامةِ[٢] نفسٍ اضطربَ فيها. أحال الأشياء لأوقاتها، وَلاءم بين مختلفاتها، وغرز[٣] غرائزها، وألزمها أشباحَها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها[٤]. ثم أنشأ ـ سبحانه ـ فتق الأجواء، وشقَّ الأرجاء، وسكائكَ الهواء، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تياره، متراكماً زخّاره[٥]. حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع[٦] القاصفة، فأمرها بردّه، وسلطها على شدّه، وقرنها إلى حدّه. الهواء من تحتِها فتيق[٧]، والماءُ من فوقها دفيق[٨]. ثم أنشأ ـ سبحانه ـ ريحاً اعتقمَ مهبَّها، وأدام مربَّها[٩]، وأعصفَ مجراها، وأبعد منشاها، فأمرها بتصفيق[١٠] الماء الزخّار، وإثارة موج البحار، فمخضته[١١] مخض السِّقاء، وعصفت به عصفها

---

(١) دون أن يفكر فيها ملياً.

(٢) قصير.

(٣) وضع فيها.

(٤) جوانبها.

(٥) على وزن فعّال للمبالغة من زخر. زخر البحر: طمى وتملّأ.

(٦) لا يقف أمامها شيء.

(٧) تحريك.

(٨) حرك بشدة.

(٩) متدفق.

(١٠) مكان وجودها. محل مجتمعها.

(١١) مفتوق.

بالفضاء، ترد أوله إلى آخره، وساجيه[1] إلى مائره[2] ، حتى عبَّ عبابُه، ورمى بالزبد ركامه[3] ، فرفعه في هواء منفتق، وجو منفهق[4] ، فسَوَّى منه سبع سماوات، جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً[5] ، وعلياهنَّ سقفاً محفوظاً، وسمكاً مرفوعاً، بغير عمد يدعمها، ولا دسارٍ[6] ينظمها. ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب[7] ، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً[8] ، وقمراً منيراً، في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيمٍ[9] مائر».

ثانياً ـ خلق الإنسان

الإنسان مخلوق على هذه الأرض. ومن يتتبع آيات القرآن المبين يجد هذا الترابط بين الأصل الذي نشأ منه الإنسان، وهو التراب أو الطين، وبين هذه الأرض التي أوجدها الله تعالى وحدَها من بين الكواكب السيارة في النظام الشمسي صالحة للحياة. فلا بد إذن من إلقاء نظرة وجيزة على هذه الأرض، حتى تُفهم فيما بعد النصوص القرآنية المتعلّقة بخلق الإنسان. . وتجدر بنا الاستعانة هنا باكتشافات علماء الفلك التي لا تتعارض مطلقاً مع ظاهر النصوص القرآنية. وهذه

---

(١) ساكن.
(٢) متحرك.
(٣) متجمع.
(٤) مفتوح.
(٥) لا يسيل.
(٦) مسمار.
(٧) الثواقب: شهاب ثاقب: أي مضيء.
(٨) منتشر الضياء.
(٩) من أسماء الفلك.

الاكتشافات قد دلت على أن هنالك مجرة يقع النظام الشمسي (الشمس وكواكبها) في طرفها. وقد أطلق على هذه المجرة اسم «درب التبان» أو «الدرب اللبنية». ويقع وراء هذه المجرة عالم من السُّدُم، وفي هذا العالم سديم أطلقوا عليه اسم «سديم المرأة المسلسلة»، وهو يبعد عن الأرض مليون سنة ضوئية (يقطع الضوء ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، أي أن مسافة السنة الضوئية تبلغ ستة آلاف مليار ميلٍ تقريباً). ويقدر العلماء حتى الآن، أن هنالك حوالي خمسمائة ألف سديم، ويقولون إنه مع تقدم الآلات التي يستخدمونها، يمكن أن يصل هذا العدد إلى أكثر من مليون سديم.

هذه فكرة وجيزة جداً عن مدى اتساع الكون.. والأرض لا تعدو كونها جزءاً ضئيلاً جداً جداً في الكون الشاسع. وهي مرتبطة بهذه الشمس التي نراها، والتي يقع مدارها على طرف مجرة «درب التبان».. وقد ثبت حتى الآن أن الأرض ـ من بين الكواكب السيارة في النظام الشمسي وعددها حتى اليوم أحد عشر كوكباً ـ وحدها صالحة للحياة، لأن جميع الجهود التي بذلت حتى الآن لاكتشاف حياة على سطح المريخ أو الزهرة ـ وهما من كواكب المجموعة الشمسية ـ قد اصطدمت بالفشل، ولم تظهر آثار للحياة بعد على تلك الكواكب... أما الأرض فهي السيارة الوحيدة التي تصلح للحياة، كما هو ثابت ومؤكد.. وهي تمتاز بكثافة وجاذبيَّة خاصتين بها وحدها. وهي على مسافة من الشمس والقمر تجعل النور والضوء يأتيان إليها بمقدار محسوبٍ من اعتدال الحرارة والبرودة بما لا يحرق كائناتها أو يجمدها. وهي تقوم بدورة يومية حول نفسها يحدث منها الليل والنهار، وتقوم بدورة سنوية حول الشمس تحدث منها الفصول. وهي مزودة بالماء

والهواء... هذه العوامل الطبيعية التي أوجدها الله تعالى، وخصَّ بها الأرض، هي التي جعلتها صالحة للحياة، ولذلك نجد الكائنات الحية من نبات وطير وحيوان وإنسان تعج على سطحها وفي بطون بحارها وأنهارها.

ولا يغيبنَّ عن بال أحد الأسباب والإمكانيات الكامنة وراء خلق كل جنس من هذه الكائنات، وما توصلت إليه الدراسات التجريبية من معارف حول حياة هذه الأجناس وتكاثرها، وتنقلاتها، وطرق معايشها.. ولنترك ذلك كله، قاصرين البحث على هذا الإنسان الذي سادَ على مخلوقات الأرض جميعاً، فكيف نجد نشأته؟ ولماذا كان خلقه مزوداً بهذا العقل الذي امتاز به على سائر المخلوقات؟

يجيب القرآن الكريم، كتاب الله المبين، فوراً، بأن خلق الإنسان إنما كان لاستخلافه في الأرض، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].. فهذه إرادة الله تعالى من خلق الإنسان، ليكون خليفته في الأرض، فيعمّرها بما يملك من طاقاتٍ وقدرات أودعها خالقُهُ فيه، وخصَّهُ بها دون غيره من الكائنات الحية على الأرض. ومن يتتبع آيات القرآن المبين يعرف جيداً أن النشأة الأولى للإنسان كانت من تراب الأرض وطينها. وهذا ما يؤدي للربط بين جعل الأرض صالحة للحياة وبين إنشاء الإنسان منها. وليس هذا وحسب، بل إن الإنسان، الذي يعيش حياته الدنيا على هذه الأرض لا بد وأن يموت ثم يفنى في غبار الأرض أو ترابها الذي نشأ منه أول مرة، فكم هي عظيمة هذه الدلالة، وكم هي مبينة هذه الآية

---

(١) البقرة: ٣٠.

في خلق الإنسان وإماتته. فقد شاء خالقه أن يجبل الإنسان الأول ـ وهو آدم عليه السلام ـ من طين الأرض وصلصالها، ويخلطه بمائها، ثم يسويه على الصورة التي يريد، وما أن يلفحه هواؤها، وتشويه حرارة شمسها حتى يتماسك جسده ويشتد. ثم ينفخ فيه ربُّهُ من روحه، فتدخله الروح ويستوي بشراً حياً، ليضرب في بقاع الأرض، فيشرب من مائها، ويأكل من أرزاقها، ثم ينشىء ما طاب له من المنشآت هو وذريته ليعمّر الأرض بخلافته عليها.

أما كيف كان تكوين الإنسان الذي نعرفه اليوم، والذي لم يتغير قط منذ خلق آدم عليه السلام، وكيف كانت له هذه الحواس، والأعضاء، والأطراف، والقلب، والدماغ... فذلك عائد كله إلى الأنظمة التي أودعها الخالق تعالى في الإنسان الأول، ثم أوجَدَ نظام الزوجية، لتكون للجنس البشري هذه الديمومة المتعاقبة من سلالةٍ إلى سلالة، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

وقد يثار السؤال: ولكن كيف لهذا الجسم الترابي الذي سوّاه الله تعالى أن يصير هذه الكتلة من اللحم والدم، وهذه الأعضاء الداخلية، والحواس الخارجية، وهذه الشرايين والأوردة، بل وهذه الشعيرات الدقيقة التي لا تحصى، وأن يقوم كل عضو بوظيفة محددة له، بحيث تعمل جميعها متناغمة، متناسقة حتى تكون هذه الحياة للإنسان؟ أو قد يسأل: من أين لجسم ترابي أن يحتوي على النطق، وعلى التفكير، وعلى السمع والبصر والشم واللمس، وعلى العاطفة والإحساس... وما ينبثق عنها جميعاً من علائق وروابط ووشائج بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان وبني جنسه، وبين الإنسان والحيوان، وبين الإنسان والجماد!.. عن يقين نجيب: إنَّ النفخة الإلهية في ذلك الجسم، وهي على ما هي عليه من اقتدار وقوة، قد فعلت فعلها في التراب المكوَّن،

فاستوى ـ عندما نفخ الله تعالى فيه ـ بطاقاته وقدراته، التي تجسدها اليوم حياة البشر، كما نرى ونعلم.

وها هي التجارب والاختبارات تثبت أن مادة الكون ذاته تتكون من ذرات العناصر الأربعة: التراب، الماء، النار والهواء، وأن كلاً منها يتكون بدوره من عناصر وعناصر أخرى، وأن هذه العناصر المتفرعة تتكون من أجزاء صغيرة، وكل جزء منها يتألف من أجزاء أصغر بكثير يطلق عليها اسم الذرات (Atomes). وكل ذرة تبلغ من الصغر حداً كبيراً، إذ قدّر قطر الذرة الواحدة بجزء من خمسين مليون جزء من البوصة، ووزن الذرة يتراوح بين جزءين و ٣٩٥ جزءاً من مليون مليار مليار جزء من الغرام...

وهذا الحجم للذرة يراه العلماء كبيراً بالنسبة لحجم الأجزاء التي تتكون منها وهي: الإلكترونات والبروتونات. وللتدليل على ذلك يعتبر الفرق بين حجم الذرة وحجم إلكترون فيها كالفرق بين غرفة وذرة غبار فيها. فتأمل دقة تلك المقاييس.. وكثرة تلك العناصر.. ثم ماذا تحتوي هذه العناصر، وماذا يتفاعل في داخلها؟

يقول أهل العلم إن للذرة غلافاً تدور فيه نواة واحدة أو نويات كثيرة. والغلاف مؤلف من إلكترون واحد أو إلكترونات كثيرة بحسب نوع العنصر. أما النواة فتتألف من بروتون واحد أو من بروتونات كثيرة، ومن نوترون واحد أو نوترونات كثيرة، إلّا الهيدروجين فلا يوجد فيه نوترونات.

والإلكترون عبارة عن وحدة كهربائية سالبة، والبروتون عبارة عن وحدة كهربائية موجبة. والنوترون عبارة عن وحدة كهربائية لا سالبة ولا موجبة (محايدة Neutre).

وبمقتضى هذا التحليل تكون مادة العالم كله، والجسم البشري منه، عبارة عن وحدات أو شحنات كهربائية. أي أن المادة التي يتألف منها العالم هي عبارة عن طاقات كهربـائية متجمـدة بشكل ذرات وعناصر. وكان آنشتين أول من توصل إلى نظرية «النسبية» التي تقول: «إن المادة والقوة شيء واحد». وقد أثبتت التجارب صحة ما وصل إليه عندما أمكن اكتشاف الذرة وتحويل مادتها إلى قوة. وما دام أن المادة والقوة شيء واحد، وقد أمكن تحويل المادة إلى قوة كما ثبت بتحطيم الذرة، فلا شيء يمنع أن يثبت يوماً تحويل القوة إلى مادة.. وهذا ليس ببعيد، وهو أقرب إلى الإيمان بإمكان خلق مادة العالم من العدم.

بعد هذا الاستطراد، نحن نؤمن إيماناً جازماً مطلقاً بأن الله تعالى هو الخالق، وهو على كل شيء قدير. ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1]. فلا نسألنَّ بعدها كيف خلقَ آدم من تراب، وكيف جعلَه على هذا التكوين والتقويم، وكيف أودع في ذريته ـ أو في الجنس البشري ـ النظم الدقيقة التي تربط بين أول خلق وبين تتابع هذا الخلق. والله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[2].

وعلى نفس المنهج يقرر القرآن الكريم، مرة أخرى، حقيقة خلق الإنسان، وما أودع الله تعالى فيه من بديع الخلق، وجمال الخلقة، ورفيع القيمة، بعد أن يبين أن أصله من ماء مهين وذلك بقوله تعالى:

---

(١) يس: ٨٢. (٢) المؤمنون: ١٢ ـ ١٤.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾(1). ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة﴾. الله تعالى المطلع على الغائب والحاضر، لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض، هو العليم بذات الصدور. وهو العزيز القوي القادر على ما يريد. الرحيم فيما يريد وفيما يدبر للخلائق. ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾.. من الذرة الصغيرة إلى أكبر الأجرام.. من الخلية البسيطة إلى أعقد الأجسام.. كلها يتجلى فيها حسن الخلقة، والاتقان، والإبداع..

ومن إحسانه تعالى أنه بدأ خلق هذا الإنسان من طين. ثم جعل نسله من ماء النطفة الذي هو المرحلة الأولى في تطور الجنين. ومن النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام، إلى كمال التكوين الجنيني، في هذه السلالة التي تبدأ بالماء المهين.. وفي هذا النظام الذي أودعه الله تعالى في أصلاب الرجال وأرحام النساء، يبقى الخلق البشري هو ذاته: أصلُهُ من طين، وهي الخلية الحية الأولى التي نشأ منها الإنسان. ثم كان التكوين الكامل لأول إنسان، ومن جملة هذا التكوين أن يخرج من صلبه «ماء» هو عبارة عن نطفة فيها ملايين الحيوانات الزاحفة، التي تصل إلى بويضة المرأة، وبعد التفاعل الذي يحصل في هذه البويضة يبدأ التكوين الجنيني، وتمتد تلك الرحلة المعقدة حتى يخرج المولودُ بعد الحمل على هذه الصورة الحسنة الجميلة، التي أحسن الله تعالى خلقها وأتقن صنعها. والإنسان غافل

(1) السجدة: ٦ ـ ٩.

تماماً عما جرى أثناء تلك الرحلة من الماء المهين إلى المولود الحسن الجميل..

وبهذه المناسبة، لا بد من الإشارة ثانية إلى فساد نظرية النشوء والارتقاء التي تقول: بأن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة إلى الإنسان في أطوار متوالية، وأن هنالك حلقات نشوء وارتقاء تجعل أصل الإنسان المباشر حيواناً فوق القردة العليا ودون الإنسان. إن هذه النظرية خاطئة. وقد سفَّهتها نظرية عوامل الوراثة ـ التي لم يكن دارون قد عرفها ـ وهي تقول بأن التطور في الخلق من نوع إلى نوع ضرب من المستحيل، فلا يمكن أن يتطور نوع القرد إلى إنسان، ولا يمكن أن يتطور نوع النبات إلى حيوان.. لأن هناك عوامل وراثة كامنة في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه، وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه، ولا يخرج أبداً عن نوعه ولا يتطور إلى نوع جديد. فالأسد أصله أسد وسيظل أسداً على توالي القرون. وكذلك الحصان، والثور، والقرد، والإنسان.. وكل ما يمكن أن يقع ـ حسب نظريات الوراثة ـ هو الارتقاء في حدود النوع نفسه دون الانتقال إلى نوع آخر. ونظرية الوراثة هذه، التي شهد بحقيقتها العلماء المتقدمون، والتي هي أساس البحوث اليوم، تبطل نظرية دارون التي أخذ بها أناس مخدوعون، وظلوا زمناً يزعمون أنها حقيقة علمية غير قابلة للنقض.

وهكذا يتبين صدق القرآن الذي لا يحيد عن صوابية خلق الإنسان، مهما تراءى للناس من نظريات وأبحاث.. فهذا الإنسان أنشأه الله تعالى من طين الأرض، ثم سواه، ونفخ فيه من روحه، ليستوي بشراً فيه خصائص التناسل الذي يبدأ بتلك النقطة الصغيرة من

الماء الضعيف، ويحصل فيما بعد الانقسام في الخلية الواحدة والتكاثر، ثم التنويع في أصناف الخلايا المتعددة ذات الطبيعية المختلفة والوظيفة المختلفة، التي تتكاثر هي بدورها، لتقوم كل مجموعة منها بتكوين عضو خاص ذي وظيفة خاصة. وهذا العضو الذي تكونه خلايا معينة من نوع خاص، يحتوي بدوره على أجزاء ذات وظائف خاصة وطبيعة خاصة، تكونها خلايا أكثر تخصصاً في داخل العضو الواحد. . .

من ذا الذي أوجد تلك الخلايا والأعضاء، وأوجد خصائصها ووظائفها غير الله تعالى، غير تلك النفخة من روح الله تعالى التي جعلت من هذا الكائن العضوي إنساناً ذا سمع وذا بصر، وذا إدراك إنساني مميز عن سائر الكائنات العضوية الحيوانية. . إنه الله تعالى الخالق العظيم، الذي يجعل من الماء المهين ذلك الإنسان الكريم. إنه سبحانه هو الذي أودع تلك الخلية الصغيرة الضعيفة قدرةً عظيمةً على التكاثر والنماء، والتطور والتحول، والتجمع والتخصص. ثم أودعها كل تلك الخصائص والاستعدادات والوظائف العليا التي تجعل من الإنسان إنساناً.

ومع هذا الفضل من الله تعالى، ومع كل هذا الفيض الرباني، فإن الناس لا يشكرون خالقهم على فضله. والقليل القليل منهم من يشكر خالقه على نعمة خلقه، وكرم وجوده. .

الموت دليل على الخلق

ومرة أخرى، يبيّن القرآن الكريم قدرة الله تعالى في خلق الإنسان. وهو يؤكد على هذه الحقيقة بأنه سبحانه هو الذي خلق البشر، ثم يعطف النص على حقيقة أخرى ملموسة وهي الموت، هذا

القدر المقدر منه سبحانه وتعالى والذي لا يملك أحد أن يقدّره غيره. . كما لا يملك أحد، غير الخالق منشىء النشأة الأولى، أن يبدل أبناء البشر وينشئهم النشأة الثانية، وهم لا يعلمون شيئاً عن هذه الأسرار التي تعزَّزت القدرة الإلٓهية بها. يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]. فالله تعالى يبين أنه خلق الناس ولم يكونوا شيئاً، وهم يعلمون ذلك، بأنهم لم يكونوا شيئاً. . ولا على أي صورة قبل أن يشاء الله تعالى ويجعل خلقهم باجتماع رجل بامرأة. وبما أنهم لم يكونوا شيئاً، فكيف لا يصدقون إذن أن الله تعالى خلقهم؟.

أنتم لا تصدقون أيها المكذبون، الجاحدون، فهاكم البرهان على خلقكم:

﴿أفرأيتم ما تمنون؟ أأنتم تخلقونه؟ أم نحن الخالقون؟﴾.

هذا المني الذي يودعه الرجلُ رحمَ المرأة والذي يصير جنيناً، ثم إنساناً كاملاً. هل أنتم أيها البشر تخلقونه، أم الله تعالى هو خالقه؟ وماذا لكم من عمل أيها البشر فيما يصيرُ إليه هذا المني؟ إنه المعجزة الخارقة التي تحصل ولكنكم عنها غافلون. وهي معجزة في أن يصير هذا المني، الذي لا يعدو كونه ماءً مهيناً، إنساناً سوياً. وذلك بأن تتولى كل مجموعة من الخلايا التي تقدر بالملايين، والتي تكاثرت جميعها عن الخلية الأولى، بإنشاء عضو أو جانب في تركيب الجسم

---

(١) الواقعة: ٥٧ ـ ٦٢.

الإنساني بحيث تكون هنالك مجموعة خلايا خاصة للعظام، وللعضلات، وللجلد، وللأعصاب، وللعين، وخلايا لصنع اللسان، وخلايا لصنع الأذن، وخلايا لصنع الغدد. . . إلى آخر ما في التركيب البشري من أعضاء وحواس. وكل مجموعة تقوم بعملها وفي المكان المحدد لها فلا تخطئه: فلا تذهب خلايا العين مثلاً إلى البطن فتطلع العين في البطن، بل تصنعها في مكانها المخصص لها من الوجه، ولا تزرع خلايا الأذن أذناً في القدم بل في مكانها المقدَّر في الرأس. . إنها تعمل منفردة ومجتمعة لتنشىء هذا الكيان البشري في أحسن تقويم تحت عين الخالق، حيث لا عمل للإنسان في هذا المجال أبداً!. وبعد ذلك هل من مجال للتردد في الإقرار بعظمة الخالق ووحدانيته وحكمته. أأنتم تخلقون الإنسان أم هو الله الخالق العظيم؟

﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم﴾.

وهذا الموت الذي ينتهي إليه كل كائن حي. كيف يقع؟ وهل من أحد يستطيع دفعه أو ردَّ سلطانه؟ إنه قدر الله تعالى. ومن ثم لا يفلت منه أحد، ولا يسبقه فيفوته أحد. . وإن من يقدر على أن يخلقكم من الماء المهين، ومن يقدر على أن يميتكم في الأجل المقدَّر لكم، لقادر على أن يبدلكم بأمثالكم حتى تستمر عمارة الأرض والخلافة فيها من بعدكم، وذلك إلى أن تحين الساعة التي لا ريب فيها، وتأتي النشأة الأخرى ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ في ذلك العالم المغيب المجهول الذي لا تعلمون عنه شيئاً، والذي لا تدرون عنه إلا ما يخبركم الله تعالى به. هذه هي النشأة الآخرة. . وقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون!.

بهذه البساطة وبهذه السهولة يعرض القرآن المجيد قصة النشأة

الأولى والنشأة الآخرة. وبهذه البساطة وهذه السهولة تقف الفطرة البشرية أمام المنطق الذي لا تعرفه ولا تملك أن تجادل فيه، لأنه مأخوذ من بديهيتها هي ومن مشاهدات البشر في حياتهم (حيث يرون الحياة في المولود الجديد، كما يرون الموت في أي كائن يموت). إنها مشاهدات حية للبشر في حياتهم بلا تعقيد، ولا تجريد، ولا فلسفة تكدّ الأذهان دون أن تبلغ إلى الوجدان.

إنها طريقة الله الحكيم، مبدع الكون، وخالق الإنسان، ومنزل القرآن، في العرض والإيضاح والتأكيد حتى يؤمن الإنسان..

مصدر خلق الإنسان وتصويره

وهذا الماء المهين، هذا المني الذي يخلق منه الإنسان، هل تفكر الإنسان من أين مصدره؟ إن القرآن الكريم يدلُّهُ عليه بقول الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[1]. أجل فلينظر الإنسان مِمَّ خلق، ثم إلى أي شيء يصير من حيث الكمال والخِلقة والصورة الحسنة..

ألم يخلق من المني، الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب؟ نعم إنه يخلق من هذا الماء الذي يجتمع من صلب الرجل، وهو عظام ظهره الفقارية، ومن ترائب المرأة وهي عظام صدرها العلوية. ولقد كان هذا سراً مكنوناً حتى كشفه العلم الحديث وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل، وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة، ثم يلتقيان في قرار مكين (وهو بيت الرحم في المرأة) فينشأ منهما الإنسان.. وبعد هذا الالتقاء، وتكوين الخلايا،

---

(١) الطارق: ٥ ـ ٧.

تبدأ هذه الخلايا البسيطة تعمل ما يعجز الناس جميعاً عن عمله أو تصميمه ولو في جزء واحد من تكوين الإنسان مثل العين أو الأذن أو الفم. بينما خلية واحدة أو عدة خلايا تقوم بأعظم عمل وهو تكوين المخلوق البشري.. فهلاَّ ينظر الإنسان ممَّا خلق؟ ثم كيف يصير إنساناً سوياً، يملك كل هذه القدرات والطاقات الهائلة؟ أجل فليعد الإنسان إلى نفسه وليتفكّر بروية وتبصر حتى يدرك عظمة الخالق. وبعد ذلك العمل الجبار الذي تقوم به الخلايا بأمر الله تعالى، يتكوَّن الجنين ثم يتحدد جنسه من ذكر وأنثى، فمن غير الله تعالى القادر على ذلك؟ يقول عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]. إنه الله تعالى الذي يمنح الأجنّة الصور التي يشاء، ويمنحها الخصائص المميزة لهذه الصور. فهو يتولى وحده التصوير بمحض إرادته ومطلق مشيئته، فيعطي الجنين جنسه من ذكر أو أنثى، ويعطيه صورته من الحسن أو القبح أو الطول أو القصر، وينعم عليه بملكات التفكير والإحساس وغيرها من النعم التي عليها يكون كل مولود جديد.

وعندما يقول: ﴿كيف يشاء﴾ لأنه ﴿لا إله إلا هو﴾، مطلق المشيئة، ﴿العزيز﴾ ذو القدرة والقوة على الصنع والتصوير، ﴿الحكيم﴾ الذي يدير الأمر بحكمته فيما يصور ويخلق، بلا معقب ولا شريك. لا إله إلا هو، الله العزيز الحكيم، البعيد عن الشبهات في وحدانيته، وقوامته، وألوهيته، وربوبيته.

وفي هذا تجلية لشبهات النصارى في عيسى بن مريم عليه السلام ونشأته ومولده. فالله هو الخالق المصور، وهو الذي صور عيسى عليه السلام كيف

---

(١) آل عمران: ٦.

شاء. ولا يكون عيسى هو الرب، أو هو الله ، أو هو الابن، أو هو الأقنوم اللاهوتي الناسوتي... إلى آخر ما انتهت إليه التصورات الغامضة، المجانبة لفكرة التوحيد: الفكرة الناصعة الواضحة التصور، القريبة الإدراك لمن كان له عقل، أو ألقى السمع وهو شهيد...

والله ـ سبحانه ـ عندما يخلقنا ويصوِّرنا في الأرحام، فإنه تعالى يجعلنا على أحسن صورة من الجمال والكمال، وإضفاء الصفة الإنسانية علينا. يقول الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾.. يعني أن الحق هو أصيل في كيان هذا الكون، وليس عارضاً أو نافلة. فخلق الكون قائم على هذا الأساس. وهذه حقيقة يقررها الله تعالى الذي خلق السماوات والأرض. ومثل هذه الحقيقة تمنح نفس المؤمن الطمأنينة والثقة بالحق الذي يقوم عليه دينه، ويقوم عليه وجوده، كما يقوم عليه الكون كله، والوجود كله..

﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾. وهذا التصوير هو أيضاً حقيقة ثابتة لأن الإنسان هو أكمل مخلوقات الأرض من ناحية تكوينه الجسماني، كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعوري، واستعداداته النفسية والعقلية ذات الأسرار الفريدة من نوعها. وبناء على هذه الاستعدادات أوكلت إليه خلافة الأرض، وأقيم في هذا الملك العريض بالقياس إليه.

﴿وإليه المصير﴾. إلى الله المالك مصير كل شيء، وكل أمر

---

(١) التغابن: ٣.

وكل خلق: مصير هذا الكون، ومصير هذا الإنسان في رجوعه إلى الله العظيم، يوم البعث والحساب.

غفلة الإنسان عن خلقه

برغم أن الله تعالى قد خلق الإنسان، وصوره في أحسن تصوير، فإن هذا الإنسان غافل، لاهٍ، سادر، لا يفكر في نعم ربه، وقليلاً ما يشكره على هذه النعم.. لذلك يخاطبه الله ـ سبحانه ـ بعتابٍ رضيّ، ولكن فيه وعيد خفي. يقول تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[1]. إنه خطاب يهّز كل ذرة في كيان الإنسان حين تستيقظ إنسانيته، ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه. وربنا الكريم ـ الذي يقبل منا القليل ويعفو عن الكثير ـ يعاتب الإنسان هذا العتاب الجليل، ويذكره هذا التذكير الجميل، بينما هذا الإنسان ممعن في التقصير، سيىء الأدب في حق مولاه الذي خلقه، فسواه فعدله.

ولو أردنا الوقوف على جمال تكوين الإنسان، وخلقه السوي، لوجدنا من عجائب الإبداع في هذا الخلق ما يفوق تصوراتنا وإدراكنا، وأعجب بكثير من كل ما نراه من حولنا. هناك مؤلفات كاملة في وصف كمال التكوين الإنساني العضوي ودقته وإحكامه. وليس هنا مجال للتوسع في عرض هذا التكوين، ولكن لا بد من الإشارة إلى بعض الأمثلة التي تدل حقاً على قدرة الله العظيم في الخلق والتكوين، وفي الإبداع والتقدير. وهي تتجلّى في جوارح الإنسان وحواسه. وجلاءً للغوامض يقتضي التوقف عند بعض الأعضاء منها:

---

(١) الانفطار: ٦ ـ ٨.

اليد :

هذه الجارحة التي نستعملها في كل شيء هي إحدى العجائب الفذَّة في تكوين الإنسان. وإنه من المستحيل ابتكار أداة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف. إننا بواسطتها نتحكَّم بكافة الآلات والأشياء التي تلزمنا في حياتنا. فمثلاً عندما نقرأ كتاباً نأخذه ونثبته بالوضع الملائم بواسطة يدنا، وعندما نقلب صفحاته، نضع أصابع اليد تحت الورقة ثم نضغط عليها بالدرجة التي نقلبها بها، ثم يزول الضغط بقلب الورقة.. فهي إذن آلة دائبة للعمل والحمل والاستعمال، مع تركيب بسيط جداً إذ تشتمل كل يـد على سبع وعشرين عظمة وتسع عشرة مجموعة من العضلات فقط، ومع ذلك تقوم بتلك الأعمال الهائلة.

الأذن :

ولنأخذ جزءاً منها فقط وهي الأذن الوسطى، فنجد أنها سلسلة من نحو أربعة آلاف حِنْية (قوس) دقيقة ومعقدة، متدرجة بنظام بالغ في الحجم والشكل، بحيث تصبح هذه الحنيات وكأنها آلة موسيقية. وهي معدة لكي تلتقط وتنقل إلى الدماغ أي صوت مهما كان نوعه، من قصف الرعد إلى حفيف الشجر، ومن هدير الطائرة وهي تخرق جدار الصوت إلى خرير الماء الناعم الذي ينحدر من الجبل وينساب في الساقية...

العين :

ونأخذ منها حاسة الإبصار فقط، فهي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء، تشكل أطراف الأعصاب. ويقوم بحمايتها

الجفن ذو الأهداب، الذي يعمل بصورة لا إرادية ويقي العين من الأخطار التي تتعرض لها، وأقلها الغبار والذرات والأجسام الغريبة، ويمنعها من الدخول إليها، كما يكسر من حدة وهج الشمس ما تلقيه الأهداب على العين من ظلال. أما حركة الجفن فهي التي تمنع العين من الجفاف، وتجعلها سائلة بصورة دائمة، ويشكل هذا السائل الذي يحيط بالعين والذي يعرف بالدموع أقوى مطهر لها..

هذه مزايا بعض أجزاء الإنسان.. فكيف بسائر أجهزته الأخرى التي يقال في كلٍّ منها الشيء الكثير.. وهذه الأجهزة ـ على إعجازها الكبير ـ قد يشاركه فيها الحيوان بصورة أو بأخرى. ولكن تبقى للإنسان خصائصه العقلية والنفسية والنطقية الفريدة، التي منحته السيادة على مخلوقات الأرض، وجعلته مستخلفاً فيها. ولئن كانت هذه الخصائص تمثل الصفة الإنسانية في الإنسان إلا أنها ليست أكبر خصائصه، وليست أعلى مميزاته. فهنالك الروح الذي لا يُعرف كنهه. هذا الروح هو هبة الله الكبرى لهذا الإنسان. لأنه نفخٌ منه تعالى، ومخاطبة الله ـ سبحانه ـ للإنسان إنما بسبب هذا الروح، وبسبب ما منحه من عقل مميز. لذلك يأتيه العتاب المخجل، المذيب: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾. بهذا الرب الكريم الوهّاب الذي تكرَّم عليك بجميع هذه الخصائص والمزايا والصفات التي جعلتك أكمل المخلوقات، وبهذا الفيض من الكرم الرباني الذي رفعك إلى أعلى المستويات وأرفع الدرجات بين الخلائق!... أليس عتاباً يقتضي من المخاطب به أن يستحيَ وأن يذوب خجلاً، وهو يعرف ما تفضَّل به خالقه عليه، ثم يحاول أن يتنكَّر لهذه النِّعم، ولهذا الجود، ولهذا الكرم ولهذه العطايا والهبات التي لا تقف عند حدود في إنتاجها وفي النتائج التي تترتب عليها، أي بما يمكن أن يبلغه الإنسان وأن يصل

إليه في العلوم والمعارف والرقي والتطور!..

أليس هو الله تعالى الذي خلقَك أيها الإنسان، فسوَّاك، فعدلك.. أوليس هو القادر على أن يصورك كيفما شاء، ويركبك كيفما أراد؟!.. وقد خلقك فسوّاك في أحسن صورة، وعدلك فجعلك في أحسن تركيب؟ إذن ما الذي جعلك تغترُّ هذا الاغترار بكرم ربك؟ وما الذي جعلك تغترُّ هذا الغرور في معصيته؟ حتى وصلت بك الحال إلى جحود النعمة، والكفر بالفضل، والتنكر للجود الإلٓهي؟!...

لا أيها الإنسان! حذارِ الكفر، والشرك والإلحاد.. بل أولى بك أن تكون حامداً شكوراً، وعابداً أميناً، ومؤمناً صدوقاً... وإلَّا ما نفعك عقل، ولا شعور، ولا كنت أهلاً لهذا الخلق الكريم، ونعوذ بالله من المنكرين الجاحدين..

حالات الضعف التي تعتري الإنسان

ومن العتاب الجليل المذيب، ننتقل إلى تذكير آخر للإنسان بالحالات أو الأطوار التي يمرُّ فيها والتي يغلب عليها الضعف أكثر من القوة، لكي يعتبر الإنسان ويكون له في ذلك تذكرة عسى أن يتذكَّر وتنفعه الذكرى. يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[1] أليست هذه هي الأطوار التي يمر فيها الإنسان: ضعف، فقوة، فضعف وشيبة... ألا يجدر بالإنسان أن يتذكر بداية خلقه وما يكون عليه في رحم أمه، ثم في طفولته، ثم عندما يصبح في

---

(١) الروم: ٥٤.

سن الشباب والفتوة ثم عندما ينحدر إلى الكهولة والشيخوخة!...

﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾... ولم يقل خلقكم ضعافاً أو في حالة ضعف، إنما قال: ﴿خلقكم من ضعف﴾... كأن هذا الضعف هو المادة الأساسية في التكوين البشري، رغم كل مظاهر القوة والإبداع التي تتجلى عنده في حالاتٍ شتى..

والضعف الذي تشير إليه الآية الكريمة ذو معانٍ ومظاهر شتى في تكوين الإنسان:

فهو ضعف المادة الأولى الذي نشأ منها وهي الطين. إذ لولا نفخة من روح الله تعالى لظلّ في صورته المادية من الطين اللين الضعيف الذي لا حول له ولا قوة..

وهو ضعف الخلية الصغيرة التي ينشأ منها الجنين. والجنين ذاته يكون في جميع أطواره واهناً ضعيفاً. وبعد الولادة يكون الطفل، والصبي ضعيفاً حتى يصل إلى سن الفتوة وضلاعة التكوين. وفي سنّ الفتوة هذه يأتي ضعف الكيان النفسي أمام النوازع والميول والشهوات.. هذا بالإضافة إلى أن هناك شعوراً دائماً بالضعف يخالج الإنسان أمام مظاهر الطبيعة العاتية وجبروتها، وأمام النوائب وعصفها.. ولكن هذا الضعف بكل حالاته، ينقلب في طور من أطوار الحياة، قوة بكل معنى الكلمة: قوة جسدية، وقوة فكرية، وقوة نفسية، وقوة شعورية إلى آخر ما هنالك من مزايا في الإنسان... ثم بعد هذه القوى التي يتمتع بها الإنسان، يبدأ بالانحدار من جديد نحو الضعف، بحيث يصبح في حالة مزرية من الوهن، وذلك بعد أن تعصف الشيخوخة والهرم في كيانه الجسدي والنفسي، فلا يعود قادراً على القيام. ولا تعود لديه الإرادة على إتيان شيء، حتى ليهفو الشيخ أحياناً

كما يهفو الطفل.. ومع الشيخوخة الشيب، وهذا الشيب هو تجسيم وتشخيص لهيئة الشيخوخة ومنظرها.. فسبحان الله القادر القائل: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾[1]. إن هذه الأطوار التي لا يفلت منها أحد من الناس عندما يمتد به العمر، لهي من الحقائق الحياتية التي يدركها الإنسان.. وهذه الأطوار جميعاً تبقى في قبضة الله تعالى الذي يخلق ما يشاء سواء من ضعف أو من قوة، ويقدّر ما يشاء، ويرسم ما يريد لكل مخلوق: أحواله وأطواره وأوضاعه وأجله.. وذلك وفق علم وثيق وتقدير دقيق: فسبحان الله الذي ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[2].

خلق الإنسان من الذكر والأنثى

ويتناول القرآن الكريم حقيقة أخرى من حقائق الخلق، وهي أن الإنسان إنما هو جزء من هذا الكون، وأن الله تعالى كما يدبّر هذا الكون، فإنه يدبّر هذا الإنسان، وفقاً للنظم الصادقة التي وضعها سبحانه، وللسنن التي خلقها، لتحكم كل جزء في الكون وفق طبيعة خاصة، ومزايا خاصة به، مع ارتباطها بالنظام الأكبر أو الناموس الشامل الذي يشمل الكون كله. ومن هذه النظم أن جعل خلق الإنسان من الذكر والأنثى، كما في سائر المخلوقات الحية. يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾[3].

يقسم الله ـ سبحانه ـ بالليل والنهار ـ وهما آيتان من آيات هذا

---

(١) النحل: ٧٠. (٢) الروم: ٥٤. (٣) الليل: ١ ـ ١١.

الكون ـ مع صفة كل منهما المميزة: ﴿والليل إذا يغشى﴾ أي يغمر الأرض ويخفيها في جانب منها. ﴿والنهار إذا تجلى﴾، أي طلع وأسفر مع ما يرافقه من نور يجلي الظلام ويظهر الأشياء.. والقسم بهذين المظهرين المتقاربين من دورة الفلك إنما يدعو إلى التفكر في أن هنالك إلهاً واحداً أحداً يسيّر هذا الكون وأفلاكه، بدليل تبدّل الليل والنهار، وفق هذا الانتظام وهذا الاطراد وهذه الدقة في الإدارة والتسيير. وكما يفعل الله تعالى ذلك في الكون كـذلك يدير حياة البشر فلا يتركهم سدىً، كما لم يخلقهم عبثاً. وقد جعل هذا الخلق وفق نظام ثابت، يقوم على التزاوج بين الجنسين اللذين يقسم ـ سبحانه ـ بهما أيضاً وهما الذكر والأنثى، للتدليل على أنه وحده تعالى هو الذي يصور في الأرحام المخلوق البشري من ذكر أو أنثى. حتّى لو استطاع العلم أن يكشف عن العوامل التي تجعل الجنين إما ذكراً وإما أنثى.. إلا أن هذا الاكتشاف لا يغير من واقع الأمر شيئاً. فالذي يأمر العوامل أن تتحد، والأسباب أن تتكون، ليخلق منها ذكراً أو أنثى هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

والذكر والأنثى شاملان للأنواع كلها. إنها مسألة مطردة في سائر الأحياء بما فيها النبات.. فلا يمكن أن يُخلق كائنٌ حي إلَّا من ذكرٍ وأنثى. وليس من خالقٍ غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ يخلق الذكر مرة، والأنثى مرة، بما يتناسب مع خط سير الحياة كلها، ويكفل امتدادها بالتناسب والإنجاب.

وعندما يقسم الله تعالى بظواهر من الكون متقابلة (الليل والنهار) وبحقائق في حياة الناس قائمة (الذكر والأنثى) إنما يقسم بذلك على أن سعيَ الناس مختلف في هذه الحياة: مختلف في حقيقته، مختلف في

بواعثه، مختلف في اتجاهه ومختلف في نتائجه.. ومن كان سعيهم مختلفاً فسيكون أيضاً جزاؤهم مختلفاً حتماً، لأنه ليس من يفعل الخير كمن يفعل الشر، ولا من اتبع الهدى فقاده إلى الحق كمن اتبع الضلال فقاده إلى الباطل، ولا من أصلح كمن سعى في الأرض فساداً. وليس من أعطى من نفسه وماله، واتقى غضب الله وعذابه، وصدق بدينه، كمن بخل بنفسه وماله، واستغنى عن ربه وهداه، وكذب بدينه.. إنَّ لكلٍّ طريقاً، ولكلٍّ مصيراً، ولكلٍّ جزاءً وفاقاً..

خلق الإنسان بقلب واحد

وبعد هذا يبين القرآن الكريم البعد الحقيقي للوجود البشري، البعد المعنوي الذي يقوم عليه وجوده كله في هذه الدنيا والكمال الذي سيصير إليه في الآخرة. فهو يدلي بحقيقة ثابتة وهي أن الله تعالى خلق الإنسان بقلب واحد فقط، من غير أن يجعل له قلبين في جوفه أي في داخله، لأن الإنسان بقلبين لا يمكن أن يعيش حياة طبيعية، إذ عندها تتوزع أفكاره، وعواطفه، ومشاعره، بل وتتوزع أعضاء بدنه بين هذين القلبين، بما يؤدي إلى التضارب والتشابك والتضاد فلا تستقر للإنسان حياة، لأنه لا يمكن أن تستمر حياة قائمة على التضادّ والتضارب في التسيير والحركة... أما بالقلب الواحد، وكما هو خلق الإنسان، فإنه يعيش حالته الإنسانية الطبيعية وفقاً لقوام خلقه وأحقية تقويمه. يقول الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[1]. إنه قول قرآني، يقرر حقيقة واقعة.. ولكن هذه الحقيقة، ورغم البداهة والبساطة اللتين تظهر بهما، إنما تدلُّ على أهم مقومات الإنسان الفيزيولوجية والمعنوية.. ويهمنا هنا أمر الناحية المعنوية فقط، حيث لا

---

(١) الأحزاب: ٤.

يملك الإنسان، بالقلب الواحد، إلا أن يتجه إلى أفق واحد، ويتبع منهجاً واحداً، وأن يكون له تصور كلي واحد للحياة وللوجود، وأن يكون له ميزان واحد يزن به القيم، ويقوّم به الأحداث والأشياء. ومن ثَمَّ فهو لا يعبد بالقلب الواحد إلهين، ولا يخدم سيدين، ولا ينهج منهجين مختلفين، ولا يتجه اتجاهين متضادين. فسبحان الله الذي ما جعل لرجل من قلبين في جوفه، والذي خلقه فسوَّاهُ فعَدَلَه، وهداه إلى ما فيه خيره ونفعه.

تناسق الخلق في الوجود كله

وكما كان الأمر في تناسق خلق الإنسان، فقد أوجد ـ سبحانه ـ الوجود كله على أساس هذا التناسق، إذ كل شيء فيه يحقق التناسق المطلوب كما شاء له خالقُه وقدَّر. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1].

كل شيء: صغير أو كبير، ناطق أو صامت، متحرك أو ساكن، ماض أو حاضر، معلوم أو مجهول، خلقه الله تعالى بقدر. وهذا القدر هو الذي يحدد للشيء حقيقته، ويحدد صفته، ويحدد زمانه، ويحدد مكانه، ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء، وتأثيره في كيان هذا الوجود.

هذا التقدير من الله العزيز الحكيم هو الذي أقام الكون المتناسق، المخلوق كل شيء فيه بقدر. ولقد أمكن للعلماء في العصر الحديث اكتشاف بعضٍ من هذه الحقيقة، وذلك بما مكنهم الله تعالى من وسائل وبما منحهم من طاقات. فقد استطاعوا أن يصلوا إلى إدراك التناسق بين أبعاد النجوم وأحجامها وكتلها وجاذبيتها بعضها لبعض، بل

(١) القمر: ٤٩.

وأكثر من ذلك فقد أمكن لهم تحديد مواقع كواكب لم يروها بعد، لأن التناسق يقتضي وجودها في المواقع المحدّدة لها.. وهذا تأكيد آخر للدلالة على الدقة المتناهية في توزيع مختلف الأجرام في هذا الفضاء الهائل، وبالنسب المقدرة لها التي لا يتناولها خلل أو اضطراب.

وإذا كان التناسق الكامل قائماً في بناء الكون، فمن الأولى أن يكون موجوداً في أحد أجزاء هذا الكون، ونعني به الأرض، وفي جماداتها وأحيائها على اختلاف أنواعها وأشكالها..

ولنأخذ مثالاً على هذا التوازن من علاقات بعض الأحياء ببعض.

إن الجوارح من الطير (كالنسر أو الصقر) التي تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد، لأنها قليلة البيض، قليلة التفريخ، فضلاً عن أنها لا تعيش إلا في مواطن خاصة محدودة. وهي في مقابل هذا طويلة الأعمار. ولو كانت مع عمرها الطويل، كثيرة التّفريخ، مستطيعة الحياة في كل موطن، لقضت على صغار الطيور وأفنتها على كثرتها. أو لكانت قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة لطعامها، ولطعام بني الإنسان، وللقيام بأدوارها الأخرى ووظائفها الكثيرة في هذه الأرض.

والذبابة الواهية، الضعيفة تبيض ملايين البويضات، ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين. ولو كانت تعيش بضعة أعوام، تبيض فيها بهذه النسبة، لغطّى الذباب سطح الأرض بنتاجه، ولغدت حياة كثير من الأجناس ـ وأولها الإنسان ـ مستحيلة على وجه هذه الأرض. ولكن تقدير الله العزيز في تدبير هذا الكون وتوازنه، وازن بين كثرة النسل وقصر العمر (كما للذباب) وبين قلة العدد وطول العمر (كما بالنسبة للجوارح من الطير). فكان هذا الذي نراه.

إنه تقدير في الزمان، وتقدير في المكان، وتقدير في خلق

الإنسان ليعرف حقيقة الخلق الإلٓهي. فسبحان الله الواحد القدير المقدِّر.

ومرة أخرى يكشف لنا القرآن الكريم أن هذا الإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن الخصائص وأرقاها، وأعطاه من القوة والقدرة، وكل الآلاء التي وهبها لـه ـ سبحـانه ـ في نفسـه، وفي صميم تكـوينه.. هذا الإنسان لا بد أن يواجه الحياة وأن يكدح فيها من أجل نفسه، وفي سبيل الله تعالى. وهذا ما يقرره القرآن بقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[1]. ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[2]. البلد هو مكة وفيها بيت الله الحرام. وفي مكة ولد محمد ﷺ وبعث ﷺ نبياً ورسولاً. والله ـ سبحانه ـ عندما يقسم بهذا البلد فإنه يزيده حرمةً وشرفاً وقيمةً. وفي هذا تكريم لرسول الله ﷺ وهو مقيم في هذا البلد، وحالّ فيه، وفيه أيضاً زيادة في التشريف لهذا النبي الذي كلف حمل أعظم رسالات السماء إلى الأرض، وأكملها فيما تقوم عليه من عقيدة وشريعة..

ثم أقسم ـ سبحانه ـ ﴿ووالد وما ولد﴾ ليلفت نظرنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود البشري ـ وهو طور التوالد ـ وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع، وإلى ما يعانيه الوالد والمولود من إبقاء النشء، وتكميل الناشىء، وإيصاله حده من النمو المقدر له، وفي ذلك ما فيه من المكابدة والعناء الذي يلاقيه كل منهما في سبيل حفظ الأنواع. وقد يكون المعنى أنه تعالى يقسم بآدم وما ولد من الأنبياء وأتباعهم من الأولياء الصالحين.

---

(١) الانشقاق: ٦.

(٢) البلد: ١ ـ ٤.

وأياً كان الذي يقسم به الله تعالى فهو شيء عظيم.. عظيم في قيمته ومقداره، وعظيم في أصله ومآله.. وهذا القَسَمُ من رب العزة والاقتدار إنما كان على حقيقة ثابتة في حياة الكائن الإنساني: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾.

يقسم الله تعالى بقسمه العظيم الجليل بالبلد، وبوالد وما ولد، على أنه خلق الإنسان في مكابدة، لكي يكابد مشاق الحياة. إذ إن معنى الكَبَد في اللغة هو المشقّة والشدَّة. فالإنسان مخلوق للمشقة والشدة، والمعاناة والكد، والكفاح منذ لحظة الحمل فيه، ووقت الحمل، وأثناء الولادة، وفي زمن الرضاعة والفطام، إلى أن يبدأ رحلة عمره في الحياة وحتى نهايته، مع كل ما يصادف خلال هذه الرحلة من تقلبات في شتى جوانب حياته وأحواله وأوضاعه. بل إنه سبحانه لم يخلق خلقاً يكابد ويعاني مثل ما يكابد ابن آدم مع أنه من أضعف المخلوقات.

وتختلف الطرق، وتتنوع المشاق التي يكابدها الناس، كما تختلف الاتجاهات والغايات التي يعملون لها. ولكن الجميع يكدحون ويكابدون. ويستقر الكدح في الآخرة، ويكون هذا الكدح إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار، حيث تكون الراحة الكبرى للسعداء، وحيث يكون الكَبَد الأكبر للأشقياء.

الله تعالى عليم بخلقه

ينوهم الإنسان أحياناً أنه يقوم ببعض الأمور، أو يعقد النية على بعض القضايا، وذلك بصورة خفية، كي يأمن الآخرين من الجهر بها في العلانية. وقد يصحّ هذا بالنسبة إلى الناس، وينجح الإنسان

في إخفاء أشياء كثيرة، أو الاحتفاظ بسرها لنفسه. . ولكن هل يمكنه أن يخفي شيئاً حتى في أعماق نفسه عن الله تعالى الذي خلقه؟ مستحيل! لأنه ـ سبحانه ـ يعلم السر وأخفى، والجهر والعلن، يعلم ما يفعل الإنسان في الظاهر، وما يخفي في الداخل، يعلم سبحانه ذلك لأنه هو الذي خلق الإنسان. ومن خلق ألا يعلم ما خلق ومَن خلق؟؟

يقول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

افعلوا ما شئتم أيها الناس. وقولوا ما شئتم، واجعلوا قولكم في السر أو اجهروا به، فإن الله تعالى يعلم به. بل هو ـ سبحانه ـ يعلم ما هو أخفى من القول في السر أو الجهر. ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ إنه عليم بالنوايا التي لم تفارق الصدور وقبل أن تصير كلاماً أو فعلاً. إنه عليم بما تخفي الصدور، لأنه هو الذي خلق هذه الصدور. إذن: «ألا يعلم من خلق؟» وهو الذي خلق ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ أي العالم بما لطف ودق، والخبير بالعباد وبجميع ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال. . وهذا ما يجعل البشر، وهم يحاولون التخفي من الله تعالى بحركة أو نية، أو سرٍّ في النفس، يبدون جاهلين، مضحكين. فالصدر الذي يخفون فيه سرهم، والقلب الذي تعقد فيه نواياهم هما من خلق الله، فماذا يخفون إذن وممن يستخفون، والله تعالى خالقهم وخالق كل شيء؟.

والقرآن الكريم يُعنى بتقرير هذه الحقيقة في القلب لأن استقرارها فيه يوفّر للإنسان إدراكاً صحيحاً للأمور، فوق ما يودعه هناك من يقظة وتقوى وإيمان تناط بها الأمانة التي يحملها المؤمن في هذه

(١) الملك: ١٣ ـ ١٤.

الأرض: أمانة العقيدة، وأمانة العدالة، وأمانة التجرد لله تعالى في العمل والنية. وهذا لا يتحقق إلا حين يستيقن القلب ـ وفيه يكمن السر والنيّة ـ أنه هو وما يكمن فيه من خلق الله تعالى، وأنه ـ سبحانه ـ يعلم كل مخلوقاته الصغيرة والكبيرة على حد سواء. وهو ـ سبحانه ـ اللطيف بهذه المخلوقات، الخبير بخلقها وبما يصدر عنها.

ألا إنه هو الله الخالق العظيم، وهو على كل شيء قدير. يقدر على كل صغيرة وكبيرة في خلقه. وقدرته ـ سبحانه ـ واضحة، مؤكدة في خلق الإنسان، من نقطة ماءٍ لينة، ضعيفة، هزيلة، لا تحمل في حقيقتها قوة أو إرادة أو هدفاً، ولكن حين تتدخل المشيئة الإلَهية، فإنها تهدي هذه النطفة، هذه النقطة الصغيرة من الماء، للقيام بأجلّ الأعمال، وأعظم الأشياء، ألا وهي تكوين الإنسان. فهو تعالى الذي ألهمها وهداها إلى عملها هذا، فنعم القادر هو الله سبحانه وتعالى، وفي قرآنه المجيد القول المبين. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

ألم نخلقكم أيها البشر من ماءٍ قليل، مهين، ضعيف؟ ونحن قد رأينا من قبل، خلق الإنسان من النطفة في تفسير عدد من الآيات القرآنية الكريمة، فلا داعي للتكرار.

ونتوقف هنا فقط عند هذه اللمحات المعدودة التي يسوقها النص تعبيراً عن قدرة الخالق منذ نشأة الجنين، ومروراً بما يصير عليه الإنسان من كمال الخلقة والصورة، وما يحمل من حواس صحيحة،

---

(١) المرسلات: ٢٠ ـ ٢٤.

وعقل مدرك، ونطق سليم.. كل ذلك إنما كان من ماءٍ مهين، كي يعتبر الإنسان مما خُلق، ويكون ذلك حجةً قاطعة عليه في الاعتبار والتدبّر والإخلاص للخالق في كل نية وعمل.

وفي هذه اللمحات تأكيد جديد على أن الله تعالى يبقي الجنين في قرار الرحم المكين إلى قدر معلوم وأجل مرسوم. إلى الوقت الذي تتكامل فيه جميع أنسجته وأجهزته، وتصبح مخلّقةً بالقدر الذي تكتمل فيه حياة الكائن الجنيني، ليخرج إلى النور كاملاً متكاملاً كما شاء له خالقه، وقدر خلقه بإحكام مبارك جميل.

﴿فقدرنا فنعم القادرون﴾. ومن يقدر على مثل هذا الخلق غير الله سبحانه وتعالى؟ فنعم القادر هو، ونعم المدبّر والمقدر، ونعم القادر على ما لا يقدر عليه إلّا الله الخالق العظيم. فـ﴿ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ المنكرين لحقيقة وجود الله تعالى، والمكذبين لرسله وأنبيائه، وغير المصدقين بأنَّ الله ـ سبحانه ـ هو خالقهم وباعثهم يوم القيامة، ومحاسبهم على أعمالهم.. ويل لهؤلاء المكذبين الذين تعاموا عن آيات الله تعالى وآلائه، فحق عليهم العذاب المهين.



النفس

يتكون الإنسان من: جسد وروح ونفس.

والنفس هي غير الروح. ويخلط كثيرون بينهما عند كلامهم عن التكوين البشري.. فالروح سر إلٓهي أودعه الله سبحانه في الكائن الحي. والإنسان، مهما بلغ من علم ومعرفة، لا يقدر على كشف هذا السر. ولو أرادَ الله سبحانه أن يعلم الإنسان شيئاً عن الروح لكان هداه الطريق إلى هذا العلم في قرآنه المبين. ولكنه ـ سبحانه ـ شاءَ أن يبقيه سراً مغلقاً على الإنسان، ولذلك عندما كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر الروح وماهيتها، نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].. وجلُّ ما يمكن أن نعرف عن الروح أنها هي باعث الحركة في الكائن الحي، أما ما هي؟ وهل لها شكل معين؟ وأين تكمن في الكائن الحي، وكيف تدخل وتخرج منه؟! فتلك أمور تدخل في السر الإلٓهي، ولا يمكن لأحدٍ أن يصل إلى علمها بشيء..

وأما النفس فهي التي يتكون منها العقل والتمييز والإحساس،

---

(١) الإسراء: ٨٥.

والغرائز، وما إلى ذلك من تكوينات غير عضوية. ولذلك فإننا نرى أن الآيات القرآنية، وهي تتحدث عن النفس، فإنما تعيّن خصائصها وصفاتها من قبيل قول الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[4].

ولا يمكن أن نجد مثل هذه الأوصاف للروح، ولا يمكن بالتالي إيجاد مقارنة أو تبيان فوارق بينهما. ولكنهما ترتبطان ارتباطاً وثيقاً في حياة الكائن الحي. وقد فسَّر ارتباطهما في حياة الجنس البشري كل من ابن عباس والإمام محمد الباقر وذلك بالاستناد إلى آيات الله البينات. فيقول ابن عباس: «يوجد في بني آدم نفس وروح، بينهما مثل شعاع الشمس. فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها التنفس والتحرك. فإذا نام الإنسان قبض الله سبحانه نفسه ولم يقبض روحه، وإذا مات قبض الله سبحانه نفسه وروحه». ويفسر الإمام محمد الباقر عليه السلام هذا الأمر فيقول: «ما من إنسان ينام إلا وتعرج نفسُهُ إلى سماء الله وتبقى روحه في بدنه، ويصير بينهما شعاع كشعاع الشمس، فإذا أذن الله بقبض الروح أجابت النفس، وإذا أذن الله ببقاء الروح رجعت النفس». يقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5]. وتفسير الآية

(١) الشمس: ٧ ـ ٨.
(٢) يوسف: ٥٣.
(٣) المدثر: ٣٨.
(٤) القيامة: ١٤ ـ ١٥.
(٥) الزمر: ٤٢.

الكريمة: أن الله تعالى يتوفى الأنفس حين الموت، ويتوفى الأنفس التي لم تمت وقت النوم، فيمسك كل نفس قضى عليها الموت فلا ترجع إلى جسدها الذي كانت فيه، ويرسل الأخرى التي لم يقض عليها الموت، بأن يُرجعها إلى جسدها ليعاود الإنسان إدراكه وتمييزه وكافة نشاطاته، لأن الروح بقيت في جسده ولم تفارقه. والنفس المرسلة أو المرجعة تبقى إلى الأجل المحدد لها أي إلى وقت موتها وليس إلى وقت وفاتها، لأن في الآية المباركة تمييزاً ما بين الوفاة والموت كما يلاحظ، إذ بالوفاة تعود النفس إلى الجسد، بينما في الموت لا رجعة لها إليه قبل يوم القيامة. وإن في وفاة الأنفس، إن بالموت أو وقت النوم، ورجوع تلك التي يرسلها الله تعالى إلى آجالها، 'لآيات لقومٍ يتفكرون، فيعلمون أنَّ القادر على ذلك قادر على بعث الإنسان من جديد يوم القيامة. فهل يتفكر الناس ويعلمون؟.

وقد أراد البعض إعطاء تشبيه حسيٍّ للروح فقيل هي كالريح أو النَّفس الداخل للبدن أو الخارج منه. أو هي كالغذاء للنفس وبانقطاعه بطلانها. ويقال للفَرَج: نَفَس، ومن هنا شاع تعبير «تنفَّس الصعداء».. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تسبّوا الريح فإنها من نَفَس الرحمان» أي يُفرّج بها الكرب.. ويقال في الدعاء: «اللهم نفّس عني» أي فرّج عني. ويقال عن الريح: «تنفست الريح» إذا هبت طيبة.

وهذه بعض الخصائص التي تتميز بها النفس البشرية في القرآن الكريم.. ذلك مع الإشارة بأن القرآن الكريم عالج خبايا النفس الإنسانية بدقةٍ متناهية وشمول تام، وكشف عن مكنوناتها الدفينة، ووجّهها قِبَلَ الوجهة التي فيها صلاحها ورضا الله عنها.. كل ذلك عن طريق القصة أو المثل أو العظة أو الأحكام المتعلقة بها ومن أجلها..

خلق النفس بالاستعدادات

يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

ما من شك بأن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان إنما خلقه من طين الأرض ونفخَ فيه من روحه. ثم أودع الجنس البشري النظام الذي يقوم عليه الخلق المتتابع، بحيث يكون لكل فردٍ من بني آدم خصائصه النفسية والذاتية، بل والفيزيولوجية التي تميزه عن سائر البشر جميعاً. وهذا التميز قائم في كل فرد أياً كانت النظريات التي تتحدث عن عوامل الوراثة، وتأثير البيئة، والاكتساب بالجهد الشخصي، وما إلى ذلك.. ففي داخل كل إنسان نفس. وهذه النفس هي من خلق الله تعالى. وهو سبحانه عندما يسوّي هذه النفس، أي يخلقها، فإنه يجعل فيها طبيعة مزدوجة من حيث الاستعداد والاتجاه، أي أنها تكون مزودة باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال.. وتأتي ميزة الإنسان، عن سائر مخلوقات الله الحية، بعد أن وضع الله تعالى فيه تلك الاستعدادات، بقدرته على التمييز بين ما هو خير وما هو شر، وبقدرته على توجيه نفسه إلى الخير أو إلى الشر.. من هنا كانت تلك القدرة للإنسان كامنة في كيانه، وهي ما يعبر عنه القرآن الكريم بالإلهام تارة: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ ويعبر عنها بالهداية تارة أخرى، كما في سورة البلد: ﴿وهديناه النجدين﴾.. ففي الإنسان، إذن، قدرة كامنة في صميمه على صورة استعداد.. والرسالات السماوية، والتوجيهات، والعوامل الخارجية إنما وظيفتها أن توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك. ولكنها لا تخلقها خلقاً،

---

(١) الشمس: ٧ ـ ١٠.

لأنها مخلوقة فطرة، وكائنةٌ طبعاً، وكامنة إلهاماً.

وفي ذات الإنسان، إلى جانب تلك الاستعدادات الفطرية الكامنة فيه، قوة أخرى، واعية، مدركة موجهة، هي القادرة على الاختيار والتوجيه، وهي التي تناط بها التبعة. فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها، وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر.. فقد أفلح. ومن لم يستخدم تلك القوة، بل عمل على إضعافها أو توجيهها في الاتجاه الآخر أي نحو استعداد الشر، وتغليبه على استعداد الخير.. فقد خاب. وهذا ما يعبر عنه النص القرآني بقول الله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسَّاها﴾ ومثل هذا الخلق للإنسان: باستعداداته الفطرية، وبالقوة الواعية المالكة للتصرف فيه، هو الذي يرتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني حين يجعله أهلاً لاحتمال تبعة اتجاهه، ويمنحه حرية الاختيار، في إطار المشيئة الإلٓهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار. فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن في مكان كريم، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة التي نفخ الله تعالى فيها من روحه وسواها بيده، وفضلها على كثير ممن خلق من العالمين.

ثم إن سنة الله تعالى في خلقه للكائن البشري سنة عامة وثابتة، وهي الاستعداد الذاتي في الإنسان للهدى والإيمان، أو للضلال والكفر. فإذا اختار الإنسان طريق الهدى والإيمان ـ وفق السّنة الإلٓهية المطلقة ـ فإنه تعالى يأخذ بيد هذا الإنسان، ويقوّي نفسه لينتصر فيها استعداد الخير على الشر، والإيمان على الكفر. ولذلك فإن نفس الإنسان لا تبلغ الإيمان إلاَّ إذا كان مسارها وفق مشيئته تعالى، وبإذنه سبحانه لأنه يريد الخير للإنسان ويحبه أن يكون مؤمناً مهتدياً. يقول

الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(١). ولكن إذا خالف الإنسان سنة الله تعالى في خلقه، وجعل استعداد الشر والكفر يغلب على نفسه، فإنه يكون قد عطل مداركه، وخالف مشاعر الخير، ودلائل الإيمان، ولذلك يقع الرجس عليه ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٢). بمعنى أن الإنسان ينال هذا الرجس ـ الذي هو أبشع الدنس النفسي ـ بسبب تعطيله لمداركه عن التعقل والتدبر، وانتهائه بهذا إلى التكذيب والكفر.. ومصيره حتماً إلى النار. فالنفس الإنسانية إذا رغبت في الإيمان، وسلكت طريقه فإنها لا تمنع عنه، بل على العكس فإنها تحسّ السبل ميسّرة أمامها لذلك، والطرق ممهدة، ودلائل الإيمان متسارعة باتجاهها، وذلك لأنه تعالى قد أعدَّ لها تلك السبل والطرق والدلائل، فآمنت بإذنه تعالى، وفازت في الدنيا والآخرة. ولذا يكون الأمر عائداً دوماً لاختيار الإنسان، ولكن وفق مشيئة الله تعالى المطلقة.. فالإيمان من العمل الصالح، والكفر من العمل السيىء، وعلى كلٍّ جزاء، من ثواب وعقاب. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٣). وحاشَ لله تعالى أن يظلم عباده، بل ظلمهم يأتي من أنفسهم، فلها العمل الصالح وعليها العمل السيىء، وما الله بظلامٍ للعبيد.

ونفس الإنسان وما فيها من استعداد للخير أو للشر تبقى موضع علم الله تعالى، ولذلك يحذر ـ سبحانه ـ الإنسان من أن يبطن الشر في نفسه، وهو يتوهم أنها بعيدة عن عين الرقيب التي لا تنام. يقول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٤).

---

(١) يونس: ١٠٠.
(٢) يونس: ١٠٠.
(٣) فصلت: ٤٦.
(٤) البقرة: ٢٣٥.

﴿واعلموا﴾.. فيه تنبيه وتحذير، وفيه تأكيد جازم بأن الله تعالى يعلم ما في أنفسكم أيها الناس، وما تخبّئه صدوركم. ولو علمتم ذلك لكان أولى بكم أن تخشوا الله تعالى المطلع على سرائركم..

نعم إن نفس الإنسان تمتلىء بالهواجس المستكنة والمشاعر المكنونة في علاقتها مع ربها، أو في علاقاتها مع الناس. وتلك العلاقات الكامنة في القلوب، الغائرة في طيات الضمائر، يجب أن تحكمها الخشية والحياء من الله تعالى، والحذر من غضبه. فهو سبحانه مطلع على خفايا الأنفس ومكامنها، وهو يعلم السرَّ والجهر، ولذلك يتلطف بعباده ويحذرهم «فاحذروه» من سوء النوايا، وخبث القلوب، وشر النفس، فهو ـ سبحانه ـ يعلمها جميعاً، ويؤاخذكم عليها مؤاخذة العالم، القادر، المقتدر.. وهو تحذير فيه هزة للضمير الذي يستشعر الخوف والرهبة من أمر الله تعالى، فإذا صحا الضمير البشري، وارتعش رعشة التقوى والتحرّج، عاد فكسب الطمأنينة والثقة بعفوه تعالى وغفرانه وحلمه. ﴿واعلموا أن الله غفور حليم﴾ يغفر خطيئة النفس التي تستشعر وجود الله تعالى وعلمه ببواطنها، ويحلم على عبده فلا يعجِّل له بالعقوبة، فلعل عبده الخاطىء يتوب.

النفس اللوّامة

يريد الله تعالى أن يبرز جانباً هامًّا في النفس البشرية وهي متيقظة، خائفة متوجسة، تريد أن تحاسب في كل حين، وتتبين حقيقة هواها، وتحذر من خداعها.. والتي تقابلها، بصورة مختلفة تماماً نفس أخرى هي النفس الفاجرة أي نفس ذاك الإنسان الذي يريد أن يفجر ويمضي قدماً في الفجور، والذي يكذب ويتولى عن الحق، دون

حساب لنفسه، ودون تلوُّم أو تحرج، أو مبالاة.

ولبيان أهمية النفس اللوّامة فإن الله سبحانه وتعالى يقرنها بيوم القيامة على ما في هذه القيامة من عظمة وتأثير ليس على مصير الإنسان وحده بل وعلى الكون كله.. يقول الله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[1]. لا شك في أنهما أمران عظيمان عند الله تعالى: يوم القيامة والنفس اللوّامة.

والتعبير القرآني الجليل، في هذا التلويح بالقَسَمِ مع العدول عنه ﴿أُقسِمُ﴾ أوقع في الحس من القَسَم المباشر. وهذا هو الأسلوب القرآني للتدليل على أهمية الأمرين.

والقرآن الكريم يقسم النفس إلى ثلاثة أقسام: النفس الفاجرة، والنفس اللوّامة، والنفس المطمئنة. والنفس اللوّامة قد تكون هي النفس التي تندم على ما فات وتلوم عليه. ولكن يستدل من ظاهر التنزيل أن النفس اللوّامة هي التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات.

والمؤمن يلجأ عادة إلى محاسبة نفسه على كل صغيرة وكبيرة: في كل كلمة يقولها، أو عمل يأتيه، أو شيء يريده، أو نية ينويها.. ونفسه هي محل هذه المحاسبة بحيث تنذره عاقبة ما تفعل، وكأنها تتحسَّر على عمل الخير لماذا لم تقم به على أحسن وجه، وتندم عندما تنزلق بصاحبها مع هواه، فلا تردعه ولا توقفه عند حده، ولا تردّه عن غيّه أو ضلاله. ومن هنا يأتي لومُها على صاحبها الذي جعلها تماشيه، ولومها على ذاتها التي أطاعته واندفعت وراءه..

---

(١) القيامة: ١ ـ ٢.

ومهما يكن من أمر فإن إرادة الاختيار، التي مُنِحَها الإنسان تجعله مسؤولاً في النهاية، لأن نفسَهُ موكولة إليه، وبما أنه موكل بها، عليه أن يرشدها إلى الخير ويقودها إلى الأحسن. أما إذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها، وحجة عليها. ويوم القيامة لـن يقبل منه عذر مهما اعتذر الإنسان بشتى المعاذير عما وقع منه، ما دام مسؤولاً هو عن نفسه وعن تسييرها وقيادتها. وهذا ما ينبه إليه القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[1].

النفس أمارة بالسوء

هذه الحياة الدنيا فيها كثير من المتاع والزينة والفتنة.. وفي نفس الإنسان أيضاً شهوات ورغائب وأهواء كثيرة.. وزينة الدنيا قد تغري الإنسان، ناهيك عن دسائس الشيطان وألاعيبه، ذاك الذي يوسوس للإنسان ويعده الفقر إذا أنفق في سبيل الله تعالى ويغريه بارتكاب الفواحش.. ومن كوامن الضعف في النفس البشرية حبها للشهوات، والركض وراء الأهواء، بما يجعل لإبليس سلطاناً على مثل هذه النفس فيغويها.. من هنا كان التعبير القرآني عن هذه النفس بأنها أمارة بالسوء و«الألف واللام» في كلمة «النفس» هنا للجنس، بحيث يكون المعنى أن كل النفوس تأمر بالسوء، إلاَّ من رحمه الله تعالى وعصمه عن الانقياد وراء الشهوات والأهواء. وقد ورد هذا البيان للنفس في قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم، وعلى لسان امرأة العزيز عندما أرادت أن تظهر الحق، وترد الخطأ ـ الذي ارتكبته بحق يوسف عليه السلام ـ إلى نفسها.. لقد جاءت إلى الملك لتعلن الحقيقة، بعدما بدت مؤمنة، متحرجة، وتريد أن تبرىء نفسها من خيانة زوجها في غيبته مع يوسف عليه السلام وأنها راودت

---

(١) القيامة: ١٤ ـ ١٥.

هذا الشاب عن نفسه فامتنع، وذلك بالنصوص القرآنية المباركة:

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

والعظة البالغة في هذه الآيات الكريمة هي رحمة الله تعالى بعباده. فهو سبحانه ربهم، وهو خالقهم ويعلم كوامن الضعف فيهم، كما يعلم نزعات كل إنسان وميوله، فإن طغت نفسه عليه بالسوء، فهذا الإنسان ملوم حكماً، وسينال جزاءه. ولكنه سبحانه الرحمان الرحيم، الذي يرأف بعباده، ويرحمهم، فيعصمهم من كثير من السوء، ويغفر لهم ما ترتكب نفوسهم من المعاصي. فهو ربهم، ورب السماوات والأرض وما فيهن، إنه غفور رحيم.

وأما النفس المطمئنة فإنه لا يتحلَّى بها إلا الأنبياء وأولياء الله العظام.

تكليف النفس قدر طاقتها

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[2]. هنا تتجلى رحمة الله تعالى بعباده: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي لا يلزم الله تعالى نفساً إلا دون طاقتها من الطاعات، لأن الوسع هو دون الطاقة..

وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم، لا يكلفون إلاَّ قدر طاقتهم، بل أقل من هذه الطاقة أي قدر وسعهم..

---

(١) يوسف: ٥١ ـ ٥٣.

(٢) الأعراف: ٤٢.

هـؤلاء يدخلون الجنة برحمة الله تعالى لأنهم أصحابها بإذنه تعالى وفضله، وسبيلهم لذلك عملهم الصالح مع إيمانهم. ولولا رحمة الله تعالى ما كفى عملهم - في حدود طاقتهم - لدخول الجنة. وهذا ما عناه رسول الله ﷺ عندما قال: «لن يُدْخِلَ أحداً منكم الجنةَ عملُهُ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل». ولماذا هذه الرحمة الواسعة التي تصل بالمؤمن إلى الجنة؟.

لقد علم الله تعالى من خلقه بني آدم مدى عجزهم وقصورهم فلا تفي أعمالهم بحق الجنة، ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم في الدنيا. فكتب على نفسه - سبحانه - الرحمة، وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف. وكتب لهم به الجنة، فضلاً منه تعالى ورحمة، فاستحقوها ليس بعملهم فحسب ولكن بهذه الرحمة الربانية.

ذكر الله تعالى

وبعد، فإن الله تعالى، وقد كتب على نفسه الرحمة بعباده، لجدير بنا نحن هؤلاء العباد أن نذكره - سبحانه - في الغدو والآصال، وأن نحمده على نعمه، ونكون له من الشاكرين على خلقنا، وحياتنا، ورزقنا، وأنْ نثابر على ذكره سبحانه، ونظل مستقبلين خيره، ورحمته، بمزيد من الحمد والثناء والإجلال.. وإنه لمن أولى واجبات الإنسان الدينية والأدبية أن لا يتوانى لحظة في حياته عن ذكر الله تعالى خالقه ومدّبره. ولكن هذا الإنسان، وهو مجبول على النسيان، غالباً ما ينهمك بمشاغل حياته، فينأى عن ذكر ربه، ويهمل أداء واجبه حيال سيده وبارئه، فيأتيه التوجيه الرباني، وعلى شكل أمرٍ، أن يعود إلى واجبه وأن يذكر ربه جهراً وخفية، وذلك حرصاً على هذا المخلوق ورأفة به، وإن كان مطالباً من جانبه بالعبادة، والحمد، والشكر، والإنابة،

وطلب العفو والمغفرة.. يقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[1].

فاذكر أيها الإنسان ربك بصفاته العليا وأسمائه الحسنى، «ولله الأسماء الحسنى». وليكن ذلك بينك وبين نفسك، بتضرع وخوف، لأن الخوف من الله تعالى أقرب إلى الإجابة (وإنما خص النفس بالذكر لأنه أبعد عن الرياء أمام الآخرين). وليكن ذكر ربك برفع الصوت قليلاً وليس بالجهر به..

ذلك أن ذكر الله تعالى، ليس مجرد الذكر بالشفة واللسان، بل وبالقلب والوجدان. إنه الذكر الذي يرتعش له الوجدان ويخفق له القلب، وتعيش به النفس. وهذا الذكر يجب أن يكون منه التوجه إلى الله تعالى بالتذلل والضراعة، وبالخشية والتقوى، وبالخوف والرهبة.. وليكن ذكرك ربك، أيها الإنسان، بصوتٍ خفيضٍ ليس فيه صراخ وضجة، ولا غناء وطرب. وثابر على هذا الذكر ﴿بالغدو والآصال﴾ أي في مطالع النهار وفي أواخره.. وإن كان ذكر الله العظيم لا ينبغي أن يقتصر على هذين الآنين، بل يبقى في القلب في كل آن. ولكن ذكر هذين الآنين ﴿الغدو والآصال﴾ في الآية الكريمة إنما كان لأن النفس تطالع فيهما التغير الواضح في صفحة الكون من ليل إلى نهار، ومن نهار إلى ليل. وإن الله ـ سبحانه ـ ليعلم أن القلب البشري يكون في هذين الآنين أقرب ما يكون إلى التأثر والاستجابة، وفيهما حال فراغ القلب عن طلب المعاش فيكون فيهما الذكر ألصق للقلب، وأقرب لله العلي العظيم. وأخيراً يأتي التنبيه الرباني: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾.. لا تكن أيها الإنسان من الغافلين عن ذكر الله تعالى، وعما أمرك به

---

(١) الأعراف: ٢٠٥.

من الدعاء والتضرع والخوف، فإن الغفلة من الشيطان، والنسيان من الإهمال. فانزع عن نفسك أيها الإنسان كل نسيان أو غفلة، واخضع دائماً لله تعالى، وتوجه إليه بالقلب والوجدان، كما تتوجه إليه سبحانه بالشفة واللسان.

النفس لا تملك إلاَّ ما يشاءُ الله تعالى

إن من يؤمن إيماناً صادقاً، ويقيم طاعات الله تعالى وعباداته، ويمتثل لأوامر ربه ونواهيه، ويذكر الله تعالى في كل آن وحين، مثل هذا الإنسان يردُّ كل أمر، وكل شأن، وكل ظرف، وكل عمل، إليه سبحانه وتعالى، لأنه يعلم بأن المشيئة الإلهية المطلقة هي التي تدبّر الكون والحياة والإنسان. وهذا الإنسان المؤمن يعرف تماماً ويقيناً أنه لا يقدر أن يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله تعالى له ذلك. ولذلك يأمر سبحانه نبيه أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾(1). وقد كان المشركون يسألون في تحدٍ واستعجال، طالبين أن ينـزل قضـاء الله تعـالى بهم، كمـا قضى سبحـانـه بتلك الأمم التي جاءتهـا رسلها فكذبت، فأخذها الله تعالى بكذبها وأهلكها. ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مكلف ـ أصلاً ـ التبليغ. وهـو يعلم من ربه تعـالى أن أمر العقيدة الإسلاميـة ـ بل وأمر النـاس جميعاً وليس فقط الـذين يخاطبـون بها ـ مـرده لله سبحانـه، وليس للرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الأمر شيء، ودوره البلاغ. أما ما وراء ذلك فالأمر كله لله سبحانه. ولذلك عندما كانوا يسألونه ويقولون: متى هذا الوعد إن كنت من الصادقين؟ كان جواب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم، وبقول ربه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ

---

(1) يونس: 49.

﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1]. وأجل الأمم قد ينتهي بالهلاك الحسي: بالدمار والفناء، أو بالهلاك المعنوي: بالهزيمة والضياع. وقد يحصل بالنسبة للعرب في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو بعد وفاته. المهم أن لكل أمة أجلها، وهو ما قُدِّر للأمم جميعها، ويكون إما لفترة تعود بعدها الأمة للحياة، وإما أنها تضمحل وتنمحي شخصيتها وتنتهي إلى اندثارها كأمة وإن بقيت كأفراد. وكل ذلك وفق سنة الله تعالى التي لا تتغير ولا تتبدل..

ثم إن الناس، بدل أن يستكبروا ويطلبوا العذاب ليتأكدوا من صدق الرسل أو الرسالات السماوية، كان عليهم أن يؤمنوا وأن يستشعروا الخير، ويسيروا على نهج الله تعالى القويم. وبدل أن يتفلت الأفراد، وتتفلت الأمم من المنهج الإلّهي، وبدل أن يتّبعوا تشريعاتٍ وضعية، غالباً ما تكون ناقصة، ولا تلبي حاجات الإنسان وتطلعاته، كان عليهم اتباع تشريع الله تعالى التام، الكامل.. ولو فعل الناس ذلك لكان أصفى لقلوبهم ونفوسهم في الدارين، ولكان الناس عرفوا حقاً أن الإيمان هو سبيلهم الوحيد للانعتاق من ربقة الجاهلية، والمادية، والمطامع، والمفاسد، وللخلاص من كل شهوات الدنيا، وبراثن شرورها. والإنسان بإيمانه يكون أقرب إلى الله تعالى، وبذلك يجعل الله ـ جلَّ وعلا ـ قريباً منه في كل وقت..

النفس وحبُّ الخير

إن الإنسان لشديد الحرص على الخير لنفسه، جزوع من الضر. وأعجب ما في هذا الإنسان أنه يطلب الخير دائماً، ويعمل من أجل نيل مطالبه. فإن أعطاه الله بطر وتعالى على الآخرين، حتى إذا مسَّه

---

(1) يونس: ٤٩.

ضرٌ قليل ضعف وتخاذل، ثم لا يلبث بعد كشف الضر أن يعود إلى استعلائه وغروره، حتى يصل به الحال إلى التوهم بأنه خالد في هذه الدنيا لا يزول، وبأن الساعة لن تقوم أبداً.. وحتى لو قامت الساعة وبعث فإنه يظن أنَّ له منزلة خاصة عند ربه. ولكن هل فكّر بموازين الله تعالى الدقيقة التي تزن مثقال ذرة من الخير، كما تزن مثقال ذرة من الشر، وكله يوم القيامة محسوب، والإنسان محاسبٌ عليه؟.

يقول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[1].

إنه رسم دقيق للنفس البشرية، وهو يصورها في تقلبها، وضعفها، ومرائها، وحبها للخير، وجحودها للنعمة، واغترارها بالسراء، وجزعها من الضراء..

وهذه النفس هي لإنسان لا يسأم ولا يكف عن دعاء الخير. إنه يلحُّ فيه، ويكرر طلبه لنفسه دون أن يملَّ، كأنما يريد أن يستديم تدفق الخير عليه، بلا انقطاع أبداً..

ولكن هذا الإنسان، إذا ما مسَّته شدة، أو وقع به ضرر، تجده يفقد الأمل والرجاء، ويضيق صدره، ويكبر همه، وييأس من رحمة الله، ويقنط من رعايته، حتى لكأن الخير غابَ عنه إلى الأبد، وكأن

---

(١) فصلت: ٤٩ ـ ٥١.

الشدة باقية عليه إلى الأبد.. وهذه حال من ثقته قليلة بربه تعالى، ورباطه به ـ سبحانه ـ ضعيف!.

على أن هذا الإنسان، إذا ما أذاقه الله تعالى رحمة منه من بعد الضر الذي مسَّه، لم يعرف، ولم يدرك أن ذلك فضلٌ من ربه، بفعل الرحمة التي يتكرم بها سبحانه على عباده وعبيده.. وعندما يغيب مثل هذا الإدراك عن إنسان هكذا شاكلته، فإنه يتصوّر بأن النعمة التي حلَّت به، والرخاء الذي أتاه، قد استحقهما هو شخصياً، فيقول: هذا من عملي، وقد نلت ما عملت له، وسوف يبقى لي ويدوم عليَّ! وهو عندما ينسى مصدر هذه النعمة والرخاء، يظن أنه باقٍ في هذه الحياة، مستبعداً أن تكون هنالك نهاية لحياته، وأن تكون هنالك آخرة ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾!... وحتى لو عادَ إليه بعضٌ من وعي، واستدرك أنه لا محالة ميت، وأن الرجعة إلى الله تعالى لا محيد عنها ـ لأنه يرى في واقع الحياة أن الناس يموتون، وأن لا أحد منهم يبقى ـ حتى في مثل هذا الموقف يتوهم ويظن أنه لو رجع إلى ربه لكانت له وجاهته الخاصة عنده سبحانه: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾!..

إنه غرورٌ.. غرور في النعمة.. غرور في التفاخر بعودة النعمة.. غرور في الاستعلاء على الناس ظناً بقدرته ومواهبه.. غرور بالآخرة وبالساعة.. غرور بالله تعالى العلي العظيم.. إنه الغرور الماحق الذي يحيقُ بنفس هذا الإنسان، حتى تجعله مغتراً ـ على هذه الشاكلة ـ بكل شيء، حتى بربه سبحانه، وبحسابه يوم القيامة.. وعند هذا الاغترار الذي يجعله يظن بأن له عند ربه مقاماً خاصاً، يجيء التهديد في موضعه: ﴿فلننبئنّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾..

هذه هي عدالة الله تعالى! فرغم كفر هذا الإنسان يتفضل عليه ربه وينبئه بكل ما عمل في دنياه وأن أعماله إنما كانت نتيجة لكفره. ولكن بعد إخبار الذين كفروا بما عملوا لا بد أن يأتيهم التهديد والوعيد المناسب، فإن فعل الغرور فعله في النفوس ودفع بها إلى حد الكفر، فإن الله تعالى ليذيق الكافرين من عذاب غليظ، شديد. فبئس هكذا اغترار بالنفس يقود إلى هذا العذاب الغليظ!.

ومرة أخرى يأتي التعقيب بأن ما من نعمةٍ على الإنسان إلاَّ وهي من الله سبحانه. فإذا ﴿أنعمنا على الإنسان﴾، يقول تعالى: ﴿أعرض ونأى بجانبه﴾. أعرض عن ذكر ربه بالشكر والامتنان، ونأى عن عبادته وطاعته، وراح يتقلّب بجانبه على شهوات الدنيا ومتاعها، ويغوص في ملذاتها وفجورها. حتى إذا مسَّه الشر عاد يتخاذل ويتهاوى، ويصغر ويتضاءل، ويتضرع ولا يمل الضراعة، فهو ذو ﴿دعاء عريض﴾.

أية دقة هي هذه الدقة الفائقة في تسجيل كلّ صغيرةٍ وكلّ كبيرةٍ في نفس الإنسان! إنه خالقه - سبحانه - الذي يصفه، خالقه وحده يعرف مسالك نفسه وتراكيبها، ويعرف أنها تظل تدور في هذه المسالك الملتوية، المنحرفة.. إلاَّ أن تهتدي إلى الطريق المستقيم.. فتستقيم..

قتل النفس البشرية

يقول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

---

(1) المائدة: ٣٢.

يذكر القرآن الكريم قصة «قابيل وهابيل» - ابني آدم عليه السلام - وقتل أحد الأخوين لأخيه، ثم عجزه عن أن يواري سوأته حتى بعث الله تعالى غراباً، فدلَّه على طريقة دفن الجثة في التراب.. إن تلك القصة وما تحمل في طياتها من عبر وعظات - لأن القتل جريمة يجري فيها الاعتداء على الحياة التي هي هبة الله تعالى لمخلوقاته - إنما تؤلف ركيزة شعورية لاستنكار الجريمة، وقاعدة للتشريع الذي يُفرض لتلافي الجريمة في نفس المجرم، وهو القصاص العادل الذي ينزل به إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التي تنتظره.. من أجل ذلك يبين الله تعالى عظم جريمة قتل النفس البشرية، وعظم الدفاع عنها والعمل على إنقاذها من القتل. وهذه الآية المباركة تفيد أن قتل نفس واحدة بغير نفس، في غير قصاصٍ لقتل، وفي غير دفع فسادٍ في الأرض، يعدل قتل الناس جميعاً، لأن حق الحياة واحد لكل نفس. فقتل واحدة من هذه الأنفس هو اعتداء على حق الحياة ذاته الذي تشترك فيه كل النفوس. وقتل نفس واحدة بغير حق يجعل الناس كلهم خصماء القاتل، وقد وَتَرَهم وِتْر من قصد قتلهم جميعاً، فأوصل إليهم من المكروه ما يشبه القتل الذي حل بالمقتول، فكأنه قتلهم جميعاً.

وكذلك دفع القتل عن النفس أو استنقاذها من الموت غرقاً أو حرقاً أو اختناقاً الخ... أو استنقاذها من ضلال أشبه بالموت من الناحية المعنوية.. وأي شيء يقوم به الإنسان من هذا، فكأنما أحيا الناس جميعاً، بمعنى أن أجرَهُ على الله تعالى أجرُ من أحياهم جميعاً، لأن في إسدائه إليهم هذا المعروف، وهو إحياء أخٍ لهم في الإنسانية، أو في الإيمان، إنما هو بمنزلة من أحيا كل واحدٍ منهم، إذ في عمله هذا صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعاً.

هذا ما كتبه الله تعالى على بني إسرائيل لأنهم كانوا يتجاوزون

حدود شريعتهم ويعمدون إلى قتل أنبيائهم، وقتل بعضهم بعضاً بدون حق..

وهذا ما كتبه الله تعالى على جميع الناس في قرآنه الكريم، لأن جريمة القتل تبقى قتلاً للنفس التي حرَّم الله تعالى قتلها إلا بالحق. وقتل النفس لا يكون إلا بقتل نفس ـ وفقاً لشروط القتل العمد وأسبابه ـ أو فسادٍ في الأرض، على اختلاف أنواع الفساد..

كل نفس عليها حافظ

والله تعالى عندما حرَّم القتل، فقد كان هذا رحمةً منه تعالى لصون الحياة. وقد جعلَ ـ سبحانه ـ على كل نفس حافظاً يحفظ عنها كل ما تقوم به، ويعينها على خيرها وزكاتها. يقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[1]. هذا قسم من الله تعالى بالسماء والطارق. وقبل أن يعلمنا على ماذا يقسم سبحانه، يسألنا: أتدرون ما الطارق؟ وكأنه أمر يتجاوز إدراكنا وعلمنا. وهذا صحيح لأنه لو لم يأتِ الجواب على السؤال الاستفهامي لما عرفنا ما هو الطارق. ثم يحدده ويبيّنه بشكله وصورته: ﴿النجم الثاقب﴾ الذي يثقب الظلام بشعاعه النافذ.

وقد أصبح القسم واضحاً. إنه قسم بالسماء والنجم الثاقب. إن كل نفس عليها من أمر الله رقيب حافظ. فما من نفس إلا عليها حافظ يراقبها، ويحصي عليها، ويحفظ عنها. وهو موكل بها بأمر الله تعالى، كي يعينها لأنها مستودع الأسرار والأفكار، ولأن العمل والجزاء منوطان بها.

---

(١) الطارق: ١ ـ ٣.

فالإنسان إذن ليس متروكاً هكذا بلا رقيب أو حارس، يفعل ما يشاء بلا حافظ. . بل هنالك إحصاء لكل حركاته وسكناته بدقة متناهية، يحصيها عليه هذا الرقيب الحافظ الموكل من ربه. .

يلقي هذا النص في النفس إيحاءً رهيباً حيث تحس أنها ليست قط في خلوة وبلا رقابة. فهنالك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد عن كل شريك، وحين تتخفى عن كل عين، وتأمن من كل طارق، هنالك الحافظ الرقيب الذي ينفذ إلى أعماقها، ويكشف عما تبطنه في ثناياها، ويطرق عليها أبوابها، كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليل الساتر. ويجمع القسم بين مشهدٍ كوني هو السماء، وبين حقيقة إيمانية هي أن الله تعالى الذي خلق السماء هو الذي خلق النفس، وكما أوكل بحفظ السماء، فقد أوكل بحفظ النفس، مما يجعل الخلق متناسقاً في الأنفس وفي الآفاق. قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1]. سنريهم حججنا ودلائلنا في أقطار السماوات من الشمس والقمر والنجوم النيِّرات، وفي أقطار الأرض من الحيوان والأشجار والنبات، وفي أنفسهم من لطائف الصنعة وبدائع الحكمة، حتى يتبين لهم الحق.

وعندما يتبيّن للنفس الحق، وتشعر بأنها مراقبة بأمر الله تعالى، وأنَّ كلَّ شيء محصيٌّ عليها، لزم أن تكسب ما يهديها ويوصلها إلى الجنة، ويبعدها عن النار. وقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة بقولِ الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2].

فكل إنسان يحمل أوزار نفسه وتبعاتها، وتصل هذه النفس إلى حيث تضع ذاتها. فهي رهينة بما كسبت، مقيدة بما فعلت. .

---

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) المدثر: ٣٨.

والله تعالى لم يترك هذه النفوس حيارى، تسير في الدروب بلا دليل أو هداية.. بل بيّن لها الطريق المستقيم، وهو الطريق الذي تسلكه إلى ربها على بصيرة من أمرها. فلها أن تختار هذا الطريق فتفوز، ولها أن تسلك غيره فتردى.. لأن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها، وهي مأخوذة بما تكسبه باختيارها، مرهونة بأعمالها وأوزارها.

في القرآن الكريم شفاء لأمراض النفس

يقول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1]. في كتاب الله المبين، القرآن المجيد، شفاء للنفوس من الأمراض والعاهات الكثيرة التي تعاني منها..

فيه الشفاء من الوساوس والقلق والحيرة التي تصيب الإنسان في معترك حياته، وفي تعامله مع الآخرين. فالوسوسة داء، والقلق مرض، والحيرة نصب.. فإذا أوكل الإنسانُ أمره إلى ربه، وتوكل عليه ـ بعد أن يعمل بما يُرضيه ـ فإن قلبه يطمئن بالإيمان. والقلب المؤمن حين يتصل بربه تعالى، يسكن ويطمئن، ويستشعر الحماية والأمن، فيرضى ويستروح هذا الرضا من الله تعالى، والرضا عن الحياة. فكان القرآن بذلك رحمةً للمؤمنين.

وفي القرآن شفاء من الهوى، والدنس، والطمع، والحسد ونزغات الشيطان. وهي آفات تصيب النفس البشرية بالسقم والضعف، والتعب، وتدفع بالإنسان إلى الانهيار ما لم يتمسك بالقرآن فيحسّ منه الرحمة التي تصيب المؤمنين وتهديهم إلى الحق المبين.

---

(١) الإسراء: ٨٢.

وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلّة في الشعور والتفكير. فهو يعصم النفسَ من الانحراف، والعقلَ من الشطط، فلا ينفق الإنسان طاقته الشعورية والفكرية فيما لا يجدي، بل يسير على منهج سليم مضبوط يجعل نشاطه منتجاً ومأموناً، كما ينفق طاقته الجسدية باعتدال: بلا كبت ولا إسراف، فيحفظه سليماً معافىً. ومن ثم كان القرآن الكريم دواءً شافياً لنفوس العالمين أجمعين.

والطمع والحسد هما مظهران من مظاهر غريزة حب البقاء التي تدفع الإنسان لأن يحب كل شيء لنفسه، حتى ولو ملكه أقرب الناس إليه. ولكن القرآن ينهى عن الطمع والحسد، ويجعل طمع الإنسان مقصوراً على رحمة الله تعالى، ودعائه له ـ سبحانه ـ خوفاً وطمعاً، وبذلك يكل رزقه إلى خالقه الذي يرزقه من حيث لا يعلم، فيكون في القرآن شفاء من هذين الداءين.

والشدائد التي تصيب الناس دواؤها الاحتمال والصبر، لما فيه من حبس للنفس على ما يقتضيه العقل والشرع. فإن حُبست النفسُ وقت المصيبة وصبرت على البلاء أعانها الله تعالى وإلَّا وقعت فريسة الجزع والهلع. وحتى عند وقوعها فريسةً للمشاعر المحزنة المضنية، فإن شفاءها لا يكون إلَّا بالصبر. وقد مدح الله الصابرين في كتابه المبين بقوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾[2]. فكان في القرآن دواءٌ للصابرين المؤمنين.

وفي القرآن شفاء من علل المجتمع التي تخلخل وتفكك

---

(١) الحج: ٣٥.

(٢) البقرة: ١٧٧.

علاقات أبنائه، وتذهب بتعاونهم، وأمنهم وطمأنينتهم. لأن في تطبيق مناهج القرآن على حياة الناس في المجتمعات قضاء على عللها، فيعيش المجتمع في ظل العدالة الشاملة، والأمن الدائم، والطمأنينة التامة، ومن ثم يسود الإيمان، فيكون القرآن شفاءً ورحمة للمؤمنين.

وفي القرآن من البيان والعظة ما يزيل عمى الجهل وحيرة الشك، ومن النَّظم والفصاحة والبلاغة ما هو معجزة للتدليل على أنه من عند الله تعالى، وعلى صدق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن القرآن منزَّل عليه ليبلّغه إلى الناس. ولذا يكون في القرآن شفاء للنفوس من آفة الشك والجهل، ومن ثم فهو رحمة للمؤمنين.



الفصل الثانى

فطرة الإنسان



فطرة الإنسان

إن طبيعة الشيء تعني ماهيته، وهي سر نموّه وتغيّره وتحـركه وما يتميز به من صفات طبع عليها، أي هي مخلوقة فيه. والفطرة هي الجبلّة التي يكون عليها كل موجود في أول خلقه، وذلك تأكيداً لقول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1]، والحديث الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه». ومعنى ذلك أن المولود البشري يولد على الفطرة أي على الجبلة أو التكوين المودع في جنسه، وولادته تكون صافية (خالية من أي اكتساب) خلقاً وطبعاً وهيئة، ليس فيها إيمان ولا كفر، ولا إنكار ولا معرفة، لأنه لو كان مفطوراً (مخلوقاً) على إحدى هذه الحالات لما كان من السهل التخلي عنها فيما بعد.

والإنسان بفطرته التي طبع عليها لديه من الله تعالى هِبَةٌ خاصة هي عبارة عن قوة خاصة تدفعه إلى البحث والتنقيب عن السبـل والوسائل التي تتناسب وهذه الفطرة. وأهم مقوّمات هذه القوة الخاصة

(١) الروم: ٣٠.

للكائن البشري هي الطاقة الحيوية أي: مجموعة الغرائز والحاجات العضوية.

والغرائز ثلاث: غريزة حبّ البقاء، وغريزة حفظ النوع، وغريزة التديّن أو التقديس.

أما الحاجات العضوية فهي عديدة ومتنوعة مثل حاجة الإنسان إلى الأكل أو الشرب وما يتصل بهما، وحاجته إلى النوم، وحاجته إلى الراحة، وحاجته إلى الكلام والتحدّث الخ..

وهنالك خلط شائع بين الغرائز والحاجات العضوية، كما أن هناك خلطاً بين الغرائز والمظاهر التي تترجم بها. ولذلك اعتبر كثيرون أن الغرائز كثيرة ولا تقع تحت حصر، مدعين أن هنالك غريزة للتملك، وغريزة للخوف، وغريزة للجنس، وغريزة للطمع إلخ.. وهذا يعني أنهم لم يفرقوا بين الغرائز ومظاهرها، أي بين وجود طاقة حيوية أصيلة في داخل الإنسان وبين مظاهر هذه الطاقة. فالطاقة الأصيلة في التكوين البشري هي الغريزة، وهي جزء من طبيعة الإنسان فلا يمكن إنكارها أو تجاوزها أو كبتها. وهي موجودة مع الإنسان منذ تكوينه وخلقه. أما مظاهرها التي تتجلّى بها فلا تؤلف جزءاً من ماهية الإنسان. ولذلك يمكن معالجة هذه المظاهر للغرائز أو محوها، كما يمكن كبتها وتحويلها.

وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

إن من مظاهر غريزة البقاء، مثلاً، الأثرة والإيثار. فيمكن معالجة الأَثَرة بالإيثار، كما يمكن كبت الأثرة ومحوها.

ومن مظاهر غريزة البقاء الخوف الذي يعتبر من أهم المظاهر الغريزية باعتبار أنه موجود في كل مكان وزمان، ومنه خوف الإنسان من

الإنسان، أو من الحيوان، أو من الطبيعة كما في الزلازل والفياضانات وثوران البراكين وهياج الأمواج... هذا المظهر الغريزي الذي هو الخوف من إنسان تجاه إنسان آخر، مثلاً، يمكن تحويله إلى خوف من الله سبحانه وتعالى. فبدل أن يخاف الإنسان من عواقب الجرم الذي يرتكبه، ليكن خوفه من غضب الله تعالى الذي يعاقب على كل معصية أو ذنب.

ومن مظاهر غريزة البقاء الطمع والحسد. فنجد كثيرين يحسدون غيرهم على ما لديهم من مالٍ أو جاه أو على ما يحتلون من مناصب أو مراكز. فباستطاعة الإنسان أنْ يكبت طمعه أو حسده، وأن يحوّلهما إلى الاستزادة من أعمال ترضي الله تعالى وتنافس الذين دأبهم العمل لمرضاة الله تعالى ورسوله. فيكون بذلك قد بدل الحسد بالتنافس في أعمال البر والتقوى.

وإن من مظاهر غريزة النوع مثلاً الميل للمرأة بشهوة، والفيض من حنان الأم. فيمكن معالجة الشهوة للمرأة بشعور الحنان، لأن الحنان يعالج الشهوة كما يعالج الإيثار الأثرة. وقد يصرف الحنانُ الأمَّ أحياناً كثيرة عن الزواج أو عن الميل الجنسي، كما قد يصرف الميل الجنسي الإنسان عن حنان أمه.. فأي مظهر من مظاهر غريزة النوع يمكن أن يسدَّ مسدَّ مظهر آخر، ويمكن أن يعالج مظهر بمظهر، لأن المظاهر يمكن علاجها أو كبتها أو محوها ـ كما قلنا ـ بينما الغريزة لا يمكن فيها ذلك لأنها تشكل جزءاً من تكوين الإنسان أو ماهيته.

من هنا كان خطأ بعض علماء النفس في بحوثهم عن الغرائز، واعتبارهم أن غرائز الإنسان عديدة ومتنوعة جداً ولا يمكن أن تقع تحت حصر. وهذا الخطأ ناجم عن عدم التفريق بين الغريزة الواحدة

ومظاهرها، وبين الغرائز الأساسية الثابتة ـ في التكوين البشري ـ مهما تعددت مظاهرها وتنوعت.

وقد رأينا أن الطاقة الحيوية هي التي تدفع الإنسان للبحث والتنقيب عن كل ما يمكن أن يؤمن له الحاجات الأساسية في حياته، وكل ما يمكن أن يحقق له إشباع الحاجات العضوية وإشباع غرائزه. ولئن كانت الغرائز أقل خطراً من الحاجات العضوية، إلاَّ أن خطرها أيضاً شديد على حياة الإنسان. ونحن نعتقد بأنه إذا لم يسرع المرء إلى إشباع حاجاته العضوية أو تنظيمها فإن مصيره إلى الهلاك، وكذلك الحال بالنسبة إلى الغرائز فإن عدم إشباعها يدفع بالإنسان إلى أحضان الشقاء. من هنا كان حتماً على الإنسان إشباع الغرائز والحاجات العضوية، أي إشباع الطاقة الحيوية فيه. وهذا الإشباع للطاقة الحيوية يتطلّب تفكيراً في العيش، وهو تفكير طبيعي وحتمي. لذلك وجب أن يكون تفكير الإنسان في العيش مبنياً على نظرته لهذه الحياةِ الدُّنيا التي يحياها، لئلّا يبقى تفكيرُهُ وضيعاً، ومحدوداً وضيّقاً، فلا يتمتّعُ بالرُّقيِّ، ولا يحصلُ على الطمأنينةِ الدائمةِ. ولذلكَ لا بُدَّ أن يكونَ التفّكيرُ في الحيـاةِ أساساً للتفّكيرِ في العيشِ. صحيحٌ أنَّ الإنسانَ يفكرُ في العيشِ استجابةً لطلبِ الإشباعِ، سواءٌ أكانت لديهِ نظرةٌ للإنسانِ أو الحياةِ أمْ لم تَكُنْ. ولكنَّ تفكيره هذا يظلُّ بدائيّاً، قلِقاً، بعيداً عن التطور والرقيّ، إلى أن يُبنَى من جديد على التفكير في الإنسانِ والحياةِ، أي على نظرتِهِ الشاملة للحياةِ: فالموضوعُ ليس أيَّ التفكيرينِ يسبقُ، إذ منَ البداهة أنَّ التفكيرَ في العيشِ يسبقُ كلَّ ما عداه، بلِ الموضوعُ هو التفكيرُ في العيشِ الراقي، ذلك الذي تكونُ فيه الطمأنينةُ الدائمةُ.

صحيحٌ أنَّ التفكيرَ بالعيشِ لدى الفرد يرتقي من التفكيرِ بعيش

نفسه إلى التفكيرِ بعيش عائلتِهِ، ويرتقي من التفكيرِ بعيشِ عائلتهِ إلى التفكيرِ بعيشِ قومهِ، ويرتقي منَ التفكيرِ بعيشِ قومهِ إلى التفكيرِ بعيشِ أمّتِهِ، ويرتقي منَ التفكيـرِ بعيشِ أمّتهِ إلى التفكيـرِ بعيشِ الناس جميعاً. ولكنَّ هـذا الارتقاءَ، وإنْ كانَ موجوداً في فـطرةِ الإنسانِ، إلاَّ أنه إذا تُرِكَ وَحْدَهُ بدونِ أن يُجْعَلَ له أساسٌ يُبنَى عليهِ فإنّهُ قد يُحصرُ بنطاقه الفردي ولا يتعدّاهُ إلى الغير، فتبقى الأنانيّةُ متحكمةً في ذلك الفرد، ويظلُّ الانحطاطُ بارزاً في تصرفاتهِ، أو في أي مظهر من مظاهرِ حياتهِ، ولا يتعدّى ذلكَ إلى الرُّقيِّ، ولا إلى الاطمئنانِ الدّائم. ولهذا فإنَّ تركَ التفكيرِ بالعيشِ هكذا على طبيعتِهِ، دونَ أنْ يُبنى على نظرةٍ في الحياةِ، لا يصحُّ أن يستمرَّ وأنْ يبقى، لأنَّه لا يوصلُ إلى الهدف، ولا إلى الطمأنينةِ الدّائمة، بل هو يحولُ دونَ الطمأنينةِ الدائمةِ. وخير دليل على ذلك العيشُ البدائيُّ، أو عيشُ الشعوبِ المتخلِّفة.

إنَّ التفكيرَ بالعيشِ لا يَعني التفكيرَ بإشباع الطاقةِ الحيويّةِ إشباعاً آنيّاً أو كيفما اتّفقَ، بل لا بدَّ أن يكونَ تفكيراً مستمراً، ينظر لعيشِ الإنسانِ من حيثُ هُوَ إنسانٌ، وعلى أرقى وجهٍ مُستطاعٍ كما تقتضيهِ غريزةُ بقاء النوعِ الإنسانيّ.

وعلى أيِّ حالٍ، سواءٌ بُنِيَ التفكير بالعيشِ على نـظـرة في الحياة أو لم يُبْنَ، فـإنَّ أهمَّ ما يجبُ فيه، أن يكـون تفكيراً مسؤولاً تجاه الغيرِ، لأنَّ التفكير غير المسؤولِ، في موضوعِ العيشِ، لا يزيدُ عنِ التمييزِ الغريزيِّ لدى الحيوانِ في إشباعِ الطاقةِ الحيويّةِ الفردية. وهو لا يليقُ بالإنسانِ، لأنه لا يصحُّ أن يَظلَّ في إطارٍ من الأنانية الضيِّقة.

إنَّ اشتراط أن يكونَ التفكيرُ بالعيشِ تفكيراً مسؤولاً هو أدنى ما يجبُ الالتزام به. وهذا الالتزام بمسؤولية التفكير، برغم كونهِ لا يُوصِلُ للرقيِّ، وبرغم أنّهُ لا يُوصِلُ للطمأنينةِ الدائمة، لكنّهُ أدنى ما يجبُ أن يكونَ لرفعِ مستوى الإنسانِ عن رتبةِ الحيوانِ، ولجعلهِ إنساناً لهُ عقل متميّزٌ بالرّبطِ، وليسَ مجرّدَ حيوانٍ لا يهمُّه سوى إشباعِ الحاجة العضوية.

إنَّ التفكيرَ بالعيشِ هوَ الذي يصوغُ الحياةَ للفردِ، وهو الذي يصوغُ الحياةَ للعائلةِ والعشيرةِ، وهوَ الذي يصوغُ الحياةَ للقومِ، وهوَ الذي يصوغُ الحياةَ للأمّةِ، وهوَ فوق كلِّ ذلكَ يصوغُ الحياةَ للإنسانيّةِ، صياغةً معيّنةً، فيجعلُها حياةَ عزٍّ ورفاهيةٍ وطمأنينةٍ دائمةٍ، أو يجعلُها حياةَ شقاءٍ وتعاسةٍ وركضٍ وراءَ لقمة العيش. ونظرةٌ واحدةٌ للتفكير الرأسماليّ بالعيشِ، وما صاغَ بهِ الحياةَ للإنسانيّةِ كلِّها، يُظهر لنا ما جَلَبَتْ هذهِ الصياغةُ لحياةِ الإنسانيّةِ كلّها من تعاسةٍ وشقاءٍ جعلا الإنسانَ يقضي حياتَهُ كلّها يركضُ وراءَ الرّغيفِ. وكيفَ حَوَّلت العلاقاتِ بينَ الناس إلى علاقاتِ خِصامٍ دائمٍ: إنّها علاقةُ الرّغيفِ بيني وبينَك آكُلُهُ أنا أو تأكُلُهُ أنت، فيستمرُّ بيننا الصراعُ حتى ينال أحدُنا الرّغيف ويُحرَمَ منه الآخرُ، أو يُعطى أحدُنا ما يُبقيهِ على الحياةِ ليوفّرَ باقي الرّغيفِ للآخرِ الذي يزيد به خبزهُ.. نظرةٌ واحدةٌ لهذهِ الصياغةِ التي صاغَها التفكيرُ الرأسماليّ للحياةِ، تبيّن لنا كيفَ جُعِلَتِ الحياةُ الدُّنيا دارَ شقاءٍ وتعاسةٍ، ودارَ خصامٍ دائمٍ بين الناسِ. ذلك أنَّ التفّكيرَ الرأسماليَّ بالعيشِ، وإن قام بناؤه على فكرةٍ كليّةٍ عنِ الكونِ والإنسانِ والحياةِ، أي على نظرةٍ معيّنةٍ في الحياةِ، فإنّهُ سبّب شقاء الشّعوب والأمم، وشقاء الإنسانيّةَ بأجمعِها، برغم ما يظهر من نهضة محققة في ظلّه. فهُو الذي أوجدَ فكرةَ الاستعمارِ والاستغلالِ، وهُوَ الذي أتاحَ لأفرادٍ أن

يعيشوا في مستوى تأتيهم فيه أسباب الرفاهية على طبقٍ من ذهبٍ يُقدِّمُه إليهم الخدَمُ، وحرَمَ أفراداً حتى من أن يكونوا خدماً لأبناءِ عائلاتهم أو قومهم أو أمّتِهم.

وفي أمريكا، وانجلترا، وفرنسا، نماذجُ عديدةٌ من هذهِ الحياةِ، فضلاً عما فعلتهُ فكرةُ الاستعمارِ والاستغلالِ في غيرِ أوروبا وأمريكا مِن استعبادٍ ومصٍّ دماءٍ. كل هذا إنما كان، لأنّ التفكير بالعيشِ ليس تفكيراً مسؤولاً، أي ليس تفكيراً فيه المسؤوليّةُ عنِ الغيرِ. وإنْ كانت تظهرُ فيه المسؤوليّةُ عَنِ العائلةِ أوِ العشيرةِ أوِ القومِ أو الأمّةِ، لكنّه في حقيقتهِ خالٍ من المسؤوليّةِ، لأنّهُ ليسَ فيه إلّا ما يضمنُ الإشباعَ.

والفكرةُ الاشتراكيةُ وإنْ جاءَتْ لتوجِدَ المسؤوليّـةَ في التفكيرِ بالعيشِ، ولتجعلها مسؤوليّةً عَنِ الفقراءِ والكادحينَ، إلّا أنها قد عَجِزَتْ عَنِ الصّمودِ أمام الحياةِ، وانحرفَتْ معَ الزّمنِ، حتّى غَدَت اسماً أو شبحاً. ثم أخذَتْ تخلُو تدريجيّاً مِنَ المسؤوليّةِ عنِ الغَيرِ، إلى أن صارتْ في واقِعِها فكرة قوميّة أكثرَ منها فكرة إنسانيّة.

وعلى هذا فإنَّ التفكير في العيشِ الموجود لدى كلٍّ من أوروبا وأمريكا وروسيّا، وهيَ الدولُ التي تصوغُ نماذج وطرائق العيش في العالم، يُعتبرُ حقيقةً خالياً منَ المسؤوليةِ عنِ الغيرِ. قد يكون هذا النوع من التفكير الخالي من المسؤولية مفهوماً وطبيعيّاً في الإنسانِ المنحطِّ، ولكن من غير المفهوم كيفَ يجعلُ هذا الإنسانُ المنحطُّ استعبادَ الغيرِ واستغلالَهُ لإشباعِ حاجاته الذاتية يحلُّ محلَّ المسؤوليةِ عنِ الغيرِ. ولهذا فإنّهُ برغم مظاهر النهضةِ والتقدّم الموجودةِ في العالمِ اليومَ، فإنّ خلوَّ التفكيرِ بالعيشِ من المسؤولية عن الغير لدى أكثر النّاسِ، ولا سيّما الأقوياء القادرين على تحصيلِ العيشِ، يجعلُ العاقلَ المُبصرَ

يُدركُ أنَّ العالمَ في تفكيرهِ بالعيشِ منحطٌّ وليسَ متقدّماً، وقَلِقٌ وليس بمطمئنٍّ، ويَعْتبرُ أنَّ بقاءَ هذا التفكيرِ بالعيشِ الخالي من المسؤوليةِ عنِ الغيرِ، أمرٌ مضرٌّ بالحياةِ، ومجلَبَةٌ للشقاءِ للإنسانِ. ولذلكَ لا بدَّ منَ القضاءِ على هذا التفكيرِ، والعملِ لأن يَحُلَّ محلّهُ تفكيرٌ بالعيشِ تَكونُ المسؤوليّةُ عنِ الغيرِ جزءاً لا يتجزَّأُ منهُ.

صحيحٌ أنَّ الرّغيفَ هوَ العلاقةُ بينَ الإنسانِ والإنسانِ، وصحيحٌ أنَّ التفكيرَ بالعيشِ هوَ التفكيرُ بالحصولِ على هذا الرّغيفِ لإشباعِ الطّاقةِ الحيويّةِ التي تدفعُ الإنسانَ للشبعِ، ولكن بَدَلَ أن تكونَ العلاقةُ بالرّغيفِ، بينَ الإنسانِ والإنسان، قائمة على مَن يَحْظى بأكله: أنا أو أنتَ، يجب أن تكونَ قائمةً على أن تأكُلَهُ أنتَ لا أنا. فأنا أحصِّلُ الرّغيفَ لأطعمكَ إيّاهُ، وأنتَ تحصِّلُ الرّغيفَ لتُطعِمَني إيّاهُ، لا أن أُخاصِمَكَ لانتزاعه منك، وتُخاصِمني لأخذه مني، أي أن تكونَ علاقةَ إيثارٍ لا علاقةَ أثَرَةٍ، بحيث تفرَحُ أنتَ بالعطاءِ لا بالاستغلالِ، وأفرحُ أنا بالعطاءِ لا بالاستئثار. وصدقَ اللّهُ العظيمُ حيثُ يصفُ الأنصار حينَ قدِمَ المهاجرون عليهم ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1] أي حاجةٌ.

إنَّ الإنسانَ، وإنْ كانَ يفرحُ بأن يأخذَ استجابةً لغريزةِ البقاءِ، فهو كذلك حينَ يرتقي يفرحُ بأن يُعطيَ استجابَةً لغريزةِ البقاءِ. وهكذا مظهرُ الكرمِ والعطاء، مَثَلُه كَمَثَلِ مظهرِ التملُّك والأخذِ، كلٌّ منهما مظهرٌ من مظاهرِ غريزةِ البقاءِ. وفي كلتا الحالتينِ يُشبعُ الإنسان الطّاقَةَ الحيويّةَ لَدَيْهِ بإشباعِ غريزةِ البقاءِ، ولكنّهُ في الحالة الثانية، اختارَ إشباعَ المظهرِ الأرقى على المظهرِ المنحطِّ.

---

(١) الحشر: ٩.

تحديد لبعض مظاهر غريزة البقاء

مما لا شك فيه أن الإنسان يجاهد كثيراً للحفاظ على حياته، وتلافي الأخطار التي قد تُعرِّض بقاءه للفناء. فهو في أي بيئة عاش، سواء في صحراء قاحلة أو في بقعة حضرية مزدهرة، فإنَّ همه الأساسي يبقى حفظ حياته والذود عنها بشتى الوسائل والإمكانيات التي يملكها. ولكن هذا الإنسان الذي نراه يقاوم المصاعب، ويواجه المتاعب، كثيراً ما يعتريه الخوف أو الرعب من مشكلةٍ أو وضعٍ يطرأ عليه، أو تأخذه الرهبة أو الفزع من حالة تطغى على مشاعره. ولكن غريزة حب البقاء جاهزةٌ أبداً للمقاومة والدفاع، واتخاذ الموقف المناسب الذي يقدر الإنسان عليه.

وهذه بعض الانفعالات التي تظهر فيها غريزة حب البقاء:

أولاً ـ الخوف:

هو توقع لمكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة. وهو في «علم النفس» انفعال فطري تجاه الخطر يدفع صاحبه إلى الابتعاد عنه أو الهرب منه. ولذلك فرق علماء النفس بين الخوف الغريزي المتولد عن غريزة البقاء وهو متقدم على كل تجربة فردية، وبين الخوف المكتسب الذي يتولد من التجربة. فإذا أخذنا خوف الأطفال مثلاً فإنه يُعزى إلى أسباب عديدة، منها:

ـ الظلام ويكاد الخوف منه يكون عاماً لدى جميع الأطفال، إذ إن نسبة ٩٢ بالمائة من الأطفال يخافون الظلام لما يظنون أنه يخبىء من مفاجآت غير سارة، يتخيلون أنها قد تُلحق بهم أذى أو شرّاً.

ـ الضوضاء والأصوات العالية، مثل قصف الرعد أو صفير

الرياح، أو هدير الأمواج، أو أصوات الانفجارات.

ـ الحيوانات أو الوحوش.

ـ الأحداث أو المصائب التي تبعث في نفوس أصحابها مشاهد مؤلمة.

ويقول بعض الباحثين إن الخوف قد يأتي بطريقة سريعة كمواجهة الخطر، أو بطريقة بطيئة مثل الروايات والحكايات المرعبة... ويعتبرون أن وسائل الدفاع عن النفس تكون إما بالصياح (كما هي الحال عند الأطفال خاصة) أو بالهرب، أو بالتوقف عن الحركة.

ويظهر الخوف على الإنسان بعوارض فيزيولوجية متعددة مثل الرجفة، واصفرار الوجه، والبكاء، والإغماء، وخفقان القلب. وقد يسيل العرق البارد، أو يحدث التبوّل غير الإرادي. وعن الخوف قد ينشأ مرض الصفراء، أو الفالج أو الخرس...

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة فيها ذكر للخوف، ومنها قول الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[2]. والخوف من الله تعالى لا يراد به الشعور الذي ينتاب الإنسان عند استشعاره الخطر من حاكم طاغٍ أو وحش ضار، وإنما يراد به الكف عن المعاصي واختيار الطاعات. ولذلك قيل: لا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً. والتخويف من الله تعالى هو الحث على التحرّز. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ

---

(١) السجدة: ١٦.

(٢) الرحمن: ٤٦.

(٣) الزمر: ١٦.

﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] أي فلا تأتمروا للشيطان وائتمروا لأمر الله تعالى.

والخوفُ مُشكلةٌ منَ المشكلاتِ الخطيرةِ التي تُكابدُها الشعوبُ المتخلفةُ والأممُ الضعيفةُ.

فإذا سيطرَ الخوفُ على شخصٍ شلَّ ذاكرتَهُ وقابليّةَ التمييزِ لديه، وأفقدهُ لذَّةَ العيشِ، وأنبلَ الصفاتِ، وأربكهُ ذهنيّاً حتى يفقدَ القدرةَ في الحكمِ على الأشياءِ.

وأخطرُ أنواعِ الخوفِ، الخوفُ منَ الأوهامِ والأشباحِ. ولا يكونُ ذلكَ إلا عندَ ضعافِ العُقولِ، إمّا لأنَّ نُمُوَّهُمُ العقليَّ لَمْ يكتمل كالأطفالِ، أو لعدمِ معرفةِ المعلوماتِ الكافيةِ للرّبطِ بالواقعِ. ويُعالَجُ الخوفُ لدى هؤلاءِ إمّا بالتعمّقِ في البحثِ وتقريبِ الأشياءِ لإدراكِهِم، وإمّا بإعطائِهِم أفكاراً متّصلةً بما يخافونَ منه، على أن يكونَ لهذهِ الأفكارِ واقع محسوس لديهم. وبهذا العلاجِ يتخلّصونَ من سيطرةِ الخوفِ منَ الأوهامِ والأشباحِ إمّا بإزالتهِ، أو بتخفيفهِ تدريجيّاً إلى أن تنقلعَ بقاياهُ..

وهناكَ نوع مِنَ الخوفِ شائع ومعروف، وهو الخوف الناتج عَنْ عدمِ الموازنةِ بينَ ما ينتجُ منَ القيامِ بالعملِ، وبين ما ينتجُ من عدمِ القيامِ به. وكلاهما يسبّبُ أذى. إذ قد يؤدِّي الخطأُ في هذهِ الموازنةِ إلى الخوفِ من بسائطِ الأمورِ والوقوعِ في المخاطرِ: وذلكَ كالخوفِ مِنَ الحاكمِ الظّالمِ في أن يُوقعَ الأذى بالفردِ، فهذا يؤدِّي بدورهِ إلى إيقاعِ الأذى بالأمّةِ؛ وكخوفِ الجنديّ في ساحةِ القتال منَ الموتِ،

---

(١) آل عمران: ١٧٥.

فهذا يؤدِّي إلى الهزيمة وإبادةِ الجيشِ كلّه، وهو واحد منهُ؛ وكالخوفِ مِنَ السّجنِ في سبيلِ العقيدةِ، وهذا يؤدِّي إلى ضياعِ العقيدةِ، وذلك أكثرُ ألماً مِنَ السّجنِ.

هذا الخوف خطِرٌ جدّاً على الأمّةِ لأنه لا يؤدِّي إلى المخاطر فحسب، بل ربما أدَّى إلى الدّمارِ والهلاكِ.

لكنَّ الخوفَ نافعٌ ومفيدٌ في بعضِ الأحيانِ. فالخوفُ مِنَ الأخطارِ الحقيقيةِ أمرٌ مفيدٌ أحياناً، وهوَ واجبٌ، والاستهتارُ بهِ مضرٌّ ولا يجوزُ، سواءٌ كانتِ الأخطارُ على الفردِ نفسهِ أو على أمّتهِ، فالخوفُ في هذهِ الحالةِ هوَ الحارسُ والحامي.

ولذلكَ لم يكنْ بدّ من إدراك الأخطارِ المُحدِقَةِ بالأمّةِ حتى تحسبَ حسابها، وتعملَ للدّفاعِ عن نفسها بأن تقضيَ على تلك الأخطار التي تحدق بها.

والخوفُ منَ اللَّهِ ومنْ عذابهِ أمرٌ مفيدٌ وواجبٌ. وهوَ الحارسُ الأمينُ للإنسان من الوقوع في المعاصي والفواحش. ولذلكَ كانَ هذا النوعُ منَ الخوفِ أروعَ الأنواعِ لأنه أفعل في النّفوسِ، وأكثر نفعاً وفائدة. ويجبُ أن يكونَ وأن يُعملَ على تكوينهِ، لأنّهُ هو الذي يضمنُ سيرَ الإنسانِ على الصّراطِ المُستقيمِ.

مما تقدَّم يتبيّن أنَّ الخوفَ جزءٌ منْ فِطرةِ الإنسانِ، والمفاهيمُ هيَ التي تُثيرُهُ فيه، أو تُبعدُهُ عنهُ. وهوَ من أخطرِ الأمورِ على الإنسانِ في بعضِ النواحي، كما أنهُ منْ أكثرها فائدةً في نواحٍ أُخرى.

فلكي يتّقيَ الإنسانُ أخطارَهُ ويتمتّعَ بمنافعهِ يجبُ عليهِ أن يخضعَ للمفاهيمِ الصادقةِ وحدها، ألا وهي مفاهيمُ الإسلام. وهذا ليس

بالنسبة للخوف فقط، بل وأيضاً بالنسبةِ لجميعِ مظاهرِ الغرائزِ التي فُطِرَ عليها الإنسانُ.

والخوف يكون على درجات، منها الفزع والرعب والرهبة..

ـ فالفزع هو انقباض في النفس ناتج عن تفكير الإنسان لما يعتريه من الشيء المخيف. قال الله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾[2] أي حتى إذا أزيل عنها الفزع.

ـ والرعب هو الانقطاع من امتلاء الخوف. يقال: رعبتُهُ فرَعَبَ رُعْباً فهو رَعيب. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾[4].

ـ وأما الرهبة فهي مخافة مع تحرّز واضطراب. قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم﴾[5]. وقال تعالى: ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[6] أي تدعون الله تعالى رغباً في رحمته، ورهباً من عذابه. وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[7] وهو تهديد لبني إسرائيل ـ وللناس أجمعين ـ أن يخافوا ربهم وحده، وأن يفردوه بالخشية لأنه قادر مقتدر، عزيز جبّار.. ولذلك كان معنى الرهبانية: غلوٌ في تحمّل التعبّد من فرط الرهبة. قال

---

(١) النمل: ٨٧.
(٢) سبأ: ٢٣.
(٣) الأحزاب: ٢٦.
(٤) آل عمران: ١٥١.
(٥) الحشر: ١٣.
(٦) الأنبياء: ٩٠.
(٧) البقرة: ٤٠.

تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾[1].

ثانياً ـ الرضا:

الرضا: يقال رضي، يرضى، رضاً، فهو مرضيّ. والرضا انفعال نفسي إرادي، ومصدر ارتياح وسعادة للإنسان.

ويشمل الرضا مختلف مجالات الحياة كرضا الإنسان عن نفسه وعمله، ورضاه عن زوجه وأولاده، ورضاه عن علاقاته مع الآخرين. وقد أثبتت بعض الدراسات على طلبة جامعيين أُوكل إليهم القيام ببعض الأعمال التي لا يحبونها أن قيامهم بتلك الأعمال أدّى بهم إلى التكاسل والسأم والإرهاق، وشكاية بعضهم من الصداع وآلام المعدة، فلما طلب إليهم القيام بأعمال يحبونها تغيرت أحوالهم النفسية والجسمية، وقاموا بهذه الأعمال بكل نشاط وارتياح.

وفي دراسة أخرى ظهر أن الفرح والضحك يقويان عضلات القلب، ويسهلان عملية الهضم، ويخفضان ضغط الدم.

إجمالاً: إن تقبل الحياة، والاستمتاع بخيرها وجمالها وطيّبها ـ في حدود ما أمر الله تعالى ـ من أهم المقومات التي تساعد على الحيوية والنضارة، وعلى الاحتمال والمثابرة، وعلى الارتياح والطمأنينة. وهذا ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إرضَ بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس». وقد اعتبره عبد الواحد بن زيد: «باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين». ورضا الإنسان بحكم ربه والتوكل عليه هو أعظم درجات الرضا.

ومن الإيمان الرضا بالقضاء خيره وشرّه. ولذلك فإن قبول المؤمن

---

(١) الحديد: ٢٧.

بالنوائب والمصائب يحولها إلى خير له، لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

وقال الشاعر:

لا تعتبنَّ على النـوائـب   فالدهـر يرغمُ كـلَّ عاتب
واصبـر على حُـدْثـانـهِ   إنَّ الأمـور لهـا عـواقب
كـم نعـمـةٍ مـطويـةٍ لَـكَ   بيـن أثـنـاءِ النـوائـب
ومـسـرَّةٍ قـد أقـبـلـت   من حيث تنتظر المصائب

أما رضا الله تعالى عن عبده فهو أن يراه مؤتمراً لأمره، ومنتهياً عن نهيه لقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

والرضوان هو الرضا الكبير. ولما كان أعظمُ الرضا رضا الله تعالى فقد خُصَّ لفظ الرضوان في القرآن الكريم بما يكون من الله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾(٤).

ثالثاً ـ الغضب:

هو ثوران دم القلب، أو انفعال النفس بمشاعر النقمة أو إرادة الانتقام. يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا الغضب فإنه جمرة توقد في

---

(١) البقرة: ٢١٦.
(٢) المائدة: ١١٩.
(٣) الفتح: ١٨.
(٤) الفتح: ٢٩.

قلب ابن آدم، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه». ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس الشديد بالصرعة، ولكنَّ الشديد من يمسك نفسه عند الغضب». وقد يُعدُّ الغضب مظهراً إيجابياً للدفاع عن النفس ولذلك كان مظهراً لغريزة حفظ البقاء.

وفي القرآن الكريم بيان لتأثير الغضب في سلوك الإنسان، ومثاله غضب موسى عليه السلام حينما عادَ إلى قومه فوجدهم يعبدون العجل الذي صنعه لهم السامري وأضلهم به، فما كان من موسى عليه السلام إلَّا أن جرَّ إليه أخاه هارونَ معاتباً على تركه السَّامِريّ يفعلُ ما فعل. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾[1].

وكما يدفع الغضب الإنسان نحو الآخرين الذين يغضبونه بسلوك من الانتقام أو العداوة أو الكراهية لتصرفهم، فإنه أحياناً كثيرة قد يرتدُّ على الإنسان نفسه إن لم يجد أمامه ما يوجه إليه سلوكه العدواني. فقد يغضب الإنسان ويضربُ غيره مثلاً، أو قد يحطم بعض الأشياء المادية التي يجدها في طريقه. ولكن كثيراً ما قد يرتدُّ غضبه إلى نفسه، ومثاله وصف القرآن الكريم للمنافقين وتصويره غضبهم وهم يعضون أناملهم غيظاً من المؤمنين. يقول الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2].

وعندما يستولي الغضب على الإنسان كثيراً ما يفقده السيطرة على إرادته، فيُظلِمُ صدره، فلا تعود تؤثر فيه عوامل التربية والاعتبارات

---

(١) الأعراف: ١٥٠.

(٢) آل عمران: ١١٩.

الإنسانية. ولذلك كان خير علاج للغضب الاستعانة بذكر الله تعالى والتروِّي، وكظم الغيظ، وخير وسيلة لتهدئة هياج المغضَب هو تركه وشأنه، كما نصَحَ بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعدم مواجهته حتى لا يزيد توقد النار في قلبه، وأخذه بالحلم والليونة والصبر. وهذا ما ينصح به أيضاً علماء التربية لإسكات غضب الأطفال.

أما ربنا تعالى فيدلنا على الطريق القويم، بقوله جل وعلا: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[1].

وللغضب درجات عديدة أدناها العتاب والموجدة، وأشدُّها الغيظ أو السخط.

يقال في اللغة: غاظَهُ غيظاً أي أغضبه أشد الغضب. والغيظ والسخط شيء واحد، وهما الغضب الشديد المقتضي للعقوبة. ومثاله قوله الله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[2]. والسخط من الله تعالى يعني إنزال العقوبة. قال جل وعلا: ﴿ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط». ومعناه أن ابتلاء الله تعالى لعباده فيه اختبار وتجربة، وفيه حكمة إلٓهية قد لا يستشعر الإنسان أهميتها بالنسبة إليه أو لغيره من الناس. ولذلك كان القبول بحكم الله تعالى والرضا بما قسمه توكل على الله تعالى، وثقة به سبحانه، وتسليم بقضائه. فإن في ذلك الخير والرضا له، وإلاَّ فإنه السخط الذي يضر

---

(١) فصلت: ٣٤.
(٢) التوبة: ٥٨.
(٣) المائدة: ٨٠.

بدل أن ينفع، وغضب الله الذي يهلك، بدل رضاه الذي يحيي.

رابعاً ـ الفرح والسرور:

الفرح هو انشراح الصدر أو هو الانفعال النفسي عندما ينال الإنسان ما يتمناه.

أما السرور فهو ما كُتِمَ من الفرح لأنه مشتق من الإسرار. والإسرار هو خلاف الإعلان. وأكثر ما يكون الفرح عادة في اللذات الحسية. من هنا كان متاع الحياة الدنيا مصدر فرح وسرور للإنسان، وهذا شأن معظم الناس الذين تغرّهم الحياة الدنيا فيقبلون على ملذاتها فرحين. فهم يفرحون بالصحة، وسعة الرزق، ووفرة المال والبنين. وقد تشغلهم هذه المتع فينسون أنها نعم من الله تعالى تفضَّل بها عليهم، وينسون ذكره سبحانَهُ، وينشغلون عن شكره وحمده. وهذا من قبيل إنكار النعمة وجحود فضل المنعم. ولذلك يشير القرآن الكريم إلى حالات الناس النفسية التي يأخذهم فيها الفرح بمتاع الحياة الدنيا بآيات كثيرة. ومنها قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[2]. ثم يأتي الحكم الإلهي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[3]. أي لا يحب هؤلاء الذين يأخذهم الفرح الدنيوي فينسيهم ذكر الله تعالى، وشكره على منّه وعطائه.

أما الذين آمنوا، وعرفوا الله تعالى حق المعرفة، وأدركوا قيمة النعم التي يغدقها الله تعالى عليهم، فهؤلاء إنما يعملون للآجلة أكثر

---

(١) الرعد: ٢٦.

(٢) غافر: ٨٣.

(٣) القصص: ٧٦.

من عملهم للعاجلة، وهنالك ينالون الجزاء الأوفى، وحق لهم أن يفرحوا لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1]. وهو الترخيص الوحيد في الفرح: ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾[2].

فالخير في الحياة الدنيا هو من الله تعالى. وعلى الإنسان أن يعمل الخير الذي فيه رضا الله سبحانه. أما إذا انصرف الإنسان إلى متاع الدنيا المادي، وشغله ذلك عن ربه، فإن فرحَهُ في هذا المتاع زائلٌ، لأن الحياة الدنيا كلها إلى زوال. وقد أحسن أحدهم وهو يصور حقيقة شعور الإنسان في إقبال الدنيا عليه أو إدبارها عنه، وذلك بعدم شدة الاكتراث للإقبال، وعدم اليأس أو الجزع من الإدبار، فقال شعراً:

ولست بمفراح إذا الخير مسَّني   ولا جازع من صَرْفه المتقلّب

(والمفراح هو كثير الفرح).

وعن السرور يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾[4]. وسرور المؤمن يوم الحساب، حينما يوقِّيه الله تعالى شر ذلك اليوم، يكون سروراً عظيماً، لأنه يفلت من العذاب، ويدخل في رحمة الله في جنات النعيم. يقول تبارك وتعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾[5].

خامساً - التملك:

يحرص الإنسان ويجتهد في حياته لأن يمتلك الأموال على اختلافها من نقود وعقارات وأثاث وألبسة وغيرها. وتعتبر الأموال غاية

---

(١) الروم: ٤.
(٢) يونس: ٥٨.
(٣) الانشقاق: ١٣.
(٤) الإنسان: ١١.
(٥) الإنسان: ١١.

كثير من الناس في هذه الحياة، بل إن تكديس الثروة يشكِّل مثالهم الأعلى، وما ذلك إلَّا لأن المال زينة الحياة الدنيا، وهو أحب متاعها إلى قلب الإنسان المتعلق بأهداب هذه الدنيا. وقد بيّن القرآن الكريم متعَ الحياة الدنيا وتعلق الناس بها بقوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾(١).

فالنساء والبنون، والكثير من المال الذي يشير إليه القرآن الكريم بالقناطير المقنطرة التي يجري تكديسها ذهباً أو فضة، والخيل المسوَّمة، والأنعام وهي الأنواع المختلفة من الحيوانات، والحرث وهو الحقول التي تزرع وتخصب.. كل ذلك من شهوات النفس الإنسانية، بل هي في النص القرآني نموذج لشهوات النفوس على كثرتها وتنوعها. وذلك كله متاع الحياة الدنيا وليس متاع الحياة العالية الرفيعة، لأن ما عند الله تعالى، وما ينتظر المؤمنين في مآبهم في الآخرة، خير من كل ما في هذه الأرض.

والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يبيّن أيضاً حب الإنسان للمال والتملك.. عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لأحبَّ أن يكون له ثالث. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

سادساً ـ الطمع:

هو نزوع النفس إلى الشيء شهوةً له، وهو يدفع إلى مغالبة

---

(١) آل عمران: ١٤.

صروف الدهر من أجل الشهوة التي تتخذ أشكالاً متنوعة قد لا تحصى، لتقلبها بين الناس باختلاف شهواتهم. والطمع يبرز في كل ما من شأنه أن يوسع حياة الإنسان ويزيد نفوذه وسلطانه.

وقد يكون الطمع متأصلاً في بعض النفوس بحيث يصعب إزالته منها، أو سد منافذها عليه. وحب السيطرة والأثرة هما من أهم الدوافع إلى الطمع. وحب السيطرة غالباً ما يرافقه حب الظهور، والادعاء بما ليس عند المرء كي يُشعر الآخرين بأهمية وجوده، حتى أن البعض ليقيم نفسه مقياساً لكل شيء، فتراه مدعياً، صلفاً، معجباً بنفسه، إلى ما هنالك من حب ظهور الشخصية..

والمطامع التي تستشري في النفوس هي عادة وراء الحروب والنزعات التي تحصل في العالم. فإن كانت مطامع للأفراد أوجدت التناحر والتباغض والتباعد، وإن كانت مطامع للدول أوجدت الظلم والاستغلال والحروب ونهب خيرات بلاد الآخرين، وكل ذلك تحت ستار الحفاظ على المصالح الحيوية.

إلا أن الطمع في هداية الآخرين إلى الإيمان، والطمع في عطاء الله وغفرانه.. هذا النوع من الطمع محبب عند الله لقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾[3].

سابعاً ـ الحسد:

هو انفعال في النفس يشعر معه الإنسان أنه يتمنّى زوال نعمةٍ

---

(1) البقرة: ٧٥.
(2) الأعراف: ٥٦.
(3) الشعراء: ٥١.

عند غيره والاستئثارَ بها لنفسه. فقد يحسد الإنسان غيره لامتلاكه ثروة كبيرة يودُّ لو تكون له بدلاً منه. ومنه حسد الناس لقارون عندما خرج في زينته، إذ تمنوا أن يكون لهم مثل ما له من الذهب والفضة والأموال. وهذا الحسد شائع لدى كثير من الناس الذين يحسدون غيرهم على ما آتاهم الله تعالى من نعمة إيمانية، أو نعمة مادية، أو نجاح في الحياة.

والحسود يتمنى زوال نعمة المحسود وتحولّها إليه، كما رأينا، وربما تمنّى زوال هذه النعمة من غير أن تصير له. وقد يحسد الأخ أخاه على ما فضلّه الله تعالى عليه من نعمة أو موهبة. ومن قبيل ذلك حسد قابيل لأخيه هابيل حينما تقبل الله تعالى قربان هذا الأخير ولم يتقبل قربانه هو، فدفعه حسده إلى قتل أخيه. ومنه أيضاً حسد إخوة يوسف له لأنه كان مقرّباً من أبيه أكثر منهم فسعَوْا إلى قتله أو التخلص منه.

وفي القرآن الكريم بيان واضح للحسد على ما آتى الله سبحانه أنبياءه أو أولياءه من فضل في النبوة والحكمة والعلم. قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[1]. ومنه أيضاً حسد أهل الكتاب والمشركين للمؤمنين على ما وهبهم الله تعالى من نعمة الإيمان، فرغبوا في ردهم عن إيمانهم بدافعٍ من الحسد الذي كان يأكل أنفسهم. يقول الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾[2].

ويثير الحسد في النفس انفعالات عديدة مثل الحقد والكراهية والحزن، وغالباً ما يتحسَّر الحسود على الخيرات تكون لغيره من الناس

---

(١) النساء: ٥٤.

(٢) البقرة: ١٠٩.

فيبغضهم خوفاً من أن يؤدي استمتاعهم بها أو تملكهم لها إلى حرمانه منها. وكلما كانت نعم الله تعالى على إنسان جزيلة وفياضة كثر حساده، فإن قلت قلَّ هؤلاء الحساد. قال أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طُويت أَتاح لها لسانَ حسود

والغبط هو غير الحسد، لأن الغبط يكون بأن يتمنى المرء نعمة له مثل نعمة أخيه من غير زوالها عنه، ولذلك قيل: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد». والمنافسة أيضاً هي غير الحسد، لأن المنافسة طلب التشبه بالأفاضل من غير تمنّي الضرر لهم. ولذلك لا يؤدي الغبط والمنافسة الشريفة إلى الضرر، بعكس الحسد الذي يرمي في الأصل إلى إيقاع الضرر بالغير انتقاماً منه على ما عنده من فضل أو خير أو ملكية. وقد أشادَ بعضهم بالحسد لأن ضرره غالباً ما يرتدُّ على صاحبه فيصيبه منه مثل ما يصيب المحسود، أو قد ينحصر أثره بالحاسد وحده. فقد روي عن المعتصم أنه قال: «قاتل الله الحسدَ ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله».

وتعتبر العين هي الحاسة الرئيسية التي تصيب بالأذى عندما تنطوي نفس صاحبها على الحسد. والمثل الشائع معروف: «عين الحاسد تبلى بالعمى» أي لا تعود قادرة على النظر فتصيب بالشر ما رأت ونظرت. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لأصحابه: «إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو أخيه شيئاً يعجبه فليدع له بالبركة فإن العين حق». وعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من رأى شيئاً فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضرّه. ويعوّذ المعيون الذي أصابته عين بآيات القرآن الكريم». وقد روى البخاري عن ابن عباس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعوّذ الحسن والحسين ويقول: «أعيذكما بكلمات الله

التامة من كل شيطان وهامَّة ومن كل عين لامَّة» ثم يقرأ الرسول ﷺ المعوذتين وهما: سورة الفلق وسورة الناس» (والهامّة هي كل ذات سم يقتل كالحية. والعين اللاَّمة هي التي تصيب ما نظرت إليه بالسوء).

أما الأحاديث الواردة في النهي عن الرُّقية فهي محمولة على ما كان منها بغير اللسان العربي، وبغير أسماء الله تعالى وصفاته وكلامه. أو بسبب اعتقاد المَرْقيِّ أن الرقيّة نافعة لا محالة فيتكل عليها، والاتكال لا يجوز إلا أن يكون على الله سبحانه وتعالى وبعد ربط الأسباب بالمسببات. فمثلاً المريض يجب أن يعرض على طبيب كي يعاينه ويشخص له مرضه ويصف له العلاج للتداوي، ولا بأس بعدها بالدعاء له بالشفاء، لأن الله تعالى يقول: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾.

وأما في حال إصابة الإنسان بعين حسود، أو شيء مثيل له، فعليه بالرُّقية بقول الله تعالى ورسوله الكريم، فإن في قول الله تعالى ورسوله شفاء ورحمة. قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ثامناً ـ الكرم والبخل:

الكرم هو كل ما دلَّ على إحسان الله تعالى وإنعامه الظاهر والباطن. ومن أسماء الله الحسنى «الكريم». قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[2]. وفيه إشارة واضحة إلى أنه مع الغنى الإلهي كرم منه سبحانه يتكرم به على عباده بنعمته التي لا تعد ولا تحصى.

وإذا وصف الإنسان بالكرم فهو نعت للأخلاق والأفعال المحمودة

---

(١) الإسراء: ٨٢.
(٢) النمل: ٤٠.

التي تظهر فيه. ولا يقال لأحد: هو كريم حتى يظهر ذلك فيه.

وإن أكرم الأفعال وأشرفها ما يقصد به وجه الله تعالى، وإعلاء كلمته ـ سبحانه ـ وجعلها هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى. يقول الله تعالى: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، لأن المتّقين يخافون ربهم، ويجهدون في طاعاته والابتعاد عن معصيته. فيكون الأتقياء أكرم المخلوقات عند الله تعالى. وكل شيء شَرُفَ في جنسه فإنه يوصف بالكرم. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾[1].

والقرآن هو كتاب الله المبين لآياته المبثوثة في الكون والوجود، ولذلك وصفه ربُّهُ ومُنْزِله بأنه كريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾[2]. ويوصي الله تعالى الولدَ بالوالدين والإحسان إليهما بأشرف القول وأنبله، وهو القول الكريم. يقول تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾[3]. والإكرام والتكريم هو ما يوصلُ إلى الإنسان من نفعٍ ولا يلحق فيه غضاضة، أو ما يوصل إليه من شيء شريف. أما الجود فهو بذل المقتنيات من المال أو العلم. فمن يبذل ماله مثلاً على نفع الناس يقال له جواد. ولذلك قيل عن الحصان الذي يجود بمُدَّخر عدوه: جوادٌ (وجمعه: جياد). يقول تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾[4].

ويقابل الجودَ **البخل**، وهو إمساك المال عمَّن لا يحق حبسه عنه، أو هو الامتناع عن أداء واجب الإنفاق على مستحقيه. ويقال رجلٌ باخل أو رجل بخيل، والبخيل هو الذي يكثر منه البخل.

---

(١) لقمان: ١٠.

(٢) الواقعة: ٧٧.

(٣) الإسراء: ٢٣.

(٤) ص: ٣١.

ويتخذ البخل وجهين: أحدهما البخل بالمال الخاص، فلا يعطي الإنسان من مالِهِ شيئاً، والثاني أن يُحَرِّضَ غيره على البخل فكأنما يبخل بمال غيره فلا يطيق أن ينفقه صاحبُهُ. وهذا الوجه الثاني أكثر ذماً، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾[2].

الحياة الدنيا سريعة الفناء، قريبة الانقضاء، ومن اختار الفاني على الباقي كان جاهلاً. فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هما اللذان يخرجانها عن أنْ تكونَ لهواً ولعباً ويطبعانها بطابع الجد.

وهذا النص: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾[3]. هو نص يوحي بحكمة اللطيف الخبير، ورحمته ولطفه بالنفوس، ويكشف عن التقدير الدقيق في تكاليف هذا الدين، ومراعاته للفطرة، وعلمه ـ سبحانه ـ بأن في نفقة المال على مستحقيها خروجاً للأضغان التي هي الأحقاد في القلوب، والعداوات النفسية الباطنية.

وفي هذه الآيات الكريمة وصف دقيق لواقع الناس تجاه الإنفاق

---

(١) النساء: ٣٧.
(٢) محمد: ٣٦ ـ ٣٨.
(٣) محمد: ٣٧.

في سبيل الله تعالى في كل بيئة. فهي تقرر أنَّ من الناس من يبخل في الإنفاق حتى في سبيل الله ربه وخالقه، فكيف ببخله تجاه نفسه وعياله والآخرين؟!.. وبمقابل هؤلاء هناك من لا يبخلون بشيء في سبيل مرضاة الله تعالى، فهم ينفقون أموالهم فرحين بالبذل والعطاء.

﴿والله الغني﴾ عما عندكم أيها الناس جميعاً من الأموال. ﴿وأنتم الفقراء﴾ إلى ما عند الله تعالى من الخير والرحمة والكرم. وهو سبحانه لا يأمركم بالإنفاق لحاجته، ولكن لتنتفعوا به في أخراكم. وإنْ تعرضوا عن طاعة الله تعالى، وعن طاعة رسوله الكريم يستبدل بكم قوماً آخرين يكونون أكثر طاعة وتقوى لله تعالى، ولرسوله الكريم.

ومن البخل **الشحّ** وهو مرض من أمراض القلب، يقابل، في سوئه، الإسرافَ والتبذير، بل ويتخطاهما في ضرره وخطره. فالواجب الانفاق من غير إسراف أو تبذير أو تقتير. يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم: حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

تاسعاً ـ التكتل:

إنَّ التكتل مظهر من مظاهر غريزة حب البقاء، ولذلك كان الاجتماع طبيعياً بين الناس للدفاع عن أنفسهم ضد الوحوش الضارية وضد أخطار الطبيعة العاتية. فكان نشوء المجتمع البشري حاجة ملحة للحفاظ على بقاء الحياة.

أما اليوم، فبالإضافة إلى ذلك، هنالك المصالح العامة والمشاعر المشتركة التي تجمع الناس وتؤلف فيما بينهم في نطاق المجتمع الذي يعيشون فيه. والعلاقات في المجتمع الإسلامي تبنى على جلب

المصالح ودفع المفاسد. ثم يقتضي لنا أيضاً توحيد النظرة من خلال توحيد الأفكار، وتوحيد الرضا والسخط، وتوحيد المعالجات من خلال نظام واحد يعالج سائر شؤون الجماعة والمجتمع على حدٍّ سواء.

عاشراً ـ الحزن والأسى والأسف:

يقال لغةً: الحُزْنُ والحَزَنُ: خشونة في الأرض. والخشونة تكون في النفس لما يحصل فيها من الغمِّ فكأنما يجعلها هذا الغمُّ خشنة مثل الأرض. ولذلك يقال: حَزَن يحزَنُ، وحَزَنتُه وأحزنتُه.

والحزن شعور في النفس مضاد للفرح. قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾[1]. وهذا الشعور غالباً ما يلازم الإنسان الذي تحفُّ به المكاره أو يُواجه المتاعب، فقد يأتي من فقدان عزيز، أو خسارة شيء ذي قيمة كبيرة، أو فشل في تحقيق أمر هام. ومنه حزنُ أم موسى عليه السلام حين وضعته في الصندوق وألقت به في نهر النيل، فقذفَهُ الموج بعيداً عنها، عندها هلع قلبها وحزنت عليه، فجاءها الإلهام من الله تعالى بالصبر ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[2]. ومنه الحزن الذي أصاب فقراء المسلمين وهم لا يجدون مالاً ينفقونه لتجهيز أنفسهم والذهاب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جيش العسرة، فتولوا عنه وهم يبكون من الحزن. قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[3]. ومنه حزن يعقوب

---

(١) آل عمران: ١٥٣.

(٢) القصص: ١٣.

(٣) التوبة: ٩٢.

على ابنه يوسف عليه السلام. قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1].

وعندما يقال: لا تحزنْ فليس ذلك نهياً عن تحصيل الحزن، لأن الحزن لا يحصل بالاختيار، ولكن هذا النهي إنما هو في الحقيقة يقصد ما يورث الحزن. ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[2]. وإلى ذلك أشار الشاعر بقوله:

ومن سَرَّهُ أن لا يرى ما يسوؤه فلا يتّخذْ شيئاً يُبالي لـه فقدا

وهذه الحياة الدنيا مجبولة بالأحزان والمآسي، كثيرة فيها المتاعب والنوائب. فعلى الإنسان أن يوطّن نفسه على مواجهة النوائب حتى إذا باغتته نائبة عرف كيف يسيطر على مشاعره، وكيف يتعامل مع الواقع حتى لا يكون أثره كبيراً في نفسه وحزنه أشد.

والأسى والحزن شيء واحد. إلَّا أن حقيقة الأسى هو أنه غمٌّ على شيء قد فات وانقضى. يقال: أسيت عليه أسىً. وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

والأسف هو الحزن والغضب معاً. وقيل هو الحزن وحده، أو الغضب وحده. والأسف هو انفعال في النفس قد يؤدي إلى المواجهة أو الانتقام. ولذلك يكون الغضب درجة فوق الأسف، والحزن درجة دون الأسف. وقد سئل ابن عباس عن الحزن والغضب فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف. فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظاً

---

(١) يوسف: ٨٦.
(٢) التوبة: ٤.
(٣) المائدة: ٦٨.

وغضباً، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزناً وجزعاً. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[1]. فمعنى آسفونا هنا: أغضبونا. قال أبو عبد الله الرضا: «إن الله تعالى لا يأسف لأسفنا، ولكن له أولياء يأسفون ويرضون فجعل رضاهم رضاه وغضبهم غضبه» ولذلك يقال عن الآسف: الغضبان. قال تعالى عن النبي موسى عليه السلام: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾[2].

غريزة النوع وبعض مظاهرها

كما أن لدى الإنسان شعوراً طبيعياً بوجوده، وبحرصه على هذا الوجود ببقائه حيًّا، كذلك عنده شعور طبيعي ببقاء النوع الإنساني كله، لأن فناء هذا النوع يهدّد بقاء الإنسان كفرد، ولذلك تحتدم في نفسه الميول والانطباعات العائدة لبقاء النوع الإنساني، فكان من ذلك الشهوة إلى المرأة، والحنان على الأهل والأبناء، وإغاثة المحتاج والملهوف. ويظهر ذلك كله بمظاهر من الأفعال قد تكون منسجمة أحياناً، أو متناقضة أحياناً أخرى طبقاً لانفعالات الفرد النفسية. أي أنَّ كل ذلك إنما يعبّر عن غريزة النوع التي تظهر بمظاهر عديدة ومختلفة. ومنها:

أولاً ـ الشعور الجنسي:

وهو أشدُّ مظاهر غريزة النوع تأثيراً في حياة الإنسان. فقد يظهر بميول رفيعة، تعبر عن الأدب والحشمة، ويتعاطاه الإنسان لإشباع مشاعره الجنسية بصورة طبيعية، أو قد يظهر بميول شاذة تعبر عن

---

(١) الزخرف: ٥٥.

(٢) طه: ٨٦.

الانحطاط الخلقي، والخلاعة والتهتك لإشباع الشهوة الجنسية وحسب.

وللشهوة معنيان: أحدهما عام، والآخر خاص.

فالشهوة بالمعنى العام هي حركة النفس طلباً لما يحقق إشباعها. وأما الشهوة بالمعنى الخاص فهي الرغبة الشديدة في التمتع بالملذات الحسية. ومنها الشهي أو المشتهى وهو الشيء الذي ترغب فيه النفس وتتوق إليه. ومنها أيضاً الشهوة والاشتهاء. وإذا أردنا التفريق بين معنى الشهوة ومعنى الاشتهاء قلنا إن نسبة الأول إلى الثاني كنسبة الشوق إلى الاشتياق: فالأول يسكن باللقاء، والثاني لا يزول به. وكذلك الشهوة فهي تسكن بالإشباع، أما الاشتهاء فلا ينتهي.

والميل الطبيعي بشهوة الجنس يكون من الإنسان للإنسان، أي من الرجل للمرأة، بينما الميل بشهوة الجنس من إنسان لحيوان يكون شذوذاً وليس طبيعياً، وكذلك ميل الذكر للذكر، وميل الأنثى للأنثى يشكلان شذوذاً وانحرافاً للغريزة الطبيعية التي هي غريزة النوع. ويخطىء من يذهب إلى وجود غريزة للجنس، لأنه لا وجود لغريزة الجنس في الإنسان، بل توجد لديه غريزة النوع ومن مظاهرها الشعور الجنسي.

والشعور الجنسي لا يثور تلقائياً وإنما تأتي إثارته من الخارج، بل هو يحتاج إلى هذه الإثارة حتى يتحرك، فلا تكون هناك رغبة في الاجتماع الجنسي، ولا يتأثر هذا الشعور بأي شيء من الداخل، ما لم يرَ الإنسان أو يفكر بواقع محسوس يثيره، أو ما لم يسمع عن وقائع جنسية مثيرة، أو ما لم يَسْتَعِدْ تذكر حوادث جنسيةً مارسها أو تصوَّرها..

ووجود غريزة النوع بذاتها في الإنسان، ومشاعرها الجنسية لا

تسبب له القلق والاضطراب عادةً، بل إثارة مشاعر هذه الغريزة والحاجة لإشباعها هي التي تسبب له مختلف الحالات الشعورية العائدة لها في حال عدم وجود الإشباع. وحتى إذا لم يكتمل شعور الإشباع لعدم وجود ما يثيره فإنه لا ينتج عن ذلك أي قلق أو اضطراب نفسي، كما لا يتهيأ أي كبت إذا لم تكن هنالك مسببات سابقة له. ولذلك، حرصاً على نظافة الفرد النفسية والصحية، وحرصاً على نظافة المجتمع من الفَساد والمساوىء، كان من الحماقة والجهل وقصر النظر أن تشيع بين الناس الأفكار التي تثير أحاسيس الجنس كما نرى اليوم في الكتب، والمجلات والأفلامِ السينمائيّةِ والرواياتِ، وغير ذلكَ منَ الوسائلِ المختلفةِ. وكانَ منَ الحمق والجهل وقِصَر النّظر أيضاً أن يُفسحَ المجالُ لإيجادِ الواقعِ المحسوسِ الذي يُثيرُ غريزةَ النّوعِ في مظهرها الجنسي باختلاطِ الرّجالِ بالنساءِ، وإفساحِ المجالِ لهم بالخلوةِ والاحتكاك والمشاهدةِ على الشواطىء والمسابح وغيرِها منَ الأمكنة المتعدّدةِ التي تتيح المخالطة. فمثل هذهِ المظاهر الحمقاء تدفع الشّابّ دائماً لتحقيقِ الإشباعِ وتجعلهُ قلِقاً حينَ لا يُحقّقُ هذا الإشباعَ، وهذا هو الانحطاطُ الفكريُّ أو الشقاءُ الدائمُ، وهذا هو السببُ الأولُ لشيوع مثلِ هذهِ الفوضى الجنسيّةِ في المجتمعِ.

ولَوْ رَجَعَ النّاسُ إلى الشّرعِ لوَجدُوا أنّهُ جاءَ بمفاهيمَ تُنظّمُ شهوة الجنسِ إيجابيّاً بنظامِ الزواجِ، وسلبيّاً بالحيلولةِ بينَ الإنسان وبين ما قد يُثيرُ الشّعورَ الجنسيَّ فيه ولا يحقّقُ إشباعَهُ.

وقد حرص الشرع على أن تكون علاقة الرجلِ بالمرأة طاهرةً من كل دنس، قائمةً على ما أحلّ الله من الزواج، بعيدةً عما حرّم الله من فسقٍ أو فجور. وجعل في الحلال منها أجراً عند الله. فقد روى مسلم

عن أبي ذرّ الغفاري أن رسول الله ﷺ قال: «وفي بضاعِ (جماع) أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

كذلك فقد حرّمَ الشرع الخلوةَ بَيْنَ الرّجلِ والمرأةِ المحـرّمةِ عليهِ، لأنّها تُثيرُ الشعور الجنسي، ولا يتحقّقُ له إشباعُه مما يسبّبُ له القلقَ والوقوع في الفاحشة. وقد جاءَ دليلُ هذا التّحريمِ واضحاً في قولِ رسولِ اللّهِ ﷺ: «لَا يَخْلُوَنَّ أحَدكُمْ بامرأةٍ إلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ» وقالَ ﷺ: «ما اجتمعَ رجلٌ وامرأةٌ إلَّا وكانَ الشّيطانُ ثالثَهُمَا». كما قالَ ﷺ: «ما تَرَكْتُ بعدِي فتنةً أضرَّ على رجالِ أمّتي مِنَ النساءِ».

ولهذا يجبُ على النّاسِ أن يُبعِدُوا ما يُثيرُ شهوتهم، ويحرِّكُ شعـورهم الجنسي، استجابـةً لأمرِ الشّـرعِ. ومنَ الواجبِ تخليص المجتمع من المُشوِّقاتِ والوسائل المثيرة كالأفلامِ والمراقصِ والصور والرّواياتِ والمؤلّفاتِ التي من شأنها تشويه الصورة الخُلُقية فيه. وعندئذٍ يُصفّى المجتمعُ، ويهدأُ الشّابُّ ويثوبُ إلى رشدهِ، ثُمَّ يعودُ إلى العلاقةِ الزوجيّةِ القائمةِ على بناءِ الأسرةِ والمحافظةِ عليهـا، وتعودُ النّـظرةُ المحترمةُ إلى المرأةِ على أساسِ أنّها أمٌّ، وربّةُ بَيْتٍ، وعِرْضٌ يُصانُ. لا كما يُنظرُ إليها الآنَ وكأنّها متعةٌ مثلها كمثل السيّارةِ أو أيّةِ سِلعةٍ أخرى، يَتَمَتّعُ بها صاحبُها قدرَ الاستطاعةِ، ويتركها ساعة يشاء ليستبدل بها غيرها.

ثانياً ـ الخجل والحياء:

يقال خجل الرجل خجلاً أي فعل فعلاً فاستحى منه ودهش وتحيّر.

والخجل التباس الأمر على الإنسان فلا يدري كيف يتصرف.

والخجل أيضاً هو الكسل والتواني عن طلب الرزق، بحيث يدفع الإنسان للخمول، وقد أعياه أمره.

وهكذا فإنَّ الخجل شعور يصاحب الإنسان في الموقف الذي يعتبره حرجاً، وغالباً ما يدل على صراعٍ عميقٍ بين الإرادة والعوائق التي تعترضها. ولذلك فإن حدوث الخجلِ في النفس يجعل الإنسان عاجزاً عن بلوغ غايته، إذ يشعر أو يفكر بأن وسائله غير كافية، وحيلته قليلة. ولولا تأكيده على ذلك لما اضطرب من خجل أو حياء.

والخجل يندر في زمن الطفولة، ويكثر في زمن المراهقة، ثم يبلغ نهايته أو مداه عند نمو شخصية المراهق، وشعوره بالحاجة إلى إرضاء الناس أو التفوق عليهم.

والخجل لا يظهر إلا بين الإنسان والإنسان، فلا يخجل إنسانٌ من حيوان أو حشرة، بل يخجل من أهله وأقاربه، أو من الجنس الآخر، أو من المجتمع كله.. وهو يتبدل بتبدل الظروف، والبيئة التي يعيش فيها الفرد، فقد يخجل مثلاً في موطنه من تعاطي بعض الأمور بينما يمارسها في محيط آخر لا يجد فيه حرجاً لممارستها.

وتصاحب الخجلَ عادة مشاعرُ الخوف، وتشتت الأفكار، وتبدد الإرادة. وتظهر على صاحبه عوارض عديدة مثل اضطراب الحركات، واضطراب الأوعيةِ الدموية، أو اصفرار الوجه عند البعض واحمراره عند البعض الآخر. وغالباً ما يحس الخجول بخفقانِ قلبه، وتلعثم لسانه، وشعورٍ بفراغ الذهن.

وللخجل درجات أدناها الحذر، ثم الحياء.

والفرق بين الخجل والحياء أنَّ الخجل يصاحبه الخوف والدهشة والحيرة، وهو يحصل للمرء عند شعوره بالعجز عن ملاءمة الواقع مع نفسه، سواء كان هذا الواقع قبيحاً أم جميلاً، على حين أنَّ الحياءَ هو شعور بالشيء القبيح والخوف من إتيانه، والنفور منه، فله إذن معنى أخلاقي وهو دلالته على الحشمة والوقار. ولذلك يكون الحياء هو الحشمة وانقباض النفس من الشيء وتركه خوفاً من اللوم فيه. أو بعبارة أوجز هو امتناع النفس عن إتيان القبائح. وهو بذلك يعتبر صفة إنسانية تدفع إلى ستر ما يبتلى به الإنسان من المعاصي، وامتناعه عن كشف ما يخصه من صميم الأمور الباطنية، ولا سيما الأمور المتعلقة بالقضايا الجنسية.

وقد يطلق الحياء على امتناع المرء عن التمدّح بما في نفسه من الكمالات والفضائل خوف الظهور بمظهر الكِبْر والإعجاب بالنفس. قال محمد الجرجاني في كتابه التعريفات: «الحياء نوعان: نفساني، وهو الذي خلقه الله تعالى في كل نفس كالحياء من كشف العورة، وإيماني، وهو امتناع المؤمن عن فعل المعاصي خوفاً من الله تعالى». وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾[1]. والمقصود هنا ابنة النبي شعيب عليه السلام بعدما سقى موسى عليه السلام غنمها فذهبت وأخبرت أباها الأمر، فبعثها تدعوه إليه، فجاءته على حياءٍ، هو منتهى الروعة في الحشمة واحترام النفس وأدب السلوك، لأنها جاءت تمشي مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة في غير ما تبذّل ولا تبرج ولا إغواء. والفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال ـ ولا سيما الأغراب منهم ـ والحديث معهم. ولكنها لثقتها بنفسها واستقامتها لا تضطرب ذاك الاضطراب

(١) القصص: ٢٥.

الذي يغري ويهيج إنما تتحدث في موضوع بالقدر المطلوب ولا تزيد. وعن الحسن عليه السلام يصف إحدى النساء قال: فوالله ما كانت ولّاجة ولا خرّاجة، ولكنها كانت من الخفرات اللائي لا يحسنَّ المشي بين يدي الرجال والكلام معهم». (ولّاجة: كثيرة الولوج أي الدخول، وخرّاجة: كثيرة الخروج).

وقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «الحياء شعبة من شعب الإيمان». فمن لا يستحي لا شيء يمنعه عن ارتكاب المعاصي والفواحش، ومن لم يستح من العيب لا يخشى العار. وهذا دليل على أن الذي يردع الإنسان هو الحياء فإذا لم يكن لديه حياء مال إلى ارتكاب كل ضلالة وتعاطي كل فاحشة.

وبعض نظريات التربية تقول: إن قساوة الأهل والمربين هي التي تولد الخجل والحياء في نفس الولد. إلّا أن هنالك صغاراً يربون تربية صحيحة ليس فيها أساليب شدة أو قوة أو إذعان، ومع ذلك يكونون خجلين ويستحون، فهذا يعود إلى فطرة الطفل وليس إلى أساليب التربية. ومعالجة خجل الطفل تكون بإشعاره الثقة بنفسه دائماً، وإبعاده عن معاشرة من ينمي فيه مشاعر الخجل والحياء من الأعمال الصالحة، وتعويده القيام بأعمال فيها نفع له وللآخرين مثل الألعاب الرياضية، والندوات، والحفلات، والمشاركة في خدمات المجتمع العامة وما إلى ذلك..

ثالثاً ـ العطف والحنان:

العطف يقال للشيء إذا ثني أحد طرفيه للآخر، كعطف الغصن والحبل، ومنه قيل للرداء المثني: معطف. وعِطف الإنسان: جانباه من لَدُن رأسه إلى وَرِكِهِ.

والعِطف في المشاعر هو الإعراض والجفاء كما في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾[1]. وهو للشفقة أيضاً والرحمة إذا عُدّي بحرف الجر «على» مثل: عطف عليه، أو ظبية عاطفة على ولدها. أما إذا عُدّي بحرف الجر «عن» فيكون على الضد نحو: عطفت عن فلان أي ملت عنه.

الحنان، أصله الشفقة والرحمة، وهو الشعور بالإشفاق والمحبة. يقال للمرأة: حنَّت على ولدها وتحنَّنت عليه، أي تعطفت بمعنى رقَّت وحنَّت إليه. ويقال للصوت الدال على الشفقة: حنين.

ولما كان الحنين متضمناً الإشفاق، وكان الإشفاق لا ينفكُّ من الرحمة، قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾[2].

رابعاً ـ الرغبة:

أصل الرغبة السعة للشيء.

والرغبة في النفس السعة للإرادة، إلَّا أنها تقابل الإرادة في أنها قد تطغى عليها وتشطح بها حتى تعطل عملها الإيجابي في تحقيق الغايات الشريفة.

يقال: رغب في الشيء: حرص عليه وطمع فيه. ورغب الشيء: أراده وأحبّه.

فالرغبة إذن هي «النزوع التلقائي الداعي إلى غاية معلومة أو متخيلة». ووراءَ كل رغبة منزعة، كما أنَّ وراء كل إرادة رغبة. بمعنى أن الرغبات مبنية على النزعات. إلا أن الفرق بين الرغبة والنزعة أن الرغبة أخصُّ من النزعة وأكثر تعقيداً.

---

(١) الحج: ٩. (٢) مريم: ١٣.

والرغبة قد تكون مرادفة للشوق، إلا أنَّ الشوق يكون أشد نزوعاً للشيء وفي لغة العواطف يكون الشوق أخف من الاشتياق، لأن الشوق يسكن بلقاء المحبوب، والاشتياق لا يزول بلقائه.

والرغبات تعتبر من أهم المحركات في النفس الإنسانية وهي التي تدفع إلى طلب اللذائذ والمتع. وكل ما ينتج عن الإنسان من تصرف قد يكون له علاقة برغباته حتى لقد قيل: إنَّ الإنسان باقةٌ من الرغبات.

خامساً ـ الكرْهُ:

الكُـرْهُ هو المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يُحمل عليه بإكراه. كما أن الكُرْه هو ما ينال الإنسان من ذاته وهو يعافه، وتكون هذه العيافة على نوعين: أحدهما ما يُعاف من حيث الطبع. والثاني ما يُعاف من حيثُ العقل أو الشرع. ولهذا يَصحُّ أنْ يقولَ الإنسانُ في الشيء الواحد: إني أريدُهُ وأكرهُهُ، بمعنى أني أريده من حيث الطبع وأكرهه من حيث العقل أو الشرع، وأريده من حيث العقل أو الشرع وأكرهه من حيث الطبع. ومنه قول الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] أي تكرهونه من حيث الطبع. وهذا ما يدل الإنسان على أنه يجب ألَّا يأخذ بكراهيته للشيء أو محبته له حتى يعلم حاله.

فالكره هو شعور بعدم الاستحسان أو عدم القبول، أو هو شعور

(١) البقرة: ٢١٦.

بالنفور والاشمئزاز، والابتعاد عن كل ما يثيرهما، سواء كان الباعث إليه الناس أو الأشياء أو الأفعال.

والكره بين الناس قد ينشأ بسبب الخلافات الناشئة عن المعشر، كما هو الحال في الكراهية التي تنشأ بين الزوجين، أو بسبب التباين في الآراء، أو بسبب التفوق وما يولِّد من إحباط في نفوس المتفوَّق عليهم، وغيرها من الأسباب الكثيرة الداعية إلى الكراهية في المشاعر البشرية.

والإنسان قد يكره الموت، مع أنه حق، إلا أنَّ كرهه لهذا الحق يحصل بسبب ذهابه من هذه الدنيا. والإنسان يكره كلَّ ما يؤذيه ويؤلمه في نفسه أو ماله أو أبنائه أو إنسانيته.

يصور القرآن الكريم حالة المنافقين، عندما كرهوا الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى. قال عز وجل: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]. وحتى عندما كانوا يجبرون على الإنفاق فإنهم كانوا يفعلونه كرهاً. قال تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[2]. بينما المؤمنون كان سلوكهم مختلفاً تماماً إذْ كان دعاؤهم إلى الله سبحانه وتعالى أن يزيل أي كره في نفوسهم لإخوانهم، وألَّا يجعل أي غلٍ لهم في قلوبهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

---

(١) التوبة: ٨١.
(٢) التوبة: ٥٤.
(٣) الحشر: ١٠.

سادساً ـ الغيرة:

وهي حالة انفعالية تدفع المرء إلى منع غيره من مشاركته في الشيء الذي يحبُّه ويريده لنفسه. تقول: غار الرجل على امرأته أي ثارت نفسه عليها لإظهارها زينتها ومحاسنها لغيره، أو لانصرافها عنه لآخر. وأشد أنواع الغيرة ما كان من الزوج على زوجته، أو من الزوجة على زوجها.

ومن الغيرة ما يحدث في نفوس الإخوة إذا شعر أحدهم أنَّ والديه يحبان إخوته أكثر منه، أو في نفوس الموظفين تجاه أحدهم إذا شعروا أن رئيسهم يفضله عليهم.

غريزة التَدَيُّن أو التقديس

والتديّنُ غريزةٌ طبيعيّةٌ ثابتةٌ، وشعورٌ بالحاجةِ إلى الخالقِ المدبِّرِ، بغضِّ النظرِ عن تفسيرِ هذا الخالق المدبِّرِ. وقد وُجِدَ بوجودِ الإنسانِ، سواءٌ أكانَ مؤمناً بوجودِ الله تعالى الخالقِ، أو كافراً به، وسواءٌ أكان مؤمناً بالمادّةِ أو الطبيعةِ أو بعض أشياء هذه الطبيعة، أو غير مؤمن بها.

وهذا الشعورُ الإنسانيُّ حتميٌّ لأنهُ يُخْلَقُ مع الإنسان. وهو جزءٌ من تكوينهِ، يلازمه ولا يمكنُ أن ينفصلَ عنهُ. وعلة ذلك أن عجز الإنسان عن إشباع غريزة حب البقاء، أو عجزه عن إشباع غريزة النوع، يثير فيه مشاعر أخرى هي الاستسلام والانقياد لما هو مستحق للاستسلام أو الانقياد، فيعبد الله تعالى، أو يتقرّب إليه زلفى بعبادة الأوثان، أو يعتنق الديانة التي تؤمن له عبادة القوي الذي يعتقد أنه يؤمن له البقاء، ويحفظ له النوع. وكل ذلك نتيجة لشعوره بالعجز الطبيعي في هذه الحياة. وهذا هو التديّنُ، أو التقديسُ لما يعتقدُ

الإنسان أنهُ الخالقُ المدبّرُ، أو ما يتصوّرُ أنّهُ قد حلَّ به الخالقُ المدبّرُ. وقد يظهرُ التّقديسُ بمظهرهِ الحقيقيِّ فيكونُ عبادةً، وقد يظهر بصورةٍ أقلّ فيكونُ تعظيماً وتبجيلاً.

والتقديسُ هو مُنتهى الاحترامِ القلبيّ. وهوَ أمرٌ فطريٌّ لهُ مظاهرُ متعدّدةٌ أعلاها العبادةُ بأنواعِها، وليسَ هو بناتجٍ عنِ الخوفِ، بل عنِ التديّنِ، لأنَّ التقديسَ لا يمكنُ أن يكونَ مظهراً من مظاهرِ الخوفِ، إذ إنَّ الخوفَ مظهر من مظاهرِ الملقِ، أوِ الدّفاعِ، أوِ الهروبِ، وذلكَ يناقضُ حقيقةَ التّقديس.

والتديّنُ بهذا المعنى غريزةٌ مستقلّةٌ تختلفُ عن غريزةِ البقاءِ، ولذلكَ نجدُ الإنسانَ متديّناً منذ أوجدهُ اللَّهُ على الأرض. فقد عَبَدَ الشّمسَ والكواكبَ والنارَ والأصنامَ، ثُمَّ عَبَدَ اللَّهَ تعالى. ولا نجدُ في عصرٍ من العصور شعباً إلاّ مال إلى عبادة، حتى الشعوبُ التي أجبرَها السلاطينُ على تركِ التديّنِ أبَتْ إلاّ أن تكونَ متديّنةً، رغمَ القوّة التي سُلِّطَتْ عَلَيْها، وتحمّلتِ الأذى في سبيلِ عبادتها وأدائِها طقوس تلك العبادة. ولم تستطع أيّةُ قوّةٍ أن تنزعَ منَ الإنسانِ تَدَيُّنَهُ أو تُزيلَ تقديسَ الخالقِ منْ نفسهِ أو تمنعَهُ عنِ العبادةِ، وإنّما استطاعَتْ أن تَكْبِتَ ذلكَ إلى زمنٍ، لأنَّ العبادةَ مظهرٌ طبيعي كما أشَرْنا.

أمّا ما يَظهرُ لدى بعضِ الملحدين من الكُفرِ أوِ الاستهزاءِ بالعبادةِ، فلا يعني الكفرَ المُطلقَ. بل هو تحويل غريزةِ التديّنِ عَنْ عبادةِ اللَّهِ تعالى إلى عبادةِ المخلوقاتِ، وتقديسِ الطبيعةِ، أوِ الأبطالِ، أو الإيمان بأفكار أو عقائد معينة، أو ما شاكلَ ذلكَ، وقد استعملوا في سبيلها المغالطات والتفسيرات الخاطئة للأشياءِ. ومِنْ هنا كانَ التحوّل إلى الكفر أصعبَ منَ الإيمانِ، لأنّهُ تحويلُ الإنسانِ عَنْ فطرتهِ وعَنْ

مظاهرِها الحقيقيةِ، وذلكَ يحتاجُ إلى جهدٍ كبيرٍ. وما أصعبَ أن ينصرفَ الإنسانُ عَنْ خصائصِ طبيعتهِ وفطرتهِ. ولذلكَ نجدُ الملحدينَ ـ حينَ ينكشفُ لهمُ الحقُّ ويدركون حقيقة وجودِ اللّهِ تعالى بالعقلِ إدراكاً جازماً ـ يُسرعونَ إلى الإيمان، فيشعرون بالراحة والاطمئنان، ويزول عنهم الكابوس الذي كان يَبْهَظُهُم. وإيمان هؤلاء وأمثالهم يكون راسخاً قوياً لأنه نابع من الإحساس الذي أدّى بهم إلى اليقين، ولأن عقلهم ارتبط بوجدانهم، فأدركوا إدراكاً يقينياً حقيقة وجود الله تعالى، وشعروا شعوراً عميقاً بهذا الوجود السني، والتقت فطرتهم بعقلهم، فتكوّنت قوة الإيمان عندهم.

وغريزة التدين لها مظاهرها أيضاً مثل الغريزتين الأخريين، ومن مظاهرها:

أولاً ـ العبادة:

لا يجوزُ أن تُترَكَ العبادةُ للوجدانِ يُقرّرها كما يطيب له، أو يؤديها الإنسانُ كما يَتَخيّلُ. بَلْ لا بدَّ أن يتدخل العقلُ لتعيينِ ما تَجِبُ عبادتُهُ، لأنّ الوجدانَ عرضةٌ للخطأِ والضلالِ. وكثيراً ما يُدفعُ الإنسانُ لعبادةِ أشياءَ يجبُ تحطيمُها، أو يُدفعُ لتقديسِ أشياءَ مُحْتَقَرةٍ، فإذا تُرِكَ الوجدانُ وَحْدَهُ يُقَرِّرُ ما يَعْبُدُهُ الإنسانُ أدّى ذلك إلى الضّلالِ في عبادةِ غيرِ الخالقِ، أو إلى التوهُّم في التقرّبِ إلى الخالقِ بما يُبعدِ عنهُ. ذلكَ أن الوجدانَ أو الضميرَ إحساسٌ غريزيٌّ أو شعورٌ يتراءَى أمامَ واقعٍ محسوسٍ فيتجاوبُ معهُ، أو هو تفكيرٌ يُثيرُ هذا الشعورَ، فإذا أحدثَ الإنسانُ رجعاً لهذا الشّعورِ بمجرّدِ وصولهِ دونَ تَفكيرٍ، فربّما أدّى ذلك إلى الخطإِ والضّلالِ. قد تَرى ـ مثلاً ـ في الليلِ شيئاً فتظنّهُ عدوّاً لكَ، فتتحرّكُ فيكَ غريزةُ البقاءِ في مظهرِ الخوفِ فإذا استجبْتَ انفعاليّاً لهذا

الشعور وأحدثَت الرّجعَ الذي يتطلّبُهُ، وهوَ الصراخُ أو الهربُ، كانَ ذلكَ خطأً منكَ، لأنكَ تكونُ عندئذٍ، سخريةَ السّاخرينَ. ولكن حينَ تَستعملُ عقلكَ وتفكّرُ في هذا الشّعورِ قبلَ أن تُحدِثَ الرّجعَ، يَتبيّنُ لكَ ما يجبُ أن تقومَ به منَ عمل إذ قد يكونُ الشبحُ عموداً كهربائياً أو شجرةً أو حيواناً. وحينئذٍ يتبدّدُ خوفُكَ وتُكمِل سيرك وأنت مطمئن البال. ولذلكَ لا يجوزُ أن يضطربَ الإنسانُ بناءً على دافعِ الخيال أو الوجدانِ وحدَه، بل لا بدَّ منِ استعمالِ العقلِ معه. ولا يجوزُ أن تكونَ عبادةٌ إلَّا وفقَ ما يرشدُ إليهِ العقلُ حتّى تكونَ العبادة لِمَنْ تَهْدِي الفِطرةُ لعبادتِهِ، وهوَ الله تبارك وتعالى، الخالقُ المدبّر الذي يَشْعُرُ الإنسانُ دائماً بالحاجةِ إليهِ سبحانه.

قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾(١). وقال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(٢)أي نخصك يا ألله وحدك بالعبادة ونوحدك، لا إله إلا أنت ربُّ العالمين، ونتضرع إليك بطلب المعونة على العبادة وغيرها من الطاعات التي ترضيك. قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾(٣).

ثانياً ـ الخشوع والضراعة:

يقال: خشع له يخشع خشوعاً أي خضع له وذلَّ، وخشع ببصره: غضَّهُ وأخشعه إخشاعاً إذا أخضعه.

ويقال: ضرع يضرَع ضَرَعاً وضَرَاعة: استكان وذلَّ وضعف، وفي

---

(١) الزمر: ١٤.
(٢) الفاتحة: ٥.
(٣) الإسراء: ٢٣.

الأمثال: «الحمّى أضرعتني للنوم» وهو يقال في الذل عند الحاجة. وتضرَّع إلى الله: ابتهل، وتذلَّل. وتضرّع في طلب الحاجة.

فيكون الخشوع والضراعة في كليهما خضوعاً لله تعالى، وتذللاً وطلباً للحاجة. والخشوع أكثر ما يستعمل فيما يوجد على الجوارح، بينما الضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب. ولذلك قيل: «إذا ضرع القلب خشعت الجوارح».

وعن الخشوع قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾[2] أي سكنت وخضعت. وقال تعالى: ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ﴾[3].

وعن الضراعة قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[4] أي ادعوا ربكم تذللاً وفي الخفاء. وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾[5] أي اذكر ربك دائماً في نفسك: سراً، وتذللاً، وخوفاً منه، وعن وعي وقصد. وليكن ذكرك لربك في أوائل النهار وأواخره، ولا تكن من الغافلين عن ذكر الله تعالى.

ثالثاً ـ الخشية:

وهي خوف يشوبه تعظيم. وقيل الخشية أشد من الخوف لأنها

---

(١) المؤمنون: ٢.
(٢) طه: ١٠٨.
(٣) القلم: ٤٣.
(٤) الأعراف: ٥٥.
(٥) الأعراف: ٢٠٥.

من عظمة المخشيّ، والخوف من ضعف الخائف، والمخشاة هي المخافة.

والخشية في العبادة أكثر ما تكون عن علم، ولذلك خُصَّ بها العلماء في كتاب الله المبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[2]. ومن يخشى الله تعالى بالغيب سوى العلماء؟ وهم الذين يخشونه ولم يشهدوه، لأنهم يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بعظيم قدرته، وكل شيء في الوجود يدل على صنع الله تعالى وقدرته. والعالم يخشى الله تعالى لأنه أحذر لعقابه من الجاهل. فهو يختص بمعرفة التوحيد، والعدل الإلهي، ويصدق بالبعثِ والحساب، والجنة والنار.

رابعاً ـ الحب

يقال: أحببت فلاناً إذا جعلت قلبي معرضاً لحبه. ومنه «حبة القلب» تشبيهاً بالحبة في الهيئة. فإذا قلت: أصاب حبة قلبي فمعناه أحببته، ومثلها شغفته ومعناه أصبت شغاف قلبه أي غطاء قلبه. قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[3]. أي أصاب الحب شغاف قلبها، أي غطاءه.

والحب هو أيضاً من المحبة، والوداد، والميل الشديد إلى الشيء السار النافع.

وكثيراً ما يكون الغرض من الحب تأمين الحاجات المادية، أو

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) ق: ٣٣.

(٣) يوسف: ٣٠.

إشباع الغرائز والحاجات العضوية، ويقوم على تصور أو على شعور فيه انجذاب شديد إلى المحبوب أو الشيء النافع. ولذا ينشأ الحبُّ عن عوامل عديدة منها ما هو غريزي، ومنها ما هو كسبي، ومنها ما هو انفعالي أو إرادي مصحوب بالتصوّر. والفرق بين الحب والرغبة أنَّ الرغبة حالة آنية، على حين أن الحب نزوع دائم يتجلى برغبات متتالية ومتعاقبة. وفي لغة المشاعر فرقوا بين الحب العذري والحب الشهواني. فقالوا إن الحبَّ العذري هو حب محض، مجرد عن الشهوة والمنفعة، بينما الحب الشهواني يكون حباً أنانياً غايته إرضاء الرغائب والمآرب والشهوات.

ويلعب الحب دوراً هاماً في حياة الإنسان الخاصة، وفي علاقاته بالآخرين، وفي الصلة التي تربط الإنسان بربه. ولذلك فهو يظهر بصور شتى: حب الإنسان لنفسه، حبه للناس، وحبه لله تعالى ورسوله.

حب الإنسان لنفسه

يرتبط حب الإنسان لنفسه بتأمين الحياة الفردية، وتنمية الطاقات والإمكانيات التي تحقق السعادة واللذة والأنانية، وتبعد عن كل ما يعوق النفس أو يلحق بها الأذى والضرر. ويعتبر هذا الحب مظهراً من مظاهر غريزة البقاء، ويرتبط بكثير من مظاهرها الأخرى مثل التملك، وحب الخير للنفس بشدة، حَاضِراً ومستقبلاً.

وقد عبر القرآن الكريم عن حب الإنسان لنفسه وذلك بالحجة الدامغة التي واجَهَ بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المشركين وهم يحاولون تعجيزه بأن يأتيهم بجبال من ذهب، أو أنهار تتدفق في الصحراء، وغير ذلك من المعجزات، فأوحى إليه ربه أن يجبههم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ

أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾[1] أي لأحببت الخير لنفسي حاضراً ومستقبلاً ولما كان السوء مسَّني. وعن الإنسان، بصورة عامة، وحبه لنفسه، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾[2]. والخير هو كل ما يفيد الإنسان في حياته مادياً أو معنوياً، فحبه لنفسه إذن شديد.

حب الناس

وهذا الحب ناشىء عن العلاقات الاجتماعية والعلاقات المجتمعية، وحاجة الناس إلى بعضهم بعضاً. لأن عليه تقام أواصر التعاون والتكافل، وروابط المشاعر والأهداف المشتركة، وغيرها من الدوافع التي تعزِّز وجود الجماعات وتنميها وتطورها. وحب الآخرين يعتبر مظهراً من غريزة النوع، للحفاظ على الجنس البشري، ذلك أن فناء هذا الجنس يؤدي إلى فناء الفرد، فتتداخل مظاهر الغرائز لتؤلف التماسك المطلوب في بناء المجتمعات، وتمتين العلاقات الإنسانية.

ومن هذا الحب: حب الزوجين لبعضهما بعضاً، بقيام الأسرة. ومنه حبّ المنفعة للغير: كمحبة الكريم للبائس والقوي للضعيف والغني للفقير. ومن هذا الحب أيضاً التعلق بالقيم والمثل: كمحبة العالِم للحقيقة، والحكيم للعدل، والشاعر للجمال...

ويشيد القرآن الكريم بالمحبة والتآلف بين الناس، وبتعاونهم على البر والتقوى، وينهى عن تعاونهم على الإثم والعدوان. ويعطي مثلاً عليه ذاك التفاني الذي ظهر به الأنصار تجاه إخوانهم من

---

(١) الأعراف: ١٨٨.

(٢) العاديات: ٨.

المهاجرين، وإيثارهم إياهم على أنفسهم، في المسكن والمال والرزق، حتى أن أحد الأنصار عرض على مهاجر أن يختار إحدى زوجتيه ليطلقها له، ويتزوجها حلالاً على سنة الله تعالى ورسوله، ولكن الصحابي المهاجر أبى ذلك. وفي هذا الإيثار والتفاني بين المسلمين قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وتربية الرسول ﷺ للمسلمين كانت مثالاً على حب الإنسان المؤمن لأخيه. قال ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. أَوَ لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم». وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره أو أخيه ما يحبه لنفسه».

هذا هو منهج الإسلام الذي يعلو على سائر مناهج أهل الأرض. وقد سبق الإسلام سائر العلوم النفسية والجماعية في الدعوة إلى حب الإنسان للإنسان، ولم يجعل لهذا الحب البعدين النفساني والإنساني فحسب بل جعل له بعداً روحانياً عندما قرنه بالإيمان والتعاضد. فربط بين حب الإنسان لأخيه الإنسان وبين حبه لله تعالى ورضوانه. قال الله تعالى في حديث قدسي: «حقت محبتي للمتحابين فيَّ. وحقت محبتي للمتواصلين فيَّ. وحقت محبتي للمتناصحين فيَّ. وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ. وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ. المتحابون فيَّ على منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء».

---

(١) الحشر: ٩.

وقد جمع رسول الله ﷺ كل علامات حب الإنسان لأخيه الإنسان فقال ﷺ: «أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس. وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله المسلم على المسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه ديناً، ولأن أمشي مع أخي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد (مسجد المدينة) شهراً».

الحبُّ الأبوي واحترام الأبناء لوالديهم

إن حب الأبوين للأبناء حب غريزي طبيعي. وهو مظهر من مظاهر غريزة النوع، إذ يريان فيهم استمرار الحياة، والنفوذ، وقرة العين، وراحة النفس. ولذلك كان هذا الارتباط الشديد بالأبناء، وهذا التفاني والتضحية بكل غال ونفيس من أجلهم. فقد لا يؤثر الإنسان على ذاته إلا ولده، بل إنه يعطيه دماً من دمه أو عضواً من جسده، وقد يفديه بحياته إذا قدر على ذلك...

ورسول الله ﷺ الذي جعله الله تعالى قدوة للمسلمين كان يحرص على توجيه المسلمين لرعاية أبنائهم وتربيتهم تربية حسنة فاضلة. وقد ضربَ المثل بنفسه في حبه لأبنائه، ولحفدته من بعدهم. فقد أحبَّ حفيديه الحسن والحسين (رض) حباً عظيماً، فكان يحملهما على عاتقه، ويقبلهما، ويضمهما إلى صدره، وذلك على مرأى من المسلمين والناس أجمعين. عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يقول لابنته فاطمة الزهراء، أم الحسن والحسين، سلام الله عليهم أجمعين: «ادعي ابنيَّ» فيشمهما ويضمهما إليه. وعن البراء قال: رأيت النبي ﷺ والحسن على عاتقه وهو يقول: «اللهم إني أحبُّه فأحبَّه». وعن البراء أيضاً أنَّ النبي ﷺ أبصر حسناً وحسيناً فقال: «اللهم إني أحبُّهما فأحبَّهما».

أمـا حب الأبناء للوالـدين فيكون ارتبـاطاً عـاطفياً، وقنـاعة بحمـايتهم والذود عنهم، والعمل على كل ما من شأنه احترام شخصيتهم وتقديم العون لهم. ولذا وجب أن يـظهر هـذا الحب بطاعـة الوالـدين، واحترامهما منتهى الاحترام. وهو فضلاً عن أنه واجب عائلي، وإنساني وأخلاقي، فهو واجب ديني أيضاً. وقول الله تعالى أصدق النبأ في كيفية وجوب معاملة الوالدين والإحسان إليهما، وخاصة عندما يكبران ويصيران في حالة ضعف يحتاجان فيها إلى الولد. قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[2].

حب الله تعالى

إن حب الله تعالى فيه التقديس والإجلال والتعظيم. وهو منتهى الاحترام القلبي، ولذلك كان هذا الحبّ مظهراً من مظاهر غريزة التدين أو التقديس.

وحب الله تعالى أسمى أنواع الحب الإنساني، وأكمل الشعور وأجله على الإطلاق. يتجلى حب الإنسان لربه بوصفه عبداً لله تعالى،

---

(١) لقمان: ١٤.

(٢) الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤.

عليه عبادته وطاعته، والدعاء إليه، والخشية منه، وشكره على نعمه. وإذا تملك حب الله تعالى قلب الإنسان ظهر في كل عمل يقوم به، وفي كل سلوك يصدر عنه، بحيث تكون حركاته وسكناته منقادة لطاعة الله تعالى، وموجهة إلى فعل ما يحبه ـ سبحانه ـ ويرضاه. والإنسان الطائع العابد يتجنب كل ما يثير الكراهية التي ينهى ربُّه تعالى عنها.

ولا شيء في نفس المؤمن يعدل حبه لله تعالى. وهذا ما يبيّنه القرآن الكريم بوضوح، بل ويهدّد الناس أن يجعلوا حبّ أي شيء أعظم من حب الله تعالى ورسوله، وذلك بقوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾[2]. من الناس من يتخذون من دون الله شركاء له، يحبونه كما يحبون الله تعالى، فهؤلاء قد استحبوا الكفر والشرك على الإيمان، أي أثروهما عليه، ولكن الذين آمنوا أشد حباً لله تعالى، فهم المؤمنون الصادقون الذين يعبدون الله تعالى، ولا يشركون به شيئاً. والتعبير بالحب تعبير صادق لأن الصلة بين المؤمن الحق وبين الله تعالى هي صلة المخلوق بالخالق العظيم، الذي خلقه في أحسن تقويم. عن معاذ أن رسول صلى الله عليه وآله وسلم روى عن ربه سبحانه وتعالى أنه أمره بأن يدعوه بهذا الدعاء المحبب اللطيف: «أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يَقرِّبُ إلى حبك».

---

(١) التوبة: ٢٤. (٢) البقرة: ١٦٥.

وقال الرسول ﷺ: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، فقد استكمل الإيمان».

حبّ رسول الله ﷺ

إن حب الرسول ﷺ واجب على كل مسلم، وهو يأتي بعد حبه لله تعالى. وقد أمرنا ـ سبحانه ـ بحبه، وقرن حبه ـ سبحانه ـ بحب هذا الرسول الكريم. ولذلك وعد الله تعالى من يتبعون الرسول ﷺ ويطيعونه، ويأتمرون بأوامره بأن يحبهم، ويغفر لهم ذنوبهم. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

والمؤمن الذي يحب الله تعالى ورسوله الكريم يصبح سلوكه مع الناس كله متوجهاً إلى الله تعالى، فلا يفعل إلا ما يرضيه، وفي رضاه، جلَّ وعلا، الفوز الكبير والسعادة الدائمة.

وحبُّ الإنسان لربه هو منبع كل حب، ومصدر كل عطاء، ولذلك كان من واجب المسلمين أن يحبُّوا الله ورسوله ويعملون على طاعتهما، ولا يكون لهم ذلك إلَّا بتمسكهم بتعاليم الإسلام، والاقتداء برسول الله ﷺ لأنه القدوة الحسنة، والسير على منهج هذا الدين القويم، كما فعل أسلافهم من قبل عندما التفوا حول رسول الله ﷺ يتعلمون منه، ويقتدون به، ويأتمرون بأوامره، حتى صاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضهم أزر بعض، فكان ذلك من أهم العوامل في نجاح الدعوة وانتشار الإسلام. فما أحوجنا نحن المسلمين اليوم أن

---

(١) آل عمران: ٣١.

نعود إلى ربنا تعالى، وإلى رسوله الكريم طائعين مختارين، نعمل بأوامر الله تعالى ونبتعد عن نواهيه، ونقتدي بسيرة رسول الله ﷺ فتظلنا السماء بالبركة، وتقلّنا الأرض بالخير، وتتدافع إلينا مقاليد الأمور بالنصر، فنرفع حينئذٍ كلمة الله تعالى ونجعلها هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

وحب الآخرين يكون للنفس مفتاح **سعادتها** وسعادة غيرها، ومصدر تماسك المجتمع، وتنمية الحياة وتطورها. فالحب المتبادل يشبع حاجات نفسية وجسدية للمحبِّ والمحبوب. وقد ثبت للعلماء، وخاصة منهم علماء المناعة النفسية، بأن مشاعر المودة والمحبة تُنشِّطُ أجهزةَ المناعة النفسية والجسمية، وتُنَمِّي القدرة على مواجهة الأزمات ومقاومة الأمراض.. مما يقوّي الأبدان والعقول ويجعلها سليمة معافاة، فيصبح بذلك القول المأثور: العقل السليم في الجسم السليم.



الفصل الثالث

- القلب
- الاحساس والشعور
- اللذة والألم

القلب : هو موطن الشعور
ومركز الإنفعالات

القلب

عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

يفيد هذا الحديث أن إصلاح الإنسان يبدأ من الداخل، أي من القلب، فإذا صلح قلب الإنسان صلح جسده كله.

هذا من الناحية النفسية. أما من الناحية الجسدية فهذه العضلة الصنوبرية الشكل المودعة في الجانب الأيسر من الصدر، هي أهم أعضاء الحركة الدموية التي جرى تشريحها ومعرفة دقائق تركيبها الفيسيولوجي إن لم يكن بأكمله ففي معظمه كما يثبت الطب الحديث.

فقلبُ الإنسان أعجبُ المضخات وأتقنها عملاً. إنه يعمل بدون توقف منذ الأسبوع الرابع لحياة الإنسان وحتى موته. وزنه لا يتجاوز ٢٥٠ غراماً؛ وينبض بمعدل ٧٠ ضربة في الدقيقة الواحدة أي مائة ألف مرة يومياً. وهو يضخّ ٥ ليترات دم في الدقيقة أي ما معدله مليون ونصف مليون غالون في السنة. وهذه المضخّة المعجزة توصل الدم إلى شبكة من الشرايين والأوردة والأوعية الشعرية، لو وُضعت طرفاً

لطرف في خطّ مستقيم لبلغ طولها أكثر من ستّين ألف ميل.. فجلّت قدرةُ الخالقِ العظيم...

ولكن ماذا تختزن هذه العضلة، وما تؤدي من دور في حياة الإنسان غير الوظائف المعروفة التي تقوم بها وهي تنبض لتستقبل الدم وتوزعه في سائر أنحاء الجسم وما ينتج عن ذلك من تفاعلات تجعل الحياة مستمرة؟

الحقيقة أن لا أحد يعرف مكنونات القلب فيما يعود إلى قوى النفس. ولكن يمكن أن نستنتج من نصوص القرآن الكريم بعضاً من وظائف القلب غير الفيزيولوجية..

وقبل بيان هذه الوظائف، ماذا عن القلب في اللغة؟ يقال: قلْبُ الشيء أي تصريفُهُ وصرفُهُ من وجه لآخر، مثل: قَلْبُ الوعاء من قفاه إلى وجهه. ويقال: قَلَبه يقلبه قلباً أي حوَّله عن وجهه. والقلبُ هو الفؤاد ولكن يقال فؤادٌ إذا اعتبر فيه معنى التفؤُّدِ أي التَّوَقُّدِ. يقال: فأدتُ اللحم: شويته، ولحمٌ فئِد: مشوي.

أما بالنسبة لقلب الإنسان، فإن أحد الشعراء يعتبر تسميته قد جاءت من تقلّبه أي عدم ثباته على حالة معينة، فقال:

ما سمّي القلب إلاَّ من تقلّبه والرأيُ يصرف بالإنسان أطوارا

وأما في القرآن الكريم فلفظ القلب عندما يطلق يعنى به العقل، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[1]. والذكرى المقصودة هي العظة التي على الناس الأخذ بها بصورة مستمرة وهم يتذكرون ما حلّ بالأمم الغابرة من عذاب دنيوي أدى إلى

(١) ق: ٣٧.

القضاء عليها من جراء إصرارها على الكفر بعدما أتاها الرسلُ بالبيّنات. وهذه الذكرى تكون لمن كان له قلب يدرك به معانيها، ويتحقق من عظاتها. ومن لا تستوقفه هذه الذكرى ولا تعظه فكأنما مات قلبه، أو كأنما لا قلب له في صدره.

والقلب هو موطن مشاعر الخوف على الحياة، وهل أشدّ خوفاً لدى الإنسان من خوفه على نفسه من الموت، وأي موت؟ إنه الموت الجماعي الذي يحل بجميع القوم أمثال قوم نوح عليه السلام الذين أغرقهم الطوفان، أو عادٍ قوم هودٍ عليه السلام الذين أرسل الله تعالى عليهم رياح الصحراء ورمالها سبع ليال وثمانية أيام جعلتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، أو ثمود قوم صالح عليه السلام الذين أخذتهم الصاعقة فأصبحوا في ديارهم جاثمين لا تحميهم حصون وقصور نحتوا الجبال لبنائها أمناً من غوائل الدهر.. وغير تلك الأقوام التي يصوّر مصارعها القرآنُ الكريم بصورة حسية كأنما يرى الإنسان أحداثها بأم العين. فإن لم تكن مصائر تلك الأقوام عبرة لمن وعاها، فلا شك أنه بلا قلب، عديم الشعور، لأن القلب البشري يجب أن ينبض بالمشاعر، وهذا ما يرمي إليه التعبير القرآني: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[1] أي قلب ينبض ويستوعب ويخاف ويتعظ. والرسول الكريم يجعل الصلاح أو الفساد متوقف على القلب وتقلباته، ولذا يأمر بالترويح عن القلوب فيقول: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإنَّ القلوب إذا كلّت عميت». روحوا القلوب أي أنعشوا القلوب، لأنَّ القلوب إذا لم تنعش من وقت إلى وقت تكلّ وتعمى، وحينئذٍ يتخبط الإنسان في حياته وفي جميع تصرفاته.

والتقلّب في تصرفات الناس من وجه إلى وجـه، قد يكـون

---

(١) ق: ٣٧.

من الـوراء إلى الأمـام أو من الأمام إلى الوراء، أي هـو يتنـاول حالاتٍ متنوعة من أحوال الناس. قال الله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1] . في هذه الآية الكريمة إدراك حي لمعنى الارتداد في معركة أحد. ففي تلك المعركة سمع المسلمون من ينادي: «إن محمداً قد قتل». . ولنا أن ندرك الحالة التي صار عليها المسلمون وهم يسمعون ذلك النداء. . والله تعالى يبيّن للمسلمين أحوالهم ويعيدهم بالحس والشعور إلى تلك المعركة: فهم قد هربوا أمام جيش العدو أي ارتدوا إلى الوراء بدلَ الاندفاع في مواجهته. ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾. وهم قد أحسّوا بالهزيمة فرافق ارتدادهم على الأعقاب ارتدادٌ نفسي هو الشعور بالهزيمة وعدم الجدوى من قتال المشركين. إذن حركتان تبرزان في تلك الحالة: حركة الارتداد المادي وهو الهروب، وحركة الانقلاب النفسي وهو الشعور بالهزيمة. . ولكن الله سبحانه وتعالى وبعد أن يبيّن حالهم في تلك المعركة يواجههم بالحقيقة التي يجب أن يدركوها ويتعظوا بها: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾[1] . . وماذا في ذلك الانقلاب من ضررٍ لله تعالى؟! إنه ـ سبحانه ـ غني عن الناس جميعاً، بل وعن جميع مخلوقاته، وهو على كل شيء قدير، يقدر أن يحوّل مسار المعركة كيفما يشاء، ويعطي النصر لمن يشاء. . ولكن المعنيَّ في تلك المعركة، وفي غيرها من الأمور، هو الإنسان نفسه. . فالله تعالى قد بعثَ محمداً بالدين الحقِّ، الذي يحمل منهجاً يؤمِّنُ سعادة الناس وخيرهم في الدنيا، وفوزهم ونعيمهم في الآخرة، فبات من أبسط البديهيات أن يدافعوا عن هذا

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

الدين، ويحموا منهجه ويطبقوا تعاليمه، أفإن أصابهم مكروه، أو اعترضتهم شدة ينقلبون عن هذا المنهج، ويتركون هذا الدين؟ لذلك، فإن من يرتدّ في مثل هذه الأحوال لن يضرَّ الله تعالى شيئاً، بل هو يضرّ نفسه في أشياء كثيرة. أما المؤمنون الذين يحافظون على الدين ومنهجه فإنما يدركون مقدار النعمة التي تفضَّل الله تعالى بها عليهم في دينهم ودنياهم. هؤلاء لا يرتدون عن أمر يريده الله تعالى ولا يتقاعسون عن واجب يخدم الناس، ولذلك تراهم فوق أعمالهم وعباداتهم حامدين، شاكرين. ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾. ومن كان دأبهم هذا سوف يجزيهم الله تعالى الجزاء الأوفى، إن لم يُعطوه كاملاً في هذه الدنيا، فسيكون لهم في الآخرة إن شاء الله تعالى. أما أهم ما يتميز به هؤلاء المؤمنون في دنياهم فهو عدم تركهم ذكر الله تعالى في السراء والضراء فيشعرون بالاطمئنان والسعادة. ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1].

هذه حال المؤمن الذي يسجد لله تعالى ويدعوه ويتضرع إليه أن يعتق رقبته من النار، فتطمئن نفسه بطاعة خالقه، وتسعد بإحساسها بالقرب من الله ربها، والأنس بجواره، والأمن في حماه. فترتاح من القلق والهم، وتسكن بهدايته ورعايته، وتطمئن في الدنيا والآخرة.. ذلك الاطمئنان بذكر الله تعالى هو حقيقة عميقة في قلوب المؤمنين، الذين يستشعرون حرارة الإيمان وقوة تأثيره في القلوب والنفوس. وقد لا يستطيعون أن ينقلوا بالكلام هذه الحقيقة إلى الآخرين الذين لم يحظوا بشعور الإيمان، لأن هذه الحقيقة لا تنتقل بالألفاظ وإنما تسري في القلوب سرياناً، حتى يستشعر أصحابها سلاماً في الوجود كله، لأن

---

(١) الرعد: ٢٨.

كل ما يحيط بهم هو من صنع الله تعالى، وهم، بإيمانهم، في حماه لائذون.

وليس في هذه الحياة أشقى ممن ينطلق مبتوت الصلة بما حوله في هذه الحياة، لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله، بل بالكون كله. وليس أشقى في هذه الأرض ممن يشق طريقه فريداً، وحيداً شريداً في فلاة مقفرة بلا إيمان، ولا صلة له بالله تعالى، ولا ذكر لمولاه، ومعينه، وناصره، وأنيسه..

وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مستنداً إلى الله العلي القدير، مطمئناً إلى حماه، مهما أوتي من أسباب القوة والثبات والصلابة والاعتداد.. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بذكر الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]. ويقول الله تعالى في سورة الفجر: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[2]. ارجعي إلى ربك وأنت راضية عن عطائه الكريم بما أعده لك من النعيم، ولسوف تكونين مرضية بما عملت من الطاعة، فأنت النفس المطمئنة حقاً في الدنيا، وأنت النفس المطمئنة الراضية المرضية حقاً في الآخرة..

ويصور القرآن الكريم حركات المشركين في انقلاب من نوع آخر، وذلك في تقوّلهم على المسلمين واستهزائهم بهم فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾[3]. تلك عادة من عادات المشركين في أوائل ظهور الدعوة، فكانوا إذا مرّوا بالمؤمنين

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) الفجر: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) المطففين: ٣١.

يتغامزون، أو يشيرون إليهم بحركة تعارفوا عليها، للسخرية بهم. وما ذلك إلا لصغار في النفس وعدم تهذيب، بل وفيها أذى للمسلمين أيضاً. وكانوا يفعلون ذلك ويدركون آثاره على نفوس المسلمين ولذلك كان فرحهم وابتهاجهم إذا ﴿انقلبوا﴾، يعني رجعوا، إلى بيوتهم يخبرون أهلهم بما فعلوا، كانوا يرجعون ﴿فكهين﴾ أي من الفكاهة التي تحمل على الضحك الشديد.. وهذه صورة لهم وهم يتشدّقون بالغمز واللمز، كما يتشدقون بضحكاتهم العالية وهم يروون لأهليهم استهزاءهم وسخريتهم بالمسلمين.. فالقرآن الكريم يجعلنا ندرك تماماً ما تنطوي عليه نفوس المشركين من حقدٍ على المسلمين، كما يجعلنا نشعر بالأسى لما يعاني منه المسلمون.. إنه إدراك لحالتين متقابلتين: حالة المبتهج وحالة الحزين. والبهجة والحزن هما من العواطف التي تجيش في القلوب، ولذلك استعمل القرآن الكريم تعبير «الانقلاب» رابطاً ما بين الحركة والقلب بالرابط الذي يتناسب وتلك الحالات في نفوس المشركين ونفوس المسلمين.

ويُعبَّر في القرآن الكريم، في مناسبات أخرى، عن القلب بالمعاني التي تختص بالروح والشجاعة... ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[1] والمقصود بالقلوب: الأرواح.. وهو تعبير عن الخوف والكرب والضيق وقد عانى منها المسلمون ألواناً أثناء حصار الأحزاب لهم في المدينة المنورة. وهو تعبير يوحي بحركة حية للقلوب في مدى تأثرها وانفعالها حتى لكأنها تودُّ الانفلات من الصدور فبلغت مواضع الحناجر من الجسم...

وأما عن معنى الشجاعة، فيقول الله تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ

---

(١) الأحزاب: ١٠.

﴿قُلُوبُكُمْ﴾[1] أي لتثبت به شجاعتكم ويزول خوفكم. وعلى عكسه قول الله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[2] أي جعل قلوبهم مملوءة بالخوف الشديد.

ومن أجل طهارة القلوب وعفتها، يأمر الله تعالى بالحجاب بين الرجال ونساء النبي ﷺ. يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[3]. فهذا الحجاب الذي لا تشاهد فيه الوجوه، ولا تلامس الأيدي، أجلب للعفة وأطهر للقلوب، وأعف للنفوس..

وعن تفرق القلوب وتشتت أصحابها في الأهواء والنزعات والرغائب، يقول الله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[4]. إن قلوبهم متفرقة، وغاياتهم متضاربة متباينة... وهؤلاء هم الذين كفروا. فقد تخدعنا مظاهرهم ونراهم في تجمع على أمر واحد، أو في معسكر واحد، ولكنَّ الله تعالى يكذِّب تلك المظاهر الخادعة التي يظهرون بها. فكثيراً ما ينشأ النزاع في داخل معسكرهم الواحد، على أنهم ما أقاموه في الأرض إلَّا بسبب اختلافهم على المصالح، وتفرق أهوائهم، وتصادم اتجاهاتهم، فيكون تحالفهم لمنع التصادم، ووقف التفرقة والمشادَّة أو التخفيف منها..

والله تعالى يبيّن للمؤمنين هذه الحقيقة حتى تتجمع قلوبهم على أواصر التعاون والتآخي فتنكشف لهم أحوال الآخرين في خلافاتهم الحادة، كما يدعوهم إلى الصبر والثبات على الحق فيشهدون مظهر التماسك بين أهل الباطل ينهار ويتفسَّخ، ويعلمون مقدار الكيد الذي

---

(1) الأنفال: ١٠.
(2) الحشر: ٢.
(3) الأحزاب: ٥٣.
(4) الحشر: ١٤.

يملأ قلوبهم المشتتة تجاههم وتجاه كل الناس..

والقرآن الكريم يبين أنَّ فقدان البصيرة وعدم الإدراك من السمات التي تُضِلُّ القلوب عن الآثار الدالة على قدرة الله تعالى في الخلق، وعلى مشيئته سبحانه في مصارع الغابرين. يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1]. فقد تكون عيون الناس مفتوحة وهم ينظرون إلى الأشياء والموجودات الحسية، ولكن هل يدرج الجميع معاني هذه الأشياء والموجودات، وسبب إيجادها على هذه الأشكال؟ وهل يعلمون أن لكل نوع منها نطاقاً خاصاً به، ويرتبط مع غيره بسنن كونية ثابتة؟ وهل يعرفون حقائق الأشياء وخصائصها والوظائف التي تؤديها؟ أو لم يتعظوا بأخبار الأمم والشعوب الغابرة، وهم يرون الآثار التي خلفتها؟

إنها كلها مدركات حسية يمكن أن يشاهدها الناس بأم العين، أو يمكن أن يسمعوا عنها بآذانهم. وهي حقائق قائمة يدركها من الناس من كانت لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها. ولكن كثيراً ما تكون الحواسُّ مبصرة والبصائر عمياء، فما تعمىٰ الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، فلا تقدر على إدراك وجود شيء أو الشعور به.

وهكذا يتبين لنا أن القرآن الكريم يدل على القلب بمعان متعددة، ويجعله موطناً للإدراك الحسي وفهم المعاني المجردة، كما يجعله موطناً للشعور.

---

(١) الحج: ٤٦.

إلَّا أن هذا البيان القرآني لا يجعل القلب وحده موطناً للنفس الإنسانية كما يحلو لبعض الناس أن يتصوروا، وذلك باعتقادهم أن القلب هو كل شيء.. وأنه النفس بجمالها وكمالها ولا شيء صالح سواه في الإنسان. ومن هؤلاء بعض الصوفيين مثلاً، فهم يزعمون أنَّ القلب هو عرشٌ للرحمان، وقد صرحوا في مناسبات عديدة بعدم جدوى العقل في الوصول إلى الله سبحانه وتعالى. ولذلك كان الشعر عندهم تعبيراً عن خلجات نفوسهم أي عن خلجات قلوبهم، فظهر في شعرهم فنون متنوعة كالمناجاة والاستغاثات، والأوراد، والأذكار، والمدائح النبوية، وغير ذلك من ألوان شعرية شاعت في أوساطهم. فالوجد مثلاً، عند هؤلاء الصوفيين، ليس إلَّا انفعالاً نفسياً قوياً، يحركه السماع، ويسيطر على الإنسان حتى يجعله في شبه غيبوبة عن الواقع.

يقول الإمام الغزالي بهذا المعنى: «ثم يُثمر الفهمُ الوجدَ، ويثمرُ الوجدُ الحركةَ بالجوارح». ويقول شاعرهم:

ذكرتك لا أني نسيتك لحظة ... وأيسر ما في الذكر ذكر لساني
وكدت بلا وجد أموت من الهوى ... وهام عليَّ القلب بالخفقانِ
فلما أراني الوجد أنك حاضري ... شهدتك موجوداً بكل مكانِ
فخاطبت موجوداً بغير تكلمٍ ... ولاحظت معلوماً بغير عيانِ

والرقص يؤدي بهم إلى حالة الكشف التي يتوهمون، فيقول شاعرهم عن الرقص:

دققنا الأرضَ بالرقص ... على غيب معانيكا
ولا عيبَ على رقصٍ ... لعبدٍ هائمٍ فيكا
وهذا دقُّنا للأرضِ ... إذ طفنا بواديكا

لندع الصوفية وتخيلاتهم جانباً، إذ إننا لسنا هنا بصدد تفنيد آرائهم أو الردّ عليها، مع الإشارة إلى أننا قد فعلنا ذلك بصورة مفصلة في كتابنا «الصوفية في نظر الإسلام».

إننا نريد أن نكرر القول بأن العقل، لا القلب، هو أشرف هبةٍ منحها الخالق للإنسان. به عرف الإنسانُ ربَّه، وبه حاسب الربُّ عبادَهُ، لأنه إذا أصابه خللٌ ما، سقطت عن صاحبه كلُّ التكاليف والفرائض.

والقلب يهتدي بهدي العقل. حتى أن الله سبحانه وتعالى سمّاه في بعض آياته الكريمة عقلاً. إنه تبعٌ له يندفع وراء ما يشير به وما يرتئيه. إلّا أن الخطر يكمن في أن هذا القلب، أحياناً كثيرة، يميل بصاحبه عن الطريق القويم، ويتّبع الهوى ويوقعه في الضلال لأنه مكمن الغرائز... هنا تمتد يدُ الرحمة من الخالق جلّ وعلا إلى هذا الإنسان، في ساعة ضعفه تلك، فتقطع حبال أهوائه وميوله، وتحول بينه وبين الاستجابة إلى دوافع قلبه المهلكة، وتردّه إلى حياة الطّهر والإيمان في دنياه فيتذكر حياته الأخرى التي سيُحشر فيها إلى الله مع عمله.. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1]

وعلى ضوء هذه الآية القرآنية الكريمة التي تبيِّن أن قلب الإنسان متقلّب، وأن يَدَ الله وحدها هي التي تردّه إلى الصواب كلما نزع نحو الخطأ. على ضوء ما تعنيه هذه الآية نفهم دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يقول فيه:

---

(١) الأنفال: ٢٤.

«اللهم، يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك».

هذا ما كان يدعو به ربَّه سيّدُ الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي كُتبت له العصمة من الذنوب، فكيف بنا نحن الخطأةَ بني البشر؟

إنه دعاء يهزّ كيان الإنسان المؤمن فتخشع نفسه ويرتجف فؤاده حين يخلو إلى نفسه مفكّراً، متأملاً قلبه الذي بين جنبيه وهو في قبضة الله تعالى القاهر الجبار، يحتجزه ويقلّبه ويصرّفه كيف يشاء، ويحول بينه وبين صاحبه الذي لا يملك من أمر نفسه ولا من أمر قلبه شيئاً.. فتبارك الله العزيز القدير..

الشعور والإحساس

يقال في اللغة: شَعَرَ وشَعُرَ شعوراً بالشيء: علم أو أحسَّ به، أو فَطِنَ له، أو عَقَلَهُ. والشِّعر (مصدر) بمعنى العلم (ليت شعري فلاناً أو عن فلان أو لفلان ما صنع: أي ليتني علمت بما صنع). والشعر عند أهل اللغة العربية: «الكلام الذي يقصد به الوزن والتقفية أو هو قيل للموزون المقفَّى من الكلام». والشاعر هو الذي يقول الشعر، وسُمِّي شاعراً لفطنته ودقة معرفته، واختصاصه بصياغة الشعر.

والشعور هو الإحساس أو هو العلم بالشيء وإدراكه. وهو ما ينتج عن حواس الإنسان التي تقع على الظواهر الخارجية، أو على الموجودات والأشياء، فتدرك حركاتها وصفاتها وتفاعلاتها عندما تتأثر أعضاء الحس بالتنبهات الحسية فتنطلق منها نبضات عصبية تمر خلال الأعصاب حتى تصل إلى مراكز الإحساس بالدماغ حيث يحصل الإدراك الحسي. وهذا ما يجعل إدراكنا للعالم الخارجي يتم عن طريق الحواس.

أما الإحساس أو الإدراك الداخلي فهو الذي يجعلنا نشعر أو ندرك ما في داخلنا وما في أنفسنا من كوامن أو دوافع أو انفعالات

الخ. . . وكل ما يمكن أن يحدث في النفس من تغييرات قد تؤثر على سلوكنا، وعلى ما يجب أن نقوم به أو نتجنبه. ولذلك كانت من أهم مزايا خلق الإنسان هبة العقل التي تقترن بهبة الإحساس فينتج عن هذا الاقتران هذا الإدراكُ الذي نستشعر بواسطته ليس فقط المدركات الحسية بل والمعاني النبيلة والمقاصد الشريفة، وكل ما يمكن أن يندرج تحت عملية النشوء والارتقاء في الوجود البشري. ومن هنا كان سعينا نحو القيم والمثل، وتمييزنا ما بين الخير والشر، والحق والباطل، والحسن والقبيح. . . وتتم عملية الإدراك هذه بفعل الترابط المحكم القائم ما بين الجهاز العصبي والدماغ.

دماغ الإنسان

لقد أثبتت الدراسات التشريحية أن في لحاء الدماغ مناطق معينة تقوم بوظائف نفسانية معينة: ومن أهمها: المنطقة الحركية التي تسيطر على حركات جميع أجزاء الجسم؛ والمنطقة الحسية التي تنتهي إليها الأحاسيس مثل الإحساس باللمس، أو الإحساس بدرجة الحرارة والبرودة، أو الإحساس بالذوق، أو الإحساس بالألم؛ والمنطقة البصرية التي هي مركز الإبصار وإليها تنتهي النبضات العصبية الواردة من العين؛ والمنطقة السمعية وهي مركز السمع حيث تنتهي إليها النبضات العصبية الواردة من الأذنين؛ ومنطقة الترابط التي توجد في الجبين حيث تتجمع الرسائل الواردة من مختلف أنحاء الجسم فتقوم بتنسيقها وردها إلى أجزاء الجسم المختلفة. وهي التي تتدخل أيضاً في الأنشطة التي يتحكم فيها الدماغ، كما أنها تعتبر مركز العمليات العقلية العليا كالتفكير والكلام والكتابة والقراءة والتعليم. . .

ويتكون لحاء الدماغ من بلايين الخلايا العصبية التي توجد في

داخل الجمجمة، ولذلك نجد في هذا اللحاء كثيراً من الانخفاضات والمرتفعات، كما أن سطحه كبير جداً في الحقيقة بحيث أنه لو جرى تسطيحه لبلغت مساحته حوالى ١٦ قدماً مربعاً.

وهكذا فإن الدماغ هو الذي يسيطر على جميع الأنشطة التي يقوم بها الإنسان. فكل نشاط يقوم به يصعد إلى الدماغ ويترك أثراً فيه. وفي مجال اهتمام العلماء بالذاكرة تبين لهم أن كل شيء يصدر عن الإنسان يتم تسجيله في خلايا الدماغ. ومن التجارب التي أجروها إثارة أحد مراكز الدماغ، لدى أحد الأفراد، بتيار كهربائي، فسمع لحناً موسيقياً كان قد سمعه من قبل. وعند إثارة مركز آخر في دماغه رأى مشهداً معيناً كان قد رآه من قبل. وهذا ما دفعهم إلى اعتبار لحاء الدماغ بمثابة سجل كبير لكل ما يقوم به الإنسان. ولعلَّ خلايا دماغ الإنسان هذه التي يتم فيها تسجيل أعماله هي إحدى معجزات الخلق الإلهي، التي اقتضت مشيئة الله تعالى أن تكون مركزاً لهذا التسجيل حتى تكون حجة على الإنسان فلا يستطيع إنكار أعماله. وهذا ما يفسر ما جاء في آيات القرآن الكريم من أنَّ السمعَ والأبصـارَ والألسنةَ والجلود ستشهد على الإنسان يوم القيامة. يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

اللاشعور أو اللاوعي

لقد أتينا على ذكر اللاشعور في المقدمة وأظهرنا زيفه. ولكن أحببنا أن نوضِّحَهُ للقراء الكرام حتى يكونوا على بينة من أمرهم. يزعم بعض علماء النفس أنَّ في النفس البشرية شعور غير مدرك، وهو ما

---

(١) النور: ٢٤.

يعبر عنه ـ في علم النفس ـ باللا شعور أو باللا وعي. ذلك أن الإنسان قد لا يعرف كل ما تنطوي عليه نفسه من أحوال باطنية. فقد لا يعرف ـ أحياناً كثيرة ـ لماذا يحبُّ هذا الشخص أو يكره الآخر، ولماذا يقدم على عمل معين بدافع قوي ويبتعد عن القيام بعمل آخر.. وقد يمكن للإنسان أن يسيطر على مشاعره وذلك بعد مجاهدة للنفس قوية، أو قد لا يستطيع ذلك أبداً، فتظهر لديه حالات مرضية أو اضطرابات أو عقد.. وكلها أنواع من الأمراض النفسية تأتي من المكامن الدفينة أو من مواضع اللا شعور في النفس. ففي نفس الإنسان نزعات تبقى دفينة، ولا يشعر بها إلا إذا ظهرت بعوارض معينة، أو إذا اشتد ظهورها لسبب من الأسباب. فكأن الشعور لا يسيطر على النفس كلها، بل يترك جزءاً منها، أو يترك حالات نفسية لنطاق اللا شعور والذي يمكن وصفه بأنه طبقة ثانية تقع تحت الشعور الذي نحسّ به أو ندرك بواسطته أو خلفه.

ويمكن التمثيل على اللا وعي بالتواعد على لقاء شخص معين: صديق أو حبيب أو صاحب مصلحة.. تذهب في الصباح إلى عملك وتنهمك في هذا العمل إلى درجة تنسيك نفسك، وفجأة تهب عن الكرسي وتنظر إلى ساعتك فتتذكر الموعد الذي ضربته. في هذه اللحظة بالذات يكون الشخص قد برز في حقل وعيك، أي أنه كان قبل ذلك في منطقة اللا وعي. ولذلك فإن كثيراً من الذكريات والأفكار والمشاعر والرغبات يكون لا شعورياً، أي أنها تكمن في منطقة الشعور اللا واعي أو هي تتخفى في منطقة الشعور وتظل فيها حتى تستدعى عند الحاجة إليها.

ويقوم اللا وعي (الشعور الباطن) بدور هام في حياة الإنسان، ولدى المصابين بشكل خاص بالعصاب الذي يعرِّفه علم النفس بأنه

«اضطراب وظيفي دينامي ـ انفعالي ـ . وهو نفسي المنشأ، ويتصف بأعراض عامة تؤدي إلى اضطرابات في العلاقات الشخصية وحالة عدم كفاية وعدم سعادة». وهو يتكون ـ بحسب نظريات علم النفس ـ في السنوات الأولى من عمر الإنسان. وقد يكون نتيجة للقمع الاجتماعي والأخلاقي الذي يمارسه الآخرون على الطفل، ولا سيما أهله. ولذلك يبقى مجال اللا وعي العاطفي أوسع من التعقل.

ويخضع اللا وعي أكثر ما يخضع للّذة، ويتميز بأنه فعال، دينامي (حركي)، وهو بحيويته مؤلف من مجمل التفاعلات والعمليات النفسية المكبوتة، وبذلك فهو نواة الشخصية الحقيقية، ومركز الطاقة لحياة الإنسان، كما أنه يوجه السلوك إلى حدٍّ بعيد، وخاصة فيما يتعلق أو يقرب من المكبوتات فيه.

ويتجلّى اللا وعي بمظاهر شتى: فالذكريات المنسية تبرز إلى الوعي عن طريق الأحلام، والصدمات الانفعالية. والاضطرابات الوجدانية يعكسها قضم الأظافر أو تقطيب الحاجبين، أو بلع الريق أو السعال أحياناً الخ . . . وكلها مظاهر تخفي صراعات وجدانية لا واعية.

التحليل النفسي

ولقد أبرز فرويد وتلامذته الدور الذي يقوم به اللا وعي في حياة الإنسان من خلال نظريته المعروفة بالتحليل النفسي، الذي يعتبر من أهم طرق فرويد لاستكشاف عمليات اللا وعي في النفس البشرية، وأنجع وسيلة علاج لمداواة المصابين ببعض الأمراض العصبية أو الذهنية.

وقد بدأ فرويد في بناء طريقته الخاصة القائمة على استكشاف اللا وعي، بعد أن تخلى عن التنويم المغناطيسي. وترتكز طريقته

الجديدة على دراسة الأفكار التي ترد إلى خاطر المريض عندما يفسح في المجال، دون رقابة من أحد، لعمليات ترابط أفكاره. فالذكريات المؤلمة التي تسبب الجرح النفسي أو الصدمة النفسية تكون مكبوتة، والتحليل النفسي يتولى التعامل مع تلك الذكريات ونقلها إلى إطار الوعي، وذلك بإخراج الكبت الكامن في نفس الإنسان. أي أنَّ مهمة الطبيب المعالج أو الباحث هي اكتشاف الكبت ووعي الحوادث المكبوتة من أجل وضعها أمام المريض الذي عليه أن يتقبلها أو يرفضها. هذا هو التحليل النفسي باختصار. وقد كان لهذه النظرية تأثير بارز في دراسة الشخصية عند الغربيين، من حيث كونها شخصية سوية أو غير سوية من الناحية النفسية، كما كان لها أهمية كبرى في طرق معالجة الاضطرابات العقلية.

وتتكون الشخصية، وفقاً لما ذهب إليه فرويد، من ثلاثة أقسام: الـ «هو»، «الأنا»، «الأنا العليا»، وهي جميعها تتفاعل فيما بينها لتكوين طاقة نفسية، تظهر من خلالها الشخصية.

ـ الـ «هو» هو كل ما يحمله الإنسان معه عند ولادته، وكل الدوافع والحوافز المتأتية عن الطاقة النفسية. أي هو جملة الميول الموجّهة لبعض النشاطات الفردية. وتربطه باللاوعي علاقة وطيدة، لأنهما مكمن الغرائز والعادات والذكريات. والعواطف التي تكون كامنة في الـ «هو» ومحتفظة بشحنات من الانفعال، نشعر بوجودها عندما تبرز بعض الأعراض على سطح الوعي.

والـ «هو» لا شعوري يرتبط بالجسم ارتباطاً شديداً. وهو لا يتأثر بتقدم العمر، بل يبقى ذاتياً، أنانياً، طالباً للّذة، مبتعداً عن الألم ويتأبّاه.

ـ «الأنا» هو قسم من الـ «هو» ولكنه تحول إلى كينونته بفعل الظروف الخارجية فأصبح يكوِّنُ ذات الإنسان. ويقال عنه الشعور أو الإدراك، وهو الذي «يمثل الميول المكتسبة، والتعلم الاجتماعي، ويرتبط بالواقع، وينظم العلاقات مع الآخرين في المجتمع».

و «الأنا» يسمح بإشباع الرغبات بطريقة معتدلة لا إفراط فيها ولا تفريط. وإذا تمادت الرغبات واشتدت لتلبي مطالب الـ «هو» فإن «الأنا» يحول دون ذلك التمادي مستعملاً ما لديه من وسائل دفاعية كالكبت مثلاً. بمعنى أن الرغبات العدوانية وما يتعلق بها يدفعها «الأنا» إلى العقل الباطن أو اللا شعور لتبقى فيه، ما لم تظهر في التخيلات والأحلام، أو ما لم يضعف «الأنا» ويقوى عليه الـ «هو» فينهار الجهاز الدفاعي وتسيطر الرغبات والأهواء. وعلى هذا فإن «الأنا» هو الذي يقيم التوازن بين الدوافع الغريزية والنزوات من ناحية وبين الضمير الحي من ناحية ثانية، بما يؤمن استمرارية التفاعل والحركة بينهما.

ـ «الأنا العليا» هو في الأساس جزء من ذات الإنسان، من «الأنا»، إلا أنه يعمل مستقلاً عنه من حيث الكمال والمثالية، ويعرف لدى الناس بالضمير أو الوجدان، ولذلك فهو يتكوّن من القيم الخارجية والمثل العليا والتقويم والتربيـة والضغط المجتمعي. «إنه مجمـوعة القواعد التي تعلم الخير والشر التي تكتسب من الوالدين وممثلي السلطة ورموزها، ولا ينفصل عن العقوبات والمكافآت لأنه سلطة تكافىء وتعاقب بغية تنظيم الدوافع وردعها عن التعدي على القانون أو السلطة أو الانضباط أو المجتمع. ولذلك فهو يوفر الاستقرار والامتثال للمعايير السائدة امتثالاً واعياً مراتٍ، وغير واع مرات أخرى». ذلك أنه في «الأنا الأعلى» غالباً ما تكون الذكريات المحظورة لا واعية.

ويعتبر فرويد أن «الهو»، وبعض أجزاء من «الأنا»، ومن «الأنا

العليا» تكون لا شعورية. كما يعطي دوراً هاماً للجنس في جميع الأحداث والأفكار، في حين يكون للحافز ـ لديه ـ صفة عدوانية. والحوافز الجنسية هي التي تولد الطاقة النفسية للسلوك، والنشاط العقلي المتمثل بالمكونات الثلاثة: الـ «هو» و «الأنا» و «الأنا الأعلى» أو ما يسميه «اللبيدو». ومن هذه المكونات الثلاثة تتكون الشخصية.

ويعتبر التحليل النفسي في «علم النفس» من طرائق العلاج الهامة للاضطرابات النفسية ولا سيما ما يظهر منها بمظاهر مرضية كالهستيريا وازدواج الشخصية وغيرهما... فالمصاب بالهستيريا مثلاً يكون لتصوراته تأثير قوي في اختلال حساسيته وذاكرته وإرادته وحركاته. ولذلك اعتبر بعض الباحثين الهستيريا من الأمراض النفسية. فإذا كان أحدهم مصاباً بفقدان الحس في عضو من أعضائه أمكن شفاؤه بالإيحاء. ومن خواص هذا المرض أنه لا يزول بأمر كل طبيب، بل بمعالجة الطبيب الذي يألفه المريض ويفضله في نفسه على غيره. وهذا ما يسمى «بالانتخاب اللا شعوري».

وكذلك الأمر إذا أصيب المريض بفقدان الذاكرة، وهو مرض ينسى فيه المريض بعض الأمور التي تتعلق بشخص معين أو بشيء معين. فقد يكون سلوك هذا المريض عادياً أثناء النهار ولكنه لا يذكر شيئاً عما حدث معه سابقاً، فكأنما نزعت صور الماضي من ذاكرته تماماً. والصحيح أنه لم ينس الماضي نسياناً حقيقياً لأن الذكرى تبقى في ذهنه، وهي ما تزال تؤثر في نفسه، ولكن الذي حصل أنها انتقلت من نطاق الشعور لديه لتكمن في نطاق اللا شعور.

ومن طرائق العلاج التي يعتمدها التحليل النفسي أيضاً، بل هي أهمها في علم النفس، طريقة «التداعي الحر». وهي تقوم على أن

يسرد المريض كل ما يرد في خاطره دون رقابة من أحد أو سيطرةٍ من أي تأثير. ويكون ذلك بدافع الإرادة الحرة لقول أي شيء دونما اختيار لألفاظ معينة، ودونما خجل. بل بمجرد أن يلقي عليه الطبيب أو المحلل سؤالاً ما فإنه يجيب بما يحلو له من غير تكلف أو تقصّد أو تعمّد.

ويأتي، بعد ذلك، دور المحلل الذي يستعرض حديث المريض فيعثر خلاله على بعض التعابير التي يعتقد أنها توصله إلى لا وعي هذا المريض، ومنها يستشف الأفكار والرغبات والمشاعر الدفينة أو المكبوتة في نفسه. ويرى فرويد أن إظهار هذه المكبوتات يجعل وعي المريض يأخذ بها، ويجعل بالتالي السيطرة عليها، بقبولها أو رفضها، ممكنة.

إن نظرية التحليل النفسي هذه لاقت نجاحاً كبيراً في ميدان «علم النفس» العلاجي. إلا أن أصحاب مدرسة التحليل النفسي الجديد انتقدوا «فرويد» في كثير من نظرياته بل وخالفوه بمبالغته في أهمية الدوافع الجنسية واعتباره لها مصدراً للعصاب واضطرابات الشخصية، قائلين بأن هناك أسباباً كثيرة أخرى تكون بدورها مؤثرات فعالة في تكوين الحالات العصبية أو الاضطرابات، ومنها بشكل خاص المؤثرات العائلية والاقتصادية والوسط الاجتماعي وغيرها.

وكثير من الناقدين يعتبر التحليل الفرويدي في حقيقته عبارة عن «عملية غسل دماغ». وهنالك دلائل لديهم تشير إلى أن «فرويد نفسه كان مريضاً، وكانت شخصيته مضطربة، وكان يعاني من العُصاب والإدمان على التدخين، ويتعرض لحالات غريبة».

ويقرر «ثيودور ريك» أحد المحللين النفسانيين في كتابه: «الإنصات بالأذن الثالثة» «أن من أهم سمات المحلل قدرته على

الإصغاء الدقيق لما يجول في نفس المريض». ويعلق الدكتور أرنست جونز، صديق فرويد الذي ظل مرافقاً له حتى وفاته عام ١٩٣٩ م: «بأن أذن فرويد الثالثة كانت صماء».

ولعلَّ أهم ما أتت به مدرسة التحليل النفسي الجديد أنها حاولت أن تكشف النزعة اليهودية ـ الصهيونية التي اتسمت بها كتابات «فرويد» الخاصة بالصوفية اليهودية، وخرافة الشعب المختار، وعلى الأخص إظهار المشكلات العصابية التي كان يعاني منها «فرويد» شخصياً، مما يظهر الأسباب الخفية الكامنة وراء بروز هذا الشخص وأمثالـه، وجعلهم من ذوي النظريات البراقة، والفضل الكبير على الإنسانية، بينما هم في حقيقتهم أدوات لأغراض سياسية أو عقائد تعصبية أو مطامع دنيوية بعيدة المدى، ولكنها ترتدي لباس العلم ولباس الخدمة الإنسانية!!..

تلك نظرة وجيزة عما ذهبت إليه أبحـاث «علم النفس» عن اللاشعور أو العقل الباطن. وهي تبقى ـ بنظرنا ـ مجرد نظريات وافتراضات، بالاستناد إلى الوسائل العلمية والمخبرية التي تتبعها، والنتائج التي تتوصل إليها، لأنها لا يمكنها أن تصل إلى معرفة الإنسان على حقيقته في تكوينه النفسي والفيزيولوجي. ولذا يجب أن يكون جهدنا منصباً على إدراك ذاتية الإنسان بما أُودِع فيه من خصائص مميزة، والتعامل معه ككائن حي متفاعل مع الحياة، وككائن مبصر، مدرك، مميِّز للترابط الكوني، كما هو مميِّز بالنسبة للوقائع والأحداث في حياته الفردية، وحياته الإنسانية العامة. من هنا كانت أهمية الإدراك الحسي الذي يعرفنا على العالم الخارجي، وأهمية الإدراك الفكري أو العقلي الذي نستدل به على المعاني المجردة، وعلى الأفكار والتصورات التي تمثل القيم العليا أو المثل الأعلى في حياة الإنسان.

إذ من خلال الإدراك الفكري مثلاً نستطيع أن نستدل على حقيقة وجود الله تعالى، وقدرته سبحانه في بديع خلقه للسماوات والأرض، وللوجود الإنساني، وللحياة..

ولئن كانت قدرة العقل على الإدراك والمعرفة محدودة، أو كان التفكير معرضاً للخطأ، إلاَّ أنَّ القلب والعقل يبقيان من الوسائل أو المكونات التي خلقها الله تعالى في الإنسان لتكون له القدرة على الإدراك والمعرفة. فالإنسان يولد بطاقاته الذاتية المتكاملة واستعدادته النظرية الجاهزة، ثم لا تلبث حواسه أن تبدأ في أداء وظائفها، لمجرد خروجه إلى هذه الحياة، حيث يتأثر بكل ما تقع عليه تلك الحواس من مُؤثرات خارجية، تحدث فيه الأحاسيس أو المشاعر التي تكوّن فيما بعد إدراكه للعالم الخارجي. يقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

إن هذه الآية الكريمة تذكر السمع والأبصار والأفئدة، بما يعني اشتمالها على الإدراك الحسي (السمع والأبصار) والإدراك الفكري (الأفئدة). ويركز القرآن الكريم على السمع والبصر باعتبارهما من أدوات الإدراك الحسي لأن فيهما دلالة كافية على أهمية الحواس جميعاً في عملية هذا الإدراك، لا سيما أن العلاقة ما بين السمع والبصر من ناحية، والعقل من ناحية أخرى، يمكن أن تجمع كل معاني الفهم والتدبر والتفكير والتصور والتبصّر. يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[2].

---

(١) النحل: ٧٨.

(٢) الملك: ١٠.

ويأتي التركيز القرآني على أهمية الإدراك من أجل تنظيم الحياة الفكرية والنفسية والجسمية والمجتمعية تنظيماً شاملاً، بحيث لا يكون هنالك أي معنى من معاني الوجود، أو أية ظاهرة من ظواهره إلا وبمقدور الإنسان أن يحسّ بهما أو يدركهما.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾[1] ومعناه: فلما أحسَّ ـ أي رأى وأدرك ـ عيسى عليه السلام من بني إسرائيل الكفر... ونشأ عنده ذلك الإدراك بعدما أراهم كل تلك المعجزات التي لا تتهيأ لبشر أصلاً، وإنما أتاها الله تعالى على يدي رسوله عيسى بن مريم عليه السلام لتنويره في دعوته إلى الله الواحد الأحد. بعد كل ذلك لم يؤمن معظم بني إسرائيل، ولم يلبوا دعوة الحق. فقال عندها عيسى صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2] وفي قوله هذا تنبيه بأنه ظهر منهم الكفر ظهوراً بيّناً للحسّ، فضلاً عن الفهم والإدراك.

والإحساس بمعنى الإدراك، ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾[3]. والمقصود من هذه الآية الكريمة أن تلك القرى التي كانت ظالمة، قد حاق بها العذاب، وذلك بتدميرها تدميراً كاملاً، والقضاء عليها قضاءً تاماً. ويصور النص حالة أهلها عندما أتاهم بأس الله تعالى إذ راحوا يتدافعون منها وهم يركضون، كأنَّ ذلك التدافع والركض يمكن أن ينجيهم من بأس الله تعالى، فلم يدركوا أنَّ هذا البأس يمكن أنْ يلاحقهم أينما ذهبوا. ولكن بالمقابل فإن عبارة ﴿أحسوا بأسنا﴾ تبين إدراكهم الحسي والعقلي لقوة الله تعالى وهي تُنزل بهم قضاءه بسبب كفرهم وإصرارهم على هذا الكفر.

---

(١) آل عمران: ٥٢.

(٢) الصف: ١٤.

(٣) الأنبياء: ١٢.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[1]. إنما يعني هل تجد أو ترى منهم أحداً، أو هل تسمع لأحد منهم حركةً؟. هنا يشرك جميع الحواس الخارجية والداخلية في إدراك مصير الأمم الغابرة أو القرون الماضية التي أتاها أمر الله تعالى فقضى على وجودها قضاءً مبرماً فلم يعد أحدٌ منها موجوداً حتى يمكن أن يُحسَّ بهذا الوجود. وفيه عظة للإنسان أيضاً بأن يتفكر في مصيره المحتوم وهو الموت، حيث ينتقل إلى دارٍ يخيم عليها الصمت، فلا حسّ ولا حركة ولا صوت..

والحركة التي تنبعث من الوجود، من كل موجود، يعبر عنها النص القرآني بالحسيس كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[2]. وفي قوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[3]. ويعني: التمسوا وجود يوسف وأخيه، بكل ما أوتيتم من عزم وقوة، وما تقدرون عليه من صبر واحتمال في البحث والتنقيب حتى تعثروا على أثرٍ لهما. وليكن ذلك بدافع الإدراك الواعي والقاصد من غير يأس لأنه لا ييأس من روح الله - أي رحمته تعالى - إلَّا القوم الكافرون.

وللدوافع والانفعالات تأثيرها القوي في تفكيرنا وفي إدراكنا الحسي. فمثلاً عندما نحب شخصاً معيناً فإن هذا الحب - وهو من قبيل الدافع أو الانفعال العاطفي - يجعلنا ندرك محاسنه، ونغفل عن مساوئه، والعكس صحيح في حالة كرهنا لشخص ما.. وهذا التأثير للدوافع والانفعالات أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. عن أنس أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة. وحبك الشيء يعمي ويصمّ».

والرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله كان يحدّث

---

(1) مريم: ٩٨. (2) الأنبياء: ١٠٢. (3) يوسف: ٨٧.

الصحابة بأمورٍ تخرج عن نطاق الإدراك الحسي. وهذا أمر طبيعي لأن الوحي يتنزَّل عليه، ولأنَّ الله سبحانه وتعالى أمدَّه ببصيرة النبوة، وزوَّده بطاقات لا يمكن توافرها لغيره من البشر، وكل ذلك ليكون قادراً على حمل الرسالة وإيصالها إلى الناس. وما حادثة الإسراء والمعراج إلَّا دليل على تلك الطاقات التي تخرج عن طبيعة البشر واحتمالهم، وهي من ناحية معرفة النفس الإنسانية فوق مستوى أي إدراك أو تصور حسي. ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أوتيها وأدرك بحواسه وقائعها جميعاً وذلك بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

ثم إن هنالك أحاديثَ كثيرة تنبىء بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان له نوع من الإدراك الذي يختلف بمضامينه الحسية والعقلية عن أي مفهوم آخر للإدراك. فهو إدراك من نوع خاص، ويختص بالنبي أو الرسول من دون سائر الناس. فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يسمع أصوات الموتى في القبور. يروى عن ابن عباس أنه قال: «مرَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقبرين فقال: إنهما ليُعذَّبان، وما يعذبان من كبير. ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: بلى، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرىء ـ أو لا يستتر في رواية أخرى». والرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى الملائكة. فعن أبي ذر الغفاري (رض) أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون. أطَّت[1] السماء وحق لها أن تئطّ. ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته، ساجد لله».

والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعزو إلى بني آدم إمكانية رؤية ملكوت السماء. ذلك أن الاتصال بالله تعالى يتم من قبل الإنسان المؤمن بصورة مباشرة إذا كان لديه من صفاء القلب، وشفافية النفس، وذكر الله تعالى كثيراً

---

(١) أطت: رقَّتْ وتحركت.

بالثناء والشكر، ما يؤهله لذلك الاتصال. يقول رسول الله ﷺ: «لولا أنَّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء». من هذا الحديث يبدو أن شفافية النفس عند المؤمن هي شرط أساسي ليتحقق فيه قول الرسول ﷺ، الذي يعني إمكانية وصول هذا المؤمن إلى حالة من الإدراك العقلي أو النفسي الذي لا علاقة له بالمحسوسات وعندئذٍ تتحقق له الرّؤية. وهذا الإدراك الذي يتصف به الأنبياء، يمكن للمؤمنين الأتقياء بلوغه، وبه، أي بصفاء القلب وشفافية النفس وتعلقها بالملأ الأعلى، يستطيعون أن يدركوا ما لا يستطيع غيرهم من بني آدم إدراكه. وهذا أيضاً ما أشار إليه الرسول ﷺ كما روي عن أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله تعالى». ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1] أي لأصحاب الفِراسة والرؤية، العارفين المعتبرين.

وهكذا يتبين لنا أن نظريات علم النفس حول «اللا شعور أو اللا وعي» لا تستند إلى أساس صحيح في تكوين الكائن البشري، الذي حباه خالقه الحواس لإدراك العالم الخارجي، وأعطاه ملكة الشعور إلى جانب ملكة العقل لإدراك كوامن نفسه، مما يبعد تلك التقسيمات المزيفة للشعور، وجعله بمثابة طبقات في أسفلها «اللا وعي» أو اللا شعور، ومن فوقها الوعي أو الشعور، باستثناء فقط إدراك الرسل - عليهم صلوات الله تعالى - لبعض الأمور التي يأتونها بإذن الله تعالى، تأكيداً لصدق الرسالات التي يحملون..

---

(١) الحجر: ٧٥.



اللّذة والألـــم

كل إنسان يشعر باللذة كما يشعر بالألم، فهذا الشعور يدخل في تكوينه الجسدي والنفساني. وقد استعمل بعضهم لفظ الإحساس للدلالة على اللذات والآلام الجسمانية. واستعمل لفظ الحس الباطن والعاطفة والوجدان للدلالة على اللذات والآلام النفسانية. والغالب أن كلمة إحساس هي ما يطلق للدلالة على إدراك الأشياء الخارجية بالحواس الخمس الظاهرة. واللذات هي الأحوال الملائمة، أما الآلام فهي الأحوال غير الملائمة أو الأحوال المنافية.

واللذات والآلام تكون جسمانية ونفسانية.

فاللذات **الجسمانية** هي التي تحسّ بها النفس في حالة تخلص الجسم من الأوجاع وإرضاء الغرائز والحاجات العضوية أو إشباعها. مثل الشبع بعد الجوع، والشرب بعد العطش، والاستدفاء بعد البرد، والأمن بعد الخوف، واستجابة الرغبة بعد الحرمان.

واللذات **النفسانية** هي التي تشعر بها النفس عند التصور والتفكير. مثال ذلك: فرح الإنسان عند بلوغه هدفه، ولذة الكريم عند

جوده بالمال، ولذة العالم عند اكتشافه قانوناً علمياً. فقد حكي أنَّ العالِمَ (دوي) رقص في مخبره عند اكتشافه البوتاسيوم، وقيل إن (أرخميدس) خرج من الحمام عارياً لشدة فرحه عند اكتشافه القانون المعروف باسمه حول عوم الأجسام على سطح الماء.

وبلوغ الهدف أو تحقيق الغاية التي يصبو إليها الإنسان يطلق عليهما في «علم النفس» اصطلاح (قمة الخبرة أو فيض الخبرة)، لأنهما ينشئان حالةً نفسيّة يشعر معها الإنسان بأنه في أسعد لحظات العمر. وعلماء النفس يفسرون هذه الحالة بأنها انفعالات باعثة على السرور، ويمكن التوصل إليها عن طريق الحب، أو العاطفة الأبوية، أو الاستمتاع بالجمال أو القيام بعمل فيه تحقيق للذات. ويكون الإنسان في هذه الحالة على وعي تام بأحاسيسه وبأنه يبذل أقصى طاقة لديه دون جهد، كما يشعر بأنه يتصرف تلقائياً وبطريقة عفوية..

أما الآلام **الجسمانية** فهي التي تحس بها النفس عند فقدان الاعتدال الطبيعي، أو عند تعرض الجسم لإصابات ضارة به كاحتراق الجلد، ووجع العين أو الأذن أو الضرس. فهي إذن أحاسيس ناتجة عن أعراض فيزيولوجية..

بينما الآلام **النفسانية** تنشأ عن أسباب فكرية في الأصل، كالألم الذي يصيب الطالب بعد رسوبه في الامتحان، والحزن الذي يسيطر على الإنسان عند سماع الخبر بوفاة صديقه، أو المؤمن عند ارتكابه معصية.

وعلى هذا الأساس قيل: إن اللذة هي الراحة التي تجدها النفس عند رضا النزعات وإشباع الرغبات، ورجوعها إلى الاعتدال. وقيل: إن الألم هو شعور النفس بسخط النزعات، وخروجها عن الاعتدال..

ومن هذه النزعات ما هو غريزي، ومنها ما هو مكتسب، ومنها ما هو دائم، ومنها ما هو زائل، ومنها ما يتولد عن الجسد، ومنها ما ينشأ عن الفكر. مثال ذلك: إن العاطفة الوطنية التي تتجلى في الدفاع عن الأرض: هي نزعة إلى الفعل والتفكير معاً. نخضع لها في حياتنا، ونضحي في سبيلها بمالنا وجهودنا، حتى أننا قد نسخر لها نفوسنا ونبذل في سبيلها دماءنا. وقد تولد هذه العاطفة في النفس هيجانات حقيقية كحنين المهاجر للعودة إلى دياره وعيشه بين أهله وذويه.

ويرى بعض الزاهدين أو المتشائمين أنَّ الحياة كلها جد وجهاد، وهذا ما يولد الآلام.. في حين يرى بعضهم الآخر أنَّ الحياة كلها قلق واضطراب، لأنها أسف على الماضي، وسخط على الحاضر، ونزوع بالآمال إلى المستقبل. فإذا تحقق الأمل صار المستقبل حاضراً، وإذا صار حاضراً لم يرضَ الإنسان به. فلا وجود إذن للذةٍ محضةٍ لا يشوبها ألم ولا حاجة. وقد قال ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد»:

ألا إنما الدنيا نضارة أيكةٍ　　إذا اخضرَّ منها جانبُ جفَّ جانبُ
هي الدار ما الآمالُ إلا فجائع　　عليها ولا اللذات إلا مصائبُ

وخلافاً لمذهب التشاؤم هذا، فإنَّ رأي المتفائلين يقول بأن اللذة طبيعة إيجابية، وأن الألم متولد منها، ويدللون على ذلك بما يلي:

١ ـ لا يوجد الألم إلا في الرغبات التي لم تتحقق، والشهوات التي لم تدرك. فالجوع في أوله شهوة لذيذة إلى الطعام، وحركة ملائمة تنتهي بلذة الأكل وراحة الشبع.

٢ ـ ليس كل عمل مؤلماً ولا كل جهاد مضنياً. بل الجهاد المعتدل ملائم للنفس وموافق لنشاطها، فلا يصبح ألماً أو مؤلماً إلا إذا

كان مخالفاً للطبيعة، وخارجاً عن الاعتدال.

٣ - القلق مرض، ولا وجود للاضطراب في حالة الصحة. والحياة الممتلئة تمنعنا من الأسف الدائم على الماضي. أضف إلى ذلك أن بعض اللذات خالٍ من الألم، كلذة التمتع بالطيِّب والمنظر الجميل، برهة قصيرة من الزمان. إن هذه اللذات تنسينا متاعب الحياة وتحبب إلينا العيش.

وهكذا نجد بأن المتشائمين يجعلون الألم ماهية اللذة، والمتفائلين يجعلون اللذة أساس الألم.. ويمكن التوفيق بين المذهبين، على ما ذهب إليه كثيرون، من أن لكل من الألم واللذة طبيعة إيجابية. ذلك أن ظهور اللذة بعد الألم لا يدل على أن اللذة تتولد من انقطاع الألم فحسب، بل يدل على أن لكل منهما شروطاً خاصة به، فليس الألم فقدان اللذة، ولا اللذة فقدان الألم.. ولكل من اللذة والألم آثاره الفيزيولوجية أو تأثيره على أعضاء الجسم. فاللذة تزيد قوة الهضم وتساعد الأعضاء على التغذية، كما تعين الجسم كله على حفظ صحته. وقد قيل إن السرور غذاء للنفس، لأنه يساعد على الهضم، فيحفظ الشباب، ويطيل العمر.. وعلى عكس ذلك الألم، فهو يضعف الشهوة إلى الطعام، ويمنع الإفراز، ويؤخر فعل الهضم، ويفسد التغذي. وكثيراً ما يشيب شعر المرء لهول المصائب الشديدة، إذ تمنع شدة الألم أعضاء الجسم من الحصول على غذائها الطبيعي.

وقد دلت التجارب على أن هذه النتائج تنشأ عن أسباب كيمائية. فالألم يغير تركيب الدم، فيسممه بسوء الغذاء وامتصاص المواد التي لم تهضم جيداً. وقد يتولد من ذلك سموم موضعية أو عامة تورث

الاستعداد للأمراض، فهي بمثابة خمائر تساعد على تفريخ الجراثيم الوبائية.

كما دلت التجارب أيضاً على أن الأحوال الملائمة التي تنتج اللذات تبعث على ازدياد النبض، وازدياد حجم الساعد، وانبساط الصدر أثناء التنفس. وقد ثبت أخيراً نجاح التجارب في اكتشاف عقاقير من شأنها أن تؤدي إلى تحسن في (عمليات الذاكرة). ولكن الخطر في منشطات الذاكرة أو في إشاعة اللذة أنها تؤدي إلى الإدمان عليها، مما يوجد مشكلة قد يصعب علاجها.

وقد نشأ من الأبحاث في اللذة والألم مذهب يعرف بالمذهب الذهني، وهو يرمي إلى القول بأن للرأي والفكر أثراً عظيماً في حدوث اللذة والألم. فالفكر هو الذي يجعل الإنسان يرنو إلى الكمال وإلى حب الخير وكره الشر، بحيث يستشعر الإنسان اللذة في الكمال أو عمل الخير، أو يستشعر الألم في بعده عن الكمال وطغيان الشر عليه. مثال ذلك: لو أنني قرأت كتاباً صعباً فإنني أجد في قراءته لذة بالرغم من صعوبته، ففي تخطي هذه الصعوبة شيء من الكمال. وعلى العكس من ذلك إنَّ من يعيد قراءة كتاب قام بتأليفه، ويجده دون المستوى الذي كان يطمح إليه، فإنه يشعر بخيبة الأمل التي تورث الألم في نفسه. وهذا ما يجعل اللذات والآلام، بنظر أصحاب المذهب الذهني متعلقة بالآراء والأفكار والأحكام وفقاً لنظرة الإنسان إلى الأشياء. وقد ذهب (ديكارت) في العصر الحديث إلى القول: «إن أساس رضانا شهادة الشعور الداخلي بحصولنا على شيء من الكمال». وقال أيضاً في كتاب (الأهواء): «السرور انفعال ملائم للنفس يبعثها على التلذذ بالخير الذي تمثله لها تأثيرات الدماغ. والحزن ضَنىً مُنَافٍ للنفس يبعثها على الشعور بمضض النقصان الذي ينقله إليها تأثير

الدماغ». وقد حذا «ليبنيز» حذو «ديكارت» فقال: «أظن أن اللذة هي الشعور بالكمال، والألم هو الشعور بالنقص».

وعلى أساس المذهب الذهني تعتبر سعادة الإنسان، وكذلك شقاؤه، ناشئين عن آرائه. وقد ذهب أصحاب هذا المذهب إلى أن الإنسان يكون سعيداً ما دام يجهل الخطر المحدق به. حتى لقد قال المتشائمون إن عقل الإنسان وعلمه وتحضّره وذوقه مدعاة للألم والشقاء، فكلما ازداد علم الإنسان اتسع أفق تفكيره، ورأى مُثُلاً عُليا جديدة تبعده عن الواقع، فيتألم مما هو فيه، فيكون علمه وما بلغه هو السبب بتعاسته أو شقائه. من أجل ذلك قال هؤلاء المتشائمون: «من أراد إسعاد الناس فلا يعلِّمهم، لأن العلمَ باعثٌ على الشقاء». حتى لقد ذهب الشاعر قديماً إلى هذا النحو من التفكير، فقال:

لو كنت أجهل ما علمت لسرني جهلي كما قد ساءني ما أعلم
كالصعو[1] يرتع في الرياض وإنما حُبِسَ الهزارُ[2] لأنه يتكلم

ولكن هل العلم حقاً يشقي الإنسانَ؟

قد تكون المظاهر الناجمة عن تقدم العلوم، واستغلالها للمآرب النفعية والمادية، هي التي أشقت الإنسان على ما نشاهد في أيامنا. إذ كلما تقدمت وسائل التكنولوجيا وأوجدت جديداً من الآلات ابتدعت معها حاجات جديدة يجهد الإنسان للحصول عليها، فلا يمكنه تأمينها إلّا بشق النفس، حتى إذا ظن بأنه اكتفى بما حقق منها نشأت أمامه حاجات أخرى تفرض عليه اللهاث وراءها، وهكذا دواليك، مما يبقيه

---

(١) الصعو: عصفور صغير جداً.
(٢) الهزار: العندليب، طائر حسن الصوت.

في تعب دائم. وربما كان هذا ما أراده أولئك الذين يدّعون أن العلم يشقي الإنسان، وأنه خير له ألاَّ يعلم.. ولكن في الحقيقة إن قيمة الإنسان تُقدَّر بما يدرك من العلم والمعرفة. لأن الجهل ظلام يطمس العقول والنفوس، وكثيراً ما يوقع في الضلالة، فخير للإنسان أن يشقى بالعلم من أن يرتع في نعيم الجهل. والله تعالى لا يريد للإنسان أن يكون جهولاً، بل يريد له الاهتداء إلى العلم، والمعرفة، والنور الذي يفتح بصيرته على آلائه تعالى في الأنفس وفي الآفاق. ولا قيمة للإنسان الجاهل، كما لا كمال له في حياته.. فطلب العلم يوسع آفاق الإنسان الذهنية، شريطة أن يستخدم هذا العلم لخيره ولخير الإنسانية..

وجملة القول: إن المذهب الذهني يجعل الأحوال الانفعالية ناشئة عن الرأي والاعتقاد والتصور. إلاَّ أن هذا الاعتقاد لا ينطبق كثيراً على شروط تحقق اللذات والآلام، فليس التلذذ بالشيء ناشئاً دائماً عن الرأي، بل ربما يحصل العكس ويكون الرأي نفسه ناشئاً عن اللذة أو الألم. فأنا قد أتألم من الفقر وهذا الألم يجعلني أعتقد أن الفقر شر. وكذلك الحزن على الصديق يجعلني أفكر في غيابه أو موته.. وأنا عندما أتعاطى المحرمات في حالة من الزوغان، وأفكر بعد ذلك بأحوال تعاطيها، أحس بالألم. إن هذا الألم ناتج عن اعتقادي بأنها محرمات. بينما يكون الأمر خلاف ذلك لإنسان يعتقد بأن الخمر حلال فإنه يشعر باللذة.. وهكذا بالنسبة لكل لذة أو ألم ينجمان عن مخالفة الرأي والاعتقاد..

وسواء كان التفكير هو الذي يسبق الألم أو اللذة، أو كان الألم أو اللذة هما اللذان يسبقان التفكير، فإن كليهما متلازمان مترابطان

بحيث يأتي أحدهما نتيجة للآخـر دون التوقف عند تحديد أيهما الأسبق.

هذا وإن كثيراً من مشاعر اللذة والألم إنما تتولد عن العقيدة التي يوطن الإنسان نفسه عليها. فشعور المؤمن بالاطمئنان والثقة ناجم عن إيمانه بوحدانية الله تعالى، وعن التفكير بآلائه ونعمائه عليه ككائن بشري وهبه من الخصائص ما يحقق إنسانيته ويبعد عنه بهيمية الأنعام. وانطلاقاً من هذا الاعتقاد تتولد لدى المؤمن المشاعر بلذة الطاعات أو بألم المعصيات.. وهكذا الحال بالنسبة إلى جميع المشاعر في تعامل الإنسان مع الآخرين ومعاملتهم له..

ويكون للعوامل الحيوية عادةً الأثرُ الهام في معرفة الميول التي يمكن كشفها بواسطة اللذات والآلام الناشئة عنها. ولذلك كان علم الحياة مهماً جداً في «علم النفس» لأنه يبحث في تركيب الجسم وخصائصه، ومدى استجابته للمؤثرات أو تأثيرها عليه للقيام بوظائفه خاصة، وعلم النفس يحتاج ذلك في بحثه عن الدوافع والنزعات الخفية التي من شأنها أن تبعث اللذة أو تشعر بالألم. وأهمية علم الحياة في هذا المجال أنه يعين شروط البقاء بالنسبة للكائن الحي، ويستنبط منها جملة النزعات والميول، ثم يفحص عن الصحة، والمرض، والصلاح والفساد، ويطابق بين حاجات الجسد وبين آثارها في النفس، فيجد اللذات مطابقة للأفعال النافعة، والآلام مطابقة للأفعال الضارة. والمثال على ذلك أن علم الحياة هو الذي يدلنا على أن شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير مضران بالجسد، وينشأ عن هذا الضرر الآلام، ولذلك فإن الخمر ولحم الخنزير أشياء ضارة. وعلى العكس من ذلك إن أكل الطيبات من الرزق الحلال يبعث الراحة في

البدن والاطمئنان في النفس، فيجد الإنسان اللذات في الأفعال التي تؤدي إلى جني الرزق الحلال والانتفاع منه.

وهذه المطابقة بين اللذة والمنفعة، وبين الألم والمضرة، ناشئة عن قانون التكيّف، لأن حياة الإنسان لا يمكن أن تستقيم على صحتها ما لم يحصل هذا التكيف بين جسده والبيئة التي يعيش فيها. والإنسان يكتسب هذا التكيّف بسبب التغيرات التي تطرأ عليه أو التي يحدثها هو في حياته ويستجيب جسده لها. فقد يتأقلم الإنسان الآسيوي مع طرائق العيش في أميركا فيحصل التكيف، وقد لا يتكيّف مع تلك الحياة فلا يستجيب جسده لتأثيرات البيئة الجديدة التي انتقل إليها.. على أن مطابقة اللذة والمنفعة يحكمها قانون ما يسمى بالاصطفاء الطبيعي، وتنازع البقاء. فلو وجد كائن حي يجد اللذة فيما يضره، والألم فيما ينفعه، لما قدر على الحياة ولهلك.. فبقاء الأنواع الحية دليل إذن على أن الحساسية واقية من الخطر.

قال أحدهم: «إذا استبدلنا بكلمة «لذة» قولنا: إنها حالة نسعى لإحداثها وإبقائها في الشعور. واستبدلنا بلفظة «ألم» قولنا: إنه حالة نسعى لإبعادها عن الشعور وانتزاعها من النفس، وكانت الحالات الشعورية التي يسعى الموجود الحي لإبقائها مناسبة للأفعال الضارة، وكانت الحالات التي يسعى لإبعادها مناسبة للأفعال النافعة، كان هذا الموجود الحي هالكاً لا محالة، لأنه لا يحتفظ إلا بما يضره، ولا يهرب إلا مما ينفعه. وبعبارة أخرى لم يفز في معترك الحياة إلا الأجناس الحيوانية التي تجد الأحوال الملائمة في الأفعال النافعة لبقاء الحياة، والأحوال المنافية في الأفعال الباعثة على انحلال الحياة وفسادها». وهذا ما يفرض مطابقة اللذة للمنفعة، والألم للمضرة..

الألم واللذة في المفاهيم الإسلامية

ووفقاً لمفاهيمنا الإسلامية نعرف بأن الألم هو الوجع. وهو جنس من الأعراض قد يكون من الله تعالى ابتداء وبسبب، وقد يكون من فعل العباد لاحقاً وبسبب أيضاً. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

أثناء معركة أحد، وبعدما تحقق النصر للمسلمين، سيطرت نزعات الأهواء والمطامع على نفوس الرماة، فخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركوا أماكنهم، ولحقوا بالمشركين يبتغون الغنائم. ووجدها المشركون فرصة سانحة فالتفوا من حول الجبل، وجاءوا من وراء المسلمين يوقعون بهم الضرب والقتل، حتى انقلبت هزيمتهم إلى نصر.. وقد أثخن المسلمون في تلك المعركة بالجراح، التي آلمتهم وأوجعتهم كثيراً إن في الأجسام أو في الأنفس.. ولكن الله سبحانه وتعالى، ورغم تألم المسلمين وما بهم من جراح، قد أمرهم أن يتبعوا المشركين ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾[1] وهو يريد ـ سبحانه ـ بذلك أن يُرهب أولئك المشركين أعداءَه. وحرج المسلمون إلى مكان يدعى «حمراء الأسد»، وبلغ المشركون أن المسلمين قد أعدوا العدة في المدينة فور رجوعهم من أحد وأنهم خرجوا لملاقاتهم ووصلوا ذلك المكان، فتراجع عندها المشركون وأسرعوا في الرحيل خائفين حتى دخلوا مكة، بعدما كانوا قد عزموا على غزو المدينة المنورة. وتأتي حكمة الله تعالى البالغة وهو يخفف عن المسلمين آلامهم، إذ ليسوا

---

(١) النساء: ١٠٤.

وحدهم الذين يألمون ويحتملون آلام المعركة، بل إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح.. ولكن شتان بين آلام هؤلاء وبين آلام أولئك الأعداء.. إن المؤمنين يتوجهون إلى الله تعالى بجهادهم، ويرتقبون عنده جزاءهم.. فأما الكفار فهم ضائعون مضيّعون، لا يتوجهون لله سبحانه ولا يرتقبون عنده شيئاً في الحياة ولا بعد الحياة. فإذا احتمل الكفار آلام المعركة، فما أجدر بالمؤمنين أن يصبروا على ما ينالهم من آلام، وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال، وتعقب آثارهم، حتى لا تبقى لهم قوة، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله تعالى.

وإن هذا لهو فضل عقيدة التوحيد في كل كفاح. فهناك اللحظات التي تعلو فيها المشقة على الطاقة، ويربو الألم على الاحتمال. ويحتاج القلب البشري إلى مدد وإلى زاد. هنالك يأتي المدد من هذا المعين، ويأتي الزاد من ذلك الكنف الرحيم، كنف الله تعالى الرب الحليم الكريم.

ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة. معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين، لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل.

ولربما أتت على المؤمنين فترة أو أحاط بهم ظرف لا يكونون فيه في معركة مكشوفة متكافئة.. ولكن القاعدة لا تتغير، فأهل الباطل لا يكونون بعافية أبداً، حتى ولو كانوا غالبين. إنهم يشعرون بالآلام في أنفسهم، من تناقضهم الداخلي، ومن صراع بعضهم مع بعض، ومن صراعهم مع الحق الثابت.. فسبيل المؤمنين في مثل هذا الظرف أن يحتملوا ولا ينهاروا، وأن يعلموا أنهم إن كانوا يألمون فإن عدوهم كذلك يألم. وهم يتعزون كونهم ﴿يرجون من الله﴾ ما لا يرجو

أعداؤهم ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ بهم وبالناس جميعاً. فهو سبحانه يعلم ما تختلج به القلوب من مشاعر، ويصف للأنفس ما تتداوى به من الآلام التي تثقل عليها وترهقها.

وأما عن اللذائذ ، فيقول الله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾[1] .

الجنة التي أعدها الله تعالى للمتقين، الجنة التي عرضها السماوات والأرض فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. . هنالك في الفردوس، في النعيم الأبدي تنال النفوس من اللذائذ ما تشتهيه، ومن الطيبات ما ترغب، ومن النعماء ما تحب. فالنفوس تنعم بالأشربة اللذيذة فيها خمر الجنة الذي لا يسكر، ولا يعمّي على القلوب، ولا يفقد الوعي. . إنه شراب سائغ لذيذ، يطاف به وبالطيبات على أهل الجنة بصحاف من ذهب. . وفوق ذلك كله تنعم العيون بما يلذ لها من المناظر الفتانة، والمشاهد الخلابة التي تزيد من رهافة المشاعر، ورونق الأحاسيس، فتشيع في النفوس الهدوء، والراحة، والاطمئنان. . فأي نعيم هذا الذي ينتظر الإنسان في جنة الخلد؟. وأي فارق بين لذائذ هذه الدنيا وتلك اللذائذ التي تنتظره؟ . فيا عجباً من هؤلاء الناس الذين يستعجلون لذائذ هذه الدنيا ومتعها المؤقتة الزائلة، ويستبدلون بها تلك اللذائذ الدائمة الباقية! . كل ذلك في الجنة لعباد الله، الذين آمنوا بآيات الله تعالى وكانوا مسلمين، يدخلونها هم وأزواجهم بحبور وسرورٍ فرحين. .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم، يعد الله تعالى أهل الجنة

---

(١) الزخرف: ٧١.

بأن يسقيهم مما يلذ شرابه، وهم مسرورون، مرتاحون، أصحاء، سعداء. يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[1].

فما أروع هذا النعيم! نعيم تستمتع به النفس، ويستمتع به الحس، وتجد فيه كل نفس ما تشتهيه من ألوان النعيم.. هذا النعيم هو لعباد الله المخلصين، المكرمين في جنات النعيم. يتكئون على أرائك، ويتقابلون على أسرة، فيأتي من يقدمون لهم كؤوس الشراب، وهم على تلك الحالة من الدعة والرخاء، من غير أن يبذلوا شيئاً من الجهد في دار الراحة والرضوان والنعيم الدائم..

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[2].

وهذه أجمل أوصاف الشراب اللذيذ النقي الخالص الذي لا آلام فيه.. فلا صداع رؤوس ﴿لا فيها غول﴾، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتعة ﴿ولا هم عنها ينزفون﴾. وعندهم حور عينٌ لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن حياءً وعفةً، مع أنهنّ ذوات عيون واسعة جميلة. وهن مصونات، محفوظات، ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ والمكنون المستور الذي لا تبتذله الأيدي. هكذا وبهذا التشبيه يجيء النص ليبين صفات الحور في الجنة، على ما هنَّ عليه من جمال وطهر وعفة، لا

---

(١) الصافات: ٤١ ـ ٤٩.

(٢) الصافات: ٤٥ ـ ٤٧.

يتعرضن لمسٍّ أو دنس، إنهن مع أصحابهن من عباد الله المخلصين..

فأين ملذات هذه الدنيا الزائلة من تلك الملذات الباقية في جنة أعدّها الله تعالى لعباده المخلصين. فيها تنتفي الآلام، وتنهل الأنفس من أزكى اللذائذ، وأشهى الأطايب، في نعيم دائم، لا يسمعون فيه لغواً ولا تأثيماً، إلا قيل سلاماً سلاماً..

الفصل الرابع

العقل - الفكر - الإدراك

طريقة التفكير العقلية .

طريقة التفكير العلمية .

الدّماغ: هو مركز انطباع الأشياء المحسوسة وموْطن التصوّرات والتخيّلات

العَقل - الفكر - الإدرَاك

هذه الكلمات الثلاث تدل على معنى واحد، هو تلك الملكة أو الهبة التي كرّم الله تعالى بها الإنسان وحده من دون الكائناتِ الأخرى الحيَّة على هذه الأرض، والتي بموجبها يقدر أن يعقل أو يفكر أو يدرك الأشياء المحسوسة، وغير المحسوسة، ليعطيَ بالنتيجة حكمه عليها، ويقرِّرَ ماذا يفعل، أو ماذا بوسعه أن ينشىء..

والعقل بمعناه اللغوي هو الإمساك والاستمساك، يقال عقل البعير بالعِقَال أي بالحبل، وعقلتِ المرأةُ شعْرَها أي وضَّبْتْهُ وربطته. ويقال: عَقَلَ لسانَه بمعنى كفَّه وأمسكه. وقيل للحصن: مَعقِل وجمعه معاقل. وجمع العقل: عقول..

والعقل بمعنى الملكة المفكّرة المدركة، هو تلك القوة المتهيئة لقبول التعلم والعلم. كما يقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة: عقل.

وإلى المعنى الأول (القوة المتهيئة لقبول العلم) أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل». وإلى الثاني

(العلم الذي يستفيده الإنسان بقوة العقل) أشار ﷺ بقوله: «ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل (علم) يهديه إلى هدىً أو يرده عن ردىً».

وقال الشاعر:

ما قلت قولاً بفمي   إلَّا وعقلي ملهمي
أنا ابن عقلي وحده   يُنبيء عنه كلمي
به استعنت في شبابي   وكذا في هرمي

وهذا العقل هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾(1). والمقصود هنا هي الأمثال التي ضربها الله تعالى للناس في القرآن: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾(2)، لتساعدهم بسهولة ويسر على فهم الحقائق المطلقة وإدراك الآيات الربانية المبثوثة في أنفسهم وفي الكون، فجميعها لا يعقلها، أي لا يتفكر بها ولا يدركها، إلَّا العالمون، وهم ذوو تلك الملكة العقلية أو ذوو الفكر أو الإدراك. أي أن أصحاب القوة المتهيئة لقبول العلم، والذين يكتسبون العلم بفضل تعقلهم، هم وحدهم الذين يقدرون على معرفة آلاء الله تعالى، ويقفون على أمور الحياة وشؤونها.

وإن في القرآن دعوة دائمة إلى التبصّر، والتعقل، والإدراك. وما من موضع في القرآن ذمَّ الله تعالى الكفار فيه لعدم العقل إلَّا وينطبق على المعنى الثاني أي الإفادة من العلم. يقول الله تعالى في ذم هؤلاء الكفار الذين لا يعقلون: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(3).

---

(1) العنكبوت: ٤٣.
(2) الكهف: ٥٤.
(3) البقرة: ١٧١.

فهذا المثل القرآني واضح الدلالة على عدم تعقل الكافرين. فهم يُدعون إلى دين الله الحق، ولكنهم يأبون الانصياع لهذه الدعوة أو قبولها إما بدافع التقليد وما ألفوا عليه آباءهم ـ ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ـ وإما بدافع كراهية الاهتداء، فيصورهم القرآن الكريم، بما يستحقون، على صورة البهيمة السائمة، السارحة التي لا تفقه ولا تدرك صوت الراعي وهو يناديها. إنها تسمع فقط ولكنها لا تعرف معنى ما تسمع. وإذا كان هذا شأن البهيمة فإن الكفار دونها قيمة لأنهم صمّ لا يسمعون، بكم لا يتكلمون، عمي لا يبصرون دعوة الحق، ولا يدركون أو يعقلون شيئاً من الهدى. فهم أضلُّ من البهيمة لعدم إدراكهم هذا الهدى. إذن كل موضع فيه ذمّ للكفار، يكون واقعاً تحت المعنى الثاني للعقل. في حين أن كل موضع رفع فيه التكليف عن العبد، حين لا يكون قادراً على الصوم أو الصلاة أو الحج أو أي أمر من أمور التكليف، بسبب عدم تعقله أو إدراكه كونه لم يبلغ الحلم، أو كونه معتوهاً، أو أبله، ففيه إشارة إلى المعنى الأول للعقل، أي هو إنسان ليست لديه القوة المتهيئة لقبول العلم.

أما الإدراك، فيَعْني لغةً اللحاق، يقال: ألحق فلاناً أدركه. وتدارك القوم تلاحقوا، ويقال أيضاً ادّاركوا. وتدارك الله فلاناً برحمته. ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾[1] والمقصود أصحاب النار عندما يتلاقون ويتلاحق آخرهم بأولهم، ويجتمع قاصيهم بدانيهم، فيبدأ عندئذٍ الجدال والخصام فيما بينهم، فيتلاعنون ويتلاومون، ويطلبون العذاب لبعضهم بعضاً.

ومثل العقل والإدراك، هكذا أيضاً الفكر الذي ينتج الفكرة.

---

(١) الأعراف: ٣٨.

والتفكر جولان تلك الفكرة بحسب نظر العقل. وهذا التفكر هو ميزة خُصَّ بها الإنسان دون الحيوان. ولا يمكن أن يكون هنالك تفكر إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، من حيث الانزعاج أو الاطمئنان. ولهذا روي عن رسول الله ﷺ قوله: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا». نعم هذه آيات الله تعالى تحيط بنا من كل جانب، بل ووجود الإنسان ذاته إحدى أكبر هذه الآيات. فعلام لا يصرف الإنسان اهتمامه إلى هذه الآلاء أو الآيات، وينتهي عن التفكير في ذات الله سبحانه وتعالى؟. فعقيدة التوحيد الإسلامية لا تسمح ولا تدعُ مجالاً لأي تصور بشري عن ذات الله تعالى، ولا عن كيفيات أفعاله، فالله سبحانه ليس كمثله شيء. ثم إنَّ التصورات البشرية إنما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري مما حوله من أشياء. فإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شيء، توقَّفَ التصور البشري إطلاقاً عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى. ومن توقف عن إنشاء صورة معينة لذاته العلوية، يتوقف تبعاً لذلك عن تصور كيفيات أفعاله، ولم يبق أمامه إلا مجال تدبر آثار هذه الأفعال في الوجود من حوله. وهذا هو المجال الفسيح لقوله ﷺ، وتأديبه لنا، حتى لا نهلك إن زلَّ بنا الفكر، واشتطَّ بنا التصوّر.

يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾(١).

نعم لماذا لا يتفكرون في أنفسهم أنَّ الله سبحانه ما خلق السماوات والأرض عبثاً، وما خلق الكون كله إلا بالحق؟ تلك دعوة من الله سبحانه وتعالى للتفكر. أفرأيت أهمية الفكر الذي حباه سبحانه لهذا الإنسان؟.

---

(١) الروم: ٨.

ويقول الله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[1].. إنه نفس التوجيه الرباني، نفس التعليم من الله العليم الحكيم للناس. يدلهم أنه سبحانه قد بيّن لهم آياته العظيمة الدالة على قدرته في الخلق. وهذا البيان منه ـ سبحانه ـ فيه حثٌّ على التفكير والتدبر في أمر الدنيا والآخرة. فالتفكر في الدنيا وحدها لا يعطي العقل البشري ولا القلب الإنساني صورة كاملة عن حقيقة الوجود الإنساني، وحقيقة الحياة وتكاليفها وارتباطاتها، ولا ينشىء تصوراً صحيحاً للأوضاع والقيم والموازين. فالدنيا هي الشطر الأدنى والأقصر، وبناء الشعور والسلوك يجب ألَّا يتوقف على هذا الشطر، بل يجب أن يتجاوزه إلى الشطر الآخر الأبعد، والأطول مدىً بكثير، ألا وهو الآخرة. فالتفكير والشعور بالآخرة ضرورة للإنسان حتى يدرك ويعلم ما فيها من موازين وقيم، وما فيها من جزاء، ولذلك كانت دعوة القرآن للناس أن ينظروا في آيات الله تعالى التي بيّنها لهم، في أنفسهم، وفي الكون كله، علهم يتفكرون في الدنيا والآخرة، ويدركون حقيقة ما يجب عليهم فعله..

بعد هذه التوضيحات عن معاني العقل أو الإدراك أو الفكر، وبما أن هذه الألفاظ تعني شيئاً واحداً فسوف يتناول البحث:

- عوامل الفكر.
- أقسام الفكر.
- الفرق بين الفكر والتمييز الغريزي.
- العملية الفكرية.
- الطريقة العقلية والطريقة العلمية.
- ضرر التفكير ومنفعته.

---

(١) البقرة: ٢١٩.

- التفكير.
- التفكير البطيء والتفكير السريع.
- العقل والعاطفة.

١ - عوامل الفكر

الفكر: هو قدرة الإنسان العاقل المدرك على إصدار الحكم على الشيء، وذلك بناء على ما تحصله الحواس الخمس من أحاسيس ومدارك تجعل الإنسان قادراً على إعطاء الحكم على الأشياء.

فلذلك كانت الحواس الخمس وهي: السمع والبصر واللمس والشم والذوق داخلة في تكوين الإنسان. وكان لديه أيضاً الدماغ المنطوي على قدرة ربط المعلومات، وعلى قابلية التمييز. وهذه القدرة على الربط والتمييز هي خاصّية[1] رئيسة لدى الإنسان. وهذه الخاصية هي للعقل الذي خصه الله به على سائر الكائنات الأرضية الحية، وجعله في مناط التكليف الدنيوي، والحساب والجزاء في الآخرة.

فالأشياء موجودة قطعاً، والإنسان يتعرَّف عليها بواسطة حواسه الخمس، وبواسطة الدماغ لديه.. فهو يرى كل ما تقع عليه عينه، ويشمُّ كل ما ينبعث من روائح، ويسمع كل ما يحدث حوله من أصوات، ويتحسس ويشعر بكل ما يقع عليه لمسه أو ذوقه.. وعلى هذا فإنَّ كل الأشياء التي هي في متناوَلِه أو تحيط به، أو تقع عليها حواسه، تكوِّن واقعاً محسوساً بالنِّسبة إليه.. فالرغيف، مثلاً، أو

(١) الخاصيَّة: هي ما يعطيه الشيء نفسه وينتج عنه كالرؤية في العين، والقطع في السكين، والإحراق في النار. فيقال: خاصيَّة العين الرؤية، وخاصيَّة السكين القطع، وخاصيَّة النار الإحراق.. ومن هنا فإنَّ أهمَّ خاصيَّة لدى الإنسان هي التمييز الذي يمكِّنه من إصدار الحكم على الأشياء.

القلم، أو الفيجن[1]، هي من الأشياء التي تقع تحت الحواس، وهي بالتالي من الأشياء المحسوسة التي تنبثق عن الواقع المحسوس.. ولكن لماذا نحكم على الرغيف أو القلم، وما هما، ولا نستطيع الحكم على الفيجن؟!.. إنَّ المعلومات التي تكوَّنت لدينا عن الرغيف أو القلم بصورة كافية، جعلتنا نكوِّن الصورة الصحيحة عن ماهية كل منهما، ولذلك صار لدينا التمييز وبالتالي الحكم على الرغيف أو القلم، أي معرفة كل منهما بصورة تامة.. وهذا بخلاف الفيجن عندما نراه لأول مرة، فنحن نجده نباتاً بصفةٍ معيَّنة، وتنبعث منه رائحة معيَّنة، ولكن رغم رؤيته هذه، وشم رائحته تلك، فنحن لا نقدر على إعطاء حكم صحيح عليه، أي أننا لم نصل بعد إلى معرفته بصورة تامة. والسبب في ذلك أنه ما زال ينقصنا عاملٌ مهم لهذه المعرفة، وهذا العامل يتمثّل بالمعلومات السابقة عن الفيجن، التي لم تكن قد تكوَّنت لدينا بعدُ.

إذن فأمامنا واقعٌ محسوسٌ جديدٌ طرأ على عوامل فكرنا: هو الفيجن، وقد عرفنا أنه نبات معيَّن، ولكن لم نعرف جميع خصائصه.. فإلى هنا تكون قد تكوَّنت لدينا ثلاثة عوامل بالنسبة إليه، هي: الواقع (وجود الفيجن) والإحساس بالواقع (النظر وشمّ رائحته) والتمييز (إدراكنا بأنه نبات معيَّن يختلف عن غيره من النباتات الأخرى).. ويبقى أن نعطي صورة فكرية عن الفيجن، أي أن نحكم عليه.. فإذا توفرت لنا المعلومات بأنه نبات ورقه كالصعتر، وينبت في أحوال مناخية معيَّنة.. ويعطي رائحةً معينةً.. وله طعم كذا.. وله فائدة كذا.. فهذه المعلومات التي حصلنا عليها، إذا أضيفت إلى العوامل الثلاثة الأولى،

---

(١) الفيجن: نوع من النبات.

تمكِّننا جميعها من إعطاء حكم على الفيجن.. فإذا رأينا الفيجن مرة أخرى، صارت لدينا القدرة على معرفته، وبالتالي صرنا نُميِّزه بخصائصه عن سائر النباتات الأخرى..

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الأشياء والمسائل، والأمور كافة... إذ يقتضي توفر أربعة عوامل من أجل الحكم عليها. وهذه العوامل هي:

١ - الواقع.

٢ - الإحساس بالواقع.

٣ - تمييز الواقع عن غيره.

٤ - توفر المعلومات السابقة عنه.

ولكي نوضح الشرحَ أكثر، نُعْطي مَثَلاً كلمتي: وليمة ووضيمة...

فأنت لو سُئلت أيها القارىء عن معنى كلمة: وليمة، وكنت تعرف بصورةٍ مسبقة ما هي الوليمة فإنك تجيب على الفور: إنها دعوة إلى الطعام في الأفراح.. ولكن لماذا أجبت بهذه السرعة؟ لأنَّ العوامل الأربعة التي تمكِّنك من الإجابة متوفرة لديك بالنسبة إلى معنى هذه الكلمة..

ولكن إذا سُئلت ما معنى كلمة «وضيمة»، ولم تكن قد تكونت لديك معلومات سابقة عنها، فإنك تقف حائراً وتجيب: لا أدري.. ففي هذه الحالة، وبعد أن سُئلت عن كلمة «وضيمة» توفَّرت لديك ثلاثة عوامل: الواقع (فما دمت قد سُئلت عنها فإنها باتت واقعاً بالنسبة إليك، أي شيئاً موجوداً)، والإحساس بالواقع (التقاط سمعك لها وإحساسك بواقعها عن طريق السمع).. ثم بعد أن اختلط الواقع

بالإحساس، نُقِل هذا الواقع إلى الدماغ فانطبع فيه، ومن ثم قام بعملية تميِّزه عن سائر الانطباعات الأخرى لديه، أي أنه صار لدى الدماغ انطباع[1] جديد عن واقع يقال له: «وضيمة».. فإلى الآن حصلت العملية الفكرية التي جمعت بين العوامل الثلاثة الأولى، ولكن رغم حصول هذه العملية الفكرية، فإنك أيها القارىء، لم تصل بعد إلى إعطاء حكم واضح عن كلمة «وضيمة».. ولا بد من أن تتوفر لك معلومات سابقة عنها حتى يحصل عندك الفكر، أي تكتمل العملية الفكرية.. فإذا قيل لك: إن كلمة «وضيمة» تعني الدعوة إلى الطعام في الأتراح، فإنه بات بإمكانك، في أي وقت بعد ذلك، أن تدرك حقيقة تلك الكلمة، أي أن تعطي حُكماً صحيحاً عليها، وذلك بعد أن توفرت لك المعلومات السابقة عنها..

لكن السؤال يُطرح: ما هي هذه المعلومات السابقة؟ وما هو مقياسها؟ وما هو الدليل عليها؟

ولكي يمكن الإجابة عن ذلك، ينبغي معرفة عوامل الفكر، وهي أربعة:

ـ عاملان يدخلان في تكوين الإنسان وهما: الحواسُّ الخمس، والدماغ الذي هو مركز التمييز.

ـ وعاملان يخرجان عن تكوين الإنسان وهما: حقيقة الواقع، واسمُه.

---

(١) الانطباع: يطلق لفظ الانطباع على مجموع الأفعال الفيزيولوجية التي تحدث الإحساس، وله ثلاثة أقسام:
ـ التأثير المتصل بأطراف الأعصاب الحسية.
ـ انتقال التأثير إلى الدماغ.
ـ حدوث تغير في الدماغ مقابل التأثير.

وتنطلق العملية الفكرية من اجتماع هذه العوامل الأربعة. ونقطة الانطلاق تكون دائماً من الواقع المحسوس. وهذا الواقع قد تُنقل عنه معلومات صحيحة وصادقة، أو قد تُنقل عنه معلومات خاطئة ومشوهة.. فإذا قيل لنا: في محلة كذا شُيِّد بناءٌ ضخمٌ جديدٌ من عشرات الطوابق، وذهبنا ووجدنا البناء كما أُعلمنا عنه، كانت المعلومات صادقة. ولكن إذا قيل بأن المطار قد احترق، وذهبنا لنتأكد من صحة الخبر، فوجدنا المطار سليماً، كانت المعلومات خاطئة.. إلاَّ أنَّ الذهاب إلى المطار ومعاينته بواقعه، قد أثبت لنا حقيقة هذا الواقع. وهذه الحقيقة هي التي نفت التشويه والتلفيق والتضليل.. فمقياس المعلومات السابقة، والدليل على صحتها أو كذبها، إنما يكون في حقيقة الواقع الموجود.. وبناء على حقيقة الواقع يكون إدراك معنى الأشياء مثل: ما تعني هذه اللفظة، وما طعم هذه الفاكهة، وما اسم ذلك الشيء، وما ينفع هذا أو ماذا يضرّ، وما يقدِّم هذا الأمر أو ماذا يؤخِّر، وما يُثبت هذا القول أو ماذا يَنفي، ومن حضر أو من غاب؟. وهلمَّ جرّاً بالنسبة لجميع الأشياء، والأمور، والشؤون، والقضايا، والحالات، والمسائل... التي تشكل وقائع مادية أو غير مادية... والتي لا بد من توفّر معلومات سابقة عنها، تجتمع مع العوامل الأخرى، حتى يصير بالإمكان الربط، وبالتالي التمييز بين شيء وآخر... ولكنَّ العبرة ليست في إعطاء المعلومات أو الحصول عليها وحسب، بل العبرة بربطها حتى يمكن أن تتم العملية الفكريَّة، ويحصل بالتالي الفكر... وإنَّ التدريب على الرَّبط منذ الصغر، هو الذي يجعل العوامل الأربعة تتضافر لإيجاد الفكر، أي الحُكم على الواقع. ولذلك فإن المعلومات السابقة إذا كانت صحيحة، يكون الحكم على الواقع صحيحاً، وإن كانت كاذبة ومشوهة، كان الحكم

غير منطبق على واقعها، بل ربما جاءَ خلافه تماماً.

إن الرَّبط بين عوامل الفكر الأربعة التي ذكرناها يتأتَّى عنه التمييز بين الأشياء، وبهذا التمييز تتم العمليَّةُ الفكريَّةُ التي عنها تصدر الأحكام على الأشياء كما سنرى فيما بعد عند بحث «العملية الفكرية».

٢ ـ أقسام الفكر

يكون الفكر إما فكراً سطحيًّا، أو فكراً عميقاً، أو فكراً مستنيراً:

(أ) فالفكر السطحيُّ هو النظر إلى الشيء، والحكم عليه بدون فهم.

(ب) والفكر العميق هو النظر إلى الشيء، وفهمه، ثم الحكم عليه.

(جـ) أما الفكر المستنير فهو النظر إلى الشيء، وفهمه، وفهم ما يتعلق به، ثم الحكم عليه.

ويمكن التدليل على هذه الأقسام الثلاثة للفكر بمثال معين، كأن ينظر الإنسان إلى شجرة من المشمش مورقة مثمرة، فإنه يجدها تتألف من ثمر وورق وخشب، ثم يعيد النظر إلى الورق الأخضر الذي يكسو الشجرة فيحكم بأنَّ النفع الورقيَّ محصور بالزينة.. إنَّ هذه النظرة العابرة الخالية من التأمل إلى الورق، أدت إلى إعطاء حكم سريع، كان بالتأكيد حكماً سطحياً.

أما إذا أتى بورقة المشمس، وأخذها إلى المختبر، وأجرى عليها الاختبارات اللازمة، فسيرى أنَّها تحتوي على رئة تنفسيَّة تأخذ الكربون من الهواء، وعلى حبيبات صغيرة ـ تدعى اليخضور ـ تدور ضمن الورقة

كما يدور محرِّك السيارة، وعلى عروق صغيرة تصل الورقة بالغصون، كي تستمدَّ منها نموًّا.. ثم إنه سيجد بنتيجة تفاعل العوامل المتحدة في الورقة، والدائبة في تأدية وظيفتها، ما يزوِّد حبة المشمش بالسكر والنشاء.. فإجراء مثل هذا الاختبار الدقيق على الورقة، أدَّى إلى إعطاء حكم عميق عنها... فهذا، إذن، هو الحكم العميق.

ولكن إذا قام الباحث، بعد إجراء العمل المخبري على ورقة المشمش، بالبحث عن علاقتها بما يحيط بها، بحيث لا يترك ناحية من نواحي هذه العلاقة إلَّا وأجرى عليها الاختبار وعرفها، فإنه ينتهي إلى حكم آخر، يظهر له دقة صنع هذه الورقة، وكم فيه من إتقان وإحكام وتنظيم، حتى استوت هذه الورقة على النحو الذي هي فيه، وأدّت الوظيفة المعهودة إليها.. ومثل هذا الحكم لم يكن ليصدر إلَّا عن التفكير المستنير..

أما إذا توقف الإنسان عند الإعجاب بجمال الورقة، وما تبديه من زينة على أمها الشجرة، فإنه بذلك لا يصل إلى ما توجبه النظرة العميقة، ولذلك يبقى عند حدود التفكير السطحي، ومن الطبيعي ألَّا يكون لديه فكرٌ مستنيرٌ، لأنَّ هذا الفكر المستنير يجب أن تسبقه النظرة العميقة أو الفكر العميق.

والتفكيرُ السطحيُّ: يجري بنقل الواقع فقط إلى الدماغ دون محاولة إدراك ما يتصل به، وربط هذا الإدراك بالمعلومات المتعلقة به، دون محاولة البحث عن معلومات أخرى تتعلق به. وهذا ما يغلب على الجماعات المتخلفة، وعلى الأغبياء، وعلى غير الأذكياء من المتعلمين والمثقفين.

ويمكن معالجة السطحيَّة أو إزالتها أو تخفيفها، أو جعلها نادرة،

من خلال معالجة الأفراد، وذلك:

أولاً: بإزالة عادة التفكير السطحي الموجودة لديهم، وبتعليمهم أو تثقيفهم، ولفت نظرهم إلى سخافة تفكيرهم، وإلى سطحية أحكامهم..

وثانياً: بإكثار التجارب لديهم أو أمامهم، وبجعلهم يعيشون في وقائع كثيرة، ويحسّون بواقع متعدّد، ومتجدّد ومتغيّر..

وثالثاً: بجعلهم يعيشون مع الحياة، ويسايرون الحياة لاكتساب الوعي بما هو موجود في هذه الحياة.. وهؤلاء الأفراد الواعون، كلما كثروا في الأمة، كان الأخذ بيدها إلى النهوض أسهل وأقرب للتحقيق، لأنهم يتصورون وقائع الحياة الراقية تصوراً واقعياً، وذلك عن طريق تقبل الأفكار الصادقة، وقبول الآراء الصحيحة، واعتناق الأفكار القطعيّة، والتمييز بين مختلف الآراء، فيصبحون بذلك أكثر إدراكاً للأمور، أي يكون تفكيرهم تفكيراً متميّزاً عن غيرهم، بشدة إحساسه بالواقع. ولذلك كان علاج السطحية من خلال معالجة الأفراد، حتى يكون لدى الأمة مفكرون تعتمد عليهم، وتأخذ ما وصلوا إليه من فكر في سبيل تقدمها وعزّتها.

والتفكير العميق: هو التعمُّق في التفكير، أي التعمُّق بالإحساس بالواقع، والتعمق بالمعلومات التي تُربَط بهذا الإحساس لإدراك الواقع. فصاحب الفكر العميق لا يكتفي بمجرد الإحساس، وبمجرد المعلومات الأولية لربط الإحساس، كما هي الحال عند صاحب التفكير السطحيّ، بل يعاود الإحساسَ بالواقع، ويحاول أن يحسَّ به أكثر مما أحسَّ، إما عن طريق التجربة، وإما بإعادة الإحساس.. ويعاود البحث عن معلومات أخرى مع المعلومات الأوليَّة، ويعاود ربط المعلومات بالواقع،

أكثر مما جرى ربطُه، إمَّا بالملاحظة وتكرارها، وإمَّا بإعادة الرَّبط مرة أخرى، فيخرج من هذا النوع من الإحساس، وهذا النوع من الربط، وهذا النوع من المعلومات، بأفكار عميقة، سواء كانت حقائق أو لم تكن حقائق. وبتكرار ذلك والتعوّد يوجد التفكير العميق.. وعلى هذا، فالتفكير العميق هو عدم الاكتفاء بالإحساس الأوليّ، وعدم الاكتفاء بالمعلومات الأولية، وعدم الاكتفاء بالرَّبط الأوَّليِّ.. هو إذن الخطوة الثانية أو المرتبة التي تعلو التفكير السطحيّ.. وهذا هو تفكير العلماء، والموصوفين بالمفكرين.

وهكذا، فالتفكير العميق هو التعمُّق في الحسِّ والمعلومات والربط.

وأما التفكير المستنير: فهو التفكير العميق نفسه، أضيف إليه التفكير بما حَوْل الواقع وما يتعلق به للوصول إلى النتائج الصادقة.. وينشأ التفكير العميق من التعمق بالفكر، في حين أن التفكير المستنير هو أن يكون، إلى جانب التعمق بالفكر، التفكير بما حوله، وما يتعلّق به، من أجل غاية مقصودة، وهي الوصول إلى النتائج الصادقة.. ولذلك فإن كل فكرٍ مستنير هو تفكير عميق، وبالتالي لا يمكن أبداً أن يأتي التفكير المستنير من التفكير السطحي..

على أنه ليس كل تفكير عميق تفكيراً مستنيراً، إذ إن التفكير العميق عندما يظل في إطاره من حيث هو تفكير عميق، ولا يحاول أن يربط الموضوع الذي يبحث فيه بكل ما يتعلق به، فإنه يحافظ على كيانه كتفكير عميق، ولا يكون تفكيراً مستنيراً.

فعالم الذرة حين يبحث عن شطر الذرة، وعالم الكيمياء حين

يبحث عن تركيب الأشياء، فإنهما وأمثالهما حين يبحثون الأشياء والأمور، يبحثونها بعمق، وعن طريق هذا التفكير العميق استطاعوا الوصول إلى النتائج الباهرة، التي وصلوا إليها.. ولكِنْ لو أن عالم الذرة لم يكتفِ بالبحث في شطر الذرة أو تفتيتها، بل أخذه العجب حين البحث، وقادَهُ فكره إلى معرفة علاقة هذه الذرة بالكون، وبتكوين الأشياء، وما ينتج عن تلك العلاقة وهذا التكوين، وما يترتب عليهما من مفاعيل.. هنا في هذا الوضع، أصبح عالم الذرة صاحب تفكير مستنير، ولم يعد فقط صاحب تفكير عميق.. ومن هنا فإنه ليس كل تفكير عميق تفكيراً مستنيراً.. كما أن التفكير العميق لا يكفي وحده لإنهاض الإنسان ورفع مستواه الفكري، بل لا بدَّ حتى يحصل ذلك من الاستنارة في الفكر، وهي التي توجد الارتفاع الفكري الذي يؤدي بدوره إلى النهوض.

والاستنارة، وإن كانت ليست ضرورية في الوصول إلى نتائج صحيحة في الفكر، كالعلم التجريبي، والقانون، والطب، ونحو ذلك، إلا أنها ضرورية لرفع مستوى الفكر لدى المفكرين. ولذلك فإنه لا يكفي لنهوض الأمة وجود العلماء في العلم التجريبي، ولا وجود الفقهاء والقانونيين، ولا وجود الأطباء والمهندسين... بل لا بد، في الأساس، من أن تكون لدى الأمّة استنارة في التفكير، أي أن يكون لديها المفكرون المستنيرون.

وبناء على ذلك، نستطيع القول بشكل جازم ويقينيّ: إن الطريق القويم المستقيم الذي يجب أن يسير عليه الإنسان، والذي يجب أن ينطلق من قاعدته، هو طريق الفكر المستنير، وهو وحده الذي يحقق النهضة الفكرية الصحيحة.

٣ - الفرق بين الفكر والتمييز الغريزي

كثيراً ما يَخْلطُ الناسُ الفِكرَ بالتّمييزِ الغريزيّ، ويَعْجزُونَ عنِ التفريق بينهُما. ومن هُنا كان الوقوعُ في أخطاء مضحكة حيناً ومُضلّلةٍ أحياناً، فمنهم مَنْ جَعَلَ للطفل منذُ ولادتِهِ عقلاً وفِكراً، ومنهم مَنْ جَعَلَ للحيوان فكراً، ولهذا كانت معرفةُ الاهتداء الغريزيّ مهمة كمعرفةِ الفكرِ، أو العقلِ، أو الإدراك.

يتمّ الاهتداءُ الغريزيّ عندَ الحَيَوانِ منْ تكرارِ إحساسه بالواقع، لأنّ لَدى الحيوان دماغاً، ولديه حواسّ كما هي الحال في الإنسان. ولكنّ دماغَ الحيوان عاجزٌ عنِ الرّبط، لأنَّ كلّ ما فيه مَرْكزٌ للإحساسِ فَقَطْ، فليس لديه معلوماتٌ سابقةٌ يربطها بالواقعِ، أو بالإحساس، بل كلّ ما لديه انطباعاتٌ عنِ الواقعِ، ويستعيدُ هذه الانطباعات حينَ الإحساس بالواقع. وهذه الاستعادةُ ليست ربطاً وإنما هي تحرّكٌ لمركز الإحساس، وهي ناشئةٌ عن الإحساسِ بالواقعِ الأول أو بواقعٍ جديدٍ يتصل بالواقع الأول، فيحصلُ عندئذٍ للإحساس تمييزٌ غريزيّ، وهو الذي يُعيّنُ سلوكَ الحيوان، وتحَرُّكَهُ نحوَ إشباعِ الغريزة أو الحاجة العضويّةِ.

ويكونُ هذا السلوكُ فقطْ للإشباعِ، أو عدمِ الإشباع. فإذا قُدِّمَ لهرٍّ - مثلاً - لحْمٌ وعنَبٌ، عَرَفَ بغريزته أيّهما يُؤكَلُ وأيهما لا يُؤكَلُ، فيقبل على ما يُؤكَل ويُعْرِضُ عمّا لا يؤكَلُ. والأمرُ كذلِكَ إذا قُدّمَ لحصانٍ شعيرٌ وتُرابٌ.. تركَّز عنده الإحساس بأنّ الشعيرَ يُشْبعُ حاجَتَهُ، والتّرابَ لا يُشبعُها، وعندئذٍ يَترُكُ التّرابَ لمجرّدِ الإحساس به، ويأكل الشّعير لمجرّدِ الإحساسِ به إذا كانَ جائعاً، وهكذا بالنسبة لكلّ حيوانٍ. والطفلُ حينَ الولادةِ كالحيوان، فإنّ دماغَهُ وإنْ كانَ فيهِ قابليّة

الرّبطِ، إلا أنه ليسَ لديهِ معلوماتٌ يربطها بالإحساس بالواقعِ الجديد حتى يميّزَهُ. ومن هنا لا يكونُ عنده فِكْرٌ، بَلْ فقط تمييز أو اهْتداءٌ غريزيّ للشيء من حيثُ كَونه يُشْبع أوْ لا يُشبع، وليستْ عندَهُ أيضاً معرفَةٌ عن حقيقة الشيء، فهوَ لا يعرفُ ما هو الشيء الذي يُشبع، ولا ما هو الشيء الذي لا يُشْبع. وهكذا إذا عُرِضَتْ على الطفلِ تمرةٌ وفحمةٌ فلا يستطيع التمييز بينهما، ولا يستطيع معرفة أيهما فيها الإشباع وأيهما فيها الضرر.

ولكن إذا كانت لديهِ المعلوماتُ السابقة فإنه يبادر إلى استعمالها طبيعيّاً، لأنّ الرّبطَ جُزْءٌ مِنْ تكوينِ دماغِهِ. وبناءً على ذلكَ فإنّ التمييزَ أوِ الاهتداءَ الغريزيّ لا يتعدّى الإحساس بالواقعِ الذي يؤدّي إلى كونِ الشّيء يُشبعُ أوْ لا يُشْبعُ.. بخلاف الفِكرِ.. فالفكرُ هو الحكمُ على الشيء، والعملية التي يَتِم بها هي حتماً العملية الفكرية، وهذه العملية تحصل بإحدى طريقتين:

- الطريقة العقلية وهي تحتاج إلى ملاحظة واستنتاج.

- الطريقة العلمية وهي تحتاج إلى ملاحظة وتجربة واستنتاج. وسوف يأتي البحث في هاتين الطريقتين.

٤ ـ العملية الفكرية

لا بد من أجل تمام العملية الفكرية من وجود الواقع والإحساس به، وتوفر المعلومات السابقة. كما لا بد من تمييز الواقع عن غيره. وأما ما قيل: من أنَّ الإنسان الأول قد اصطدم بالأشياء فانعكست عليه فصار بالحسِّ يعرف أن هذه الثمرة تؤْكلُ وهذه لا تؤكل، وصار يعرفُ

أن هذا الحيوان يؤْذيه فيتجنبه وهذا لا يؤذيه فيستخدمه، وصار يعرفُ من الحسِّ والتجربة أن الخشب يطفو على الماء فأخذ يستعمله لقطع البحارِ والأنهارِ. . إلى غير ذلك، فغير صحيح، لأن الإنسان منذ خلقه الله تعالى كان مفكراً، وقد علم الله آدم الأسماء كلها، واكتسبت ذريته ذلك بالتعلم والبحث والتفكر.

نعم، ربما يقال: إنه قد يحصلُ أن يعطى شخص آلة معقدة، وليست لديه معلوماتٌ سابقةٌ عنها، ثم يُطْلَب منه حلُّها وتركيبُها، فيأخذها هذا الشخصُ ويحاول إجراء تجارب متعددة عليها فيصل من هذه التجارب إلى حلّها ثم إلى تركيبها. وبذلك فإنه يكون قد وصل إلى فكر دون حاجة إلى معلومات سابقة. والجوابُ على ذلك هو أن هذا الشخص لديه معلوماتٌ متعددةٌ، فأخذ بتجاربه العديدة يربط المعلومات التي لديه بالواقعِ الذي بين يديهِ، وبالمعلومات مع بعضها بعضاً، حتى توصل إلى معلوماتٍ يفسر بواسطتها حلّ الآلة وتركيبها، أي أنه بهذه المعلومات التي استنتجها أمكنه التوصل إلى الفكر. ولكن هذا الشخص لا يصلح أن يكون مثالاً لأنّ لديه معلوماتٌ، وإنما المثال الذي يؤتى به هو الطفلُ الذي لا توجد لديهِ معلوماتٌ إطلاقاً، أو الرجل الذي ليس لديه معلومات أوليّة يمكن أن يستعين بها على استنتاج معلومات يفسر بها الواقعَ، كأن تأتي بأعرابيٍّ وتدخله مختبراً وتتركه يجرِّب، أو أن تأتي بعالم من علماء الاقتصاد وتضعه في مختبر الذرَّة وتطلب منه الوصول إلى سر القنبلة الذرية. . فمثل هؤلاء، وبدون معلومات لديهم، لا يمكنهم التوصل إلى الفكر. فالمثال هنا أسلم وأدق من ذلك الشخص الذي لديه معلوماتٌ أوّليّة عن جهاز الراديو وكان بإمكانه أن يستعمل هذه المعلومات حتى نشأ عنها الفكر بتصليح الراديو.

والحاصل أن الحواسَّ تنقُلُ صورةً عن الواقع المادي إلى الدّماغ، وهذِهِ الصّورة تَتْبع الحاسَّة التي نَقَلَتِ الواقعَ، فإن كانتْ بَصراً نَقَلَتْ صورَةَ الجسْمِ، وإنْ كانَتْ سَمْعاً نَقَلَتْ صُورَةَ صوتِهِ، وإنْ كانَتْ شَمّاً نَقَلَتْ صورَةَ رائِحَته، وهكذا فإنّ الواقع يرتسم، كما نقل، في الدماغِ، أي حَسَبَ الصّورَةِ التي نُقِلَتْ، وبذلِكَ يَتِمّ الإحساسُ بالواقع فَقَطْ، ولا يَنْشَأ عنْ ذلكَ تفكيرٌ بل تَمَيّزٌ غَريزي فَقَطْ مِنْ حَيْثُ كوْنه يُشْبعُ أوْ لا يُشْبعُ، يُؤلِمُ أوْ لا يُؤلمُ، يُفرِحُ أوْ لا يُفْرِحُ، يَلَذّ أوْ لا يَلَذّ. ولا يَحْصُل أكثرُ منْ ذلكَ. فإن كانتْ هُنالِكَ معلوماتٌ سابقَةٌ ورَبَطَتْها قُوَّةُ الرّبطِ الدماغيّةُ بالواقعِ المحسوس الذي ارْتَسَمَ في الدماغِ، فعندئذٍ تتمّ العمليّةُ الفكريَّةُ، وينتجُ إدْرَاكُ الشّيء، ومعرفَةُ ما هو، وإلا يَبْقَى الأمر عِنْدَ حَدّ الإحساسِ أو عندَ حد التّمييز الغريزيّ فقطْ. وأمّا ما يتم من محاولات التّفكير مع عَدمِ توفّرِ الواقع المحسوسِ، ومع عدمِ توفّرِ المعلومات السّابقة، فلا يتعدّى تَخَيّلاتٍ فارغةً تُسيطر على صاحبها بسبب بُعْدِه عن الواقعِ المحسوسِ، ممّا يؤدي إلى الوقوع في الأوهام والضلالِ، وربما أدّى إلى إجهادِ الدماغ، فيُصابُ بأمراض الخَلَلِ والصرعِ وما شاكل ذلكَ.

هذا هو تعريفُ الفِكر، وهذه العمليّةُ تحصُلُ للمفكّرِ الذي يُنتجُ الفكرَ لا لمَنْ يُنْقَلُ إليه الفكرُ. أما مَن يُنْقَلُ إليه الفكرُ فلا تحصل لَهُ هذه العمليّةُ، لأنّ الفِكْرَ نَتَجَ وانتهى، فيعطيه مُنتجُهُ للنّاسِ، وينقلُهُ الناسُ لبعضِهِم، ثم يُعبّرونَ عنهُ باصطلاحات اللّغة. والفكرُ المنقولُ للآخرينَ يُنظرُ فيهِ، فإن صارَ له واقعٌ، وتَصَوَّرَهُ من نُقل له كما نقل تماماً، حتى صار كأنهُ أحسّهُ هو، وسلّمَ به، فَهُوَ في هذه الحالة، قدْ أدْرَكَهُ وأصبحَ هذا الفِكْرُ مفهوماً من مفاهيمه، كما لو نتجَ هذا الفكرُ عنه بالذّات. ولكن إذا لم يكن لهذا الفكر واقع عند الشخص الذي

نُقِلَ إليه، بل فهِمَ اللفظ، وفَهِمَ الفِكر وما يريده هذا الفكر إلَّا أنه مع ذلك لَمْ يتكوّنْ لهُ واقعٌ في ذهنِه، لا حِسّاً، ولا تصديقاً ولا تسليماً، كان ما نقل إليه مجرد معلوماتٍ فقط أو مجرّد معارف عن أشياء. ولذلك فإن المعلومات لا تؤثر في الأشخاص وإنما المفاهيمُ هي التي تؤثِر، لأنها أفكارٌ لها واقعٌ في ذهنِ مَن أدركها. ولهذا السببِ لم يكن بُدّ مِنْ أن يعرف المفكر واقع ما يفكر به، وما هو تأثيره، وكيف يؤثر، حتى يمكنه أن ينقل فكره إلى غيره، وإلَّا فإنه لا يكون قد نقل فكره للناس، بل يكون قد نقل إليهم معلومات تمكّنهم من أن يكونوا بها متعلّمين لا مفكرين.

٥ ـ الطريقة العقلية والطريقة العلمية

تُعَرّفُ الـطّريقـةُ العقليّـةُ بأنّها منهجٌ مُعيّنٌ للبحث يسلكه الإنسان للوصولِ إلى معرفةِ حقيقةِ الشّيءِ الذي يَبحثُ عنهُ. ويكون ذلك عَنْ طريقِ نقلِ إحساسه بالواقعِ (بواسطة الحواسِّ) إلى الدّماغ، شرط أن تكون لديه معلوماتٌ سابقةٌ يُفسّرُ بواسطتِها الواقعَ، لكي يمكنه أن يُصدر حكمَهُ عَلَيْهِ. وهذَا الحكمُ هُـوَ الفكرُ، أوِ الإدراكُ العقليُّ.

وتُعتمد الطريقةُ العقليةُ في بحثِ الموادِّ المحسوسةِ كالكيمياءِ والفيزياءِ، وفي بحثِ الأفكارِ كبحثِ العقائدِ والتّشريعِ، وفي فهمِ الكلامِ كبحثِ الأدبِ والفقهِ. وهذهِ الطّريقةُ هيَ الطريقةُ الطبيعيّـةُ للوصولِ إلى الإدراكِ العقليِّ. وعمليّتُها هيَ التي يَتَكَوّنُ بها عقلُ الأشياءِ أيْ إدراكُها، وهيَ نفسُها تعريفٌ للعقلِ، وعلى منهجها يصلُ الإنسانُ، بوصفه مميّزاً مدركاً، إلى إدراكِ أيِّ شَيءٍ سبقَ أن أدركَهُ أوْ يُريدُ أنْ يُدرِكَهُ.

والنّتيجةُ التي يصلُ إليها الباحثُ على الطّريقةِ العقليّةِ يُنْظَرُ فيها،

فإنْ كانتْ هذِهِ النّتيجةُ هيَ الحكم على وجودِ الشيءِ أي هو موجود فعلاً فهيَ قطعيّةٌ لا يُمكنُ أنْ يتسرّبَ الخطأُ إليها مطلقاً وَلَا بحالٍ مِنَ الأحوالِ. وذلكَ لأنَّ هذَا الحكمَ جاءَ عَنْ طريقِ الإحساسِ بالواقعِ، والحسُّ لا يمكنُ أنْ يُخطىءَ بوجودِ الواقعِ لأنَّ إحساسَ الحواسِّ بوجودِ الواقعِ قطعيٌّ، فالحكمُ الذي يُصدِرُهُ العقلُ عَنْ وجودِ الواقعِ بهذِهِ الطّريقةِ قطعيٌّ. أمّا إنْ كـانتْ النّتيجةُ هيَ الحكم على حقيقةِ الشّيءِ أوْ صفتِهِ فإنّها تكونُ نتيجةً ظنّيّةً فيها قابليّةُ الخطأِ لأنَّ هذا الحكمَ جاءَ عَنْ طريق المعلوماتِ، أوْ تحليلاتِ الواقعِ المحسوسِ مَعَ المعلوماتِ، وهذِهِ يُمكنُ أنْ يتسرّبَ إلَيْهَا الخطأُ، ولكنْ تبقَى فكراً صائباً حتّى يتبيّنَ خطأها، وحينئذٍ فَقَطْ، يُحْكَمُ عَلَيْهَا بِالخطأ. ولهذا فإنَّ الأفكارَ التي يَتوصّلُ إليها العقلُ بطريقةِ التّفكيرِ العقليّةِ إنْ كانَتْ ممّا يتعلّقُ بوجودِ الشّيءِ، كالعقائدِ، ومنها الاعتقاد بحقيقة وجود اللَّهِ تعالى، وأن القرآن الكريم مِنْ عندِ اللَّهِ، وأنّ محمداً رسولُ اللَّهِ الخ... فإنّها أفكارٌ قطعيّةٌ. مثل الحكم على الأشياء كالطاولة أو السوار الذهبي أو السيارة.. فكون هذه الأشياء موجودة فعلاً وواقعاً، وتدركها الحواس بواقعها الموجودة فيه، فالحكم عليها حكم قطعي.

أما إنْ كانت الأفكار مما يتعلق بالحكم على فهم حقيقة الشيء وصفته فإنها أفكار ظنّيّة. مثل هل هذه الطاولة مصنوعة من خشب الجوز أو السنديان أو الأرز أو أي خشب آخر؟ فهذا الحكم ظني. وإذا كان إنسان صاحب خبرة، ولديه معلومات أكثر من غيره عن أنواع الخشب كان أقرب إلى معرفة من أي خشب صُنِعت هذه الطاولة، أي كان أقرب إلى فهم حقيقة واقع الطاولة وصفاتها.

والأمر كذلك بالنسبة إلى السوار الذهبي، هل إنَّ الذهب

المصوغ منه هو من عيار ٢٤ أو ١٨ أو ١٤ قيراطاً أو أقل من ذلك، فإن إجراء الفحص عليه من صاحب خبرة، أي ممن لديه معلومات أوفر من غيره عن الذهب، هو الذي يقرب من حقيقة واقعه وصفاته.

وكذلك الحال بالنسبة للسيارة، هل إن صنعها تمَّ من الفولاذ أم الحديد، وما هي مقدار التقنية الموجودة فيها، وما هي خصائصها التي تميزها عن السيارات الأخرى.. فإنَّ إجراء فحص عليها من أهل الخبرة، ومعرفة كل ما يعود إلى موادها وصناعتها، فهذا ما يقرب من فهم حقيقة السيارة وصفاتها.

إذن هناك حكمان على هذه السيارة:

الأول: الحكم الذي يتعلق بوجود السيارة، أي أنها موجودة فعلاً، فهذا الحكم على وجودها قطعي.

والثاني: الحكم على حقيقة ماهيتها وصفاتها، وهذا الحكم ظني..

وهكذا بالنسبة لجميع الأشياء..

وكذلك القرآن الكريم، فمعرفة أنه منزَّل من عند الله تعالى فهذا أمر قطعي يقيني لأن واقعه ووجوده بين أيدي الناس يشهد على ذلك. أما من حيث فهم حقيقة معانيه، من قبل المسلمين خاصة والناس عامة، فهذا حكم ظنِّي. فمن كان أكثر خبرة باللغة العربية، وبالسنّة النبوية الشريفة، وأحسن تعبداً لله العظيم، كان أقرب إلى فهم حقيقة معاني كتاب الله تعالى..

أمّا **الطريقة العلميّة** فتعرَّف بأنها منهجٌ معيّنٌ في البحثِ، يَسْلكه الإنسان للوصولِ إلى معرفةِ حقيقةِ الشّيءِ الذي يبحثُ عنهُ، وذلك عَنْ

طريقِ إجراءِ تجاربَ على هذا الشّيءِ. ولا تُعتمد هذه الطريقة إلا في بحثِ الموادِّ المحسوسةِ دون بحثِ الأفكارِ، ولا تكونُ إلَّا بإخضاعِ المادّةِ لظروفٍ وعواملَ غيرِ ظروفِها وعوامِلِها الأصليّةِ، وملاحظةِ المادّةِ والظّروفِ والعواملِ الأصليّةِ التي أُخضِعَتْ لَها، ثُمَّ يُسْتَنتَجُ مِنْ هذهِ العمليّـةِ على المادّةِ حقيقـةٌ ماديّـةٌ ملموسَـةٌ، كَمَا هيَ الحـالُ في المختبراتِ.

وتَفْرِضُ هذهِ الطّريقةُ التّخلّيَ عَنْ جميعِ الآراءِ السّابقـةِ عَنِ الشّيءِ الذي يُبحثُ، ثُمَّ يُبدَأُ بملاحظةِ المادّةِ وتجربتِها، لأنّها تقتضي، أنْ يمحوَ الباحثُ مِنْ رأسِهِ كلَّ رأيٍ، وكلَّ إيمان سابقٍ في هذا البحثِ، وأن يبدأ بالملاحظةِ والتّجربةِ، ثُمَّ بالموازنةِ والترتيبِ، ثُم بالاستنباطِ القائمِ على هذهِ المقدّماتِ العلميّةِ، فإذا وصل إلى نتيجةٍ مِنْ ذلـكَ كانَتْ نتيجـةً علميّةً أيْ حقيقـةً علميّةً خـاضعـةً للبحثِ والتمحيصِ، ولكنّها تظلُّ حقيقةً علميّةً، ما لَمْ يُثبتِ البحثُ العلميُّ تسرّبَ الخطأِ إلى ناحيةٍ من نواحيها.

وبناءً على هذا التعريفِ للطّريقةِ العلميّةِ، والطّريقةِ العقليّةِ، تكونُ الطّريقةُ العقليّةُ هيَ الطريقةَ الوحيدَة التي يجري عليها الإنسانُ مِنْ حيثُ هُوَ إنسانٌ في تفكيرِهِ وحكمِهِ على الأشياءِ وإدراكِهِ لحقيقتِها وصفاتِها.

ولكـنَّ الغربَ قَدْ أوجدَ في أوروبّا الانقـلابَ الصناعيَّ ونجـحَ في العلومِ التجريبيّةِ نجاحاً منقطعَ النّظيرِ، وامتدّ سلطانُهُ منذُ القرنِ التاسعَ عَشَرَ حتّى الآنَ، حتّى شملَ جميعَ العالَمِ، فسمّى أسلوبَ البحثِ في العلومِ التجريبيّةِ طريقةً علميّةً في التّفكيرِ، وصارَ ينادِي بها أنْ تكونَ طريقةَ التّفكيرِ الوحيدة، وأَنْ تُجعَلَ أساساً للتّفكيرِ. وقَدْ أخذَها علماءُ الشّيوعيّةِ، وسارُوا عليها في غيرِ العلومِ التجريبيّةِ، كما

سارُوا عليها في العلومِ التجريبيّةِ. وكذلكَ ظلَّ علماءُ أوروبّا يسيرونَ عليها في العلومِ التجريبيّة، كما سارَ على نهجِهِمْ علماءُ أمريكا، وقلّدهُم فيها سائرُ الناس في العـالَمِ من جرّاءِ سيـطرةٍ ونفوذِ الغـربِ ثُمَّ نفوذِ الاتحادِ السّوفياتيّ، فطغَتْ على النّاس بشكلٍ عامٍّ هذِهِ الطريقةُ، وكانَ من جـرّاءِ ذلكَ أنْ وُجِـدتْ في المجتمعات، على نـطاق العالمِ الإسلاميّ كلِّه، قداسةٌ للأفكارِ العلميّة وللطّريقةِ العلميّةِ. وتسميتُها طريقةً ليست خطأً لأنّها منهجٌ معيّنٌ دائمٌ في البحثِ، والطّريقةُ هيَ الكيفيّةُ التي لا تتغيّرُ. ولكنَّ الخطأَ هُوَ جعلُها أساساً للتّفكيرِ. لأنّ جَعْلَهَا أساساً غير جائز، إذ هيَ ليستْ أصلاً يُبنى عليها، وإنما هيَ فرعٌ بُنِيَ على أصلٍ. ولأنَّ جَعْلَهـا أساسـاً يُخرجُ أكثـرَ المعارِفِ والحقائِقِ عنِ البحثِ، ويؤدي إلى الحُكمِ بعدمِ وجـودِ كثيرٍ منَ المعارفِ التي تُدرسُ والتي تتضمّنُ حقائقَ، مَعَ أنّها موجودةٌ بالفعلِ وملموسةٌ بالحسِّ والواقعِ.

فالطّريقةُ العلميّةُ طريقةٌ صحيحـةٌ. ولكنّها ليسَتْ أسـاساً في التّفكيرِ، بَلْ هِيَ أسلوبٌ دائمٌ مِنْ أساليبِ التّفكيرِ، وَهِيَ لا تُطبّقُ على كلِّ أمرٍ وإنّما تُطبّقُ في أمرٍ واحدٍ هُوَ المادّةُ المحسوسةُ لمعرفةِ حقيقتِها عَنْ طريقِ إجراءِ تجاربَ عَلَيْها، ولا تكونُ هذه الطريقة إلاَّ في بحثِ الموادِّ المحسوسةِ، فَهِيَ خاصّةٌ بالعلومِ التجريبيّةِ ولا يجوزُ أنْ تُستعمَلَ في غيرِها.

أمّا كونُها ليسَتْ أساساً فظاهرٌ مِنْ وجهَيْنِ: الأوّلُ أنّهُ لا يمكنُ السيْرُ بها إلاَّ بوجودِ معلوماتٍ سابقةٍ، ولَوْ كانت أوليّة، لأنّهُ لا يمكنُ التّفكيرُ إلاَّ بوجودِ معلوماتٍ سابقةٍ، فعالِمُ الكيمياءِ وعالِمُ الفيزيـاءِ والعالِمُ في المختبرِ، لا يستطيع أي منهم أنْ يسيرَ في الطّريقةِ العلميّةِ لحظةً واحدةً إلاَّ أنْ تكونَ لَدَيْهِ معلوماتٌ سابقةٌ. وأمّا قولُهُمْ إنَّ الطّريقةَ

العلميّةَ تفرضُ التّخلّيَ عَنِ المعلوماتِ السّابقةِ فإنّما يريدُونَ بهِ التّخلّيَ عَنِ الآراءِ السّابقةِ لا عَنِ المعلوماتِ السّابقةِ، أيْ أنَّ الطّريقةَ العلميّةَ تقتضي الباحث إذا أرادَ البحثَ أنْ يمحوَ مِنْ نفسِهِ كلَّ رأيٍ وكلَّ إيمانٍ سابقٍ لَهُ في البحثِ، وأنْ يبدأَ بالملاحظةِ والتّجربةِ ثُمَّ بالموازنةِ والتّرتيبِ ثُمّ بالاستنباطِ القائمِ على هذهِ المقدّماتِ العلميّةِ. فهيَ وَإنْ كانَتْ عبارةً عَنْ ملاحظةٍ وتجربةٍ واستنباطٍ، ولكنْ لا بدَّ فيها مِنْ وجودِ معلوماتٍ. وهذه المعلوماتُ تكونُ قَدْ جاءَتْ عَنْ غيرِ الملاحظةِ والتجربةِ، أيْ عَنْ طريقِ نقلِ الواقعِ بواسطةِ الحواسِّ. ذلك أنَّ المعلوماتِ الأوليَّةَ، لأوّلِ بحثٍ علميٍّ، لا يمكنُ أنْ تكونَ معلوماتٍ تجريبيةً لأنَّ التجربة لَمْ تحصلْ بَعْدُ، فَلا بُدَّ أنْ تكونَ عَنْ طريقِ نقلِ الواقعِ بواسطةِ الحسِّ إلى الدّماغِ، أيْ لا بدَّ أنْ تكونَ المعلوماتُ قَدْ جاءَتْ مِنْ طريقِ الطّريقةِ العقليّةِ، ولذلكَ لا تكونُ الطّريقةُ العلميّةُ أساساً، بَل تكونُ الطريقة العقليّةُ هيَ الأساسَ، وتكون الطّريقةُ العلميّةُ مبنيّةً على هذا الأساسِ، أي تكونُ فرعاً من فروعهِ لا أصلاً لَهُ. ولهذا فإن منَ الخطإِ جعلَ الطّريقةِ العلميّةِ أساساً للتّفكيرِ.

الوجهُ الثّاني أنَّ الطّريقةَ العلميّةَ تقضِي بأنَّ كلَّ ما لا يُلْمَسُ ماديّاً لا وجودَ لَهُ في نظرِها. وَإذنْ فلا وجودَ للمنطقِ، ولا للتّاريخِ، ولا للفقهِ، ولا للسّياسةِ، ولا لغيرِ ذلكَ من المعارفِ، لأنّها لا تُلمسُ باليدِ، ولا تخضعُ للتّجربةِ، ولا وجودَ لغيرِ ذلكَ من الموجوداتِ، لأنَّ ذلكَ لم يثبتْ علميّاً. أيْ لَمْ يثبتْ عَنْ طريقِ ملاحظةِ المادّةِ وتجربتها والاستنتاجِ الماديّ للأشياءِ، وهذا هُوَ الخطأُ الفاحشُ، لأنَّ العلومَ الطبيعيّةَ فرعٌ من فروعِ المعرفةِ، وفكرٌ منَ الأفكارِ، وباقي معارفِ الحياة كثيرةٌ، وهيَ لَمْ تثبتْ بالطّريقة العلميّةِ، بَلْ تثبتُ بالطّريقةِ العقليّةِ.

وفضلاً عَنْ ذلكَ فإنَّ قابليّةَ الخطأِ في الطّريقةِ العلميّةِ أساسٌ

مِنَ الأُسُسِ التي يجبُ أنْ تُلاحَظَ فِيهِا حَسَبَ ما هُوَ مقرَّرٌ في البحثِ العلميّ. وَقَدْ حصلَ الخطأُ في نتائجِها بالفعلِ، وظهرَ ذلكَ في كثيرٍ من المعارفِ العلميّةِ التي تَبَيّنَ فسادُها بعدَ أنْ كانَتْ تُعتبر حقائق علميّة. فمثلاً الذرّةُ، كانَ يقالُ عنها إنّها أصغرُ جزءٍ من المادّةِ، ولا تنقسمُ، فظهرَ خطأُ ذلكَ وتبيّنَ بالطّريقةِ العلميّةِ نفسِها أنّها تنقسمُ. وكذلكَ كانَ يقالُ إنَّ المادَّةَ لا تفنَى، فظهرَ خطأُ ذلك وتبيّنَ بالطريقةِ العلميّةِ نفسِها أنّها تفنَى. وهكذا فكثيرٌ ممّا كانَ يسمّى بالحقائقِ العلميّةِ أو القوانين العلمية، قَدْ ظهرَ بالطّريقةِ العلميّةِ خطأُه، وتبيّنَ بالطّريقةِ العلميّةِ نفسِها أنّها ليسَتْ حقائقَ علميّةً ولا قوانين علميّة.

يقولُ رسل: «إنَّ العلمَ يقرّرُ أحكاماً على سبيلِ التّقريبِ لا على سبيلِ اليقينِ». والعلمُ في تعريفِ أساطينِ العلماءِ «هو مجموعةُ فروضٍ، تحولّتْ بالتّجربةِ إلى قوانينَ قابلةٍ للتغيّرِ الدائمِ، فليسَ في العلمِ شيءٌ ثابتٌ بشكلٍ جازمٍ يقينيٍّ». ولذلكَ فإنَّ الطّريقةَ العلميّةَ طريقةٌ ظنيّةٌ وليستْ قطعيّةً، وَهِيَ تُوجِدُ نتيجةً ظنيّةً عَنْ وجودِ الشّيءِ، وعَنْ صفتِهِ، وعَنْ حقيقتِهِ، ولذلكَ لا يجوزُ أنْ تُتّخذَ الطريقةُ العلميّةُ أساساً في التّفكيرِ.

إنَّ الطّريقَةَ العلميّةَ، وإنْ كانَ يمكنُ أنْ يُستنبَطَ بها أفكارٌ إلاّ أنها لا يَنْشَأُ بها وحدَها فكرٌ. فهيَ لا تستطيعُ أنْ تُنْشِىءَ إنشاء جديداً أيَّ فكرٍ، كما هي الحالُ في الطّريقةِ العقليّةِ، وإنّما هي تَستنبِطُ استنباطاً أفكاراً جديدةً، ولكنّها تظلّ أفكاراً مُستنبطةً، وليست أفكاراً منشأةً إنشاء جديداً.

إنَّ الأفكارَ المُنشأَةَ إنشاءً جديداً هيَ الأفكارُ التي أخذها العقلُ رأساً، كَمَعْرفةِ حقيقة وجودِ اللّهِ مثلاً، ومعرفةِ أنَّ التّفكيرَ بالقومِ أعلى

مِنَ التفكيرِ الشّخصيِّ بالذات، وَأنَّ الخشبَ يحترقُ، وأنَّ الزّيتَ يطفُو على وجهِ الماءِ، وأنَّ تفكيرَ الفردِ أقوَى مِنْ تفكيرِ الجماعةِ. . كلُّ تلك أفكارٌ أخذَها العقلُ مباشرةً. وهذا بخلاف الأفكار غيرِ المُنشأةِ إنشاء جديداً، وَهيَ الأفكارُ المُستنتَجَةُ على الطريقةِ العلميّةِ فإنّها لَمْ يَأخُذْها العقلُ رأساً، وإنّما كان قد أخذها مِنْ عدّة أفكارٍ سابقة بعد إجراء التجارب. كمعرفة أنَّ الماءَ مكوّنٌ مِنْ أوكسجين وإيدروجين، ومعرفةِ أنَّ الذّرةَ تنقسمُ، ومعرفة أنّ المادةَ تفنَى، هذهِ الأفكارُ لَمْ يأخذْها العقلُ رأساً ولَمْ تُنشأ إنشاء جديداً، وإنّما أُخِذَتْ مِنْ أفكارٍ سبقَ للعقل أنْ أخذها، ثُمّ أُجريَتِ التّجاربُ إلى جانبِ هذِه الأفكارِ، ثم جَرى استنتاجُ الفكرِ. ولا يعدّ ذلك إِنشاءً جديداً بلْ هُوَ مُسْتَنْتَجٌ مِنْ أفكارٍ موجودةٍ وتجربةٍ. فالطّريقةُ العلميّةُ، إذن، تَستنبطُ فكراً. ولكنّها لا تستطيعُ إنشاءَ فكرٍ. ولذلكَ كانَ مِنَ الطّبيعيِّ، ومِنَ المحتّمِ، أنْ لا تكونَ أساساً للتّفكيرِ. إلاَّ أنَّ أوروبّا وأمريكا، وروسيّا، قدْ بلغتْ عندهُمُ الثّقةُ بالطريقةِ العلميّة إلى حدِّ التّقديسِ أوْ ما يقرُبُ مِنَ التّقديس لا سيّما في القرنِ التّاسعَ عَشَرَ وأوائِلِ القرنِ العشرينَ، إلى حدٍّ أنّهم أصبحوا منحرفي التّفكيرِ ضالّينَ عَنِ الصّراطِ المستقيمِ بِجعلِهِم الطريقة العلمية طريقَةَ التفكيرِ، وجعلِها وَحْدَها أساسَ التّفكيرِ، والحكمِ بها وَحْدَها على جميعِ الأشياءِ.

فَلَوْ سلكَ علماءُ الغربِ الطّريقةَ العقليّةَ لِنَقْلِ الإحساسِ بالإنسانِ وأفعالِهِ، وفسّرُوا هذا الواقعَ أوْ هذَا الإحساس بالواقعِ بالمعلوماتِ السابقةِ لاهتَدَوْا إلى حقيقةِ هذا الواقعِ. ولكنَّ سلوكَهُمُ الطّريقةَ العلميّةَ، واعتبارَهُمْ أنَّ الإنسانَ كالمادّةِ، وظنّهُمْ أنَّ ملاحظةَ أفعالِ الإنسانِ هيَ كملاحظةِ المادّةِ، ضلّلَهُمْ ذلكَ عَنِ الحقيقةِ حتى خرجُوا بهذِهِ النّتائجِ الخاطئةِ في الغرائزِ، وفي غيرِها مِنْ أبحاثِ علمِ النّفسِ.

وَقُلْ مِثْلَ ذلكَ فيما يُسَمّى بعلمِ الاجتماعِ وعلومِ التربيةِ، فإنّها كلّها لَيْسَتْ مِنَ العلومِ، وهِيَ في جملَتِهَا خطأٌ في خطأٍ. فهذِهِ الأخطاءُ التي حَصَلتْ في أوروبّا وأمريكا وروسيّا، أيْ لَدَى عُلماءِ النّفسِ وعُلماءِ الاجتماعِ وعلماءِ التّربيةِ، هِي نتيجةُ اتّباعِهِمُ الطّريقةَ العلميّةَ في بحثِ كلِّ شيءٍ، ومغالاتِهِمْ في تقديرِ الطّريقةِ العلميّةِ وتطبيقِهَا على جميعِ الأبحاثِ. وهذا هُوَ الذي أوقعَهُمْ في الخطأِ والضّلالِ، وهُوَ يُوقِعُ فيهما كلَّ إنسانٍ يُطَبِّقُ الطّريقةَ العلميّةَ على كلِّ بحثٍ.

وعلى ذلكَ فإنَّ الطّريقةَ العقليّةَ وحدَها هيَ التي يجبُ أنْ يسيرَ عَلَيْها النّاسُ. وَإنَّ الأسلوبَ المُباشرَ هُوَ الأسلمُ للسيّرِ عَلَيْهِ. وذلكَ حتّى يكونَ التّفكيرُ صحيحاً، وتكونَ نتيجةُ التّفكيرِ أقربَ إلى الصّوابِ فيما هُوَ ظنيٌّ، وقاطعةً بشكلٍ جازمٍ فيما هُوَ قطعيٌّ. لأنَّ المسألةَ كلّها متعلّقةٌ بالتّفكيرِ، وَهُوَ أثمنُ ما لَدَى الإنسانِ، وأثمنُ شيءٍ في الحياةِ.

٦ ـ التفكير

التّفكيرُ ـ سواءٌ في فهمِ الحقائقِ، أوْ في فهمِ الحوادثِ، أوْ في فهمِ النّصوصِ ـ عرضةٌ للانزلاق والابتعاد نظراً للتّجدّدِ الدّائمِ، وللتّنوّعِ المتعدّدِ. ولذلكَ فإنّهُ لا يكفي أنْ يُبحثَ في طريقةِ التّفكيرِ، بَلْ لا بدَّ أن يُبحثَ التّفكيرُ نفسُهُ بشكلٍ مفتوحٍ، في مختلفِ الأحوالِ والحوادثِ والأشياءِ: يُبحثُ التّفكيرُ فيما يصحُّ أنْ يجريَ التّفكيرُ فيهِ وفيما لا يصحُّ أنْ يجريَ فيه، ويُبحثُ التّفكيرُ في الكونِ والإنسانِ والحياةِ، ويُبحثُ التّفكيرُ في العيشِ، ويُبحثُ التّفكيرُ في الحقائقِ، ويُبحثُ التّفكيرُ في الأساليبِ والوسائلِ.. إلى غيرِ ذلكَ مما يتّصلُ بالتّفكيرِ. وإلى جانبِ ذلكَ لا بدَّ أن يُبحثَ التّفكيرُ في فَهْمِ النّصوصِ، أي في فهمِ الكلامِ الذي يُسمعُ، والكلامِ الذي يُقْرأُ.

أمّا البحثُ فيما يصحُّ أنْ يجريَ التّفكيرُ فيه، وما لا يصحُّ أن يجريَ فيهِ، فإنّهُ على بداهتِهِ عقدةُ العُقَدِ، ومُنزلَقُ الكثيرِ مِنَ النّاسِ حتّى المفكّرينَ. ذلك أنّ تعريفَ العقلِ، أوْ معرفةَ معنَى العقلِ معرفةً جازمةً، تقضِي بداهةً بأنَّ التّفكيرَ إنّما يجري فيما هُوَ واقعٌ أوْ لَهُ واقعٌ، ولا يصحُّ أنْ يجريَ في غيرِ الواقعِ المحسوسِ لأنَّ عمليّةَ التّفكيرِ هيَ نقلُ الواقعِ بواسطةِ الحواسِّ إلى الدّماغِ، فإذا لَمْ يكنْ هناك واقعٌ محسوسٌ، فإنَّ العمليّةَ الفكريّةَ لا يمكنُ أنْ تحصلَ. إذ إنَّ انتفاءَ الحسِّ بالواقعِ ينفي وجودَ التّفكيرِ وينفي إمكانيّةَ التّفكيرِ.

وأمّا كون البحثِ فيه هو عقدة العُقَدِ فإنَّ الكثيرَ مِنَ المفكّرينَ قَدْ أجرَى بحثَهُ في غيرِ الواقعِ. ومَا الفلسفةُ اليونانيّةُ كلُّها إلَّا بحثٌ في غيرِ الواقعِ، وما أبحاثُ علماءِ التّربيةِ في تقسيمِ الدّماغِ إلَّا بحثٌ في غيرِ محسوسٍ، وما بحثُ الكثيرِ من علماءِ المسلمينَ في صفاتِ اللّهِ وفي أوصافِ الجنّةِ والنّارِ والملائكةِ إلَّا بحثٌ فيما لا يقعُ عَلَيهِ الحسُّ. ثُمَّ إنَّ النّاسَ بشكلٍ عامٍّ يغلبُ على تفكيرِهِم، في كثيرٍ من الأمورِ، التّفكيرُ في غيرِ الواقعِ، أوْ في غيرِ ما يَقَعُ عليهِ الحسُّ. ومِنْ هنا كانَ البحث ضرورياً فيما يصحُّ أنْ يجريَ فيهِ التّفكيرُ وما لا يصحُّ أنْ يجريَ فيهِ التّفكيرُ.

فمثلاً القولُ بالعقلِ الأوّلِ والعقلِ الثّاني، والقولُ بأنَّ الدّماغَ مقسّمٌ إلى أقسامٍ، وأنَّ كلَّ قسمٍ منها مختصٌّ بعلمٍ من العلومِ الخ. كل ذلك مجرّدُ تخيّلاتٍ وفروضٍ، فهيَ لَيْسَتْ واقعاً، لأنّ واقعَ الدّماغِ المحسوسَ أنّهُ غيرُ مقسّمٍ، وَلَيْسَ ممّا يقعُ عليهِ الحسّ، لأنّ الدّماغَ وَهُوَ يعملُ، أي يقومُ بالعمليّةِ العقليّةِ لا يمكن أنْ يقعَ عليهِ الحسُّ.

والقولُ بأنَّ اللَّهَ لَهُ صفةُ القدرةِ، وصفةُ كونِه قادراً، والقدرةُ لَهَا تَعَلّقٌ تخييريٌّ قديمٌ وَتَعَلّقٌ تخييريٌّ حادثٌ. وكذلكَ إقامةُ البراهينِ العقليّةِ على صفاتِ اللَّهِ. كلُّ ذلكَ وأمثالُهُ، ولَوْ وُضِعَتْ عَلَيْهِ مسحةُ البحثِ العقليِّ والبرهانِ العقليِّ، فإنّهُ ليسَ فكراً، ولا هُوَ نتيجةُ تفكيرٍ، إذْ لَمْ تجرِ فيهِ العمليّةُ العقليّةُ، لأنّهُ ليسَ ممّا يقعُ عليهِ حسّ الإنسانِ.

فالعمليّةُ العقليّةُ، أي التّفكيرُ، لا يمكنُ أنْ يكونَ إلّا بواقعٍ يقعُ عَلَيْهِ حسُّ الإنسانِ.

إلَّا أنَّ هنـاكَ أموراً أوْ أشياءَ لها واقـعٌ، وهذا الواقع لا يُمكنُ أنْ يُحسّه الإنسانُ لأنه لا يُمكنُ نقلُهُ بالحسِّ، ولكنَّ أثرَهُ يقعُ عَلَيْهِ حسُّ الإنسانِ وَيُنْقَلُ إلى الدّماغِ بواسطةِ الإحساسِ. إنَّ هذا النّوعَ مِنَ الأمورِ يُمكنُ أنْ تجريَ فيهِ العمليّةُ العقليّةُ، أيْ يُمكنُ أنْ يحصلَ فيهِ تفكيرٌ، ولكنّهُ تفكيرٌ بوجودِهِ لا بكنهِهِ، لأنَّ الذي نُقِلَ إلى الدّماغِ بواسطةِ الحسِّ هُوَ أثرُهُ، وأثرُهُ إنّما يدلُّ على وجودِهِ فَقَطْ، ولا يدلُّ على كنهِهِ. فمثلاً لَوْ أنَّ طائرةً كَانَتْ عاليةً جدّاً إلى حدٍّ أنَّ العينَ المجرّدةَ لا تراهَا، ولكنَّ صوتَها تسمعُهُ الأذنُ، فإنَّ هذهِ الطّائرةَ يُمكنُ أنْ يحسَّ الإنسانُ بصوتِها، وهذا الصّوتُ دليلٌ على وجودِ شيءٍ، أيْ على وجودِ الطّائرةِ، ولا يُمكنُ أنْ يدلَّ على كنهِ هذهِ الطائرَةِ. فالصّوت المسموعُ والآتي مِنْ فوقُ هُوَ صوتٌ لشيءٍ موجودٍ، ومِنْ تَمييزِ حسِّه يُستدَلُّ على أنّهُ صوتُ طائرةٍ. فالعمليّةُ العقليّةُ هنا جَرَتْ حول وجودِ الطّائرةِ، أيْ حصلَ التّفكيرُ بوجودِ الطّائرةِ، وصدرَ الحكمُ بوجودِها مَعَ أنَّ الحسَّ لَمْ يقـعْ عَلَيْهَـا ولكنّـهُ وقـعَ على أثـرِهـا. علمـاً بـأنّـهُ يُمكنُ الحكمُ على نوعِها كما يُمكنُ الحكمُ على أنّها طائرةٌ مِنْ تمييزِ نوعِ الصّوتِ.

ومثلُ ذلك أنَّ الإسلامَ دينُ عزّةٍ، فإنَّ هذا لا يعنِي أنَّ المسلمَ يكونُ عزيزاً، لأنَّ العزّةَ ليستْ هِيَ الدّينَ، ثُمَّ إنَّ الإنسانَ حينَ يعتنقُ ديناً لا يعنِي أنّهُ قَدْ تقيّدَ بِهِ. والدّينُ ليسَ التقيّدُ بِهِ أثراً مِنْ آثارِهِ، بَلْ هُوَ صفةٌ مِنْ صفاتِهِ، ولذلكَ لَا يجرِي فيهِ التّفكيرُ، فالّذي يجرِي فيهِ التّفكيرُ هُوَ أثرُ الشّيءِ لا صفتُهُ، لأنَّ الأثرَ يُمكنُ أنْ يُنقلَ بالحسِّ، ولكنَّ الصّفةَ لِمَا لا يُحَسُّ لا يُمْكِنُ نقلُها بواسطةِ الحواسِّ، ومِنْ هنا كانَ اتّخاذُ صفاتِ الشّيءِ وسيلةً للحكمِ على أثرِهِ أوِ للحكمِ عليهِ لا يُشَكِّلُ عمليّةً عقليّةً فَلا يجرِي التّفكيرُ فيهِ.

قَدْ يُقالُ: إنَّ حصرَ التّفكيرِ فيما يقعُ عليهِ الحسُّ، أوْ يقعُ الحسُّ على أثرِهِ، يعنِي حصرَ التّفكيرِ بالمحسوساتِ، وهذَا يعنِي أنَّ الطّريقةَ العلميّةَ هِيَ أساسُ التّفكيرِ لأنّها لا تُؤمنُ إلَّا بالمحسوساتِ، فأيْنَ ذهبَتِ الطّريقةُ العقليّةُ؟ والجوابُ على ذلكَ أنَّ الطّريقةَ العلميّةَ تشترطُ إخضاعَ المحسوساتِ للتّجربةِ والملاحظةِ ولا تكتفي بمجرّدِ الحسِّ. ولذلكَ فإنَّ كونَ التّفكيرِ لا يقعُ إلَّا في المحسوساتِ يشملُ المحسوساتِ الّتي تخضعُ للتّجربةِ والملاحظةِ ويشملُ المحسوساتِ الّتِي يُكتفى بوقوعِ الحسِّ عليها، أيْ بالإحساس بها. وهذا لا يجعلُ الطّريقةَ العلميّةَ أساساً للتّفكيرِ، وإنّما يجعلُها عمليّةَ تفكيرٍ صحيحةً لأنّها تشترطُ أنْ يكونَ الشيءُ محسوساً وتزيدُ على ذلكَ أنّها تشترطُ أيضاً إخضاعَهُ للتّجربةِ والملاحظةِ. أمّا موضوعُ الطّريقةِ العقليّةِ فإنَّ حصرَ التّفكيرِ بالمحسوسِ هُوَ ما تقتضيهِ. إنَّ الأساسَ في تعريفِ العقلِ ليسَ وجودَ معلوماتٍ سابقة، بلِ الأساسُ هُوَ الواقعُ المحسوسُ، والمعلوماتُ السّابقةُ شرطٌ لكونِ المحسوسِ قَدْ جَرى التّفكيرُ فيهِ، وإلَّا لظلَّ مجرّدَ إحساس. فالأصلُ في التّفكيرِ أنْ يكونَ في واقعٍ محسوسٍ، لا في شيءٍ قَدْ قُدِّرَ، ولا في شيءٍ جرى تخيُّلُ وجودِهِ.

وعلى هذا فإنّهُ يجبُ أنْ يكونَ واضحاً أنَّ ما يصدُرُ مِنْ أحكامٍ ، وما يُؤخذُ من معلوماتٍ، عَنْ غيرِ الواقعِ ، أوْ عَنْ واقعٍ مفروضٍ وجودُهُ أوْ متخيّلٍ وجودُهُ، لا يُعتبرُ فكراً ولا بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، أيْ لا يُعتبرُ أنَّ العقلَ قَدْ أنتجَهُ. لأنَّ العقلَ لا يعملُ بدونِ الواقعِ المحسوسِ أو المحسوسِ أثرُهُ. وبالتالي لا يجري التّفكيرُ إلاَّ في الواقعِ أوْ في أثرِ الواقعِ ، ولا يجري في غيرِ ذلكَ مطلقاً. ولهذا فإنَّ كثيراً ممّا يُسمّى بأفكارٍ، سواءٌ سُجِّلَ في الكتبِ، أوْ جَرى الحديثُ فيهِ، لا يُعتبرُ نتاجَ العقلِ ، ولمْ يجرِ التّفكيرُ فيهِ، وبالتّالي ليسَ فكراً.

وهنا قَدْ يردُ الحديثُ عن المغيّباتِ، سواءٌ أكانت مغيّباتٍ عَنِ الفكرِ أو كانت مغيباتٍ عنِ الحسِّ. فهلِ اشتغالُ الدّماغِ بالمغيّباتِ لا يكونُ تفكيراً، وبالتّالي هلْ ما قيلَ في المغيّباتِ لا يكـونُ فكراً؟ والجوابُ على ذلكَ أنَّ المغيّباتِ عن المفكرِ لا تكونُ مغيّباتٍ. بل تُعتبرُ حاضرةً، لأنّ المقصودَ بنقلِ الحسِّ، هُوَ أيُّ نقلٍ لأيِّ إنسانٍ، وليسَ نقلَ المفكرِ فَقَطْ. فبيتُ المقدس والبيتُ الحرامُ حينَ يفكِّرُ فيهما أوْ في أيٍّ منهما شخصٌ لَمْ يرَهُما وَلَمْ يُحِسَّ بهما لا يعنِي أنّهُ يفكِّرُ في غيرِ المحسوسِ ، بَلْ هُوَ يفكّرُ في المحسوسِ ، لأنّهُ ليسَ المحسوسُ هُوَ الذي يُحِسُّهُ، بَلِ المحسـوسُ هُوَ الـذي مِنْ شأنِـهِ أنْ يكونَ محسوساً. وما يغيبُ عن المفكّرِ من المحسوساتِ يُعتبرُ التّفكيرُ بها تفكيراً، واشتغالُ الدّماغِ بها يكونُ تفكيراً. ولهذَا فإنَّ التاريخَ يُعتبرُ أفكاراً، ولو جرى تسجيلُهُ أوِ الحديثُ عنهُ بعدَ آلافِ السنين. وتُعتبَرُ المعارفُ القديمةُ أفكاراً، واشتغالُ الدّماغِ بها يكونُ تفكيراً ولو جرى بعدَ آلافِ السّنين. وتُعتَبَرُ الأخبـارُ التي تتناقلُهـا البرقيّـاتُ أفكاراً، واشتغالُ الدّماغِ بها يكونُ تفكيراً ولو جاءَتْ منْ مسافاتٍ بعيدةٍ. فما يغيبُ عنِ المُفكّرِ لا يكونُ مغيّباتٍ وإنّما يكونُ مِن المحسوساتِ، لأنَّ

الحسَّ لا يُشترَطُ أنْ يكونَ لدى المفكرِ، بل قَدْ يُنقلُ إليهِ نقلاً. فَقَدْ يسمعُه وقَدْ يقرؤُه، أوْ يُقرَأُ لَهُ. فالموضوعُ أنَّ المعرفةَ لا تكونُ فكراً إلَّا إذا نتجتْ عَنْ واقعٍ محسوس. فالواقعُ المحسوسُ أوِ المحسوسُ أثرُهُ هما وحدَهُما اللّذانِ تكونُ معرفَتُهُما فكراً، ويكونُ اشتغالُ الدّماغِ بهما تفكيراً، أمّا ما عداهما فإنّهُ لا يكونُ فكراً، ولا يكونُ اشتغالُ الدّماغِ به تفكيراً.

٧ ـ التفكير البطيء والتفكير السريع
الإدراك البطيء والإدراك السريع

التفكير السريع هو سرعة الإحساس وسرعة الربط، أو ما يسمى بسرعة البديهة أو سرعة الخاطر. ويطلق عليه تعبير الذكاء.

والذكاء في اللغة: تمام الشيء. ومنه الذكاء في السِّن أي تمام السن. ومنه الذكاء في الفهم وهو أن يكون الإنسان تام الفهم سريع القبول.

ويعرَّف الذكاء في الاصطلاح بأنه «سرعة الفهم وحدّته، أو جودة حدس من قوة النفس تقع في زمان قصير». فيقال: رجل ذكي، ويريدون به: المبالغة في فطنته، كقولهم: فلان شعلة ذكاء، وقولهم: ذكيت النار إذا أُتِمَّ إشعالها.

وفي تعريف آخر: «الذكاء هو تعاون الوظائف الذهنية المختلفة، كالتخيل، والتجريد، والحكم والاستدلال على حلِّ بعض المسائل النظرية والعملية». أي هو ما يعني التعبير عن جودة القوى العقلية لدى إنسان، أو نجاحه في أعماله.

ويقسمون الذكاء إلى أنواع، فيقولون إن الناس يختلف بعضهم

عن بعض بنوع ذكائهم:

ـ فإذا اختلفوا بحسب **كمية المواد** التي يستوعبونها كان ذكاؤهم واسعاً أو محدوداً.

ـ وإذا اختلفوا بحسب **درجة تعمقهم** في الفهم كان ذكاؤهم سطحياً أو عميقاً.

ـ وإذا اختلفوا بحسب **سرعة الفهم** كان ذكاؤهم حادّاً أو بطيئاً.

ونحن نطلق على هذا الذكاء أو على سرعة التفكير تعبير: سرعة الإدراك، لأنه بمقتضى هذا التفكير يتم الحكم على الأشياء التي تواجهنا بسرعة فائقة. ولذلك نقول عنه إنه الإدراك السريع، وهو ما ينافي التفكير البطيء. والإدراك السريع له أثر كبير في حياة الإنسان وهو يواجه معترك الحياة. فلكي ينجح الفرد وهو يخوض في هذا المعترك، فإنه يحتاج إلى أمرين اثنين:

الأول: سرعةُ الفرد في إصدار الحكم على الأشياء واتخاذ الإجراء الواجب إزاءها. وإذا لم يفعلْ ذلك فإنه يُخفقُ ويُجَابَهُ بما يُثقلُ الحملَ عليه. وكلما مرَّ الزمنُ ازدادَ الحملُ ثقلاً، وتضاعفت المُعوقَات، وهذا مما يجعلُه يُخفقُ في معترك الحياة.

الثاني: الفُرصُ التي تسنحُ للفردِ في معترك الحياة هي التي تجعَلُهُ ينتقلُ من سيءٍ إلى حسن، أو من علٍ إلى أعلى، بسرعةٍ أكثر من الآخرين، فيقطع بذلك مسافات كبيرة. فإذا لم يغتنمْ هذه الفرصة الثمينةَ ضاعت عليه وربما لا تعود ثانية.

قال الشاعر في هذا الصَّدَد:

وعاجزُ الرأي مضياعٌ لفرصتِهِ   حتى إذا فات أمراً عاتبَ القدرا

وقال آخر:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكنْ ذا عزيمةٍ فـإنَّ فسـادَ الـرأي أن تتـردَّدا

وإذا تتالى ضياعُ الفرصِ، والتردّد في اتخاذ القرار المناسب في الظرف المناسب، فَقَدَ الإنسانُ السُّرعةَ بالانتقال من حالٍ إلى حال، فيَظلُّ ملازماً مكانه جامداً فاشلاً في جميع مجالات الحياة، وكلُّ ذلك سببه عدم سرعة الإدراك.

إن الاستعمار الغربي قد شغل النـاس بالإدراك البـطيء أي بالتفكير البطيء، وقد نجح في ذلك نجاحاً منقطع النظير حتى بات الناس في حالة أوشكوا أن يكونوا فيها مشلولين، لأنه أقنعهم بأن لا يتخذوا قراراً حاسماً في الأمور المهمة في حياتهم، إلا بعد التأني في التفكير والتروي، والانتظار، حتى فوَّت عليهم جميعَ الفرصِ التي سنحت لهم، وكان باستطاعتهم أن يستفيدوا منها. ونتيجةً لهذا أخفقوا في إزالةِ سلطان الاستعمارِ ونفـوذهِ، رغمَ الثورات والحـروب التي خاضوها معه.

صحيحٌ أن التفكيرَ أمرٌ لا بدَّ منه، والتأني والتروي أمران لا بد منهما، وقديماً قيل: في التأني السلامة وفي العجلة الندامة. ولكن التأني يجبُ أن يكونَ في الأمورِ التي تحتاجُ إلى درسٍ وتمحيصٍ، وعلى شرط أساسي، هو أن يكون الظرف مؤاتياً للدرسِ والتمحيصِ. أما إذا كانَ الظرفُ غيرَ مؤاتٍ للتأني في التفكير، وكان التأني والتروي في التفكير يؤديان إلى الهلاك، فإنه هنا لا ينقذ الإنسان إلا السرعة في التفكير، خاصةً إذا كان هذا الإنسانُ يعيشُ في حياةٍ متقلبةٍ ومختلفة ومتشعبة، يعيش في عُسْرٍ ويُسرٍ، وفرج وشدة، وهناءٍ وشقاء، وراحةٍ وبلاء، والوقتُ الذي يمرُّ في جميعِ هذه التقلبات له ثمنه المرتفع. إذن، لا بُدَّ من مراعاةِ الحالِ والظرفِ والأمر.

فإذا احتاج الأمرُ إلى تفكيرٍ وتمحيص وترَوٍّ فلا بد أن يُفكِّرَ الإنسان ويُمحصَ فيه. وإذا احتاج إلى السرعة في الإدراك، فلا بدَّ للإنسان من سرعةِ الإدراك لأن كل وضع يجب أن يُفكرَ فيه بما يقتضيه.

فمثلاً: الأحكامُ الشرعية، والأمور الفنية، لا تحل إلا عن طريق التفكير العميق. والغيبيّات لا تحلُّ إلا عن طريق الفكر المستنير. ولا دخل لسرعة التفكير في هذه الأمور وأمثالها، بل لا يجوزُ أن تَدخُلَ في أمثال هذه الأمور سرعة التفكير.

ولكن جميع المفاجآت وجميع الأسئلة الخبيثة التي تصدر عن الأعداء، وجميع الأمور العاجلة، كل هذه وأمثالها بحاجة ماسةٍ إلى سرعةِ التفكير. وإذا كان تعريف البلاغة «هي موافقة الكلام لمقتضى الحال»، فكذلك التفكير «هو خوضُ معترك الحياة على أساس مطابقةِ التصرفات لمقتضى الحال». والتنبهُ إلى الإحساس أو إلى الشيء المحسوس هو الذي تبدأ به سرعة الإدراك. والانتباه أو التنبه، هو أن تَتَقصَّدَ فحصَ الشيء المحس ومعرفة ماهيته، لأنَّ ثبوت معرفة صحة الماهية هو الذي ينقذُ أو يهلك. فما لم يجرِ هذا التقصد لمعرفةِ صحة الماهية أي صحة حقيقة الشيء فإنه لا يحصل الانتباه.

وعلى هذا فإن اليقظةَ هي ضرورةٌ من ضرورات الحياةِ. فإذا كان هناك امرؤٌ لا توجد لديه يقظة فمعنى ذلك أنَّ حياة هذا المرءِ في خمول، وهو وأمثاله لا يطلب منهم أن ينتبهوا لأنهم يعتبرونَ حقيقةً عاجزين. ومن ضرورات الحياة أن توجدَ لدى صاحبها يقظة، ومتى وجدت اليقظة أمكن إيجاد الانتباه.

٨ ـ ضرر التفكير ومنفعته

إنَّ التفكيرَ أضحى لدى بعض الفئات من الناس ضاراً. والواجب يقضي بأن نزيلَ هذا الضرر وأن نجعلَ الفكرَ نافعاً. فتلك الفئة من الناس تفكِّرُ وتُسرفُ في التفكير، وتُفرطُ فيه إلى حدٍّ أنها تجعل تفكيرها بالآليات نوعاً من الفلسفة. فهي مثلاً تفلسف القلمَ والملعقةَ والطاولةَ والسيـارةَ والطائـرةَ حتى تخرجَ هـذه الأشياء عن وضعِهـا الحقيقي الطبيعي، وعوضاً من أن تُوَضِّحَ الصورة لهذه الأشياء فإنها تَزِيدُها بتفلسفها غموضاً. هذا في الماديات. . وأما في المعنويات فالأمر أبعد من ذلك بكثير حتى أننا لا ندري هل نحن أمام فكر فعلاً أم أمام ضرب من التخيلات والأوهام التي لا تنطبق على معنى الفكر ولا على معنى من المعاني التي تدركها العقول. وهذا ما يجعل مثل هذا التفكير ضارّاً لأنه لا يستند إلى واقعٍ أو أساسٍ أو حقيقةٍ.

٩ ـ التفكير والعاطفة

الإنسانُ مجبول من تفكيرٍ وعاطفة، فليس في جبلَّته العاطفة وحدها ولا التفكير فقط، بل الاثنان معاً. إلا أن قائدَ المسيرة هو العقلُ وليس العاطفة. والعاطفةُ عبارة عن مشاعر ملتهبة لا تصلحُ للقيادةِ. وهي كما تلتهبُ بسرعةٍ فإنها تنطفىءُ بسرعةٍ أيضاً، ولذا وجب أن تعطى القيادة للعقلِ لا للعاطفةِ. فانصرافُ الإنسان إلى العاطفةِ وحدها يجعلهُ سائراً في الحياة دون ضابط، وانشغالُ المرءِ بالتفكير وحده يفقدهُ القدرة على الصمودِ في الحياة، لأنَّ العاطفةَ هي المحركُ، والعقلَ هو الموجِّهُ. وإذا وُجدَت الحركة دون توجيه وقيادة، فقد تنقلب إلى حركةٍ مدمرة. وإذا وجد التوجيه مجرداً منقطعاً عن المحرك وعن الحركة فلا يؤدي إلى نتيجة. والأمة الإسلامية، حين كان الإسلام هو

المسير لها في الحياة بالتفكير والعاطفةِ، كانت تسيرُ سيراً حسناً وإلى الأمام دائماً.

وحين تَقَدَّمَ الزمنُ وتتالتِ الأحداثُ وصارت العاطفةُ هي المسيطرة عليها، وتخلَّى المسلمون عن العقل الموجَّهِ أي التفكير الصحيح فإن عدوهم قد غلبهم، وكان ظنهم أنه غلبهم بكثرة التفكير، فتوجهوا نحو التفكير، وأهملوا العاطفة، ففقدوا كل شيء ينتجُ عن العاطفة، وصاروا بطيئي التفكير لعدم وجود العاطفة لديهم أي لعدم وجود الحركة. لذلك يجبُ أن نُعيدَ العاطفةَ إلى مكانتها اللائقة بها في نفوس أبناء الأمة، وأن نرجعَ التفكيرَ إلى محورِه حتى يوجدَ لدى الفرد المسلم التفكير السليم. وبهذا الفهم نكون قد أزلنا ضرراً كبيراً عن هذه الفئة التي تستغرقُ كثيراً في التفكير، وبهذه الإزالة يزولُ التقديس للعقلِ، إذا سارت العاطفة بجانبه غير منفصلةٍ عنه. لذلك كانت المشكلةُ ليست في التفكير، بل المشكلة هي إزالة الضرر عن التفكير، وذلك بجعله تفكيراً عادياً يسرع حين يحتاج إلى السرعة، ويبطيء حين يحتاج الأمر إلى الإبطاء، لأن التفكيرَ البطيءَ في الأشياء هو الذي يبينُ خوافيها. وهذا النوعُ من التفكيرِ البطيء مفيدٌ ونافعٌ في أحيان كثيرة، ولكن كونه يجري في كل مسألة ويفلسفُ كُلَّ شيء فإنه يعقِّدُ المشكلةَ ويجلبُ الأذى، أو بعبارة أخرى هو الأذى نفسه.

إنّ علاج المشكلة لدفع الأذى والضرر، لا يأتي بالشرح والبيان، ولا بالخطبِ والكتبِ، وإنما يأتي بالكلمات المحدودة المتضمنة أعمالاً، أو بالأعمال نفسها، وهذه هي المعاناة. فالمعاناةُ هي أقوالٌ محدودة وأعمالٌ بارزة.

وعلينا أن نميِّز أثناء معالجة التفكير بين سرعة الإدراك وسرعةِ الملاحظة. فسرعة الإدراك هي الحكمُ السريعُ للقصد، ولا يتأتى ذلك

إلَّا بالربط. وعندما يأتي من الإدراك السريع فهمُ قصد المتكلم دون الربط يكون عند ذلك سرعة ملاحظة.

علاوة على أن معرفةَ القصد من غير العقيدة وما ينجمُ أو ينبثقُ عنها هي معرفة ناقصة لأنها تؤخذُ من واقع الحال، أو من أشياء أخرى. وهذه قد تكون صحيحة الاستنتاجِ وقد لا تكون، لأنها خالية من الربط بما يجمع بين الأفراد من عقيدة. فمعرفة قصد المتكلم إذن لا تتأتى من سرعة الملاحظة فقط لأنها تبقى معرفة ناقصة بل تتأتى من الربط على أساس العقيدة.

والخلاصةُ إن إدراكَ الواقع وحده يعطي سرعةَ الملاحظة، ولكن ربطَه بالعقيدة هو الذي يعطي سرعة الإدراك. لذلك لا بد من أمرين اثنين: أحدهما سرعة إدراك الواقع وتكون في سرعة الملاحظة وهذا عام يكون في الأمة ويكون في الفرد. وثانيهما ربط هذا الواقع بالعقيدة وما ينبثقُ عنها وهذا خاص بالأمة، وينتج عن سرعة الإدراك. فسرعة الإدراك ضروريةٌ لمعرفةِ حال المسلمين. وهذا يعرفُ من أفعالهم وأقوالهم.

لذا يجب أن يكونَ الرأيُ رأياً إسلاميّاً أولاً وقبل كل شيء، ورأياً سياسياً بعد ذلك، ثم إنجاز سرعة الإدراك. فسرعةُ الإدراك ضرورية ولكن على أساس الإسلام. وتكون على أساس العقيدة مع غير المسلمين، وعلى أساس الحكم الشرعي مع المسلمين. وإذا كان غير ذلك فلا نُشغل أنفسنا به، سواء كانت سرعةُ الملاحظة، أو سرعةُ الإدراك. إذن: لا يكون التفكير تفكيراً ولا العمل عملاً، إلا على أساس الإسلام، لأنَّ الإسلامَ هو وحده الذي يجعل قلب الإنسان يطمئن إلى حاضره ونفسه ترتاح إلى غده، ولأنه يتفق مع فطرةِ الإنسان التي فطرهُ اللَّهُ تعالى عليها. وبه يتحقق السلام للمجتمعات البشرية.



الفصل الخامس

الاستقراء والاستدلال المعرفة



الإستقراء والإستدلال

تمتاز ألفاظ اللغة العربية وتراكيبها بمبانيها ومعانيها، فاللفظة قد يكون لها معنىً ظاهر يختلف عن معناها المقصود عندما توضع في جملة أو في نص. والنصوص قد تحتاج إلى تفسير أو قد يتناولها التفنيد. وفي الحالتين أي في كلٍّ من التفسير والتفنيد لا بد من استخراج الفكرة المقصودة وإقامة دليل وبرهان يؤيدان الموقف الذي يتخذه الباحث أو العالم عند اتِّباعه طريقة من طرق البحث، كالاستقراء والاستدلال. وسوف نحاول توضيح كلٍّ من هذه المفاهيم بصورة مبسّطة وسريعة.

اللفظ والمعنى

ـ اللفظ في اللغة هو مصدر لَفَظَ، ومعنى لفظ: رَمَى. تقول: لفظ الشيء من فمه: رَمَى به. واللفظ في الاصطلاح: هو صوت أو عدة أصوات ذات مقاطع تعبر عمَّا يدور في النفس. وهو إما أن يكون مفرداً وإما أن يكون مركباً.

ـ أما المعنى فهو الصورة الذهنية التي تظهر في اللفظ وتدل على ما يقصد بالشيء، أو على ما يدل عليه القول أو الرمز أو الإشارة. ومنه

دلالة اللفظ على المعنى الحقيقي أو المعنى المجازي. ومنه دلالة القول على فكرة المتكلم، ودلالة الإشارات المنصوبة على اتجاه السير أو على أمكنة معينة. ومنه أيضاً دلالة السكوت على الإقرار، ودلالة الابتهاج على الانتصار أو النجاح.

التفسير والسياق والتفنيد:

ـ التفسير هو الكشف والإظهار، بمعنى أن يكون في الكلام أو في النص بعض اللّبْسِ أو الخفاء فيؤتى بما يزيله أو يفسره. تقول: فسَّرت الكلمة، وفسَّرت النص، وفسَّرت المسألة أي أوضحت دلالاتها ومطالبها. والفرق بين التفسير والتأويل أن التفسير يكون أكثر استعمالاً في الألفاظ ومفرداتها، أمّا التأويل فيكون أكثر استعمالاً في المعاني للتوفيق بين ظاهر النص وباطنه.

ـ وسياق الكلام، هو أسلوبه ومجراه. تقول وقَعَت هذه العبارة في سياق الكلام، أي جاءت متفقة مع مجمل النص.

وللتقيد بسياق الكلام في تفسير النصوص وتأويلها فائدة منهجية، لأن معنى العبارة يختلف باختلاف مجرى الكلام فإذا شئت أن تُفَسِّر عبارة من نصٍّ، وجب أن تفسرها بحسب موقعها في سياق ذلك النص.

وسياق الحوادث مجراها، وتسلسلها، وارتباطها بعضها ببعض، فإذا جاء الحادث متفقاً مع الظروف المحيطة به كان واقعاً في سياقها، وإذا جاء مخالفاً لها وجب البحث عن علَّةِ هذا الخلاف. نقول سياق المرض، وسياق الظواهر النفسية، وسياق الأمراض المجتمعية.

ـ وأما التفنيد فهو النظر في الرأي لرده وإبطاله أو الاعتراض عليه.

تقول: فنَّد رأيه أي أضعفه وأبطله. وموقف المعترض على الرأي أو الفعل هو الذي يكون فيه إثارة للصعوبات والمشكلات، على حين أن موقف المفنِّد إنما يكون موقف المدّعي المنكر.

الاستقراء

الاستقراء في اللغة العربية هو التتّبع، فمن استقرأ الأمر تتبَّعه لمعرفة أحواله.

والاستقراء عند أهل المنطق هو الحكم على الكلي لثبوت هذا الحكم في الجزئي. ومثاله أنَّ كل الأجسام تسقط نحو مركز الأرض. فالورقة، والحجر، ونقطة الماء، هي من الأجسام أو الأشياء، فهي إذن تسقط نحو مركز الأرض.

ولذلك فإن الاستقراء يستند إلى ظواهر قائمة وموجودة تؤدي ملاحظتها ومراقبة حركاتها إلى استخلاص قوانين عامة بشأنها. ويكون كل قانون متعلقاً بنوع واحد من الظواهر، مثل القانون الذي يحكم ظواهر سقوط الأجسام، والقانون الذي يحكم ظواهر انعكاس الضوء وانكساره. ولذلك يقال إن الاستقراء هو الاستدلال الذي ينتقل من الظواهر إلى القوانين.

أما الاستنباط فهو الاستخراج، ولذلك يقال لكل ما استخرج وتقع عليه رؤية العين، أو تطاله معرفة الفكر قد استنبط. ومنه النبط أي الماء الذي يستخرج من البئر في أول الحفر.

ولكن حين يكون الاستخراج حقيقة لا بد من إقامة الأدلة عليه أو لا بد من تقديم البرهان الذي يدل على التأكيد والثبات. وغالباً ما يتبع العلماء هذه الطريقة في تقديم البراهين والأدلة الثبوتية التي تؤكد

القانون العام الذي يحكم ظاهرة معينة من الظواهر. وإذا كان من شأن العلم الوصول إلى نتائج نهائية في بعض المجالات عند تقديم البراهين الدالة عليها، فإنه في الغالب لا يتوصل إلاّ إلى نظريات قد يطرأ عليها التغيير والتبدّل بطريقة كلية. فالنظريات إذن لا يعوّل عليها. ولكن يعوّل دائماً على البرهان الذي يكشف عن الحقيقة الكاملة. ولذلك يقال البرهان هو الحجة البيّنة الفاصلة. وذلك من: بَرْهَنَ أي بيّن، وبرهن عليه أي أقام الحجة عليه. فالبرهان إذن هو بيان للحجة. وهو أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة. يقول الله تعالى: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2]. وفي الحديث: «الصدق برهان».

أما عند الأصوليين فالبرهان هو ما فصل به بين الحق والباطل، وميّز الصحيح من الفاسد بالبيان الذي يتضمّنه.

الاستدلال

الاستدلال في اللغة العربية: هو طلب الدليل أو إقامة الدليل.

وفي عرف الأصوليين والمتكلمين: هو النظر في الدليل، سواء كان استدلالاً بالعلة على المعلول أو بالمعلول على العلة.

والأولى أن يطلق الاستدلال على إقامة الدليل لا على النظر في الدليل، لأن الدليل قول مؤلَّف من أقوال يلزم من ترابطها قول آخر يدل على نتيجة.

---

(١) البقرة: ١١١.

(٢) الأنبياء: ٢٤.

والاستدلال عند علماء أهل المنطق هو تسلسل عدة أحكام مترتب بعضها على بعض بحيث يكون الأخير منها متوقفاً على الأول اضطراراً، فكل استدلال إذن هو انتقال من حكم إلى آخر. لا بل هو فعل ذهني مؤلف من أحكام متتابعة إذا وضعت لزم عنها بذاتها حكم آخر غيرها. وهذا الحكم الأخير لا يكون صادقاً إلا إذا كانت مقدماته صادقة. والمثال على ذلك أن كل طائر يطير، وكل عصفور يطير، فالعصفور طائر.

لذلك كان كلّ من علم المنطق وعلم النفس يبحث في الاستدلال. إلا أن المنطقي ينظر إلى الاستدلال على أنه مؤلف من عدة قضايا مرتبطة ببعضها بعضاً بصورة ضرورية ومتلازمة، مما يجعله يرتب هذه القضايا، ويبين أنواع الأدلة عليها وقيمة هذه الأدلة من حيث صحتها وخطأها، أو قيمة الاستدلالات المنتجة والاستدلالات غير المنتجة. في حين أن العالم النفسي يبحث في الاستدلال على أنه فعل ذهني واقعي دون أن يتدخل في معرفة صحته أو فساده. ولذلك تختلف قيمة الحجج العقلية في نظر المنطقي من حيث قربها من الصواب أو بعدها عنه، بينما تبقى قيمتها في نظر العالم النفساني واحدة، لأنه إنما ينظر في حركة الذهن، وكيفية تكوين الحجج العقلية ونشوئها لا في صحتها وفسادها.



المعرفة

المعرفة والعرفان: إدراك الشيء بتفكر وتدبّر لأثره. وهي أخصُّ من العلم. يقال: فلانٌ يعرِفُ الله، ولا يقال: يعلمُ الله، إذ إنّ معرفة البشر لله تعالى هي بتدبُّر آثار نعمه دون إدراك ذاته. ويقال: الله تعالى يعلمُ، ولا يقال: الله تعالى يعرف، إذ إنّ المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصَّل به عن طريق التفكر والتدبر. وأصله من عرفْتُ أي أصبْتُ عَرْفَهُ (والعَرْف: الرائحة الطيبة). وعرَّفه: جعل له عَرْفاً أي ريحاً طيباً. قال الله تعالى في الجنة: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[1] أي طيّبها وزيّنها؛ وعرَّفها لهم بأوصافها مع تشويقهم وهديهم إليها.

لهذا وللأسباب الأخرى ـ التي ذكرناها في مقدمة هذا الكتاب، وعند بحثنا في الطريقة العلمية والطريقة العقلية ـ نقول: «معرفة النفس» وليس «علم النفس». لأن معرفة النفس هي إدراكها الأشياءَ بتفكر وتدبّر لآثارها.

ويضاد المعرفةَ الإنكارُ. . ويضادُّ العلمَ الجهلُ. يقول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[2]. مع أن نعمة الله تعالى على عباده

---

(١) محمد: ٦.

(٢) النحل: ٨٣.

وعلى الناس لا تقبل النكران، فكيف إذا كانوا يعرفونها ثم ينكرونها؟

ولا بدّ للإنسان، في خصائصه ككائن بشري، يتمتع بمواهب عقلية، أن يتخذ له في الحياة عقيدة يسير عليها، ونمطاً خاصاً في أفعاله وسلوكه. ويتأثر الإنسان كثيراً أو ينتفع بأفكار الآخرين، ويتعلَّم ويتعرف إلى ما حولَهُ، وإلى أبعد مما حوله، ولا سيما في أيامنا هذه، حيث أصبحت وسائل المعرفة والاطلاع متاحة للجميع بيسر وسهولة، فتتكون لديه نتيجة لذلك معلومات أو مفاهيم معينة عن منشأه ومعاده، وعن غاية وجوده في هذه الحياة، وعن الطبيعة والكون إجمالاً.. أي تتكون لديه قاعدة عملية أو سلوك خاصٌّ ينسجم مع عقليته ونفسيته.. وكثيراً ما يوحي له عقله، نتيجة معرفته واطلاعه، وتحت تأثير العوامل المجتمعية التي يعيش في ظلها، بأن ينشىء من الأفكار والمفاهيم ما يثبت عقيدته أو ما يجعله يبدل هذه العقيدة، لأن هنالك شيئاً هاماً، في حياة الإنسان، وهو أن النفس الإنسانية لا تستطيع أن تبقى مجردة من الاعتقاد.

ومما لا ريب فيه أنَّ في الناس فئات لا يحضرها التصور، ولا تفكِّر في القيم والمثل العالية، ولا تجذبها الغايات البعيدة، كأنَّ على سمعها حجاباً، وعلى أبصارها غشاوة، فلا تميل إلى التفكير في شيء هام، ولا تهتم إلى ما يحصل من أحداث، أو ما يصدر من أبحاث وآراء، بل تنصرف إلى الحياة المادية، حتى لكأنها عدوة المعرفة. فمثل هذه الفئات تكون مصابة بالجمود الفكري، والركود العاطفي ـ إذا جاز التعبير ـ حتى لينطبق على أصحابها قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾[1] أي

---

(١) فصلت: ٥.

كأن على قلوبهم غشاوة (أكنة) وفي آذانهم ثقلاً (وقراً) وبينهم وبين معرفة الحقائق حجاباً.

المعرفة العامية والمعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية

في الحياة العادية كثيراً ما نرى الناس، إذا دار الحديث حول حقيقة وجود الله تعالى، أو حول نفس الإنسان، أو حول الأمور الماورائية، تشرئب أعناقهم وتتطاول آذانهم لسماع الحديث، حتى يتلقفوا شيئاً جديداً يرغبون في معرفته وكشف أسراره.. وعلى ذلك فإن أبعد نظريات ما وراء الطبيعة تصل إلى آذان العامة، حتى لتجد في أغانيهم وأهازيجهم كثيراً من الأفكار الفلسفية التي لا يعرفون معانيها، فيذكرون السعادة والشقاء، والحياة والموت، والخلود والفناء. وتنتقل هذه الأفكار من واحد إلى آخر، كما تنتقل النقود من يد إلى يد، وغالباً ما يتم هذا التناقل بلا جهد مقصود، بل يأخذه الناس عن بعضهم بعضاً لمجرد التقليد.

كل هذه الأمور تشكل ما يسمى بالمعرفة الفلسفية لدى الناس، حتى ولو كانت معرفة غامضة ولا تستند إلى أسس ثابتة. فقد تكون معرفة فلسفة المستأجر تهم الملاك أكثر من معرفة إيراده أو دخله، ومعرفة فلسفة العدوّ قد تهم القائد في ساحة الحرب أكثر من معرفة عدده وعدَّته. ومثل هذه الأنماط الفلسفية في الحياة العامة، هي أبعد من أن تجمع التأمل الفلسفي كله، وهي لا تعدو كونها درجة أولى في التفكير يمكن أن يطلق عليها اسم «المعرفة العامية» لخلوها من الوحدة..

ولذلك يقسمون المعرفة إلى ثلاثة أقسام: ١ ـ المعرفة العامية ٢ ـ المعرفة العلمية ٣ ـ المعرفة الفلسفية. مع الإشارة إلى أنه لا يمكن فهم المعرفة الفلسفية على حقيقتها إلا إذا نسبت إلى المعرفة العامية تارة، وإلى المعرفة العلمية تارة أخرى.

١ ـ المعرفة العامية

المعرفة العامية، وتسمى بالمعرفة العفوية، تتكون عادة من أفكار وأحكام واستدلالات تكتسب من تجاربنا الفردية والجماعية، فنطبقها على حياتنا العملية في الحياة بصور مختلفة.

فلو نظرنا إلى الطبيعة من حولنا، دونما تفكير أو تأمل، فإن حواسنا ترى كثيراً من الموجودات المختلفة: بحار، وجبال، ونبات، وأنهار، ومدن، وقرى الخ... فهذه كلها بالنسبة إلى حواسنا مجموعات من الأعراض والكيفيات المختلفة في أشكالها وألوانها وصورها وأصواتها وحركاتها.. وهي عندما ينظر إليها الإنسان العادي لا توحي بأشياء ذات أهمية.. في حين أن نظرة عالمٍ إليها تثير في نفسه النُظُم التي تسير عليها، والقوانين العلمية التي تحكمها، وسنن الله تعالى التي أنشأتها وسيّرتها بهذه الدقة والانتظام..

فالمعرفة العامية شبيهة بتلك النظرة الأولى التي نلقيها على الطبيعة.. لأن النظرة الأولى لا تتوخى التعليل وإعمال الفكر، ولذلك تبقى الطبيعة بالنسبة إليها مجرد موجودات مركبة، متشابكة، تتابعها بصورة تلقائية. وذلك لأنَّ المعرفة العامية مبنية على استقراء ناقص وتحليل غامض. فهي معرفة كيفية، تكتفي بذكر خواص الأشياء من غير أن تنفذ إلى التحليل والمقابلة والاستنتاج. وهي أيضاً جزئية لا تستطيع أن تجمع الحوادث بعضها إلى بعض، فلا تتوقف عند تقارب الحالات أو تعارضها، ولا تقارن بين طفو الخشب على وجه الماء وغرق الحجر فيه، بل تشاهد كل حدث بمفرده، من غير أن تجمعه إلى غيره وتؤلف منها نظاماً خاصاً. فهي إذن معرفة إمكانيات، لا يوجد عنصر ضرورة في مفاهيمها، ولا تقيد في أحكامها، ولا يقين في

نتائجها، ولا تؤثر عادة في الطبيعة إلا بقدر محدود، لأنها معرفة عملية تهتم بالنتائج القريبة.

وقصارى القول إنَّ المعرفةَ العامية هي معرفةٌ ذاتية، مؤلفة من آراء وقتية، وأحكام فردية، وقد لا تخلو من التخيلات والأوهام. وهي ليست علماً بالمعنى المقصود بالعلم، لأنها تقتصر على الحوادث الجزئية، والعلم لا يكون إلا بالكليات.

٢ ـ المعرفة العلمية

قد يطلب الإنسان العلم لذاته، أو قد يطلبه لنتائجه العملية أو الفنية. فإن طلبه لذاته كان محباً للحقيقة، وإن طلبه لنتائجه العملية كان ميالاً إلى الخير والعمل الصالح، وإن طلبه لنتائجه الفنية كان ميالاً فقط إلى تذوق الجمال، لأن في اكتشاف الحقيقة جمالاً ولذة وقوة. وهذا ما يميز المعرفة العلمية عن المعرفة العامية، ويجعلها أرقى منها. فالرجل العادي يشاهد بعينه سقوط الأجسام فلا يعرف أسباب هذا السقوط. أما العالم فيبين لنا كيفية سقوطها وفقاً لنظام ثابت. فالعلم إذن هو البحث لاكتشاف القوانين الطبيعية..

لو ألقينا على الطبيعة نظرة سطحية من غير أن نتعمق في إدراك حقائقها لرأينا موجوداتها كثيرة الاختلاف والتباين: فلا نجد على شجرة واحدة ورقتين متساويتين، ولا في حقل قمحٍ سنبلتين متماثلتين، حتى أننا لنجد الورقة الواحدة تتغير من وقت إلى آخر بتأثير ما خلق الله تعالى فيها من فاعلات كيمياوية.. ولكننا إذا تعمقنا في دراسة هذه الظواهر المتغيرة (من الورقة إلى السنبلة، إلى تكوين الشجرة أو النبتة أو أي شيء آخر) لوجدنا أن هنالك عناصر ثابتة وراء الظواهر المتغيرة.

ومن قبيل ذلك أن في أوراق الشجر صفات واحدة مشتركة يمكن تحديدها، وأن التبادل الكيمياوي في الأوراق يخضع لقوانين ثابتة. وهذه القوانين التي يدرسها العلماء، ويستنبطون منها العناصر العامة، هي ما يسمى بالقوانين الطبيعية. فالقانون الطبيعي علاقة ثابتة وضرورية بين ظاهرتين طبيعيتين. ولكن العلوم يختلف بعضها عن بعض من حيث الظواهر التي تبحث فيها، فعلم الفلك يبحث في الأجرام السماوية وحركاتها.. وعلم الفيزياء يبحث في توازن الأجسام، والضوء، والكهرباء، والحرارة.. وعلم الكيمياء يبحث في المعادن والأجسام العضوية وتفاعلها فيما بينها..

قال لاشيليه: «القانون الطبيعي هو رد الجزئي إلى الكلي، والمركب إلى البسيط، والممكن إلى الضروري».

ويعطي العالم لويس ليارد المثال التالي:

«ألقي حجراً من بين أصابعي فيسقط، وأترك أيضاً قطعة من المعدن أو الخشب فتسقطان، وأقلب إناءً مملوءاً ماءً فيسيل منه، وتسقط كتلة من الرصاص وكرة من الخشب بسرعتين متباينتين في الهواء، وبسرعة واحدة في الفراغ. والخط الذي يتم فيه سقوط هذه الأجسام يكون عمودياً فوق سطح الماء الراكد، سواء كان ذلك في القطب، أو في خط الاستواء، أو ما بينهما. وإذا مد خط السقوط صادف مركز الأرض.. فهذه هي الظواهر. أما القانون في هذا المثال فهو: كل الأجسام تسقط نحو مركز الأرض بسرعة تزداد بصورة متناسبة مع الزمان الذي مضى منذ بدء السقوط».

ولكي يتحقق القانون العلمي، يجب أن تتوافر في العلم الشروط التالية:

(أ) تناول المعاني الكلية:

فالمعاني التي تتناولها العلوم هي معان كلية، وما يجري مجراها ويدخل في حكمها. لأن العلم لا يكون بالشيء الجزئي، فقد نستطيع أن نصف شيئاً بمفرده، ونعلل الأسباب، إلا أن هذا الوصف وهذا التعليل لا يبلغان غاية العلم إلا إذا كانت الأسباب عامة، تنطبق على الجزئيات الأخرى. ففي المثال السابق هنالك خاصة مشتركة بين جميع الأجسام وهي خاصة السقوط نحو مركز الأرض، إذ لو أجرينا التجربة على أجسام كثيرة، وفي أماكن مختلفة لرأينا أن النتيجة لا تختلف بالنسبة إلى الأجسام، ولا إلى الموقع الجغرافي، أو الارتفاع عن سطح البحر، بل الأجسام كلها تسقط في القطب، كما تسقط في خط الاستواء، وتسقط في الهواء كما تسقط في الفراغ... من أجل ذلك كانت خاصة السقوط هي قاعدة عامة لجميع الأجسام.

(ب) إرجاع المركب إلى البسيط:

فالظواهر الطبيعية كثيرة العناصر، ومتشابكة بعضها ببعض، وتخضع لشروط كثيرة. فلو أخذنا سقوط تفاحة مثلاً كظاهرة طبيعية، لوجدنا أن حادثة السقوط هذه مركبة من عدة عوامل مثل مقاومة الهواء، والرطوبة، والكهرباء الموجودة في الجو، والارتفاع عن سطح البحر، ومكان السقوط، والجسم الساقط نفسه.. فعند البحث في قانون سقوط الأجسام، يجري تحليل كل حادثة جزئية بمفردها، لكي يستخلص من هذا التحليل الاقتصار على عامل واحد بسيط يكون مشتركاً بين جميع الحوادث الجزئية. وعلى ذلك فالعلم يرجع الحوادث المركبة إلى عناصرها البسيطة المجردة، حتى قيل: «العلم تعليل الظاهر المركب بالخفي البسيط».

(جـ) رد الممكن إلى الضروري:

وهذه الصفة أساسية في العلم. فالقوانين العلمية ضرورية وتخضع لصيغة الثبات والاستمرار. نعم إن الناظر إلى الطبيعة قد يظن بأنها خاضعة للمصادفة العمياء، ولكن البحث والتعمق يكشفان له عن نظام ثابت تخضع له الحوادث الطبيعية بالضرورة. فالعلم لا يقول بالمصادفة العمياء، ولا بالفلتة العابرة، ولا بالاتفاق العابر، ولا بالشذوذ المنحرف، بل يقول إن الحوادث يجب أن تخضع لنظام ضروري ثابت. وعلى ذلك فإنني إذا عرفت قانون السقوط طبقته على الأجسام وقررت ضرورة سقوطها وفقاً له، لأن وجود العلة يستتبع حدوث المعلول.

في مثال الحجر الذي نتركه يسقط إلى الأرض، فالتصور قبل معرفة القانون العلمي للسقوط يمكن أن يتجه إلى عدة احتمالات منها احتمال أن يبقى الحجر معلقاً في الهواء، أو أن يرسم في سقوطه هذا المنحنى أو ذاك، أو أن يسقط بسرعة متزايدة، أو بسرعة متناقصة.. أما بعد معرفة قانون السقوط، فإن هذه الحادثة (سقوط الحجر) وظروفها المختلفة تظهر ضرورية ويمتنع الفكر عن تصور مختلف عما وقع. فإذا وقع حادث تبعاً لقانون معروف، فحدوثه ضروري بالنسبة لهذا القانون.

وعلى ذلك يرى العلم بأن بين طبائع الأشياء علاقات كلية ضرورية وثابتة. وهذه الضرورة يسميها العلماء بالحتمية. فالعلم إذن هو ربط المجهول بالمعلوم. والمثال على هذا الربط هو أنك إذا رأيت سنابل الحقل تتحرك من بعيد، من غير أن تعرف سبباً لهذا التحرك، ثم يقول لك الفلاح بأن حيواناً قد مرَّ في طرف الحقل، فتقنع منه، فتكون حركة السنابل حادثة جديدة ومجهولة بالنسبة إليك، ولكنها

ربطت بحادثة معينة معروفة وهي حركة الحيـوان. وربط المجهول بالمعلوم، لا يكون إلا برد الجزئي إلى الكلي، وبإرجاع الكثرة إلى الوحدة. فنحن نربط حركة الآلة بتمدد البخار، والحرارة باحتراق المادة الملتهبة، وحدوث الصوت باهتزاز الهواء سواء كان صوت إنسان، أو هدير طائرة، أو حفيف أشجار، أو خرير مياه.

فـالمعرفـة العلمية تتـوخى الكشف عن العلاقـات الضروريـة الموجودة بين طبائع الأشياء، وهي غاية نظرية بحتة، بخلاف المعرفة الصافية التي تتقيد بالنتائج العملية. والعالم الحقيقي يطلب العلم لذاته، لأن الاشتغال بالنتائج العملية دون الحقائق النظرية يعوق العلم عن بلوغ أهدافه. ولا يتم للعلم ذلك إلا بتأليف المعاني، وتنسيقها، واستخراجها من مصادرها، وتنظيمها في قواعد أو قوانين عامة. وهذا كله من ثمرات العقل ونتاج السعي.

٣ ـ المعرفة الفلسفية

أول من استعمل كلمة فلسفة في القديم هو الحكيم اليوناني فيتاغورس. فقد كان يقول: «الفلسفة هي محبة الحكمة». وهذا يعني بحسب اشتقاق الكلام، أنها مكونة من عبارتين: (فيلا) وهو المحب، و(سوفا) وهي الحكمة. ومن قول فيتاغورس أيضاً: «من الغرور أن يدعي الانسان الحكمة لنفسه لأن اسم الحكيم لا يليق بإنسان قط بل يليق بالإله. وكفى بالإنسان شرفاً أن يكون محباً للحكمة، وساعياً وراءها».

وكان أفلاطون يقول: «الفلسفة هي العلم بالحقائق المطلقـة المستترة تحت ظواهر الأشياء، وهي علم العالم المعقول، لأن الذي

يقتصر على العالم المحسوس لا يدرك إلا ظل الحقيقة» ولا يختلف أرسطو في تعريفه للفلسفة عن أفلاطون إلاَّ قليلاً، إذ عرّفها بقوله: «هي العلم بالأسباب القصوى للأشياء أو علم الموجود بما هو موجود».

أما ابن سينا فكان يقول: «إن هذا العلم يبحث في الوجود المطلق، وينتهي في التفصيل إلى حيث تبتدىء منه سائر العلوم. وهو الحكمة التي هي أفضل علم بأفضل معلوم، أي بالله تعالى وبالأسباب من بعده. وهو أيضاً معرفة الأسباب القصوى للكل».

ويلاحظ من هذه التعريفات أن القدماء لم يكونوا يفرقون بين العلم والفلسفة. كانت الفلسفة عندهم تدل على كل معرفة خالية من الغرض، لا يطلبها الفيلسوف إلا لذاتها، ولا يهمه ما تؤول إليه نتائجها العملية. فهي بذلك تلتقي مع العلم فتكوِّن معه لديهم شيئاً واحداً. وهذا ما ذهب إليه أصحاب المذاهب الوضعية الذين يعتبرون الفلسفة بأنها علم العلوم، وإليها تنتهي كل الحقائق، وبها يكون اتصال العلوم ببعضهما بعضاً.. والمعروف أن الفلاسفة لم يبحثوا جميعاً في المسائل ذاتها، بل كان كل فيلسوف يبحث في بعض المسائل، وغيره في بعضها الآخر. وحتى عند بحثهم في المسألة الواحدة لم يكن يعيرها كل واحد نفس الدرجة من الاهتمام. فأبحاث ابن سينا في النفس، ليست على نفس الأهمية والمستوى لأبحاث (برغسون) في الحدس، أو لمسألة المعقولات عند أفلاطون..

وقد برهنت الأبحاث فيما بعد أن العلوم شيء، والفلسفة شيء آخر، وإن كانت هناك علاقة ما بين الفلسفة والعلم، شأنها شأن أي نتاج فكري إنساني يستعين بالعلم إذا وجدت علاقة يمكن أن تربط بينهما من قريب أو بعيد.. فالباحث في اللغة يعتمد قواعد معينة

تشكل في نظر الكثيرين قواعد علمية، وكذلك الأديب يأخذ بالبراهين العلمية ليعطي لأفكاره قوة معينة وهلم جرا... ففي نظر القدماء كانت الفلسفة معرفةً أرقى من المعرفةِ العلمية لأن الفيلسوف يحتاج إلى «ملكات عقلية لا يحتاج إليها أهل الكهف» وقد اعتمدوا هذا التعبير «أهل الكهف» للتدليل على أن الفيلسوف ليس شبيهاً بأهل الكهف الذين يكتفون بالمعرفة الحسية، ويقتصرون على ظواهر الأشياء، ويجهلون عالم المثل الحقيقية. وإنما الفيلسوف هو رجل سام لا يقتنع بالظواهر، بل يتوسل بعقله وبحدسه الخاصّ ـ الموهوبَيْنِ من الخالق العظيم ـ الاتصال المباشر بعالم المثل كما ذهب إليه أفلاطون، ومن ساروا على أثره بإقرار وجود هذا الحدس، حتى لتجد القول به عند فلاسفة القرن التاسع عَشَر أمثال (فيخت) و(هيجل) و(شوبنهاور) الذين زعموا أن هذا الحدس ملكة خاصة بالفيلسوف، وهو ضروري للاتصال بالمطلق واللا نهاية..

وعلى ذلك فإن الفلسفة تمتاز عن العلم بأنها تبحث في الكليات العالية حتى تصل برغم أصحابها إلى إدراك الحقيقة والجوهر. ولذلك فرقوا بين الفلسفة والعلم بخاصتين هما:

١ ـ المعرفة الفلسفية تمتاز عند الفلاسفة بأنها عامة وكلية، أما العلم ومهما بلغت درجة عموميته فإنه يبقى في بعض نواحيه خاصاً. والفلسفة وحدها تملك قواعد كلية يمكن أن تتفرع عنها قوانين العلم، حتى لقد قال أفلاطون: «الفيلسوف يجمع كل شيء في نظرة واحدة».

٢ ـ الفلسفة تتوخى تعليل الأشياء تعليلاً أعمق وأكمل من تعليل العلم. بل وتعليلها مخالف لتعليل العلم، لأنها تبتغي به الوصول إلى الحقائق المطلقة.

والمثال التالي يمكن أن يوضح الخاصتين السابقتين: لنفرض أنَّ كلباً حاول الهجوم عليَّ، فأخذت حجراً ورميته به. فهذه الحادثة الصغيرة تتداخل فيها عدة قوانين علمية: الفيزيائي يهتم بالمنحنى الذي رسمه الحجر أثناء سقوطه، وبيان حركته وسرعته منذ بدء رميه وحتى سقوطه، وشدة الجاذبية، وتأثير الهواء عليه. والفيزيولوجي يهتم بما قامت به اليد عند إلقاء الحجر لناحية حركة العضلات، واتصالها بالمراكز العصبية المحركة، وكيفية صدور الفعل عنها. والنفساني أو السيكولوجي يبحث عن أسباب الخوف الذي داخلني، والذي ظهر باصفرار على وجهي، فيعتبر أنَّ الخطر الذي داهمني هو الذي ولَّد الخوف لديَّ، وكان عليَّ إما الالتجاء إلى الهرب، أو الدفاع عن النفس. وفي فعل الدفاع هذا تشترك عدة أمور نفسية كالتذكر، وتداعي الأفكار، والخيال وغير ذلك.. هذا فيما يتعلق بالعلم.. أما فيما يعود إلى النواحي الفلسفية فإن الحادثة تبحث بوضوح أكثر وعلى درجة أعم وأعمق. فالبحث هنا يكون عن أسباب إدراك الخوف ونتائجه، والسعي لفهم حقيقة الأفعال النفسية وبيان تأثيرها في البدن. فالإدراك هو الذي ولد الخوف، والخوف هو الذي دفع إلى تنفيذ فعل إرادي، إذن كيف تُحرك الإرادة البدن، وكيف يكون اتصال الانفعالات النفسية بالحركات العضوية، وبعبارة أخرى ما هي علاقة النفس بالجسد؟ هذا ما تريد الفلسفة الوصول إليه، ساعية إلى توضيح هذه الأمور بصورة عامة وعميقة..

٣ ـ لا تقتصر الفلسفة على الأمور الحسية الظاهرة التي هي موضوع العلوم، بل تغوص على الحقائق العميقة، فتبحث في الوجود والجوهر، وهكذا يمكن القول بأن العلوم تبحث في ظواهر الأشياء الحسية لمعرفة قوانينها، في حين أن الفلسفة تريد إدراك الحقيقة

المطلقة. فعلم الطبيعة يبحث في الضوء والصوت والحرارة. وعلم الكيمياء يبحث في خواص الأجسام وقوانين اتحادها. ولكن الفلسفة تريد أن تفهم ما هي حقيقة القوة والمادة. وإذا كان علم الأحياء يدرس ظواهر الهضم والتنفس والدورة الدموية مثلاً، فإنَّ الفلسفة تتوخى إدراك حقيقة الحياة. وإذا كان علم النفس يهتم بمعرفة تراكيب النفس من إدراك وذاكرة وعاطفة وإرادة، فإنّ الفلسفة تريد إدراك جوهر النفس ومعرفة حقيقة الفعل.

على أن الاتجاه الذي يميل إلى اعتبار الفلسفة ذات صفات أعم وأشمل من العلوم يقابله اتجاه مضاد عند الوضعيين الذين يزعمون أن كل ما لا يتناوله العلم بالبحث لا يمكن الوصول فيه إلى حلٍ نهائي، بل يبقى خليطاً من الحدس والظن لا يوصلان إلى معرفة صحيحة. ولكن هذا الزعم لا يستند إلى دليل لأن العلم نفسه لا يُكْتَسَبُ إلا بطرائق عقلية خاصة يستند إليها العلماء في البحث عن الحقيقة. وهم يتبعون هذه الطرق اتباعاً عفوياً بتأثير التقليد والعادة من غير أن يسألوا: ما هي قيمتها، وما هو معناها، أي ما هي قيمة الاستنتاج في المسائل البرهانية التي ينظر فيها الرياضيون؟ أو ما هي قيمة الاستقراء الذي يوصل العالم الطبيعي إلى التعميم؟ وما هو عمل العقل في هذه المسائل؟ بل ما هي قيمته؟

ثم إن النتائج التي توصل إليها العلم، ألا تولِّد هي نفسها روح الانتقاد والشك في الحواس؟ فمثلاً كان العلماء يظنون أن الأرض ثابتة، حتى جاء البرهان على أنها تجري بسرعة فائقة. فظهر بذلك سخف الأحكام القديمة وفساد الاعتقادات المتولدة عن الحواس التي كانت ترى في الأرض كوكباً ثابتاً. ومثال آخر وهو أن الألوان تنشأ عن

اهتـزازات تؤثـر في شبكــة العين، وهي تختلف بـاختـلاف تلك الاهتزازات، فحقيقتها إذن بعيدة عن ظاهر ما يبدو منها لأعيننا.

من أجل ذلك يذهب أنصار الفلسفة إلى القول بأن العلم بقواعده وطرائقه ونتائجه عبارة عن نظريات وفرضيات خاضعة للبحث وقابلة للتغيير، وهو يرتبط بالفلسفة من نواح معينة. في حين أن الحقيقة على عكس ذلك أي أن الفلسفة تابعة للعلم، حتى وإن كانت متقدمة عليه في ظهورها لدرجة جعلت شوبنهاور يقول: «الإنسان حيوان فيلسوف». ولكن تلك الفلسفة الأولى في حياة الإنسان كانت فلسفة عامية غامضة، تدفعه إليها حاجاته، ويستنبطها من تجاربه العملية والشخصية، وهي تبقى بدون قيمة إذا قيست بالفلسفة النظرية المستندة إلى العلم. لقد غيرت العلوم كثيراً من مفاهيم الإنسان وبدلت اعتقادات القدماء؛ فقد كانت فلسفة الأقدمين مملوءة بالخيالات والأساطير والأوهام، فاستبدلت اليوم بفلسفة عقلية مؤسسة على العلم والتجربة.. وكان القدماء يستسهلون تعليل الأشياء بنظريات خيالية لا تؤيدها التجربة، فأصبح الإنسان في العصور الحديثة لا يضع نظرية إلا بعد البحث والتمحيص، وبذلك تكون نظريته تابعة للتجربة، لا التجربة تابعة لنظريته.

الفلاسفة والمتكلمون

هنالك فارق كبير بين الفلاسفة والمتكلمين، فالفلاسفة يعتمدون على البراهينِ وحدها، ويؤلّفونَ البرهانَ تأليفاً منطقياً، من مقدّمةٍ صغرى، وكبرى، ونتيجةٍ، ويستعمِلونَ ألفاظاً واصطلاحاتٍ للأشياءِ: من جوهرٍ وعرضٍ ونحوهما، ويثيرونَ المشاكلَ العقليّةَ، ويبنُون عليها بناءً منطقيّاً لا بناءً حسيّاً أو واقعياً. أما منهجُ المتكلمين في البحثِ فيُغايرُ ذلكَ، لأنَّ المُتكلّمينَ آمنوا باللهِ ورسولِهِ، وما جاءَ به رسولهُ، ثمّ أرادوا أنْ يبرهنوا على ذلك بالأدلّةِ العقليّةِ المنطقيّةِ. وأخذوا يبحثونَ في حدوثِ العالمِ، وإقامةِ الدليلِ على حدوثِ الأشياءِ، وأخذوا يتوسّعونَ في البحث، ففُتِحَتْ أمامَهُمْ موضوعاتٌ جديدةٌ، ساروا في خوض غمارها والتمحيص في ما يتفرّعُ منها وصولاً إلى نهايةٍ منطقيّةٍ. فهم لم يبحثُوا في الآياتِ بمنهجِ الفلاسفةِ وإنما آمنوا بها وأخذوا يُقيمونَ البراهينَ على ما يفهمونَهُ منها. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن المتكلمين في نظرتهم إلى الآياتِ المتشابهَةِ لمْ يقنَعوا بالإيمانِ بالمتشابهات، بصورة إجمالية من غيرِ تفصيلٍ، فجمعوا الآياتِ التي تظهرُ منها جسميّة الله تعالى، وسلّطوا عليها عقولَهم ثم أقدموا على ما

لم يجرؤ عليهِ غيرُهم، وأدّى بهم النظرُ في كلِّ مسألةٍ إلى رأيٍ بعينِهِ. وبعد ذلك عمدُوا إلى الآياتِ التي يَظْهَرُ أنها تُخالِفُ رأيهم فأوّلوها. ولذا كانَ التأويلُ أوّلَ مظهرٍ منْ مظاهرِ أبحاث المتكلمينَ. وحينَ أدّى بهمُ البحثُ إلى نفيِ الجهةِ عن الله وأنَّ أعينَ الناسِ لا يمكِنُ أن تراهُ، أوَّلوا الأخبارَ الواردةَ في رُؤيةِ الناسِ لله. وهكذا كانَ التأويلُ عنصراً من عناصر المتكلّمينَ، وأكبرَ مميّزٍ لهم عن السَّلفِ. وهذا المنهجُ بالذاتِ، مع إعطاءِ العقلِ حُريَّةَ البحثِ في كلِّ شيءٍ، يؤدّي حتماً إلى جعلِهِ الأساس للقرآنِ، لا جَعْل القرآنِ أساساً لهُ. وهكذا استمرّ الجدلُ بينَ المسلمينَ مُنذُ أوائلِ القرنِ الثاني للهجرَةِ حتى يومنا هذا.

والدعوةُ الإسلاميّةُ بحرارتها، وقوَّتِها الصريحةِ الصحيحةِ، وهيبتها الإلهيّةِ التي عجزَ أمامها العباقِرَةُ، عوضاً عن أنْ تُحملَ، كما أمرَ الله أنْ تحملَ، بقولِهِ تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[2]. وفي قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[3]. وبديلاً من هذا السموِّ الذي ما بعده سمو كان ما رأينا خلال العصور التي مرَّتْ عند بعض الجماعات الإسلامية، الذين تركوا الدعوة إلى الدين الحنيف وعكفوا على الجدل البحت، حتى غلبَ حبّ المجادَلَةِ، وهاموا في أوديةِ نظريةِ الفنّ للفنّ.

---

(١) النحل: ١٢٥.
(٢) فصلت: ٣٣.
(٣) الكهف: ٢٩.

علم المنطق والفرق بين منهج المتكلمين ومنهج الفلاسفة

يستندُ علمُ المنطقِ إلى اقترانِ القضايا ببعضِها بعضاً. واقتران القضايا ببعضها يَجْري فيهِ تركيبُ المعقولاتِ على المعقولاتِ واستنتاجُ معقولاتٍ جديدة منها، ويجري فيهِ ترتيبُ المحسوسات على المحسوساتِ واستنتاجُ محسوساتٍ جديدة منها. أمّا ترتيبُ المعقولات على المعقولاتِ فإنَّهُ يؤدّي إلى الانزلاقِ في الخطأ، ويُؤدّي إلى التناقضِ في النتائجِ، ويُؤدّي إلى الاسترسالِ في سلاسلَ منَ القضايا والنتائجِ المعقولةِ، من حيثُ الغرضُ والتقديرُ، لا من حيثُ وجودُها في الواقع، حتى أنّ آخرَ الطريقِ في كثيرٍ من هذه القضايا أوهامٌ لا طائل تحتها. ومن هنا كانَ الاسْتِدلالُ بالقضايا التي يجري فيها ترتيبُ معقولاتٍ على معقولاتٍ عرضةً للانزلاقِ، فيُقال منطقيّاً: القرآنُ الكريمُ كلامُ الله، وهوَ مُرَكّبٌ من حروفٍ مرتّبةٍ متعاقبةٍ في الوجودِ. وكلّ كلامٍ مركّبٍ من حروفٍ متعاقبةٍ في الوجودِ حادثٌ، فالنتيجةُ: القرآنُ حادثٌ مخلوقٌ. هذا الترتيبُ للقضايا أوصلَ إلى نتيجةٍ ليسَتْ مما يقعُ تحتَ الحسّ، فلا سبيلَ للعقلِ إلى بحْثِها أوِ الحُكمِ عليها، ولكنْ يمكنُ بواسطةِ المنطقِ ذاته أنْ يصلَ إلى نتيجةٍ تُناقِضُ هذهِ النتيجة، فيُقالُ: القرآنُ كلامُ الله، وهو صفةٌ لهُ، وكلّ ما هو صفةٌ لله قديمٌ، فالنتيجةُ: القرآنُ قديمٌ غير مخلوق. وبذلكَ يبرز التّناقُضُ في المنطقِ في قضيّةٍ واحدةٍ.

وقد اعتمد المتكلمون علم المنطق أساساً لتفكيرهم فكان منهجهم يقوم على ما يلي:

١ ـ أقرّ المتكلمونَ بصحّةِ قواعدِ الإيمانِ، وآمنوا بها، ثمّ اتخذوا أدلّتهم العقليّةَ للبرهنةِ عليها، فهم يعتمِدونَ البحثَ العقليّ بالأسلوبِ المنطقيّ لإثباتِ عقائدهم.

٢ ـ إنّ أبحاثَ المتكلّمين محصورةٌ في ما يتعلّقُ بالدفاع عن عقيدتهم، ودحض ِ حججِ خصومهم، سواءٌ أكانوا مسلمينَ يخالفونهَم في الفَهْمِ، من قدرية ومرجئة وخوارجَ وغيرهم، أم كانوا غيرَ مسلمينَ كالنصارى واليهودِ وغيرِهمْ.

٣ ـ أبحاثُ المتكلمينَ أبحاثٌ إسلاميّةٌ، وتُعتبرُ على اختِلافِها وتناقُضِها آراءً إسلاميّةً، ويعتبرُ كلّ مسلمٍ اعتنقَ رأياً منها معتنقاً رأياً إسلامياً.

ويبرز خطأ منهجِ المُتكلّمينَ في أربعةِ وجوهٍ هي:

١ ـ اعتمادهم في إقامةِ البرهانِ على الأساسِ المنطقيّ، لا على الأساسِ الحسيّ. بحيث جعلوا المسلمَ في حاجةٍ إلى أنْ يتعلّمَ المنطقَ، حتى يستطيعَ إقامَةَ البرهانِ على وجودِ الله تعالى. ومعنى ذلكَ أنّ مَنْ لا يعرفُ المنطقَ يعجزُ عن البرهَنَةِ على صِحّةِ عقيدتهِ.

٢ ـ خروجُهُمْ على الواقعِ المحسوسِ، وتجاوزُهم إلى غير المحسوسِ، فقد بحثوا في ما وراءَ الطّبيعةِ في ذاتِ الله وصفاتِه، في ما لا يصلُ إليه الحسّ. وأفرطوا في قياسِ الغائبِ على الشاهدِ، أعني في قياسِ الله على الإنسانِ، فأوجبوا على الله العدلَ كما يتصوّرُهُ الإنسانُ.

٣ ـ إعطاؤهُم العقلَ حريّةَ البحثِ في كلِّ شيءٍ، في ما يُحَسّ وما لا يُحَسّ، ثم جَعْلُهُ أساسَ البحثِ في الإيمانِ كلّهِ. فترتّبَ على ذلك كلّه أنْ جَعَلُوا العقلَ أساساً للقرآنِ، ولم يجعلوا القرآنَ أساساً للعقلِ.

٤ ـ جعلُوا خصومَةَ الفلاسفةِ أساساً لبَحْثِهِمْ. فالمعتزلةُ أخذُوا من الفلاسفةِ، ثمّ ردّوا عليهمْ، وأهلُ السنّةِ والجبريّةِ ردّوا على المعتزلةِ،

وأخذوا منَ الفلاسِفَةِ ورَدّوا عليهِمْ، في حينَ أنّ موضوعَ البحثِ هوَ الإِسلامُ، وليسَتِ الخصومةُ معَ الفلاسفَةِ ولا معَ غيرهِمْ.

وكان عليهِم أنْ يقِفوا عند حدِّ القرآنِ والحديثِ، وعندَ حدِّ البحث فيهما، بِغَضِّ النظرِ عن أيِّ بحثٍ آخر. ولكنّهم لم يفعلوا ذلك، بل حوّلوا تبليغَ الإسلام، وشرْحَ عقائدِهِ، إلى مناظراتٍ ومجادلاتٍ، حتى انتهى بهِمُ المطافُ إلى أنْ يتصفوا بصفةٍ جدليّةٍ، ومهنةٍ كلاميّةٍ.

الفرق بين المتكلمين والفلاسفة المسلمين

أما منهجُ الفلاسفةِ فإنّهُ يتلخّص فيما يلي:

١ ـ إنّ الفلاسفةَ يبحثونَ المسائلَ بحثاً مجرّداً. ومنهاجُ بحثِهِمْ هوَ النّظَرُ في المسائلِ، كما يدلّ عليها البرهانُ. ونظرتُهم في الإِلٰهيّاتِ نظْرَةٌ في الوجودِ المطلقِ، وما يقتضيهِ لذاتهِ.

وهم يبدأونَ النظرَ منتظرينَ ما يؤدّي إليهِ البرهانُ، سائرينَ حتى يصلوا إلى النتيجةِ، كائنةً ما كانَتْ، فيعتقدونَ بها. وبحثهم إذن بحْثٌ فلسفيٌّ مَحْضٌ لا علاقَةَ لـهُ بالإِسـلامِ. كثيراً مـا يُسلِّمُ الفلاسفـة المسلمونَ في بحثِهِم بأشياءَ سمعيّةٍ لا يمكنُ إقامةُ البرهانِ العقليِّ على صحّتِها أوْ بُطلانها، كالبَعْثِ والنّشورِ والمعاد الجسمانيّ. وكثيراً ما كانوا يُبْدُونَ بعضَ الآراءِ في الفلسفةِ اليونانيَّةِ متأثّرينَ بعقيدتهم الإِسلاميّةِ.

بل وكثيراً ما كانوا يحاولونَ التّوْفيقَ بينَ بعضِ قضايا الفلسفةِ والقضايا الإِسلاميّةِ، ولكنْ ليسَ عندهم تأثّرٌ فكريٌّ يجعلُ الإِسلامَ أساساً، كما هي الحالُ عندَ المتكلمينَ. إنما تأثرهم تأثّرٌ يشبهُ إلى حدٍّ بعيدٍ تأثّرَ الفلاسفةِ المسيحيينَ بالمسيحيّةِ، والفلاسفةِ اليهود باليهوديّةِ،

وهو تأثّرٌ، بالديانتينِ، ضعيفٌ. أما تأثّرُ الفلاسفةِ المسلمينَ الحقيقيّ فقد كانَ تأثّراً بالفلسفةِ اليونانيّةِ. لقد كتبوا أفكارَهُمُ الفلسفيّـةَ بعدَ تعمُّقِهِم في الفلسفةِ اليونانيّةِ.

٢ ـ لمْ يكنْ كلُّ همِّ الفلاسفةِ المسلمينَ الدّفاعَ عنِ الإسلام لأنهم كانوا يقفونَ عندَ تقريرِ الحقائقِ ثمّ يبرهنُونَ عليها، ولا يدخلُونَ في حكايةِ الأقوالِ المخالفَةِ والردّ عليها، دفاعاً عنِ الإسلامِ، وإن كانوا قد تأثّروا بها بعضَ التأثّرِ.

البحثُ العقليّ هوَ الأصلُ وهوَ الموضوعُ، ولا يوجدُ غيرُهُ في بُحوثِهِمْ.

٣ ـ إنَّ كثيـراً من أبحاث الفـلاسفَةِ المسلمينَ أبحـاثٌ غيـرُ إسلاميةٍ، بلْ هيَ أبحاثٌ فلسفيّةٌ، لا علاقةَ للإسلامِ بها.

هذا هو الفرقُ بينَ منهجِ المتكلمينَ ومنهج الفلاسفة المسلمينَ. ومنَ الظّلمِ والدسِّ على الإسلامِ أن تُسمّى الفلسفةُ التي اشتَغَلَ فيها أمثالُ الكِنْدِي والفارابيّ وابن سينا وغيرهم منَ الفلاسفةِ المسلمينَ فلسفةً إسلاميّةً، لأنها لا تمتّ للإسلامِ بصلةٍ. بلْ هيَ تتناقضُ معَ الإسلامَ تناقُضاً تامّـاً، من حيثُ الأساسُ، أوْ منْ حيثُ التفـاصيلُ الكثيرةُ. .

أمّا من حيثُ الأساسُ فإنّ هذه الفلسفةَ تبحثُ في ما وراءَ الكونِ أي في الوجودِ المطلقِ، بخلافِ الإسلامِ الذي يحصر البحث في الكونِ وفي المحسوساتِ.

وأمّا من حيثُ التفاصيلُ فإنّ في هذه الفلسفةِ أبحاثاً كثيرةً، يعتبرها الإسلامُ ضلالاً كالقولِ بقدمِ العالمِ وأنَّهُ أزليّ، وأبحاثاً تقولُ

إنّ نعيمَ الجنّةِ رُوحانيّ لا ماديّ، وأبحاثاً تقول: إنَّ الله يجهَلُ الجزئياتِ، وغيرَ ذلكَ، مما هوَ كفرٌ صراحٌ في نظرِ الإسلامِ.. فكيفَ يُقالُ عنْ هذه الفلسفَةِ إنها فلسفةٌ إسلاميّةٌ مع هذا التناقض البيِّنِ في السبل والمنطلقات. أجل لا حاجة للإسلام بالفلسفة مطلقاً، ما دام يحصر البحث العقليّ في المحسوساتِ، وما دام العقلُ عاجزاً عن البحث في ما وراءَ الكونِ. والخروج عن هاتين المسلَّمتين يجعل أبحاث العقل كافة بعيدةً عن الفلسفةِ، سائرةً في غيرِ طريقها. وليسَ في الإسلام سوى بحث في القرآنِ الكريمِ والسنّةِ النبويّةِ الشريفة، فهما، وحدهما، أصلُ الإسلامِ، عقيدةً وأحكاماً وأمراً ونهياً واختياراً.

الفصل السّادس

- التصوُّر والتخيُّل
- الانتباه والغَفلة
- التذكُّر والنسيان



التّصوّر والتخيل
(الكهانة ـ العرافة ـ السحر)

الصورة والتصوير

الصورة هي شكل الشيء، أو هي كل ما يتمثل بشبيه له من خلق الله تعالى. ولذلك يقال عن الصورة: «هي ما ينتقش به الأعيان أي الأشياء المشاهدة بالعين المجردة».

أما التصوير فهو الفعل الذي تتأتّى عنه الصورة. ومن الناحية الفكرية: «التصوير هو تصوّر أو تفكر لما تتمثل صورته أو شكله في الذهن».

ولذلك كانت الصور على نوعين:

نوع محسوس مثل صورة الإنسان والحيوان والشجرة والجبل. وهذا ظاهر للعيان ويدركه كل إنسان من الخاصة والعامة.

ونوع معقول وهو من فعل ما اختص به الإنسان من عقل وتمييز لإظهار معاني الأشياء. والفرق بين الصورة والتصوير: أن التصوير قد يكون بجعل الشيء على صورته أو على صورة لم يكن عليها. وأما

الصورة فهي الهيئة التي يكون عليها الشيء في التأليف، وأصلها من: صارَهُ إذا أماله، لأنها مائلة إلى هيئة بالشبه لها.

والفرق بين الصورة والصيغة أن الصيغة عبارة عما وضع في اللغة ليدل على أمر من الأمور، ومنها الصورة الذهنية المعروفة بأنها «بقاء أثر الإحساس في النفس بعد زوال المؤثر الخارجي». ولذلك قال بعضهم إنها ذكرى الإحساس. ومن الأمثلة على ذلك: ذهاب الشيء الذي أراه بعيني، أو هدوء الضجة التي أسمعها، أو انطفاء النار التي تدفئني، والإحساس بالبرودة.. وبعد ذلك يمكن تصور شكل ذلك الشيء، وهاتيك الضجة، والحرارة بعد ذهابها من واقع وجودها. وعندما يتصور أحد ذلك، فلا يقول بأنه يرى أو يسمع تلك الأشياء، بل يقول إنه يتصورها أي يستعيد صورتها في ذهنه كما كانت عليه قبل ذهابها أو انقطاعها. فالصورة إذن من طبيعة الإحساس، لأنها في الغالب نسخة منه، وهي ظاهرة نفسية بسيطة إلا أنها ليست أولية كالإحساس. وقد قيل: الإحساس صورة أولى، والصورة إحساس ثان.

إذن فهنالك صورة حسية تعطي شبه المصوَّر وبها يتميز عن غيره. وهنالك الصورة الذهنية التي تنتج عن الإحساس في الأصل، ويعبر عنها بالأشكال أو بالألفاظ والمعاني. فعندما يقول الله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾(1). فهذا يعني أنه وحده سبحانه تفرَّد بخلق الناس، وجعل لهم صورهم في الأرحام كما يشاء وعلى أي صفة يشاء من ذكر أو أنثى، أو جميل أو دميم، أو طويل أو قصير، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في سلطانه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، يصور الجنين في رحم أمه على هذه الصفة، ويركب فيه من أنواع البدائع

(1) آل عمران: ٦.

كيف يشاء من غير آلة ولا كلفة. وقد تأكد لكل عاقل أن عباقرة العالم لو اجتمعوا على أن يخلقوا من الماء بعوضة، ويصوروا منه صورة ممّا يشاهدونه ويبصرونه لما قدروا على ذلك، ولا وجدوا إليه سبيلاً، فهل يقدرون على تصوير ذلك في الأرحام.

فالله سبحانه وتعالى هو وحده الذي يتولى التصوير، بمحض إرادته، ومطلق مشيئته، يدبر الأمر بحكمته فيما يصور ويخلق، بلا معقب، ولا شريك. وفي هذا التوجيه الرباني للناس تجلية لشبهات النصارى في خلق عيسى عليه السلام ونشأته ومولده. فالله سبحانه هو الذي صور عيسى بن مريم عليه السلام. وليس عيسى هو الله ـ جلَّ وعلا ـ أو هو الابن، أو هو الأقنوم اللاهوتي الناسوتي، إلى آخر ما انتهت إليه التصورات الغامضة المجانبة لفكرة التوحيد الناصعة الواضحة، اليسيرة التصور، القريبة الإدراك. سبحانه وتعالى عما يصفون.

وإلى هاتين الصورتين الحسية والذهنية أشار الله تعالى في كثير من الآيات القرآنية الكريمة. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾[1]. والخلق هنا معناه الإنشاء. والتصوير معناه إعطاء الخلقة أو الهيئة والخصائص. وهما مرتبتان في النشأة لا مرحلتان. لأن «ثم» قد لا تكون للترتيب الزمني ولكن للترقي المعنوي. والتصوير، بهذا المعنى، أرقى مرتبةً من مجرد الوجود. وإن جميع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام أو في نشأة الجنس البشري، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية، ووظائفه المستقلة، كان مصاحباً لخلقه. إذ إنَّ الله سبحانه وتعالى بعد أن صنع شكل الإنسان ونفخ فيه من روحه، استوى بشراً سوياً، بتركيب جسمه، وأعضائه، ووظائف هذه الأعضاء جميعاً، بما في ذلك قوة الإدراك والتمييز مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ

(١) الأعراف: ١١.

ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1] . . وأما ما طرأ على الجنس البشري، من تغييرات عبر الدهور، فكان نوعاً من الترقي في بروز الخصائص الإنسانية ونموها، وتدريبها، واكتسابها الخبرة العالية.

فالإنسان إذن ومذ خلقه الله تعالى، هو الإنسان. وترقّيه لم يكن ترقياً من تطور الأنواع حتى انتهى إلى إنسان، كما تقول الداروينية، بل كان ترقياً في الوجود البشري ذاته، باكتمال عناصر النضوج التي تجعل الأجيال اللاحقة أكثر وعياً، وخبرةً، وقدرةً على إيجاد الأشياء التي تجعل الحياة البشرية أكثر رقياً، وتمدناً وحضارة. .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[2] .

الله تعالى لا يخفى عليه شيء كائن في الأرض ولا في السماء، لعلمه بما يقع فيهما من كلي وجزئي. وقد خصهما بالذكر لأن الحس لا يتجاوزهما. وعلم الله تعالى بما فيهما وما بينهما هو علم مطلق، لأنه يتفق مع وحدانية الألوهية والقوامة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾[3].فلن يفلت ﴿شيء﴾ من علم الله تعالى ﴿في الأرض ولا في السماء﴾ بهذا الإطلاق. ولن يمكن إذن للإنسان أن يستر نواياه على الله خالقه، كما يفعل تجاه غيره من الناس، فقد يجهل هو نفسه خفايا نفسه، في حالات كثيرة، بينما كل ذلك لا يخفى على الله تعالى. . وعلم الله تعالى الذي يشتمل على كل شيء، يدخل فيه العلم الإلهي بالنشأة الإنسانية، التي هي في عالم الغيب، وفي ظلام الأرحام، حيث لا علم للإنسان ولا قدرة ولا إدراك لما في هذه الأرحام، بل علمها عند الخالق المدبّر، الذي يصوركم أيها الناس في الأرحام، ويمنحكم

---

(١) البقرة: ٣١. (٢) آل عمران: ٥ ـ ٦. (٣) البقرة: ٢٥٥.

الصورة والخصائص المميزة لهذه الصورة كيف يشاء. فالله تعالى وحده الذي يتولى تصوير الجنين في رحم أمه، من ذكر وأنثى، وهو وحده الذي يمنح لهذا الجنين الخصائص التي تميزه عن سائر الأجنة الأخرى، حتى عن توأمه الذي يكون وإياه في نفس الرحم. وذلك وفقاً للسننِ التي أودعها ـ سبحانه ـ الجنس البشري بحيث جعل فيه الأبيض والأسود والأصفر والأحمر، والطويل والقصير، والجميل والقبيح، وجعل فيه الذكاء والخمول، والنشاط والكسل، والإدراك والجهل... ومختلف الخصائص التي يتميز بها الجنس البشري من ناحية، والخصائص التي تميّز كل فردٍ عن غيره من أبناء هذا الجنس من ناحيةٍ أخرى.. كل ذلك كما يشاء الله تعالى، بمشيئته المطلقة، لأنه هو الله، الإله الواحد الأحد، ولا إله غيره، تعزّز بألوهيته، وبقدرته وقوته على الخلق والتصوير، وتعزز بحكمته التي تدبّر الخلق فيما يصور ويخلق، بلا معقب ولا شريك..

ويقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

إن الأرض هي مقر أو مستقر صالح لحياة الإنسان، بما أودع فيها خالقها من عوامل وعناصر وخصائص تجعلها صالحة لحياة الإنسان وموافقة لهذه الحياة.. والسماء بناء ثابت بتكامل النسب والأبعاد والحركات والدورات التي تضمن ترابط البناء وتماسكه، كما تضمن الاستقرار لحياة الإنسان في الأرض، لأن هذه الأرض هي جزء من البناء الكوني الثابت المترابط.. من هنا تربط هذه الآية الكريمة بين

---

(١) غافر: ٦٤.

تكوين الأرض والسماء وتكوين الإنسان الذي صوَّره الله تعالى فأحسن صوره، لأنه ليس أجمل ولا أرقى من صورة هذا الإنسان، إن من الناحية الجسدية أو من الناحية النفسية... وهذا الربط الذي يجعل التوافق قائماً ما بين الأرض والسماء ينتج عنه، بالتدبير الإلهي، توافر الأرزاق والثمرات، إذ إن عوامل الشمس والقمر والهواء والماء والتربة، وبالنظم التي تسير عليها، تتفاعل فيما بينها لتؤمن الرزق الذي يخدم الإنسان. وتوزيع هذا الرزق بين المخلوقات، يكون بمشيئة الله تعالى الذي يرزقهم من الخيرات ما يأكلون ويشربون منه حلالاً طيباً. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] هو ربكم أيها الناس ورب الخلائق في السماء والأرض. ﴿فتبارك الله﴾ وعظمت بركاته ورحماته، وجزلت عطاياه وأنعمه، هو ﴿رب العالمين﴾ أجمعين، بلا استثناء، فلا مخلوق من حي أو جامد إلا والله تعالى ربه. وهو ـ سبحانه ـ ذو البركات والطيبات من الرزق، الذي تبارك في عليائه، وفي خلقكم. وهو ـ سبحانه ـ بفضل بركاته صوركم أيها الناس فأحسن صوركم.

يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2].

فبإرادة الله تعالى وبقدرته خُلِقَ هذا الإنسان، وأُودعت في نفسه استعدادات وإمكانات للانحراف نحو الكفر أو الاتجاه إلى الإيمان. والإنسان وحده من بين جميع خلق الله تعالى الظاهرة للعيان هو الذي نعم بهذا الاستعداد المزدوج. وقد كرَّمه ـ سبحانه ـ عندما أودع

---

(1) غافر: ٦٤.

(2) التغابن: ٢ ـ ٣.

فيه القدرة على التميز، والقدرة على الاختيار، وأمدَّه بعد ذلك بالميزان الذي يزن به عمله ويقيس به اتجاهه، وهو الدين الذي أنزله على رسله، فلم يبقَ أمام الإنسان إلا أن يتجه إلى الإيمان. ولكن كثيراً من الناس يتجهون نحو الكفر، وهذا ما أثبتته وقائع الحياة البشرية. فالله تعالى هو الذي خلق الناس وأمدَّهم بالاستعدادات، فكان منهم كافر، وكان منهم مؤمن.. والكفر والإيمان خطان متناقضان ينجمان عن أعمال الإنسان، فكان الله تعالى هو الرقيب، العليم، البصير بما يعمل الناس، وبما يفعلون من صغيرة وكبيرة، من أبسط ذرة إلى أضخم عمل يمكن أن يقوم به الإنسان..

وكما خلق الله تعالى الناس، فصار منهم كافر ومؤمن بفعل أعمالهم، كذلك هو الله تعالى ﴿خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾.

حقيقة ثابتة ومطلقة: إن الله تعالى خلق السماوات والأرض بالحق. والخلق بالحق لأن الله تعالى هو الخالق، وهو الحق، فلا يمكن أن يخلق شيئاً إلّا بالحق. والكون كله لا يقوم إلا على خلقه بالحق، وبناؤه كان على هذا الأساس المتين الذي لا يشوبه باطل. إذ لو لم يكن هذا الكون قائماً على الحق لاختلفت فيه النسب والأبعاد، ولتضادَّت فيه الحركات والدورات، ولتعاكست فيه الأوزان والأحجام... ولكان نجم عن ذلك تصادم بين أجزائه، في أي وقت، أدّى إلى تشققه وانهياره.. مع أنه كون قائم بكل خصائص خلقه التي تؤمن له التماسك والانتظام وثبات البنيان، لأن أساسه الحق، وهو صادر عن الحق، وتسييره وبقاؤه من الحق..

والحقيقة الثانية الثابتة والمطلقة هي أن الله تعالى خلقكم

﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾.. وتستوقف الباعث لفظة ﴿صوركم﴾ للتدليل على أن لكل إنسان صورة خاصة به، وقد يأتي تشابه في بعض أجزاء الصورة بين إنسان وآخر، إلَّا أن لكل واحد صورته الخاصة التي تميّزه عن غيره.. فتبارك الله الذي يجعل لكل مخلوق بشري صورة خاصة به. وهذه الصورة جعلها الله تعالى حسنة، جميلة، محببة، مقبولة، تشعر الإنسان بكرامته عند خالقه، وبفضله ـ سبحانه ـ عليه في تحسين صورته.. صورته الخلقية، وصورته الشعورية أو النفسية.. فالإنسان هو أكمل الأحياء في الأرض من ناحية تكوينه الجسماني، وهو أرقاها من ناحية تكوينه النفسي، واستعداداته ذات أسرار عجيبة. ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتركيب الإنسان، أو لأي جهاز من أجهزته تثبت هذه الحقيقة وتجسّمها: ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾. وهي هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال.. ولئن تفاوت الجمال بين شكل وشكل إلا أن التصميم في ذاته جميل وكامل الصنعة، ووافٍ بكل الوظائف والخصائص التي يتفوق بها الإنسان في الأرض على سائر الأحياء.

﴿وإليه المصير﴾.. مصير كل شيء.. وكل أمر.. وكل خلق.. مصير الكون، ومصير الإنسان.. من إرادته ينشأ كل شيء، وإليه يعود كل شيءٍ.. منه المنشأ وإليه المصير. وهو الأول والآخر.. فلا يحسبنَّ الإنسانُ أنه متروك سدىً، وأن ليس له مرجع يعود إليه. فهو يعرف أن بقاءه على هذه الأرض محدود، وأن له مصيراً ينتهي فيه إلى الله تعالى. فليستعد الإنسانُ لمصيره، وليكن مؤمناً وليس كافراً، حتى يكون مصيره في جنات النعيم بدل أن يكون في نار الجحيم..

ويقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ

﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1]. إن من يطلع على «سورة الحشر» في القرآن الكريم يجد أنها تبتدىء بأول آية بقول الله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[2]، وتنتهي بآخر آية بقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[3].

إنها الحقيقة التي يجب أن يستشعرها كل قلب طاهر، وكل نفس صافية، كما يستشعرها كل كائن في السماوات والأرض فالكل يسبح لله: الإنسان، والطير، والحيوان، والأسماك، والنَّبات.. كلٌّ قد عرف صلاته وتسبيحه، حتى أن مخلوقات الجماد ذاتها لها لغة خاصة تمجّد بها خالقَها وتسبّحه. بهذه الحقيقة، حقيقة تسبيح كل شيء في الوجود لله تعالى واتجاهه إليه بالتنزيه والتمجيد، تفتتح «سورة الحشر» وتختتم، مع التأكيد على أن الله تعالى ﴿هو العزيز الحكيم﴾ القوي القادر على نصر أوليائه، وسحق أعدائه، الحكيم في حسن صنعه، وتدبير خلقه..

﴿هو الله﴾، تعزَّز بالألوهية وحده، فلا إله غيره ـ سبحانه ـ. ﴿الخالق﴾ والخلق هو التقدير والتصميم.. ﴿البارىء﴾. والبرء هو التنفيذ والإخراج. وهما اسمان من أسماء الله الحسنى، ليس بينهما غير فارق دقيق لطيف.. ﴿المصور﴾ وهو اسم مرتبط بالاسمين الآخرين: الخالق، البارىء. وتصوير الله تعالى هو إعطاء الملامح المميزة والسمات التي تمنح لكل كائن شخصيته الخاصة.

وقد يتصور الإنسان أن الخلق والإنشاء والإيجاد والتصوير والإخراج تتم على مراحل. وليست هنالك، في الحقيقة، مراحل على الإطلاق، وإن كنا نحن البشر نعجز عن إدراك مدلولات الأسماء

---

(1) الحشر: ٢٤. (2) الحشر: ١. (3) الحشر: ٢٤.

التي يصف بها تعالى نفسه (الخالق، البارىء، المصور) على حقيقتها المطلقة، ولا ندري إلَّا شيئاً من آثارها فقط في حدود طاقتنا المحدودة. ﴿له الأسماء الحسنى﴾ كلها، كما عددها القرآن الكريم... وهي الحسنى في ذاتها، بلا حاجة إلى استحسان من الخلق، إنما توحي بالحسن للقلوب وتفيضه عليها. وهي الأسماء التي يجب على المؤمن أن يتدبرها ليجعل نفسه تسير وفق إيحائها واتجاهها، حتى يكون له التدرج في المراقي وهو يتطلع إليها..

﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

والتسبيح لله تعالى دائم لا ينقطع يتردد في جنبات الوجود كله، وينبعث من كل موجود، تتشارك فيه الأحياء والأشياء، فسبحان الله رب العالمين.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[2].

﴿يا أيها الإنسان﴾.. إنه نداء للمخلوق البشري في أكرم صفة يتميز بها عن سائر الأحياء وهي: «إنسانيته». وفي هذا النداء عتاب من ذي العزة والجلال لهذا الإنسان الذي تكرم عليه، فخلقه، ورعاه، ودبَّره... نداء يثير فيه اتجاهات نفسه الملتوية التي جعلته يقصِّر في حق ربه الكريم، ويتهاون في أمره، ويسيء الأدب في تعامله مع نفسه ومع الآخرين.. فهل يجوز هذا للإنسان بعدما أغدق عليه ربه من كرمه وفضله وبرّه فوق ما يتصور ويدرك؟!...

ومن هذا الفيض الرباني، والكرم الإلهي: أنْ خَلَقَهُ فسواه، فعدله.. وهو قادر على أن يركبه في أي صورة وفق ما يشاء..

فأما خلق الإنسان على هذه الصورة السوية، المعتدلة، الكاملة

---

(1) الحشر: ٢٤.
(2) الانفطار: ٦ ـ ٨.

الشكل والوظيفة، فأمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجم، والحب من المخلوق لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة الجميلة، وقد كان قادراً أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها، فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة.. ثم إنَّ هذه الصورة على كمال تكوينها العضوي والنفسي، يركبها الله تعالى، في هذه الحياة الدنيا، في صور مختلفة، وأشكال متغيرة، تبدأ مع مراحل عمر الإنسان، وتنتهي عند أجله: إذ تكون له صورة وهو طفل، وأخرى وهو فتى، وصورة وهو شاب في مقتبل الفتوة والحيوية، وصورة وهو كهل بدأ الشيب يغزو رأسه والتجاعيد تقتحم وجهه، ثم ينتقل من مرحلة الكهولة إلى مرحلة الشيخوخة حيث يدب فيه الوهن والضعف في خلايا الجسم وفي وظائف الأعضاء، وفي الحواس.. حتى يصل إلى آخر مرحلة، وآخر صورة وهي تختلف عن أول صورة في الطفولة، أو في الشباب أو في المراحل الأخرى.. هذا التركيب لصورة الإنسان الواحد في مختلف مراحل حياته يكون كما يشاء الله تعالى له أن يكون. فقد يبقي للإنسان رونقه، وجماله، وقوته، وقد يغيّره تغييراً كبيراً في الصورة الخارجية كما في التركيب الداخلي.. ولعلَّ الإنسان يقدر على فهم هذا التركيب لصورته، لو أنه تتبع مراحل حياته كلها، وأخذت له صور فوتوغرافية خلال كل مرحلة من هذه المراحل، فإنه ليجد فرقاً شاسعاً في صوره بين كل مرحلة وأخرى، حتى قد لا يعرف صورته وهو طفل يحبو، ويعجب قائلاً: «أحقاً هذا أنا»؟!... فتعالى الله الخالق، البارىء، المصور، في أي صورة ما شاء يركب الإنسان عند خلقه، وفي جميع مراحل حياته..

ومن مجمل الآيات القرآنية السابقة نستنتج أن هنالك صورتين للإنسان أوجدهما الله تعالى في مخلوقاته الحية عامة وفي الإنسان

خاصة: وهما صورة خَلْقه، وصورة تركيبه.

ولكن هنالك صورةً ثالثة وصورةً رابعة أيضاً، يباشر الإنسان فيهما أعماله لنيل حاجاته وإشباع رغباته. الصورة الثالثة هي التي يضع فيها الإنسان نفسه مدفوعاً بطاقته الحيوية التي هي حاجاته العضوية وغرائزه، وذلك طوال رحلة عمره، وهو يسعى أثناءها لإشباع الطاقة الحيوية فيه بشتى الوسائل والصور.. هذه الصورة الثالثة هي التي تبرز الإنسان بمجمل صفاته وخصاله: حب وكراهية، طمع وقناعة، بخل وكرم، شجاعة وجبن، وحمق ونباهة، استقامة وسفاهة.. إلى آخر ما قد يتصف به الإنسان ويكوِّن شخصيته وسلوكه..

والصورة الرابعة هي التي يشترك فيها الإنسانُ نفسه مع غيره في تصوير حياته. إذ إن الناس غالباً ما يلتقطون له صوراً حسية أو معنوية، ويكوّنون عنه فكرة معينة، أو يصفونه بأوصاف معينة. فهذه الصورة الرابعة ناجمة عن تصرفات الإنسان نفسه وعن حكم الآخرين عليه، وهم يصفونه في الصورة التي يقدّرونه عليها أو في صور متعددة رغماً عنه..

ويبقى أخيراً أن الملائكة الموكلة بالإنسان تحتفظ له بجميع صور حياته منذ نشأته وإلى حين وفاته، حيث تعرض عليه هذه الصور يوم القيامة بصورة تدريجية متسلسلة، تماماً كما تعرض مشاهد فيلم سينمائي من الأفلام التي نشاهدها مسجلة بواسطة كاميرات السينما والتلفزيون.. من هنا كان على الإنسان أن يدرك بأنه مدعو إلى ذلك اليوم الرهيب، إلى يوم الحساب، حيث يلاقي ربه الكريم، لتعرض عليه ـ سبحانه ـ تلك الصور الحسية والمادية والنفسية والمعنوية التي

عاشها الإنسان في حياته الدنيا، والتي سيتقرر على أساسها مصيره في الآخرة. .

أنظر إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1]. الله تعالى عندما يحيي الموتى يوم القيامة، إنما يكون إحياؤهم للجزاء الذي ينتظرهم. ولذلك فهو - سبحانه - يكتب ما قدموا من طاعات ومعاص في دار الدنيا، ومن أعمال كان لها أثرها على سلوك الآخرين حتى صارت عادة مألوفة، أو سنة قائمة من سننهم التي ابتدعوها، يقتدي بها غيرهم ممن يأتون بعدهم، سواء كانت حسنة أم قبيحة. . وتلك الأفعال يحصيها الله تعالى على الناس، كما يحصي كل شيء من أفعالهم وأقوالهم في إمام مبين، أي في كتاب محفوظ. ذلك أن الملائكة التي أوكلها الله سبحانه وتعالى كحافظين ورقباء، إنما يحصون على الإنسان أفعاله بصور واضحة بينة في الملف أو في الكتاب الذي يعدونه لكل إنسان. والإنسان هو الذي يضع نفسه في هذه الصور التي تحصيها الملائكة، مع الصور الأخرى التي يشترك الآخرون في وضعه فيها. وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة من عبارات تستوقف القارىء الحصيف وتسترعي انتباهه. إذ لو فكَّر ملياً في هذه العبارات لامتلأ منها رعباً وخوفاً وخشية، وأعاد النظر في سلوكه مع ربه، ومع نفسه، ومع الآخرين. فعندما يقول الله تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ فهذا يعني أننا سجلنا عليه حركاته وسكناته، وأحصينا جميع أقواله وأعماله في كتاب واضح صريح هو دليله يوم الحساب، لأنه يبين له كل شاردة وواردة صدرت عنه. . .

---

(١) يس: ١٢.

وقد كنا نحن حتى الأمس القريب لا نتفهم معاني هذه الآية الكريمة بالدقة التي يريدها القرآن الكريم، حتى ظهر تسجيل الأشرطة، وخاصة في هذا القرن، فقرَّب ذلك فهم قول الله تعالى إلى أذهاننا بعض الشيء، وصرنا نعقل أنه سبحانه وتعالى قد وكَّل ملائكة يسجلون كلامنا الذي نفوه به، ويكتبون أعمالنا التي نقوم بها، وذلك بطريقة سريعة، قد لا نعرف ماهيتها، وإنما هي سريعة بدرجة تقدر معها على استيعاب كل قول أو فعل، تماماً كما يستوعب الشريط المسجل كل مشهد مما يصور أو كل لفظة مما يقال. . وهذا ما يفسِّر لنا ـ من ثمَّ ـ استيعاب تسجيل أعمالنا وأقوالنا بدقة قد تصل عندنا إلى الخمسين بالمائة من استيعاب فهم قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق: ١٨).

ثم تعاقبت السنوات فطلع علينا (الفيديو) الذي يسجل أشرطة الصوت والصورة، وينقل إلى الآخرين حقيقة ما يجري في الجلسات والمؤتمرات والحفلات، فسهَّل ذلك علينا كثيراً فهم الآية الكريمة من حقيقة ما يجري لدى كل إنسان. وعندها حق لنا أن نقول بعد استعمال (الفيديو) الذي بين أيدينا: إن الذي قال ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ قد خلق ـ سبحانه ـ وسائل تسجيل تفوق الوسائل التي ابتدعها الإنسان، لأنها تسجل الصوت والصورة مع ما يواكب ذلك من آثار الحيوية والحرارة والإحساس والفكر الحركي، بحيث إذا رأى الصورة صاحبُها، انتقل ـ تواً ـ إلى الجو الذي كان يعيشه أثناء حياته الدنيا، فيحس بإثم ما أقدم عليه من معصية، وبمسؤولية ما ارتكب، وبجريرة كل صغيرة وكبيرة من الذنوب والآثام. فإذا ما رأى كتابه بين يديه ـ في الحساب يوم القيامة ـ رأى نفسه كأنه في حياته الدنيا، يمارس كل ما كان يمارسه في تلك الحياة، ويشعر بما كان يشعر به من لذائذ في أوقات

اللذة، ومن أحزان في أوقات الحزن، ومن حسرة أو ندم أو سرور إلى ما هنالك من مشاعر وأفعال.. فلا حاجة، والحالة هذه، لمحاسب ولا لمناقش.. بل: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾[1] !.

وإننا في أيامنا هذه نستعمل أشرطة (الفيديو) المصوّرة لأفراحنا وأتراحنا، وجميع مناسبات حياتنا، فننتقل -عند رؤيتها- إلى أجوائها السابقة، ونعيش جزءاً كبيراً من لحظاتها الحقيقية مع أُسرنا وأصحابنا وضيوفنا، الأمر الذي يسهل علينا فهماً أكثر للآية الكريمة التي يقول الله تعالى فيها ﴿ونكتب ما قدَّموا﴾ أي ما قاموا به من أعمال الطاعة والمعصية، وجعلوه زاداً مقدَّماً أمامهم يوم الحساب، وبعثوا به -سلفاً- قبل موتهم. ﴿ونكتب آثارهم﴾ كذلك، إذ تسجَّل عليهم قولهم وفعلهم، بل الحركة، والنأمة[2]، ونظرة الريبة، والمعونة على الظلم، واللهو والباطل، كما تسجّلت طاعاتهم وعباداتهم وخيراتهم ومبرّاتهم، فكان شريط حياتهم نسخة طبق الأصل عن حياتهم من المهد إلى اللحد، لا ينقص ولا يزيد!.

وإن تعجب من ذلك فعجبك أكبر من تطاير مليارات ومليارات الكتب يوم القيامة، ووقوع كل كتاب بيد صاحبه -لا بيد غيره- فلا يحار كتاب، ولا يحور، ولا يدور: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ (كتابه الطائر إليه) فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[3]. وذلك بعد أن تتسابق الأرواح، بعد النفخة الأخيرة في الصُور، وتتطاير متزاحمةً، كل روح ذاهبة إلى جسد صاحبها لا تخطئه ولا تحيد عنه... فتأمل -أيها القارئ الكريم- قدرة الله تعالى، ودقة نظامه في يوم

(1) الإسراء: ١٤.
(2) النأمة: النغمة والصوت.
(3) الإسراء: ١٣.

يكون فيه هو ـ جلَّ وعلا ـ مالك يوم الدين.. وطوِّر حياتك على أساس أنك ملاقٍ ربك في يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون، إلَّا من أتى الله بقلب سليم.

وهكذا يتبين لنا بوضوح أن الله تعالى هو الذي يتولى التصوير، بمحض إرادته، ومطلق مشيئته. وأما ما يفعله الناس الذين يطلق عليهم صفة «المصورين»، أو «الشعراء» الذين يأتون بالصور الذهنية، أو «الموسيقيين» الذين يأتون بتصورات تنمّ عنها الأنغام والألحان التي يؤلفونها.. فهؤلاء ليسوا بمصوِّرين، وإنما هم مجسّدون لأشكال، ومظهرون لمشاعر، لا تنمُّ عن قدرة في التصوير، وإنما عن قدرة في نقل الصور الموجودة أصلاً، والتي تعود إلى الخالق وحده..

وقد تتوهم هذه الفئات من الناس أنها تقوم بالتصوير فعلاً، وذلك نتيجة لما يوسوس به الشيطان في نفوسها، وما ينفث فيها من أوهام بعيدة عن الحقيقة المطلقة، التي ترجع أمر التصوير لله سبحانه وحده.. وبسبب تلك الأوهام وأفاعيل الشيطان بيّن لنا القرآن الكريم أن الله تعالى مطلع على سرائر هؤلاء الناس، وعالم بوساوس نفوسهم، فأنزل ـ سبحانه ـ آيات بيّنات تتناولهم في أوهامهم وأباطيلهم. ومن العجب العجاب الذي يأخذ الإنسان أن الله تعالى ذكر الشعر والشعراء في ست سور من القرآن الكريم، وذكر الصورة والتصوير في ست سور أيضاً.

فأما عن ألفاظ «الصورة والتصوير» فقد وردت في الآيات السابقة التي تم بحثها. وأما من حيث لفظة «الشعر» فلم تذكر إلا في سورة واحدة هي سورة «يس». وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾[1]. في حين أن لفظة «الشاعر» قد وردت في أربع سور هي:

(١) يس: ٦٩.

سورة الأنبياء، الآية (٥)، في قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

سورة الطور، الآية (٣٠)، في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ أي بل هو شاعر ننتظر حوادث الدهر أن تنزل به فيهلك كغيره من الشعراء.

سورة الصّافات، الآية (٣٦)، في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾؟

سورة الحاقة، الآية (٤١)، في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وتبقى لفظة «الشعراء» التي سيرد الحديث عنها تفصيلاً بعد قليل..

الكهانة والعرافة

الكاهن: هو الذي يخبر الأخبار الماضية الخفيَّة بناءً على الظن، وهو غير العرَّاف، لأن العرَّاف يخبر الأخبار المستقبلية وليست الماضية بناءً على الظن أيضاً.

ولما كانت صناعة الكهانة أو العرافة مبنية على الظن الذي يخطىء ويصيب فقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما قال، فقد كفر بما أنزل على أبي القاسم (محمد صلى الله عليه وآله وسلم)». ويقول الله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾[1] أي شياطين الجن كانوا ينقلون ما سمعوه من الملائكة إلى الكهنة، والشياطين والكهنة يضمُّون

---

(١) الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣.

إلى المسموع كذباً كثيراً. وقد كان هذا قبل أن حجبت الشياطين عن السمع بعد نزول القرآن الكريم. وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الكهان فقال: «ليسوا بشيء. فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً. فقال: تلك الكلمة من الحق يتخطّفها الجنيُّ، فيقرها في أذن وليِّه (أي الكاهن وأمثاله) فيخلطون معها مائة كذبة».

ومن قول للإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة، «يا أيها الناس، إياكم وتعلُّم النُّجوم إلا ما يُهتدى به في برٍّ أو بحر، فإنها تدعو إلى الكهانة. والمنجِّمُ كالكاهن، والكاهنُ كالساحر، والساحرُ كالكافر، والكافر في النار».

الشعراء

إن لفظة «الشعراء» قد نزلت بها سورة كاملة من ٢٢٧ آية هي «سورة الشعراء». وورد ذكر هذه اللفظة في آية واحدة فقط هي الآية ٢٢٤ من السورة كلها حيث قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾.. وتسميةُ هؤلاء الذين يتبعون الشعراء بالغاوين فيها ذمٌّ لهم وللشعراء معاً. فهم مذمومون من لدن ربِّ العزّة. وقد جاء هذا الذمّ في الآيتين التاليتين بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[1]. ومن يدقق في الآيات التي وردت في سورة الأنبياء، والطور، والصافات، والحاقة، يجد بوضوح أن المشركين والكفار كانوا ينعتون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه شاعر، بل وبأنه شاعر مجنون. والله تعالى ينفي عنه صفة الشاعر، وصفة قول الشعر... ويتضح من المقارنة بين منهج الله تعالى، الذي بعثَ به محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً للبشرية، وبين النهج الذي يسير عليه الشعراء وأمثالهم، أنّ

---

(١) الشعراء: ٢٢٥.

الفارق كبير جداً.. وقد جاءت ثلاث آيات من «سورة الشعراء» تبين منهج هؤلاء وطرائق فعالهم وتفكيرهم...

لقد كانوا يقولون عن القرآن الكريم: إنه شعر.. ويقولون عن النبي ﷺ: إنه شاعر.. فجاء القرآن، في سورة الشعراء، يبين لهم أن منهج محمد ﷺ ومنهج القرآن، غير منهج الشعراء، ومنهج الشعر أصلاً. إن هذا القرآن يستقيم على نهج واضح، ويدعو إلى غاية محددة، ويسير في طريق مستقيم إلى هذه الغاية. والرسول ﷺ لا يقول قولاً وينقضه، ولا يتبع أهواء وانفعالات متقلبة، فهو لا ينطق عن هوىً، وإنما يصرّ على دعوة التوحيد، ويثبت على هذه العقيدة، ويدأب على نفس المنهج الذي لا عوج فيه.

أما الشعراء فليسوا كذلك. الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلبة. تتحكم فيهم مشاعرهم، وتقودهم إلى التعبير عنها كيفما كانت. ويرون الأمر الواحد أسود في لحظةٍ وأبيض في لحظة أخرى. يرضون فيقولون مدحاً، ويسخطون فيقولون هجاءً. فهم أصحاب أمزجة لا تثبت على حال.. هذا إلى أنهم يتخيلون عوالم من الوهم يعيشون فيها، ويتوهمون أفعالاً ونتائج ثم يخالونها حقيقة واقعة يتأثرون بها. فيقل اهتمامهم بحقيقة الأشياء، لأنهم ينسجون في خيالهم واقعاً آخر يعيشون فيه..

فمنهج الرسول ﷺ ومنهج الشعراء مختلفان، ولا شبهة هناك، فالأمر واضح صريح: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون؟!﴾. فهم يتبعون المزاج والهوى، ومن ثم يتبعهم الغاوون، الهائمون مع الهوى، الذين لا منهج لهم ولا هدف.

وهم يهيمون في كل واد من أودية الشعر والتصور والخيال، وفق الانفعال الذي يسيطر عليهم في لحظة من اللحظات تحت وقع مؤثر من المؤثرات. وهم يقولون ما لا يفعلون.. لأنهم يعيشون في عوالم الخيال والوهم، ويؤثرونها على واقع الحياة الذي لا يعجبهم. ومن ثَمَّ يقولون أشياء كثيرة ولا يفعلونها، لأنهم عاشوها في تلك العوالم الوهمية، وهي لا تمت إلى الحقيقة بشيء في دنيا الناس. إن طبيعة الإسلام ـ وهو منهج حياة مُعَدٌّ للتنفيذ في واقع الحياة ـ لا تلائمها طبيعة الشعراء كما عرفتهم البشرية في الغالب. ولذلك لا يمكن أن يتفق منهج الإسلام ومنهج الشعراء، لأنهما من طبيعتين مختلفتين ويتجهان نحو غايتين متناقضتين.

ومع هذا فالإسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته. إنما يحارب المنهج الذي سار عليه الشعر والفن: منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها، ومنهج الأحلام الوهمية التي تشغل أصحابها عن تحقيقها.

فأما حين تستشعر النفس منهج الإسلام، وتنضح بتأثراتها الإسلامية شعراً وفناً، وتعمل على تحقيق المشاعر النبيلة في دنيا الواقع، أي حين تنظر في الدنيا فتراها من زاوية الإسلام، وفي ضوء الإسلام، ثم تعبِّر عن هذا كله شعراً وفناً، فالإسلام عند ذلك لا يكره الشعر، ولا يحارب الفن. بل على العكس من ذلك، إن القرآن الكريم وجه القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون، وإلى خفايا النفس البشرية، ويمكن أن تكون هذه وتلك مادة للشعر أو الفن، الذي يرضي الله تعالى ولا يسخطه.

ولكن ما نراه اليوم من ضروب الفنون ـ أو ما يسمونه فنوناً ـ وما تمثل من تعدٍّ على حرمة الكائن البشري وكرامته بما يَطْلعُونَ به على

الناس من تلك الصور الإباحية، أو تلك التماثيل المجسّدة للأهواء والنزعات، أو هذا الشعر الهستيري المقيت.. الخ... فهل مثل هذه الصور والتماثيل والأشعار مما يسمو بمدارك النفس البشرية، ويبرهن عن معجزات الخالق في الكون؟ هذا ما يحاربه الإسلام، ذو المنهج القويم في الحياة، لأنه لا يريد أن يعرّي الإنسان من كرامته التي أكرمَهُ الله تعالى بها، ولا يريد أن تتخذ مواد الكون والحياة مظاهر للتعدي على صفة الخلق التي لا تكون إلَّا لله تعالى وحده.. من أجل ذلك حذَّر رسولُ الله ﷺ من الأوهام التي تسيطر على عقول بعض فئات الناس أمثال الشعراء والفنانين، وخصَّ بالتحذير المصوّرين، بأحاديث شريفة ومنها: ﴿من صوَّر صورةً كُلِّف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ﴾ أو حديثه ﷺ: «كل مصور في النار يُجْعَلُ له بكل صورة صورها نفسٌ تعذبه» وحديثه ﷺ: «ومن صور صورة عُذّب وكلف أن ينفخ فيها الروح».

ثم إن من الأمور الهامة أن الآيات، التي دفعت باطل المشركين باتهام النبي الكريم بالتجديف، هي آيات بينات تتعلق بالعقيدة الإسلامية، وتثبيت مفاهيمها في النفوس، بما يبعد عنها الأوهام والانفعالات والتأثيرات التي تصدر عن أعدائها، أو التي لا تتوافق معها، كما هي الحال بالنسبة لتصورات وأوهام المصورين والشعراء ومن هم على شاكلتهم.

ومن الأفعال الباطلة أيضاً، التي يمقتها الله تعالى لأنها تبعد الناس عن العقيدة والحق والصواب، أفعال السحرة التي تزيف الحقيقة، وتجعل الناس يتخيلون أشياء لا تمت إلى الواقع بصلة. ويتم ذلك لهم بفعل التخيّل. فما هو التخيل وتأثيراته؟

التخيّل

الخيال في أصله صورة مجردة قد تكون ابتكاراً من الذهن أو النفس أو انعكاساً لصورة فعليةً واقعية. ومن قبيل ذلك الصورة المتصوَّرة في المنام، وفي القلب بعيد غيبوبة المرئي، أو الصورة التي نراها في المرآة. وهي بذلك تشتمل على صورة أي كائن أو أي أمر متصور يجري مجرى الخيال. والفعل الذي يجري به الخيال هو التخيّل. وهذا التخيل يكون على نوعين: تخيّل مبدع، وتخيل وهمي. وهذا الأخير لا يمت إلى الحقيقة بصلة أبداً، ومثاله أفعال السحرة. فلنبدأ البحث في السحر وتأثيره على الإنسان، ثم نعود، فيما بعد، لبحث التخيل المبدع.

السحر

السحر في اللغة: الصرف. تقول سحره عن كذا أي صرفه وأبعده عنه. ويطلق السحر على إخراج الباطل في صورة الحق. ولذلك فإن كل ما يفعله الإنسان من الحيلة والكذب والخديعة والتمويه من شأنه أن يصرف عن الحق ويلبس ثوب الباطل. كما يقترب به الإنسان من فعل الشيطان، ويبتعد به عن طاعة الله تعالى، فكان السحر بذلك من الأفعال الضالة المضللة. وقد كان السحر من صناعة المجوس والكفار الذين كانوا يعبدون النار والكواكب والأوثان لاعتقادهم بأن لها تأثيرها في حياة الناس، وتوهمهم بأنها مصدر الخيرات والشرور، أو السعادة والشقاء.

والسحر بالمفاهيم الحديثة هو ما يؤدي إلى الإتيان بأفعال خارقة يعجز الإنسان الطبيعي عن فعلها، ومن شأنه التأثير في النفوس بطريقة من الطرق كالطقوس والرّقى...

والساحر يوهم الناس بأنه يستعين بقوى الطبيعة حتى يحقق لهم مآربهم، وذلك عن طريق تأثيره بهذه القوى أو بظواهرها التي تستجيب له مطواعة. ومن هنا فإن الساحر لا يقوم بأفعاله أمام عيون الناس وبطريقة علنية واضحة، بل بأساليب مليئة بالتمويه والخداع والشعوذة. وهو قد يلجأ إلى السِّرِّية بحجة مخاطبة قوى الطبيعة، أو مخاطبة الجان واستحضارهم بين يديه لتلبية طلباته.

ومن الطبيعي القول إن قوى الطبيعة وظواهرها تجري وفق سنن وقوانين محكومة بها منذ الأصل. وهي لا تتغير إلا عندما يشاء الله صانع الكون، ومسيّر قواه، ومدبر قوانينه. وذلك يؤدي إلى القول بأن عمل الساحر خداع وتضليل لأن من يدعي السحر لا يستطيع أن يغيّر من حقائق الأشياء أبداً، فكيف يستطيع أن يغير في ظواهر الطبيعة، وذلك مستحيل عليه أصلاً، لأنه عاجز عن تحقيق شهواته ورغباته الذاتية أو حتى غاية من غاياته في كثير من الأحيان، فكيف يمكنه عن طريق ألاعيب خادعة أن يحقق أماني الناس وأحلامهم؟!..

ويبين القرآن الكريم بطلان أفعال السحرة بقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾(1). والمقصود أنَّ السحرة التي أتى بهم فرعون من كل أنحاء مصر لكي يغلبوا نبي الله موسى عليه السلام قد ألقوا يوم الزينة بحبالهم وعصيّهم وذلك بطريقة فنيَّة علمية حتى خيّل للناس أنها تتحرك كالحية، وبذلك سحروا أعين المشاهدين لأنهم أروها شيئاً لا تعرف كنهه. وقد كان ذلك بفعل التمويه والخداع. ولو كان فيه شيء من الحقيقة لما قال الله تعالى ﴿سحروا أعين الناس﴾. ولما قال سبحانه أيضاً في سورة أخرى من القرآن الكريم ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ

---

(1) الأعراف: ١١٦.

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[1]. فقد رأى موسى عليه السلام تلك الحبال والعصي وكأنها تتحرك حتى خيّل إليه أنها تتحرك فعلاً، وكان ذلك بفعل السحر لا حقيقة. نعم لقد تخيل موسى عليه السلام في بادىء الأمر أن حبال السحرة وعصيهم تسعى مثل الأفاعي تماماً، ولكنه عادَ واكتشف أنها كانت وهماً وخيالاً، وإن كانت تتحرك فعلاً، لأن تحركها كان ناتجاً عن وضع مادة الزئبق فيها (كما قيل في بعض التفسيرات)، وتحت تأثير حرارة الشمس تمدد الزئبق فحرك معه الحبال والعصي فظن عندها موسى عليه السلام أنها تسعى. والدليل على أنها كانت وهماً هو اقتناع السحرة أنفسهم، عندما ألقى موسى عليه السلام عصاه فلقفت كل حبالهم وعصيهم، أي أنَّ عصاه تحولت فعلاً إلى حية حقيقية، وهذا طبعاً من صنع الله تعالى الذي خلق في الأشياء الخصائص، ووحده ـ سبحانه ـ قادر على تغيير تلك الخصائص أو إكساب الأشياء خصائص ليست فيها. فهو سبحانه كما أزالَ خاصية الإحراق من النار عندما وُضِع إبراهيم عليه السلام فيها، فإنه ـ سبحانه ـ بعث في عصا (موسى) خاصية الحياة، لفترة وجيزة، حتى يبطل السحر عن أعين الناس، وعن عيني موسى عليه السلام نفسه. ولذلك قال سبحانه ﴿يخيل إليه من سحرهم﴾ ولم يقل رآها تسعى أو وجدها تسعى. بل كان ذلك مجرد خيال وهمي طغى على عيني موسى عليه السلام وأعين الناس لفترة من الزمن حتى أُبْطِل بقدرة الله تعالى. هذا عن الخيال الوهمي، فماذا عن الخيال المبدع؟

إن الخيال المبدع هو الشائع والمعروف في حياة الإنسان، لأنه لا يبتدع ولا ينشىء صوراً من العدم، بل يستمد عناصر صوره من الواقع. ولذا قيل: «إن الخيال منسوج من الحقيقة»، وقد فرق علماء

---

(١) طه: ٦٦.

علم النفس في «الإبداع» بين الصورة والمادة، واعتبروا أن التخيّل لا يبدع مادة جديدة بل يقتصر على جمع بعض الصور لبعضها الآخر، ثم يقوم بعملية التحليل، والتركيب، والتصغير، والتكبير. وهو بذلك يبدع صورة جديدة ولكن مادتها موجودة في الواقع، فالصورة وحدها هي الجديدة. ولذلك يقال عن التخيّل إنه مبدع لأنه يجمع عناصر المواد ليؤلف منها مركبات جديدة. وكل إبداع من هذا القبيل، في الحقيقة، هو تخيل مبدع.

وقيمة التخيّل أنه يأتي من الواقع ويحاول أن يركب أشياء جديدة قد تغير هذا الواقع. فلا يكفي مثلاً أن يتخيَّل العالم حتى يكون عالماً، بل يجب عليه أن يلاحظ ويقارن ويجرّب ويضع المعادلات والحسابات حتى يصل إلى النظرية العلمية أو الظاهرة الطبيعية التي يدرسها. وكذلك لا يكفي أن يتخيل الإنسان الفضيلة حتى يكون فاضلاً بل عليه أن يعايش الناس، ويعرف أوضاعهم، ويقتفي تصرفاتهم، ثم يباشر أعمال الفضيلة التي يرتأيها والتي يمكن أن يكون قد تصورها أو تخيلها أو اعتقدها من قبل.

وقد لا تأتي نتائج التخيل بحسب ما يريد المتخيـل فيصبح المعوّل عليه في هذه الحالة نية المتخيّل، فنجاحه في تحقيق تصوراته أو تخيلاته مربوط بالظروف والأحداث التي تواجهه، ولكن انطلاقه من نية معينة أو قصد معين هو الأساس، شرط أن تكون النية في الأصل معقولة، فلا تشوبها شائبة الخيال الوهمي، أو شائبة الباطل. ولذلك لا يمكن تطهير النية من الشوائب وتوجيهها نحو فعل الخير إلاَّ بتصور النتائج التي قد تترتب فيما بعد. فتخيُّل آلام البؤساء والنية الصادقة لمساعدتهم تكون الباعث على الرحمة وفعل الخير. ولذلك فإن التخيل

قد يكون نافعاً في أحيان كثيرة، وتظهر قيمته في مواجهة الحياة العملية، وقدرة صاحبه على تحقيق الآمال التي يريدها، ونجاحه في ذلك. ومجال هذا النجاح في تخيّله أولاً، فالتاجر مثلاً يتخيل زبائنه في حاجاتهم وأذواقهم، ويتصوّر الأساليب التي ترضيهم، فيوظف أمواله في سبيل ذلك، ولو كانت غايته في النهاية توفير الأرباح. والقائد الماهر هو الذي يتخيَّل ظروف المعركة ويضع الخطط التي تؤمن له النصر. وكذلك الحال بالنسبة إلى الحاكم مع رعيته، والرئيس مع مرؤوسيه الخ.. وهي أمثلة تدل على أن التخيل ضروري لحسن التدبير، وإتقان العمل، والكشف عن الوسائل التي تؤدي إلى النجاح..

وخلاصة القول إنَّ للتخيل أثراً في كل شأن من شؤون حياتنا، فالذين يعيشون في ظل الأوضاع العملية فقط، وليس لديهم قدرة على التصوّر والتخيل، هؤلاء قلما يكتب لهم النجاح، إذ يكون أفق تفكيرهم محدوداً وينتهي حيث تنتهي أعمالهم اليومية.. كل ذلك لأنَّ خيالهم لم يدفعهم إلى حياة أسمى من حياتهم الواقعية، بسبب خلوّه من الطموح..

ولكن هذا التخيّل الذي يوجد في الإنسان حالة نفسية ملأى بالأمل الوهاج، كثيراً ما يبعد البعض عن الواقع، ويولد في نفوسهم الأحلام الروائية، ويجعلهم غير قادرين على مؤالفة وقائع الحياة وظروفها الحقيقية.. فقد يكون عالم الخيال جميلاً إلَّا أنه ينسي عالم الحقيقة، ويقطع كل صلة بين الإنسان وواقع حياته. لذلك يجب على الإنسان ألَّا يعيش دائماً في عالم التخيلات، ولا سيما تلك البعيدة المنال، أو التي لا تنطبق على الواقع، بل عليه أن يعرف كيف يتصور، وكيف يتخيّل، ولكن في حدود المعقول، وضمن الإمكانات التي تتماشى مع تطور الأوضاع والمستجدات..

الإنـتباه والغفـلة

الانتباه:

إن المثيرات التي تشد انتباهنا في لحظات اليقظة كثيرة جداً. ولكننا قد نركِّزُ على شيء ما، ثم ننتقل إلى آخر أو إلى ثالث، ورابع، ونحن نختار ما يثير اهتمامنا، وما يشد الانتباه إليه. ولكن تلك الأشياء لا تشكل إلا جزءاً ضئيلاً من الظواهر الحسية، ولذلك فإن العملية التي يتم اختيارنا بها لتلك الأشياء إنما هي عملية الانتباه..

ولكن ما هي طبيعة الانتباه؟ ما يزال هذا الموضوع محل اختلاف، فبعض علماء النفس يرى أن الانتباه هو «مصفاة لتصفية المعلومات عند نقاط مختلفة في عملية «الإدراك» بينما يعتقد آخرون «أنَّ الإنسان يركز ببساطة على ما يريد رؤيته ويرتبط بالخبرة دون استبعاد مباشرة للأحداث المنافسة».

ويقال عن الانتباه: هو اليقظة، وقد عرَّفه بعضهم على أنه «تجمع للفاعلية النفسية حول ظاهرة من الظواهر تجعلها تامة الوضوح. فإذا كانت هذه الظاهرة خارجية كان الانتباه حسياً، وإذا كانت داخلية كان الانتباه تأملياً».

والمثال على الانتباه الحسي هو وقوع أشعة النور المرسلة داخل غرفة مظلمة على أحد الأشياء الموجودة فيها دون سائر الأشياء الأخرى، فَتُظْهِرُ الأشعَّةُ هذا الشيء، بينما تكون الأشياء الأخرى غير ظاهرة وغير مرئية.

وهكذا يجب تصور الانتباه الحسي على أنه شعور ينبعث من النفس ويوجه الاهتمام إلى شيء معين أكثر من الأشياء الأخرى الموجودة في ساحة الشعور، ولذلك كان تأثير الانتباه هاماً في إدراك الأشياء الخارجية.

أما الانتباه الداخلي فيكون تأثيره في الحياة الفكرية، ذلك أنَّ في حياة الإنسان أفكاراً عالية مثل الإيمان، والحكم على الأمور، والاستدلال، وغيرها مما لا يمكن حدوثها أو بلورتها إلا بالانتباه. وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الأمور العملية حيث إن بعضها يثير الاهتمام ويشدُّ الانتباه إليه أكثر من غيره. وذلك من غير فرق بين أن يكون العمل فكرياً أم يدوياً، فطالما هو مهم بالنسبة للإنسان فإنه يحتاج إلى الانتباه الداخلي كما يحتاج إلى الانتباه الحسي لكي تأتي نتائجه متوافقة مع مطلب الإنسان.

ولتوضيح مفهوم كلٍّ من الانتباه الحسي والانتباه الداخلي (التأمل الفكري) نعطي المثال التالي:

هب أنك كنت جالساً على شرفة منزلك وأنظارك تمتد إلى البعيد حيث الجبال المكسوة بالثلج، وحيث القرى تتناثر فوق تلك الجبال، أو أنك كنت تنظر إلى الأبنية المرتفعة من حولك، أو إلى السيارات التي تتدفق في الطريق، أو باعة العربات وهم يصرخون لينبِّهوا المارة لبضائعهم الخ... كل هذه الأشياء إحساسات خارجية أو مؤثرات حسية

بالنسبة إليك. ولو لَفَتَ نظركَ أحدُ الباعةِ بحسن مظهره، فرحت تتأمل توضيب خضاره وفاكهته على العربة التي يدفعها أمامه، فهذا الشعور هو ما يعرف بالانتباه الحسي الذي شغلك عن المؤثرات الحسية الأخرى من جبال وثلوج وأبنية وسيارات..

ولو دخلت إلى مكتبك واستغرقت في التفكير بأحد الموضوعات التي تشغل بالك، بحيث انطوت تلك المؤثرات الحسية التي كنت تراها قبل وقت قصير، ولم تعد تهتم لموجودات المكتب أو لصراخ أطفالك في البيت، فأنت في هذه الحالة في وضع تركز أفكارك حول الموضوع الذي تفكر فيه، أي حول مركزٍ واحد، فهذه الظاهرة الشعورية هي التأمل أو الانتباه الداخلي.

وقد يزداد تركيز الأفكار حتى يبلغ درجة عالية ينسى معها الإنسان كل ما يحيط به، فهذا هو الانتباه الشديد. ومثال ذلك أنْ تشدَّك مشاهد مثيرة يعرضها التلفزيون، بحيث تغرق مشاعرك وأفكارك في تلك المشاهد المتلاحقة التي تُعْرَض، فيكون انتباهك هنا شديداً. ولا يعني هذا الانتباه الشديد أنك في حالة من تشتت الفكر أو في حالة من الذهول، بل على العكس إن شدة الاحساس، وشدة التفكير هما اللتان تلازمانك في مثل هذه الحالة، وتطغيان على ما عداهما من مشاعر وأفكار. ولذلك يكون الانتباه مختلفاً تماماً عن التشتت الفكري. لأن هذا التشتت يحصل عندما تتكاثر الأفكار حول موضوعات عديدة، وتتضارب المشاعر بشأنها بحيث لا يقوى أحدها على الآخر، ويكون ذلك لفترة من الوقت، يعود بعدها الإنسان إلى حالته الطبيعية ويبعد عنه ذلك التشابك والتضارب في أفكاره ومشاعره، فينتهي عندها من حالة التشتت التي رافقته قبل ذلك.

من هنا فإن حالة التشتت التام لا توجد إلا في الأحلام إذ يستسلم المرء للصور التي تتلاحق في خياله، حيث يكون متراخي الشعور، فاقدَ التفكير الانتقادي، فلا يفضل حالة على أخرى، بل تتوارد الصور والذكريات عليه، فتنضم بعضها إلى بعض وتتولد حالة من الشعور بالحزن أو الفرح، بـالحب أو الكراهيـة، بالخـوف أو الجبن . .

وتتولد عن الانتباه نتائج إيجابية أو نتائج سلبية . .

فمن حيث النتائج الإيجابية: إن الانتباه يزيد الانفعالات النفسية شدة. فمثلاً انتباه المريض لآلامه يزيده ألماً. وعدم انتباهه لها أو انشغاله ببعض الأمور، يخفف من تلك الآلام. والجنود لا يشعرون بآلام الجراح وقت احتدام المعركة. وبعض فقراء الهنـد، وبعض (لامات) التيبت يقطعون أصابع أيديهم أو يجرحون أجسادهم جروحاً بالغة، وهم في حالة من الذهول، من غير أن يشعروا بالآلام. وكذلك حماسة الشهداء في سبيل الله تعالى فإنها تحوّل المشقات والآلام ـ وهم في حالة الانفعال ـ إلى لذة وراحة. .

ومن صفات الانتباه أنه يقوي إثبات التصورات والمعاني في نفوسنا، فيسهل علينا حفظها، والتمكن في المستقبل من التغلب على الأسباب التي تحول دون استعادتها إلى ميدان الشعور.

والانتبـاه أيضاً يُعِين على تـرتيب الأفكار وتـوضيحها. فليس للإحساس بذاته معنى خاص به ما لم يرتبط بغيره من الأحاسيس. فسماع ضجة مثلاً لا يعني لك شيئاً إذا كنت مشغولاً عنها بأمور أخرى. فدور الانتباه يكون بالربط ما بين إحساسٍ معين وبين غيره من الأحاسيس التي لم ينتبه لها في أول الأمر، كي يعطيه معنى خاصاً.

ولذا فإن التأمل الفكري أو الانتباه الداخلي من شأنه تنظيم الأفكار وتنسيقها، وتحديد علاقة بعضها ببعض.

والانتباه عامل هام في تحصيل العلم واكتساب المعرفة. فمثلاً التلميذ الذي لا ينتبه لشرح الدرس لا يمكنه أن يدرك المعلومات التي يتضمنها الشرح، وبالتالي لا يمكن أن ينجح في الامتحان. ولذلك فإنّ المربين والمعلمين يحرصون على شدّ انتباه تلاميذهم حتى يمكنهم استيعاب الدروس وفهمها وتعلّمها. ومما يساعدهم على تركيز الانتباه ويسهل عملية التعلم عرض المعاني المجردة بطرق سهلة وحديثة: منها الاستعانة بالوسائل السمعية ـ البصرية، وإجراء التجارب العلمية في المختبرات وفي الهواء الطلق. وهذا يثير انتباه الدارسين ويساعدهم على إدراك فهم النظريات والدروس التي يتلقونها.

والقرآن الكريم يستعملُ أساليب متنوعة في إثارة الانتباه، ومنها الأسلوب القصصي للفت انتباه الإنسان وشدِّه إلى ما تتضمن القصص من عظات وعبر وتوجيه وتعليم. ومنها الأسلوب المباشر في التذكير لذوي العقول والحواس المدركة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1]. وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد الإخبار عن إهلاك أمم كثيرة من الكفار، يذكّر رب العالمين بهم قريشاً وأعداءَ الدعوة الإسلامية، ويبين لهم أنهم كانوا أشد منهم بطشاً. ويشير الله تعالى في هذه الآية إلى أنَّ في تلك الأخبار لعظة بالغة، يستطيع كل من له عقل مدرك أن يأخذ بها ويتذكرها باستمرار، إذا استمع إلى هذا الكلام وأصغى إليه بانتباه وتفهمه، وأدرك قوة بيانه وفحواه..

---

(١) ق: ٣٧.

ويشير القرآن أيضاً إلى أن الإنسان بعد النوم يكون أكثر انتباهاً وتفهماً للأمور والمعاني، ومنها معاني القرآن الذي يفتتح نهاره بتلاوته أو سماعه. وما ذلك إلا لأن الذهن يكون قد أخلد للراحة أثناء النوم الذي يحصل عادة في الليل، وقد جعله الله تعالى سكناً للإنسان، يسوده الهدوء، وتخيّم عليه السكينة، ويزيح الإنسان في أثنائه الهموم التي كانت تثقل كاهله في النهار بعد أن يستغرق في النوم وينسى مشاغل الدنيا ومتاعبها. وهذا ما يبينه الله تعالى في دعوة رسوله ﷺ للقيام باكراً بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾[1]. وأما عن أهمية الليل وسكنه وتأثيره على الانتباه فيقول تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[2]. والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع للخاطر على تفهم القرآن الكريم، وأبين قولاً من القيام بذلك أثناء النهار الذي هو وقت انتشار الناس في طلب المعاش والحركة، والتعاطي في مختلف الشؤون.

وفي تأكيده على أهمية تعلم القرآن وفهمه يدعو المولى عزّ وجل الناس للاستماع إليه والإنصات لتلاوته لأن في ذلك رحمة لهم. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[3]. فالاستماع إلى القرآن والإنصات إلى تلاوته يتضمن الأمر بالانتباه لفهم ما في الآيات وتدبرها، ومعرفة ما تحتويه من عقيدة ومنهج وتعاليم وأوامر ونواه وحكم وعظات. وفي هذا دليل أيضاً على أهمية الانتباه في الفهم والتعلم.

ومن أساليب القرآن الكريم أيضاً لإثارة الانتباه استعماله،

---

(١) المدثر: ١ ـ ٥. (٢) المزمل: ٦. (٣) الأعراف: ٢٠٤.

بالإضافة إلى القصص، الأمثال كوسيلة وأسلوب يجسدان معاني العقيدة، وطرق الدعوة إليها، وتقريبها من الأذهان. فمن يستمع إلى القصص القرآني وأمثاله، ويفهمها، تتجسد في ذهنه الوقائع وكأنها صور حسية، ومشاهد من الحياة تستعرض أمام ناظريه بكلِّ أشكالها وحركاتها.

وكذلك الأمر عندما يصوُّر القرآنُ الكريمُ مشهداً من مشاهد يوم القيامة. فاستمع وتصوّر وأنْصِتْ إلى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[1]. فقوله تعالى: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ يصور تماماً حالة الذهول التي تعتري الناس في تلك الساعة. لأن معنى الذهول هو تشتت الفكر، ومن ذهل عن شيء نسيه وغفل عنه أو انصرف تفكيره عنه إلى شيء أهم. أي أنه يجعل الذهن أو الانتباه موزعاً بين أمور مختلفة بحيث يؤدي ذلك إلى العجز عن تركيز الفكر في أحدها، وهو الأقل أهمية أو شدة. والذهول المقصود في الآية الكريمة أن يغيب عنك إدراك أحد الأمور المهمة لانشغالك بأمر أهم منه، مثل غياب إدراك الأم المرضعة عن رضيعها لانشغالها بأمرِ زلزلة الساعة العظيم، الذي يسيطر فيه الخوف من عذاب الله الشديد فلا يعود أحد من الناس قادراً على إدراك شيء، لأن كل انتباهه مشدود إلى مصيره، وليس إلى شيء أو أمر غيره على الاطلاق، حتى لترى الناس في هذه الحالة سكارى، ولكنهم في الحقيقة غير سكارى، وإنما هو الذهول الذي أصابهم وجعلهم يظهرون كأنهم سكارى.

---

(١) الحج: ١ ـ ٢.

وأما من حيث النتائج السلبية فإنَّ الانتباه يضيِّق أفق الفاعلية الفكرية، ويؤدي إلى أفول قسم كبير من الإدراكات والأفكار وتناقص شدتها. فكما أننا نغلق أجفاننا قليلاً، ونضيّق دائرة البصر عند ملاحظة شيء من الأشياء الصغيرة، فكذلك نطرد من أفق الشعور، عند انتباهنا لبعض العناصر الفكرية، كلَّ أمرٍ لا علاقة له بها. فيضيق أفق الشعور على النحو الذي تضيق به دائرة البصر.

وهكذا يتبين لنا بأن للانتباه آثاراً هامةً في الحياة. وتظهر تلك الآثار في مختلف الأوضاع والظروف التي يعيشها الإنسان. إلَّا أنها تبرز بشكل واضح في تكيفه مع البيئة[1]، وفي معرفة الأمور المتعلقة بشخصيته. فالانتباه يجعل الإنسان قادراً على التكيف مع بيئته. ذلك أن عوامل البيئة أكثر تبدلاً من نزعات الإنسان وميوله. والإنسان مضطر، بحكم وجوده، لمعرفة تلك العوامل، حتى يمكنه التوفيق ما بينها وبين ميوله، ولا يتم له ذلك إلا بالانتباه..

أما فيما خصَّ الأمور المتعلقة بشخصية الإنسان، فإن الانتباه يجعله يختار أحسنها وأكثرها توافقاً مع شخصيته. فالإرادة تتلازم دائماً مع التفكير والتأمل. والإنسان لا يسير دائماً بحسب رغباته ونزعاته وعاداته، بل كثيراً ما يتأمل مختلف الأمور التي تقع معه، ويوازن فيما بينها لينتقي أفضلها وأقربها إلى نفسه، بحيث يجعل أعماله مبنية دائماً على أفكاره. ولذلك قيل: «إن الفكرة أول العمل، كما أنَّ العمل نهاية الفكرة».

---

(١) البيئة: مجموع الأشياء التي تحيط بالإنسان.
فمن الناس: أهله، أصدقاؤه، أساتذته، العاملون معه في المصنع إلخ..
ومن الطبيعة: الهواء، الطيور، الأشجار، الجبال، النبات إلخ..

وأياً يكن تأثير الانتباه وأهميته في حياتنا فلا يجوز للإنسان أن يفرط في الانتباه والتأمل، لأن ذلك يؤدي إلى الشعور بالإرهاق، والتعب الفكري، إذ إنَّ ملكات الفكر لا يمكن أن تستمر في أداء عملها بصورة متواصلة ومستمرة دون أن تحتاج إلى فترة من الارتياح. لذلك نجد الطلاب يحسون، بعد السهر في ليالي الامتحان المضنية، بميل إلى الابتعاد عن الكتب وكراريس المحاضرات ليأخذوا قسطاً من الراحة..

ولقد قام العلماء بعدة تجارب لقياس قوة الانتباه، واتبعوا في ذلك طرقاً مختلفة، ومنها الطريقتان التاليتان:

- طريقة تصحيح النصوص: وهي تقوم على شطب بعض الحروف في نص معين. كأن يطلب من التلامذة شطب حرف (الباء) و(الفاء) و(الطاء) من النص الذي بين أيديهم. ويعطون وقتاً معيناً لذلك. فالذي يشطب أكبر عدد ممكن من هذه الحروف، خلال الوقت المحدد، يكون أكثر انتباهاً من الآخرين. وهذا قد دلَّ على أن قوة الانتباه تختلف باختلاف الأشخاص.

ومثل هذا الاختبار على الانتباه البصري، يمكن إجراء اختبار لقياس الانتباه السمعي. وذلك بأن نقرأ على التلامذة نصاً معيناً، بصوت هادىء وواضح، ونطلب من كل واحد أن يحصي عدد حروف (الباء) الموجودة فيه. فالتلميذ الذي يعطي العدد الأكثر من الحرف المطلوب الذي سمعه يكون الأشد انتباهاً.

- طريقة زمان الانعكاس: وزمان الانعكاس هو الزمان اللازم لانتقال التأثير من العصب الحسي إلى مركز الدماغ وصدوره عنه بواسطة العصب المحرك. وقد يكون المؤثر كلمة يطلب الرد عليها

بكلمة أو مجموعة كلمات يقتضي إعادتها. . وقد أدت التجارب التي استعملت في هذه الطريقة إلى النتائج التالية:

١ ـ كلما كان الطفل أصغر سناً كان جوابه على المؤثر أبطأ.

٢ ـ إن قليلي المواهب أبطأ من الأذكياء إجابة على المؤثرات.

٣ ـ إن سرعة الإجابة تابعة لسرعة الانتباه، فكلما كان الانتباه أشد كان زمان الإجابة أسرع.

٤ ـ التعب يؤدي إلى زيادة زمان الانعكاس. فانتباه التلاميذ للشروحات في آخر النهار أقل منه في أوله.

٥ ـ الإثارة تزيد في زمان الانعكاس. فمن الخطأ أن نؤنب الولد في البيت أو التلميذ في المدرسة على بطئه في الجواب، لأن الخوف الذي يولده هذا التأنيب في نفسه يزيد في إبطائه على الإجابة.

٦ ـ إن تمارين التنفس تنقص زمان الانعكاس وتوقظ الانتباه.

٧ ـ إن الكلمة الدالة على الشيء المحسوس أسرع إثارة للجواب من الكلمة الدالة على الفعل. والكلمة الدالة على الفعل أسرع إثارة للجواب من الكلمة الدالة على المعنى المجرد.

الغفلة

الغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ أو التيقظ أو الانتباه. كما في قول الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾[1]. هذا المشهد الذي يرسم صورة يوم القيامة، يوم

---

(١) ق: ٢ ـ ٢٢.

ينفخ في الصور، ويوم يأتي دور الوعد والوعيد. إنه مشهد مرعب مزلزل يكفي أن يتذكره الإنسان على هذه الأرض حتى يقضي حياته كلها في توجس وحذر وترقّب. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أنتم وصاحب القرن (أي الملك الذي ينفخ في الصور) قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟». قالوا: يا رسول الله، ماذا نقول؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». فقال القوم: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ جاءت كل نفس يوم القيامة لتحاسب، لأن النفس هي التي تتلقى الجزاء نظير ما فعلته في هذه الحياة الدنيا. تجيء كل نفس ومعها سائق يسوقها، وشاهد يشهد عليها. وهذا مشهد أشبه شيء بالسوق للمحاكمة، حيث يسوق الحرس المتهم ليمثل أمام القاضي، ولكن في الآخرة بين يدي الله العزيز الجبار...

والسائق والشاهد هما الملكان الكاتبان، المكلفان بحفظ كل ما يصدر عن الإنسان وتسجيله.. وفي هذا الموقف العصيب يقال للإنسان: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[(1)]. وقد أزلنا غفلتك بما تشاهده اليوم فبصرك حاد، قوي، لا يحجبه حجاب، ولا تمنعه غفلة، تدرك به ما أنكرته في الدنيا. هذا هو اليوم الموعود الذي غفلت عنه ولم تنتبه إليه. وهذا هو الموقف الذي لم تحسب حسابه. وهذه هي النهاية التي لم تكن تتوقعها. فالآن انظر ببصرك القوي الحاد إلى هذا الذي ينتظرك من جزاء في النار.

هذا الموقف خاص بالكفار الذين غفلت قلوبهم عن الطاعات، ونسيت نفوسهم الموجبات، وعميت بصائرهم عن الإسلام، فجعلوا مع

---

(1) ق: ٢٢.

الله إلهاً آخر، فلقوا يوم الوعيد، حيث يُلقى في جهنم كل كافر عنيد، مناع للخير، معتد، مريب. الذي جعل مع الله إلهاً آخر، فألقي به في العذاب الشديد.

ويقول الله تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[1]. كان زعماء قريش يطلبون من النبي ﷺ أنْ يقوم بطردِ فقراءِ المسلمين، وكان طلبهم ذاك من جملة المعوِّقات التي كانوا يضعونها في وجه الدعوة، وأمام النبي ﷺ حتى يمنعوا انتشار الإسلام.. ولكن العناية الإلهية كانت توجه رسول الله ﷺ بألّا يطيعهم فيما يطلبون من تمييز بينهم وبين الفقراء. فلو أرادوا الإسلام، ولو ذكروا الله تعالى، لخففوا من غلوائهم وكبريائهم واستشعروا عدل الله تعالى الذي يتساوى في ظله جميع الناس بلا تفاضل بمال أو نسب أو جاه. ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾. أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته، وإلى ماله، وإلى أبنائه، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته، وإلى اتباع الشيطان، فلم يعد في قلبه متسع لله تعالى. والقلب الذي يشتغل بهذه الشواغل، ويجعلها غاية حياته، يغفل عن ذكر الله تعالى، فيزيده الله غفلة، ويملي لصاحبه فيما هو فيه حتى يلقى ما أُعِدَّ له ولأمثاله من الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم. وهذه كلها أهواء يتبعها الكافرون، والمشركون، الذين يكون أمرهم إسرافاً في الضلال واستكباراً في الأرض.

والنص القرآني: ﴿من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ يحمل أيضاً معاني أخرى: مثل من تركنا قلبه غافلاً عن الإيمان، أو من جعلناه غافلاً عن الحقائق والآيات المبثوثة في الأنفس وفي الكون كلّه..

---

(١) الكهف: ٢٨.

يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[1]. فأهل الكتاب من اليهود والنصارى كان فريقٌ منهم يعلمون بأن القرآن الذي ينزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو الحق من ربهم جميعاً، وقد بعثه تعالى بالحق الصراح المبين. ومع علمهم ذاك لم يؤمنوا بل أعدوا العدّة لمحاربة الإسلام ورسوله.. فأولئك ليس الله تعالى بغافل عما يعملون...

---

(١) البقرة: ١٤٤.



الذاكرة

الذاكرة: عبارة عن هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة. وهي كالحفظ، إلا أنَّ الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذاكرة تقال اعتباراً باستحضارها.

وإنه من الصعب أن يعيش الإنسان حالة نفسية حاضرة منقطعة تمام الانقطاع عن الماضي. بل لا بد من وجود شيء في نفسه من الماضي يبقى في الحاضر الذي يعيشه. ولو اقتصرنا في حياتنا النفسية على الحاضر المطلق الذي نعيش، لكان التفكير غير ممكن، لأن هنالك ملكة في نفوسنا تصل دائماً الحاضر بالماضي، وهذه الملكة تعرف بالذاكرة، والفعل الذي يصدر عنها هو التذكر. فيكون التذكر عبارة عن حالة تتصف بالاتصال والاستمرار والتركيب..

وفي تحليل الذاكرة يقولون إن لدى الإنسان «ذاكرة أولية». وهي عبارة عن بقاء الأحوال الجديدة في حاضر النفس مدة من الزمان. أما الذاكرة الحقيقية أو الذاكرة بالمعنى الاصطلاحي فهي القدرة على إحياء حالة شعورية مضت وانقضت، بعد أن شكلت جزءاً من حياتنا الماضية يمكن الشعور به مجدداً تحت تأثير عوامل أو دوافع معينة، كأن يحدث

في حاضرنا ما يثير تلك الحالة الشعورية، ويستحضرها من عالم الإهمال والنسيان. . .

والذاكرة الأولية قد تحفظ الشعور في النفس مدة من الزمن، ولكنها لا تسترجعه، ولا تستحضره بعد زوال الحالة التي أوجدت هذا الشعور. وكذلك فإن تكرار شيء معين لا يمكن أن يشكل تذكراً، كأن أكرر اليوم قولاً تفوهت به بالأمس من غير أن يكون تكراري له تذكراً. من هنا فإن التذكر يقتضي شعوراً بالماضي وعلماً بأحوال الشعور المنشقة منه، فلا يكون التذكر إذن إلا حيث يكون الشعور بالماضي.

وأهمية الذاكرة تكمن بما لها من تأثير عميق في الحياة النفسية، حتى لقد قيل: النفس هي التذكر. وبما أن الإدراك يتأتّى عن النفس، فإنه لا يحصل إلا بوجود معلومات أو تصورات سابقة لدى الإنسان، ثم يجري تطبيق تلك المعلومات أو التصورات على الواقع الحالي، لكي يمكن من ثَمَّ الحكم على هذا الواقع. والذاكرة هي التي تحفظ المعلومات السابقة في النفس، فلولاها لما تم الإدراك، ولا أمكن اكتساب العادات، ولا أمكن التخيل والحكم والاستدلال. وكلما كانت الذاكرة أغنى كان تفكير الإنسان أعمق، وعقله أقوى. والذين يمارسون أعمالاً عقلية يحتاجون إلى الذاكرة أكثر من الذين يمارسون أعمالاً يدوية، لأن الذاكرة تحفظ المعلومات والمعارف والعلوم، وتسهل لذوي التفكير عملية الفهم وإنتاج أفكار جديدة. والرجال العظام يمتازون في غالبهم، بقوة الذاكرة لديهم، فضلاً عن سعة الاطلاع والمعرفة. ومثاله علماء المسلمين القدامى، الذين كانوا يحفظون القرآن الكريم والحديث الشريف، وكثيراً من دواوين الشعر العربي.

وللذاكرة تأثيرها الهام أيضاً في حياتنا الانفعالية وما يصدر عنها

من مشاعر. فلولا الذاكرة لغاب كثير من عواطفنا في الفرح والحزن، في الشدة والراحة، في الإقدام والإحجام، في الهزيمة والنصر الخ... فالذاكرة تحيي العواطف، وتوقظ الميول، وتجدد الانفعالات. وهي أيضاً تحرك حياتنا الفاعلة بحيث توجه تجاربُنا الماضية، في كثير من الأحيان، أفعالَنا الحاضرة أو المستقبلية. كما أن الإرادة نفسها كثيراً ما تحتاج إلى التذكر للقيام بعمل ما أو عدم القيام به..

ويقول الباحثون إن للذاكرة أنواعاً كثيرة تختلف باختلاف الميول الفطرية والكسبية. مثال ذلك أن يكون أحدهم قادراً على حفظ الأعداد وعاجزاً عن حفظ مفردات اللغة، أو ضعيفاً في تلقي الأنغام الموسيقية وقوياً في حفظ أسماء البلدان وعواصمها. وهذا يعني أن الذاكرة يمكن أن تكون قوية في نواح معينة دون غيرها مثل (حفظ الأعداد أو الألفاظ أو الأنغام أو الأسماء). والذاكرة القوية في مادة معينة أو نوع معين من المعلومات هي التي تكسب القوة في مهنة دون أخرى، أو في ممارسة هذا العمل دون غيره، فيكون كل من رجل الرياضيات أو الأديب أو الموسيقي أو الجغرافي بحاجة إلى ذاكرة خاصة أو نوع معين من الذاكرة.

وأهم أنواع الذاكرة كما هي معروفة في «علم النفس» الذاكرة الحسية، والذاكرة الانفعالية، والذاكرة العقلية.

- فأما الذاكرة الحسية، والتي يقال لها ذاكرة الصور، فتختلف باختلاف الصور التي تستحضرها. فإذا كانت تلك الصور من حاسة البصر سميت بالذاكرة البصرية، وإذا كانت من حاسة السمع سميت بالذاكرة السمعية. وهكذا الحال بالنسبة للحواس الأخرى الرئيسية حيث توجد ذاكرة ذوقية، وذاكرة لمسية، وذاكرة شمّية. وكل ذلك لأن الحواس الرئيسية الخمس هي مصدر الأحاسيس، فبواسطتها تنتقل الأشياء الحسية إلى الدماغ ومن ثم إلى النفس حيث تدفن في خزانات

لها تحفظها بصورها الحقيقية التي التقطت فيها من العالم الخارجي. وتظل قابعة في الذاكرة الحسية (الخزانات) إلى حين استرجاعها بفعل التذكر.

ـ والذاكرة الانفعالية هي التي تشعر الإنسان عند تذكره حادثاً سابقاً بانفعال جديد، قد يكون مختلفاً عن الانفعال الذي رافق الحادث وقت وقوعه، أو متوافقاً معه أو مطابقاً له. وذلك بأن يعاود الألمُ نفسَ الإنسان عندما تخطر بباله ذكرى عزيز قضى. أو حينما يشعر الإنسان بالاعتزاز وهو يتذكر موقفاً جريئاً له فيه إقدام وثبات، حتى ولو لاقى في ذاك الموقف صعوباتٍ أو رافقته مخاوف لأسباب معينة.

والذاكرة الانفعالية لا تكون واحدة أو متماثلة عند كل الناس، بل قد تكون واضحة وقوية عند البعض، ومبهمة وضعيفة عند البعض الآخر. فالمريض الذي أجريت له عملية جراحية قد يتذكر آلامه الجسدية بنفس الدرجة التي كان يشعر بها وقت إجراء العملية. والإنسان الذي عانى من بعض المتاعب في الماضي قد لا تحضره مشاعر القلق والتعب والغم التي رافقته إبان تلك المتاعب.

ـ والذاكرة العقلية هي ذاكرة الأفكار والأحكام والبراهين. فإذا تذكرت حديثاً بجميع ألفاظه كانت ذاكرتي حسية. وإذا لم أتذكر من الحديث إلا معانيه كانت ذاكرتي عقلية. وللذاكرة العقلية أثر عميق في اكتساب العلوم والمعارف. وتكون نامية جداً عند العلماء والمثقفين ثقافة عالية، لأنهم يفكرون أكثر مما يتخيلون. ومن الناس من يستعين بالفهم على حفظ المعاني ولذلك قيل: إن فهم المعاني خير وسيلة للحفظ.

هذا ما يذهب إليه علم النفس في تقسيمه للذاكرة، كما بالنسبة

لأية ملكة حيوية في الإنسان.

وفي الحقيقة لا يمكن تقسيم الذاكرة إلى عدة أنواع، لأن لدى الإنسان ملكة عضوية واحدة تكون موطناً لحفظ الأحاسيس والمشاعر والأفكار على اختلافها. فهي عبارة عن مخزن لانفعالاتنا الماضية، ولأفكارنا وتصوراتنا السابقة. مما يجعل تقسيم الذاكرة إلى عدة أقسام (حسية، انفعالية وعقلية) غير متفق مع تكوين الإنسان، ومع ما هو عليه في حقيقة ذاته. ففي المثال السابق على الألفاظ والمعاني نجد أن صاحب الذاكرة القوية إذا ما كان ملماً باللغة ومهتماً بالمعنى فهو يتذكر المبنى والمعنى معاً. ولكنه إذا كان مهتماً بالمعنى فقط أي من دون المبنى فإنه يتذكر المعنى. ولذا فالإنسان هو الذي يوجه اهتمامه إلى شيء دون آخر، فيحفظ ما كان مدار اهتمامه وانشغال باله، وينسى أو لا يتذكر كل ما لم يستوقفه أو يؤثر في نفسه لأنه لم يكن مهتماً به.

فالاهتمام هو المصدر الرئيسي للتذكر. وكلما زاد هذا الاهتمام أمكن استرجاع صورة الشيء أو الشعور، وأمكن تثبيته وحفظه. فإذا قمتَ بزيارة إلى قلعة أثرية قديمة ولم تعاود تلك الزيارة مرة أخرى، فليس معناه غياب صورتها عن ذهنك بتاتاً، لا بل على العكس إن مجرد الحديث عن تلك القلعة يمكن أن يستثير شعورك بأهميتها وجمالها فتندفع صورها إلى ذهنك وتتراءى لك كما لو أنك تراها بأم العين. والذي جعل هذه الصور تتدافع هو رؤيتك للقلعة فيما مضى، مما يجعل كل ذكرى مبنية على اطلاع سابق. ويمكن ترسيخ هذه الذكرى وإثباتها عن طريق الاهتمام والتكرار. إلا أن هذا التكرار ليس ضرورياً دائماً، فكثيراً ما تثبت الذكريات لمجرد وقوع الحادث، ولو لمرة واحدة، شرط أن يكون تأثيره قوياً في النفس. فأنت لم تذهب لمشاهدة القلعة إلا مرة واحدة ومع ذلك بقيت صورتها عالقة في

ذهنك، ثابتة في ذاكرتك، بسبب إعجابك بمعالمها، واهتمامك بالاطلاع على هذه المعالم.

وتثبيت الذكريات يرجع إلى عاملين اثنين: جسدي ونفسي.

فالعامل الجسدي مرده إلى سهولة تأثر الأعصاب بالشيء، وشدة تفاعلها مع الآثار التي يخلّفها فيها. وهذا العامل يختلف بين شخص وآخر. وأحسن الأشخاص ذاكرة من كانت أعصابه سريعة التأثر، شديدة التفاعل بتأثرات الحواس. ولا يحتاج هذا العامل إلى التكرار لتثبيت الصورة أو الشعور.

أما العامل النفسي فيأتي نتيجة لقوة الانتباه وشدة الاهتمام. فكلما كان الانتباه أقوى، والاهتمام أشد، كانت الذكريات أكثر ثباتاً.

والعوامل النفسية التي تؤدي إلى تثبيت الذكريات عديدة ومتنوعة ولكن أبرزها العوامل التالية:

ـ التأثير: بمعنى أن أكثر ما يثبت في الذاكرة من أشياء هي التي يكون تأثر النفس بها أشد، مثل الحريق والحرب والمرض، وهي من المؤثرات المفجعة أو المحزنة.. أو مثل الانتصار والنجاح والشفاء، وهي مؤثرات مفرحة ومنشّطة.

ـ الميول الغريزية والكسبية: فالميل إلى بعض الأشياء يقوي الانتباه إليها. مثل الميل إلى الفن يشد الانتباه إلى اللوحة المعلقة على الحائط، والميل إلى الموسيقى يشد الانتباه إلى الأنغام، والميل إلى مادة علمية معينة يجعل حفظها أسهل. وهكذا فإنه كلما كان الميل أشد كان أدعى إلى إثبات صورة الشيء أو معناه في الذاكرة.

ـ الاستعمال والتكرار: والذكريات تثبت من جراء الاستعمال والتمرين والتكرار، وهي كذلك تضعف بسبب عدم الاستعمال الذي قد

يؤدي إلى طي الذكريات في عالم النسيان.

كما أنه عندما تكون مشاغل الإنسان كثيرة، وهمومه متنوعة، وأعباؤه جسيمة، فإن هذه الأمور تشغل نفس الإنسان وتجعله يصرف جلَّ اهتمامه عن ظروف حادثة معينة، ودقائق تفاصيلها. إذ تكون أفكاره مشتتة ونفسه موزعة فيذهل عن تلك الظروف والتفاصيل.

وهكذا يتبين لنا مما تقدم أن التذكر يقوم على استرجاع صور من الماضي. وغالباً ما يخالطه الشعور والتفكير بالحياة الماضية حتى تتكون الذكرى. فعندما نستحضر صورة من حياتنا الماضية، وندرك بأن هذه الصورة ليست حِسِّيَّة ولا مبتكرة من الخيال، وإنما هي عبارة عن حادث انقضى في ماضينا البعيد، فإننا نسمي ذلك تذكراً. فقد نصادف شخصاً لأول مرة، فلا يتكون لدينا تجاهه أدنى شعور مرتبط بالماضي. ولكن قد نسمع نغماً موسيقياً فنعرف أنه ليس غريباً عنا. وقد يوقظ فينا شعوراً مرتبطاً بالماضي، فتخطر ببالنا على أثره مجموعة من التطورات والانفعالات تكون مرتبطة به. ومثاله أن تسمع نشيداً معيناً، وفوراً تدرك أن هذا النشيد قد سمعته من قبل، فتتذكره وتتذكر المناسبة التي سمعته فيها والشخص الذي كنت معه في تلك المناسبة، وما دار يومها من حديث بينكما. من أجل ذلك جرى التفريق بين الذكرى والخيال، فقالوا: إن الذكرى أقل خضوعاً للإرادة من الخيال، لأنها تنبعث عن مشاعر وأحاسيس موجودة في النفس، بينما الخيال غير مقيد بماضٍ ولا بحاضر، ويمكن أن يأتي إلى النفس من غير ما ارتباط بمشاعرٍ أو أحاسيس دفينة في النفس.

ويختلف التذكر من حيث القوة والضعف باختلاف الأشخاص. قال ابن سينا: «أسرع الناس تذكراً أفطنهم للإشارات». فمن الناس من يكون قوي الفهم ولكنه ضعيف التذكر. ويعتبر أقوى الناس تذكراً من

يتعلمون، ويكتسبون بسهولة، ويكونون أكثر حفظاً وأسرع استحضاراً من غيرهم، وإن كان من الصعب أن تتوافر هذه الشروط لإنسان واحد، فإلى جانب أقوياء الذاكرة من الناس، هناك آخرون ضعاف الذاكرة. وقد يصل الضعف عند هؤلاء إلى حد فقدان الذاكرة تماماً. وذلك ينشأ إما عن عجز نفسي للتذكر، وإما نتيجة حادث فيزيولوجي، أو نفساني، كان من نتيجته فقدان الذاكرة.

نصائح لتقوية الذاكرة

إن الذاكرة «ضرورية بصفة أساسية لعمليات الإدراك والتعلم والكلام والتعليل ومعظم الأنشطة الأخرى».

وينصح «علماء النفس» باتباع وسائل معينة لتقوية الذاكرة، وبتوجيهات تربوية يتوجب على المربين أن يأخذوها على عاتقهم من أجل مصلحة التلامذة.

فأول ما ينبغي على المربي القيام به عدم إرهاق ذاكرة الطفل أو الولد بما لا يستطيع استيعابه من الألفاظ غير المفهومة، كالتواريخ والأرقام التي لا طائل منها، وأن يتجنب المعاني المجردة التي تخرج عن طوق الصغار. من هنا وجب تركيز انتباه الولد على المدلولات المحسوسة، وإعطائه الدروس مصحوبة بالوسائل التعليمية التي يراها بأم العين، ويسمعها بالأذن، ويلمسها باليدين. وإعطاء الدروس في الهواء الطلق، وفي أحضان الطبيعة خير مساعد على ترسيخ الأفكار والتصورات في الأذهان. لأن ذلك كله يبعد عن الأولاد الضجر في تلقي الشروحات المجردة، وكذلك اقتران الدرس بالتجربة العملية يشد انتباههم، ويريح أنفسهم، ويعينهم على الاستيعاب السريع، وعلى تقوية الذاكرة.

ومما يقوي الذاكرة أيضاً تمرين التلامذة على حفظ الآيات القرآنية، وروائع الشعر والنثر، بأسلوب مرن وسهل يحبب إلى التلميذ المادة الدارسية التي بين يديه، فيقبل عليها باندفاع ورغبة فتتحقق بذلك أهداف التعلّم. أما من ناحية التلميذ فعليه أن يقسّم المقطوعة التي يقوم بحفظها إلى عدة أقسام تتفق مع المعاني. وأن يحفظ كل قسم بمفرده، كما يجب أن يكون بين كل تكرار وآخر فسحة من الوقت تتيح ترسيخ الحفظ في الذهن.

ومن الوسائل الحديثة في التربية اعتماد طريقة التعليم السمعية ـ البصرية في الصفوف الابتدائية بواسطة الأجهزة الألكترونية الحديثة بحيث يسمع التلميذ الدرس، وينظر إلى الحركات الناتجة عن معانيه. كأن يرى مثلاً الجواد وهو يرعى العشب، ويرى صاحبه وهو يقوده إلى الماء ليشرب، مما يجعل الحواس جميعاً تشارك في الفهم والاكتساب، وهذا من شأنه أن يعين على التعلّم والحفظ.

ولا بد من سلامة البدن وصحته، والاهتمام بوسائل المعيشة، لما لذلك أيضاً من تأثير على الذاكرة. فالإفراط في العمل يجهد النفس، والإفراط في الأكل والشرب يؤدي إلى التخمة فلا يعود بالإمكان الاستيعاب بسهولة. ولذلك كانت العناية بالصحة العامة وبصحة الأعصاب عاملاً مؤثراً في تقوية الذاكرة.

وبصورة إجمالية إن صحة الذاكرة تفرض الاعتدال في الدرس، والنظام في العمل. فالتلامذة أو الطلاب الذين يرهقون أذهانهم بالسهر والحفظ قبيل الامتحان غالباً ما ينسون ما حفظوه. وقد يصلون إلى غرفة الامتحان فيخونهم التذكر لأن الإرهاق يوقعهم في النسيان السريع.

أهمية الذاكرة

وأهمية الذاكرة بالنسبة للإنسان عامة، وللإنسان المسلم خاصة، أنها أولاً، وقبل كل شيء، ملكة من خلق الله تعالى، من الفطرة البشرية التي يجب الاعتناء بها والمحافظة عليها لأنها من صنع الباري عز وجل. وهي ثانياً ذات تأثير هام في حياة الإنسان العملية والعلمية لأنها تساعد على اكتساب معارف جديدة واكتشاف حقائق جديدة، وهي من الأمور الهامة في مضامين المدنية والحضارة.

ويعوّل القرآن الكريم كثيراً على التذكر لما فيه من تربية ذهنية وخلقية ودينية. ولعلَّ أهم ما في هذه التربية أنها توجّه الإنسان إلى ذكر الله تعالى بصورة حثيثة ودائمة، فيكون لهذا الذكر العظيم تأثيره الشديد في ترسيخ الإيمان في النفس، وتقوية صلة العبد بربه، والمداومة على حمده وشكره للنعم التي تفضَّل بها على عباده ومخلوقاته.

ويرتبط ذكر الله تعالى وشكره بإشباع غريزة التدين إشباعاً يطمئن النفس، وينير الأفكار، ويهذب المشاعر، ويصحح الأعمال. فالإنسان عندما يتذكر الله تعالى ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] فإن هذا التذكر عملية نفسية إرادية فيها يقين، وثقة، وأمان، واستسلام. وهي أمور تعين النفوس وقلوبها، والأبدان وأعضاءها، على الاستقامة في الفكر والنهج، وعلى الحماية من الضياع والهلاك. والإيمان الصادق بحقيقة وجود الله تعالى أول دافع إلى هذه العملية النفسية الإرادية الواعية. والإنسان لا يتخبط في دياجير الظلمات الفكرية، وترهقه الانحرافات، وتعصف به الأمراض إلاّ من جراء ابتعاده وإنكاره لهذه الحقيقة. وها هم علماء النفس في الغرب، كثير منهم يدرك ما للإيمان من دور هام

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

في حياة الإنسان النفسية، وما تبعثه المشاعر الدينية من راحة للنفس والبدن، وما تحققه العبادات من تقويم للسلوك الفردي، وتوثيق للعلاقات المجتمعية. بل وهذه الفئة من العلماء تعتبر أن العودة إلى الدين، والقيام بالشعائر الدينية في أماكن العبادة، يساعدان على إبعاد القلق والحيرة والتردد، ويؤمّنان بدرجة كبيرة مناعة نفسية وجسدية للإنسان المؤمن.

وعلماء الصحة النفسية المسلمون جادون بدورهم في توضيح ما للدين الإسلامي من تأثير في الصحة النفسية. وهم يدعون إلى الالتزام بمنهج هذا الدين في جميع مجالات الحياة من أجل سعادة الإنسان. ومن يقرأ الأبحاث التي قدمت إلى المؤتمر الدولي للصحة النفسية الذي عقدته الجمعية الإسلامية الدولية للصحة النفسية في لاهور بالباكستان عام ١٩٨٥م يلمس أن علماء النفس والطب النفسي المسلمين غدوا يدعون إلى ما يدعو إليه الدعاة والوعاظ من التزام بمنهج الله تعالى في العبادات والمعاملات، وذلك بعد أن أدركوا ما لذكر الله تعالى من تأثير في تنمية الصحة النفسية وفي علاج انحرافات النفس، وفي وقاية الفرد والمجتمع من الأضرار والفساد. وهم يعطون أمثلة كثيرة على ذلك ومنها اعتمادهم المعالجة النفسية الدينية في معالجة المدمنين على المخدرات، والتي أثبتت أنها أقوى تأثيراً في إبعاد كثير من المدمنين عن هذه الرذيلة. وقد أمكن لهؤلاء بعد الشفاء أن يبدلوا نمط حياتهم وسلوكهم ويرجعوا إلى الحياة الطبيعية مثل سائر الناس الأصحاء.

وكما يؤكد القرآن الكريم على ذكر الله تعالى في العبادات والمعاملات، فإنه يعظ الإنسان أيضاً لأن يتذكر ما جرى للأمم الغابرة، وما لحق بها من الفناء والاندثار نتيجة عدم استجابتها لدواعي الإيمان،

وعدم تخليها عن عقيدة الشرك والوثنية. يقول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1].

إن في مصارع الغابرين ذكرى لمن له قلب أو عقل. وأما من لا يأبه لهذه الذكرى، ومن لم تلامس قلبه بحقيقتها فكأنما قد مات قلبه، وكأنما لم يكُ في جوفه قلب على الاطلاق.

ويكفي لكي تكون للذكرى عظاتها أن يسمع بها الناس، مجرد سمعٍ فقط، بإصغاء ووعي وانتباه حتى يدركوا عظمها وفعلها الكبير في نفوسهم.

وهذا ـ والله ـ حق. لأن النفس البشرية شديدة الحساسية بموت فردٍ أو بضعة أفراد، فكيف بها حيال هلاك الجماعات أو الأمم دفعة واحدة وبأمر واحد من العزيز القادر! فأقل انتباه في النفس يستوعب الذكرى ويتمثلها، وجدير بمن ألقى السمع ووعى أن يتأثر ويتّعظ.

وعن أهمية تذكرة الإنسان يوحي الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون، أن يذهبا إلى فرعون وذلك بأمره سبحانه وتعالى لهما: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[2]. لقد طغى فرعون مصر، وكان جباراً شقياً. ولقد عتا في الأرض عتواً عظيماً. فبعث الله تعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام وأمرهما أن يذهبا إليه ليرتدّ عن طغيانه، وليخاطباه بقول لين لا يثير فيه العزة بالإثم، ولا يهيج فيه الكبر الزائف الذي هو من عادة الطغاة، فلعلَّ في كلامهما اللين الذي يحمل النصح والتوعية، ما يوقظ قلب ذاك الطاغي

---

(١) ق: ٣٦ ـ ٣٧.　　(٢) طه: ٤٣ ـ ٤٤.

فيتذكر أنه مخلوق، وأنه ضعيف مهما ادعى القوة والبأس، وأن لطغيانه حدوداً مهما علا واستعظم. فإن تذكر هذه الحقائق فلعلَّه يخشى عاقبة الطغيان، فيتركه، ويتخلّى عن ادعاء الربوبية، ويعود إليه وعيه الإنساني، فيؤمن بالدعوة التي يدعوه إليها موسى وهارون عليهما السلام.

والله سبحانه وتعالى يعلم ما سيكون من فرعون، ولكنه، تعزّز بقدرته، شاء أن يبين أهمية الدعوة إلى الإيمان والهدى لكي يأتي حساب الإنسان في الآخرة ـ وربما في هذه الدنيا ـ على قدر قبول هذه الدعوة أو رفضها، والعمل بوحيها أو محاربتها..

وتركيز القرآن الكريم على تذكير الإنسان بأعماله، وبأن هنالك يوماً للحساب آتٍ لا محالة، فينتصب ميزان العدل الإلهي ليعطي كل واحد الجزاء الذي يستحق، هذا التذكير الدائم من كتاب الله المبين فيه رحمة واسعة للإنسان، وفضل من منزّل القرآن. يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾[1]. الطامة الكبرى هي النفخة الثانية، كما تقول بعض التفسيرات. أي هي الوقت الذي يفنى فيه كل شيء، ليبعث الله تعالى الناس من جديد من أجل الحساب. فهي إذن يوم القيامة حيث يقف الإنسان أمام الحساب الذي ينتظره وهو يتذكر كل شيء قام به وعمله في دنياه هذه..

وهذه الحياة الدنيا، كما يخبرنا عنها القرآن الكريم، هي متاع إلى حين لا بد أن تنتهي.. وعندها تأتي الطامة الكبرى التي تغطي كل شيء وتطمُّ كل شيء، فلا تبقى سماء مبنية، ولا أرض مدحوة، ولا جبال راسية، ولا أحياء يغدون إلى مشاغلهم ويرجعون. عندها أي في

---

(١) النازعات: ٣٤ ـ ٣٥.

تلك الساعة يتذكر الإنسان سعيه وهو كناية عن أعمالِهِ وأقوالِهِ وحتى نواياه، ويستحضر كل أحداث حياته، وشواغل متاعه التي أغفلته عن الآخرة وما فيها. . . فأما من طغى وتجبَّر، وآثر الحياة الدنيا على الآخرة فلا ينفعه التذكر أو الاستحضار إلَّا زيادة في الندم والحسرة، لأن الجحيم ستكون له المأوى.

تلك هي بعض القضايا الهامة التي يحثنا القرآن على تذكرها في حياتنا هنا، قبل أن نصل إلى الآخرة. ويعطينا البراهين على ما حلَّ بالأمم الغابرة، وبالطغاة والمستبدين، بسبب كفرهم وإصرارهم على الكفر وعدم استجابتهم لدعوات الإيمان التي كانت تأتيهم بها رسل ربهم. . وكل تذكرة للإنسان بمفرده، وللناس بمجموعاتهم، واجبةٌ على كل مسلم. حتى يعرف كل إنسانٍ أي طريق يختار ويسلك، وإلى أين ينتهي به المطاف في النهاية. وفي هذه التذكرة والحث عليها منتهى الرحمة والعدل من ربنا. فعسى أن يتذكر كل إنسان ويخشى قبل فوات الأوان. .

النسيان

النسيان هو ترك الإنسان ضبط ما استودع: إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد، حتى ينحذف عن القلب ذكره.

والنَسْي: أصله ما يُنسى، كالنقض لما يُنتَقَض. وصار في التعارف «اسماً» لما يقِلُّ الاعتدادُ به. لأن الاعتداد بالشيء والاهتمام به يجعلان نسيانه صعباً إذا كان من فعل الإنسان. والعرب تقول: «احفظوا أنساءَكم» أي ما مِن شأنه أن يُنسى.. وفي قوله تعالى في سورة مريم: ﴿نسياً منسِيّاً﴾ ما يدلُّ على أنه جرى مجرى النَسْي القليل الاعتداد به، وإن لم يُنسَ. وأما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْنُنسِهَا ﴾[1] فالمعنى للفظة ﴿نُنسِها﴾: نحذف ذكرها عن القلوب. وذلك بالقوة الإلهية التي تقول للشيء كن فيكون، فتحذف من الآيات وتثبت ما تشاء، لأنَّ فيه خيرَ الإنسان..

وفي بحوث علم النفس يقولون إن النسيان ليس معناه «فقدان الذكريات وزوالها التام من النفس، وإنما هو غياب الصور عن ساحة

---

(١) البقرة: ١٠٦.

الشعور. إن عدم شعورنا بالصورة النفسية لا يدل على فقدانها، لأن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، فكأن العالَم النفسي شبيه بالعالم المادي لا يضيع فيه شيء أبداً».

والنسيان يقابل التذكر أو هو عكسه. ونحن نعلم بأن التذكر مبعثه الذاكرة التي تحفظ التصورات والمشاعر وصور الأحداث الماضية في حياة الإنسان. فعندما يسترجع الإنسان من ماضيه إلى حاضره شيئاً معيناً، فإن ذاكرته هي الملكة المؤهلة لإعانته على استرجاعه. فإذا كانت الذاكرة بمثابة قوة مطلقة، تحفظ كل شيء وتسترجعه كله، فمعنى ذلك أنه لا وجود للنسيان. ولكن الواقع يدل على أن هنالك أموراً كثيرة تغيب عن الإنسان، حتى لو حاول استعادتها من الذاكرة فإنه لا يستطيع ذلك.. مما يدل على أن في النفس البشرية تكوينات تطوي في مضامينها ما يرغب الإنسانُ طيَّه، واعتباره كأنه لم يكن في حياته، سواء كان ذلك عن طريق الإدراك أو الإهمال.. وهذا ما يجعل تلك الأمور تغيب عن الذهن، وتدفن في عالمٍ خاصٍ بها، داخل النفس البشرية، هو عالم النسيان.

ولعلَّ من حسنات النفس الإنسانية وجود النسيان فيها، للتخفيف من حدة بعض المشاعر التي تؤثر في هذه النفس تأثيراً قوياً وهاماً، كالآلام النفسية مثلاً.. فلولا النسيان لبقيت في النفس مشاعر الحزن أو الشدة، الناجمة عن حوادث محزنة أو مقلقة أو شديدة الوقع على الإنسان، ولما أطاق الإنسان احتمال تلك المشاعر إذا كانت حاضرة دائمة في ذهنه، أو إذا كانت قوية لدرجة أنَّ النفسَ لا تقدر على الانفلات من تأثيراتها وانفعالاتها. وربما كان من الخير للإنسان أن تكون ذاكرته نسَّاءة، وأن يقدر على نسيان أمور معينة حتى لا يعيش في

اضطراب دائم، لأن الأحداث التي توجد الاضطراب في حياة الإنسان هي أكثر من تلك التي تؤمِّنُ له الهدوءَ والاطمئنان الذاتي.

ومن أسباب النسيان العضوية غلبة بعض المسالك العصبية على غيرها، حتى لقد اعتبر بعض العلماء أن بعض المسالك العصبية تمحى وتتولد عوضاً عنها مسالك جديدة. ومن هنا كان تأثير السن على الذاكرة، وما يولّد من نسيان مع تقدم سنوات عمر الإنسان.

ومن أسباب النسيان النفسية تأثير الانتباه والاهتمام. فالانتباه والاهتمام الشديدان يُعينانِ على الكسب والحفظ، ويساعدان في الوقت نفسه على النسيان، لأن النفس عندما تهتم بالحديث فهي تهمل شيئاً من القديم المخزون في الحافظة. وكلما عادت الذكريات إلى النفس تغيَّر اهتمامنا بها، فيتضاءل منها قسم، وينجلي قسم، ثم يزول بعضها، ويسدل النسيان حجابه على ما لا نهتم به منها.

وكما لاستعمال الذكريات أو عدم استعمالها تأثير في تثبيتها، فكذلك لهذا الاستعمال أو عدمه تأثيره في النسيان، لأن من شأنه أنْ يقويه أو يضعفه. فكلما كان تثبيت الذكريات أقوى، كان نسيانها أبطأ.

ويعتبر «علماء النفس» أن النسيان العادي الذي يتعرض له الناس إنما يأتي نتيجة لتزاحم المعلومات وتداخلها، فميزوا بين نوعين من التداخل:

الأول ـ التداخل الرجعي: وهو يعني أن نسيان الصور إنما يحصل بالتدريج من الماضي إلى الحاضر، فالأحدث منها هي أكثر ثبوتاً من القديمة أو المهملة. وعلى هذا فالإنسان يذكر الأمور الحديثة أكثر مما يذكر الأمور القديمة.

الثاني ـ التداخل اللاحق: ويكون فيه نسيان الصور على عكس ما هو في النوع الأول، أي بالرجوع من الحاضر إلى الماضي. فقد ينسى الإنسانُ أموراً حصلت حديثاً ويستذكر أموراً بعيدة. وهو عندما يكرر استعمال الصور القديمة فإن هذا التكرار يكسبها قوة تماسك وتلاحم، ويجعل الذكريات القديمة أكثر ثباتاً ورسوخاً في النفس من الذكريات الحديثة. إن الإنسان يتلقى منذ نعومة أظفاره لغته الأصلية، ويتعلم بعدها اللغات الأجنبية، ولذلك هو مؤهل لأن ينسى هذه اللغات ولكنه لا يقدر على نسيان لغته الأصلية. وقد ينسى الإنسان أسماء الأعلام قبل الأسماء العامة، والأسماء قبل الأفعال، ولذلك كانت ذكريات أيام الصبا آخر ما ينساه الشيوخ.

والنسيان قد يتم بفعل الإرادة، وليس فقط بدافع الإهمال. وهذا النسيان الإرادي يحصل باستبدال ذكريات بأخرى، أو بإسقاط بعضها مباشرة. وذلك بأن يقطع الإنسان، بقوة إرادته، كل ما كان يربطه بالماضي فيغير مسكنه مثلاً، أو يشغل نفسه بأمور فكرية كالمطالعة والتحصيل العلمي، أو بتمضية أوقاته في الزيارات والأسفار، أو القيام بالأعمال التي تعود عليه أوعلى غيره بالنفع والفائدة..

والقرآن الكريم قد ذكر النسيان في كثير من الآيات. لأنَّ النسيان من المشكلاتِ التي تعترض الإنسان وتعوقه في أحيان كثيرة عن اتخاذ الموقف السليم والصحيح في مواجهة الحالات النفسية، وفي مواجهة مشاكل الحياة. ولذلك عُنِيَ القرآن الكريم بمشكلة النسيان كما عُنِيَ بعلاجها. والآيات الكريمة تتناول النسيان بقضايا أساسية في حياة الإنسان وأبرزها نسيانه عهد ربِّه، ونسيانه النعم التي يُنعمها عليه، ونسيانه اليوم الآخر، وغير ذلك من القضايا الأساسية في حياة الكائن البشري.

ومن تلك الآيات المبينة قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[1]. وعَهْدُ الله تعالى لآدم كان بأن يأكل من كل الثمار إلا من شجرة واحدة، شاءها ـ سبحانه ـ أن تمثل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة في الإنسان، وتأكيد شخصيته، وقدرته على التحرر من رغبات النفس وشهواتها بالقدر الذي يقتصر على الإفادة من الضرورات، من غير أن تستعبدها الرغبات وتقهرها. وهذا منتهى الرّقي في مقياس البشر. فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها، والاستعلاء عليها، كانت أعلى في سلّم الرقي البشري، وكلما ضعفت أمام تلك الرغائب واستجابت لها كانت أقرب إلى البهيمية، وإلى المدارج السفلى في حياتها وبعد مماتها.

من أجل ذلك شاء الله تعالى أن يرعى بعنايته الإلهية هذا الكائن البشري، وأنْ يُعِدَّهُ لخلافة الأرض باختبار إرادته، وتنبيه قوة الإرادة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين رغبات النفس التي يزينها الشيطان، وبين إرادته وعهده للرحمان. ولكن التجربة الأولى، أو الامتحان الأول الذي وقع فيه أبونا آدم عليه السلام يعلن النتيجة الأولى: ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾. أي لم يكن لآدم عليه السلام إرادة مؤكدة في الفعل الذي أمر به، لأنَّ العزيمة في اللغة هي الإرادة المؤكدة. والعزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر وتوطين النفس على القيام بالفعل.

والله سبحانه وتعالى كان أعلمَ آدم عليه السلام بحقيقة عدوه إبليس: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[2]. تلك كانت رعاية

---

(١) طه: ١١٥.

(٢) طه: ١١٧ ـ ١١٩.

الله تعالى وعنايته أن ينبه آدم عليه السلام إلى عدوه، ويحذره غدره، عقب استكباره وعصيانه بالامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربُّه تعالى.. ولكن آدم يحمل في نفسه الضعف البشري. وأهم ما في هذا الضعف معرفته بأن عمره محدود، وأنَّ قوته البشرية محدودة، فإذا ما أتيح له الخلود، والبقاء الدائم على الأرض، فلن يتوانى عن قبول ذلك أبداً. إنه الضعف البشري، وإبليس اللعين لا يغوي الإنسان ولا يدخل عليه إلا من خلال نقاط ضعفه، بحيث تمكَّن أنْ يوسوس لآدم عليه السلام قائلاً له: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ (١).. لقد لمس الشيطان في نفس آدم عليه السلام الموضع الحساس: إمكانية الخلد والملك الدائم.. ومن هاتين الثغرتين نفذ الشيطان وانتصر وربح في جولته الأولى، والمعركة متواصلة بين بني آدم وبين الشيطان.. ولم يكن ذاك الانتصار إلَّا لأن آدم مخلوق بفطرة البشر، وضعف البشر، لأمر مقدر، وحكمة مخبوءة.. ولعلَّ هذه الحكمة، في تقدير الله العلي الحكيم، أن يحمل الإنسان في ذاته الضعف أمام رغباته كما يحمل القوة، حتى يوازن ويقارن ويقرر ويختار.. وإلَّا فما معنى البعث والحساب؟ وما معنى التفاضل بين بني البشر؟

لقد نسي آدم عليه السلام ولم يكن له عزم على مقاومة غواية الشيطان، إلا أنه عاد ووعى عاقبة تلك الغفلة، فاستمسك بعهد ربه وحفظه..

وها نحن البشر، منذ آدم عليه السلام وحتى تحين الساعة التي لا ريب فيها، نبقى أبداً في خضم المعركة الدائمة المتواصلة، معركة الحق والباطل، معركة الخير والشر، معركة الإيمان والكفر، معركة الطاعة والمعصية، معركة الفوز في الآخرة أو الخسران المبين... وعلى

---

(١) طه: ١٢٠.

الإنسان أن يقف في هذه المعركة في الصف الذي يريد: صف الرحمان أو صف الشيطان؟!..

ويصور القرآن الكريم تلك الفئة من الناس التي مردت على النفاق والفسق، تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف. وتشمل تلك الفئة كل المنافقين والمنافقات، هؤلاء الناس الذين نسوا الله سبحانه وتعالى، فنسيهم.. ولكن نسيانهم لربهم وخالقهم له عاقبة وخيمة في الدنيا والآخرة.. يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ ﴾[1]. المنافقون والمنافقات قد تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وطينة واحدة، لأن سماتهم هي سوء الطوية، ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة.. أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه خداعاً للناس وكذباً. إنهم نسوا الله تعالى فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب مصالحهم «فنسيهم» الله تعالى فلا وزن لهم في حسابه ـ سبحانه ـ ولا اعتبار.

وينبه الله العزيز الحكيم المؤمنين بأن يتّقوه ـ سبحانه ـ وأن تنظر كل نفس ما قدمت لغدها، لأنه سبحانه وتعالى خبير بما يعملون.. هذا التنبيه والتحذير الإلهي، غايتهما أن لا يكون المؤمنون كالذين نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2]. نعم

(١) التوبة: ٦٧.

(٢) الحشر: ١٨ ـ ١٩.

إنهـا دعـوة من الله تعالى لعبـاده المؤمنيـن إلى اليقظة والتـذكـر، وتحذير من أن يكونوا ﴿كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾. فالذي ينسى الله تعالى يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه إلى المقام الذي يستحقه الخلق البشري. وفي هذا نسيان لإنسانيته. فالإنسان بمعرفته لنفسه يعرف من خلالها الله تعالى، ونسيانه لله ـ سبحانه ـ هو من نسيانه لنفسه.

هذا بالنسبة للإنسان الذي ينسى الله تعالى، وينسى نفسه..

ولكن الإنسان المؤمن قد يباغته النسيان أحياناً، ما دام هـذا النسيان في طبعه، وفي تكوينه النفسي، فيعزم على أمر وينسى أن يذكر الله تعالى حتى يمنَّ عليه بالتيسير والبركة. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[1]. الغد من المستقبل.. أي هو في علم الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى. فإذا أراد الإنسان أن يفعل شيئاً، فلا يقولنّ إني فاعل ذلك غداً، وهذا الغد هو في غيب الله تعالى.

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان، فلا يفكر في المستقبل وما يجب عليه أن يدبر له، كلا! ولكن معناه أن يحسبَ حسابَ المستقبل من غير أن يغفل حسابَ الغيب وما يشاء الله تعالى. فإذا عزَمَ فليعزم ولكن ليترك الأمر إلى ما يشاء الله في النتائج والعواقب. عليه أن يفكر، ويصمم، ويعزم، ولكن مع توكله على الله تعالى بأن يعينه ويدبره، لأنه لا يمكن للإنسان أن يفعل شيئاً إلاَّ أن يشاءَ الله تعالى له ذلك.. فإذا

---

(١) الكهف: ٢٣ ـ ٢٤.

نسيَ الإنسانُ هذا التوجُّه إليه سبحانه، عندما عزم على الأمر، فَلْيَعُدْ وليذكر ربَّهُ، وليُرجِع الأمر كله إليه سبحانه. ولا يقولنَّ إني فاعل هذا الأمر غداً إلَّا أن يشاء الله تعالى..

قال ابن عباس: «إذا قلت شيئاً ولم تقل: إن شاء الله، فقله إذا تذكرته» وبهذا أجاز الاستثناء بعد مدة.

إذن فكل حركة، وكل نَفَسٍ من أنفاس الكائن الحي مرهونانِ بإرادة الله تعالى. وعلى الإنسان، والمؤمن خاصة، أن يستشعر بأنَّ يدَ الله تعالى فوق يده، فلا يستبعد أن يكون لله ـ سبحانه ـ تدبير غير تدبيره هو. فإن وفَّقَهُ الله تعالى إلى ما اعتزم كان خيراً. وإن شاء الله أن يكون غير ما دبَّر الإنسان واعتزم كان أيضاً خيراً له، فلا ييأس ولا يحزن، لأن الأمر لله تعالى أولاً وأخيراً..

هذا هو المنهج الذي يأخذ به الإسلام قلب المسلم. فلا يشعر بالوحشة وهو يفكر، ولا يحس بالغرور وهو يدبّر، ولا يشعر باليأس وهو يفشل.. بل يبقى في كل أحواله متصلاً بالله تعالى، قوياً بالاعتماد عليه، شاكراً لتوفيقه إياه، مُسَلِّماً بقضائه وقدره.. فإذا نسيَ هذا التوجيه والاتجاه، فعليه أنْ يذكرَ ربَّه وأنْ يرجع إليه: وليقل: ﴿عسى أن يَهْدِيَنِ ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ أي إلى هذا النهج الذي يصل القلب دائماً بالله تعالى، في كل ما يهمّ به، وفي كل ما يتوجه إليه.



الفصل السابع

- الميول والنزعات
- الأهواء
- الإرادة



الميول والنزعات

لا تستقيم حياة الكائن البشري، ما لم يكن هنالك توازن بين ذاته الداخلية وسلوكه الخارجي، وما لم يحافظ على هذا التوازن بين الداخل والخارج. وقد عبر عن هذا التوازن أحد العلماء الفيزلوجيين الأميركيين في كتاب أسماه «حكمة الجسم» وهو يصف الأسلوب الدقيق الذي تتم به محافظة أجهزة الجسم المختلفة لكائن ما، بطريقة آلية «على وسط متوازن إلى حد بعيد، أو على البقاء في حالة توازن. على سبيل المثال: تنحصر درجة حرارة الجسم الداخلية للأفراد في حدود حرجة تصل إلى ٩٨,٦ درجة فهرنهيتية تقريباً. وبالمثل، يظل تركيز العناصر (مثل الملح، السكر، والكالسيوم) في الدم عند مستويات ثابتة نسبياً، وذلك بصورة آلية. وتعرف نزعة الجسم إلى التنظيم الذاتي **بالاتزان** البدني. ويقال إن الحاجة تنشأ عندما تكون الميكانيزمات الآلية في الجسم غير قادرة على إبقائه في حالة متزنة» فيأتي الإشباع ليلبي هذه الحاجة وتصحيح حالة التوازن في الجسم.

على أن هذا التوازن يخضع لتبدلات كثيرة ناجمة عن تبدل الميول والرغبات التي تتغير في داخل الإنسان بتبدل الظروف الخارجية

التي تحيط به، فيكون عندئذٍ على الإنسان أن يتكيّف وفق تلك التبدلات. وهو في هذا التكيف إما أن يخضع للميول والنزعات التي تغلب عليه، وينحني أمام ظروفه الخارجية، وإما أن يُخْضِعَ هو ميوله ونزعاته لعقله وإرادته، فيتحكم بها بدل أن يجعلها تقوده إلى الانفعال والتأثر والاضطراب، وإما أن يحاول التأثير في ظروفه فلا يستسلم لها كلياً فتدفعه إلى ما لا يعرف عقباه. وهو في ذلك كله يسعى دائماً لتحقيق غاياته وبلوغ أهدافه.

والإنسان بتركيبه الحيوي لا يمكنه البقاء سليماً معافىً ما لم تستمر أعضاؤه جميعاً بأداء وظائفها. وأداء هذه الوظائف هو ما يولد لديه الحاجات الضرورية التي لا ينعكس أثرها على تركيبه العضوي فحسب، وإنما أيضاً على تركيبه النفساني. ومن هنا تتولد الميول والرغبات التي تنشأ في النفس لتلبية الحاجات وإشباعها.

والميل، في اللغة، هو العدول عن الوسط إلى أحد الجانبين، فنقول مال يميل ميلاً، إذا لم يعد هنالك تعادل أو توازن. وقد يعني الميل العون، فنقول: مالَ إلى فلان إذا عاونَهُ.

وفي الاصطلاح: الميل هو عبارة عن حالة نفسية تنشأ من جراء حاجة طبيعية.

والحاجات الطبيعية، يمكن معرفتها عن طريق علم الحياة (البيولوجيا) الذي يهتم بدراسة التركيب العضوي أي تركيب الأنسجة والخلايا، ووظائف الأعضاء، فيبين حاجات الجسد، وأنماط تغذيته، وشروط بقائه.. ومن خلال تلك الدراسة يمكن أن نتبين لدى الإنسان طاقة حيوية هي عبارة عن مجموعة الغرائز والحاجات العضوية التي تحدثنا عنها في فصل سابق «فطرة الإنسان».. ونشير هنا فقط إلى

بعض الحاجات العضوية، وإلى بعض مظاهر الغرائز لارتباطها بالميول التي تتفاعل في النفس.. وعلى ذلك فإن الحاجة العضوية هي كل ما تولده الأعضاء كي تقوم بوظائفها، ومن ثم يشعر بها الإنسان ويكون مدفوعاً إلى تلبيتها وإشباعها. وبذلك كانت الحاجات العضوية متعددة ومتنوعة، وهي تختلف بين جسم وآخر من جراء تفاعل كل جسم مع ظروف البيئة والتكوين الداخلي.

ومن أبرز الحاجات العضوية:

- حاجة الإنسان إلى الأكل والشرب، وعنها يتولد إحساسنا بالجوع والعطش. كما يتولد عنها حبنا لهذا النوع من المأكولات أو تقززنا من نوع آخر، فينشأ من جرائه الميل للابتعاد عن المأكولات أو المشروبات الضارة. كما يتولد عنها الحاجة إلى التَّبرز والتّبول..
- الحاجة إلى تشغيل العضلات والحواس..
- الحاجة إلى الاستدفاء وقت البرد، وإلى التبرد وقت الحر..
- الحاجة إلى العمل، وتقابلها الحاجة إلى الراحة ولا سيما بعد التعب.
- الحاجة إلى النوم بعد السهر..

وما إلى ذلك من حاجات يشعر بها الإنسان من خلال طاقته الحيوية التي هي منشأ الحركة الدائمة..

والغرائز والحاجات العضوية هي من حيث الماهية شيء، ومظاهرها شيء آخر. فالغريزة أو الحاجة العضوية لا تأخذ واقعاً محسوساً أو شكلاً ملموساً إلّا من خلال مظاهرها التي تتبدّى فنحسّ بها ونتفاعل معها.

وإن من مظاهر غريزة النوع: ميل الرجل إلى المرأة، والعطف على الولد، والإشفاق على المريض، وحب الغير، والشعور أو الميل الجنسي.. فهذه المظاهر هي في الحقيقة عبارة عن ميول أو مشاعر، وكثيراً ما يخطئون بتسميتها بالغرائز، بينما لا تعدو كونها مظاهر لغريزة واحدة هي غريزة النوع. من هنا وجب تصويب الخطأ الشائع الذي نجده في المؤلفات والأبحاث ولا سيما التي تتحدث عن الميل الجنسي وتقول عنه: إنه غريزة الجنس، إذ لا وجود في الحقيقة لغريزة جنسية وإنما يوجد ميل جنسي لدى الإنسان أو لدى الكائن الحي بما فيه الحيوان الأعجم.

ومن مظاهر غريزة حب البقاء: التملك والاقتناء، والاندفاع، والشجاعة، والحب، والكراهية والخوف...

ومن مظاهر غريزة التقديس: العبادة، والخشوع، والشعور بالعجز أمام قدرة عظيمة يقتضي الإيمان بها، والتقرب إلى المعبود (وهو الله ـ سبحانه ـ عند المؤمنين).

هذا ما رأيناه بالتفصيل وقد قلنا أيضاً إنَّ جميع غرائز الإنسان، وكذلك حاجاته العضوية، تحتاج إلى إشباع. لا بل إن طاقة الإنسان الحيوية ـ وهي التي ينتج عنها الحركة والنشاط والسلوك ـ لا يمكن أن تؤدي وظائفها، على الوجه الأكمل، إلَّا بالإشباع، سواء كان إشباعاً غريزياً، أم إشباعاً عضوياً.

والسعي الدائم لتحقيق الإشباع بنوعيه ـ الغريزي أو الشعوري، والعضوي أو المادي ـ والأخذ بكل الوسائل والأسباب المؤدية لهذا الإشباع هو ما يؤلف سلوك الإنسان الذي يظهر بأقواله وأفعاله على اختلاف أشكالها، واختلاف آثارها. وهذا السلوك هو الذي يؤدي إلى

تكوين الشخصية الخاصة بكل فرد.. ذلك أن في داخل كل منا فكراً يقوم بتشغيله أو إعماله (أي إشباعه)، كما لدى كل منا طاقة حيوية (وهي بدورها محتاجة إلى إشباع). فإذا وجد الترابط ما بين الفكر والطاقة الحيوية، أو التوافق والانسجام ما بين الأفكار والسلوك، فإن ذلك يؤدي إلى تكوين الشخصية. وإن لم يوجد التوافق والانسجام ما بين الأفكار والسلوك، فإنه ينتج عن ذلك تشتت في الأفكار، واضطراب في الميول والنزعات، وهذا ما يؤدي إلى تكوين الشخصية الفوضوية التي تتأتى أساساً عن مخالفة السلوك للأفكار، أو التصادم والتضارب بينهما، فلا يعود الإنسان يحفل بقيم أو مثل، ولا بقوانين ونظم. بل وكثيراً ما يسلك طرقاً ملتوية من شأنها أن تلحق الضرر به، وقد تنعكس بالتالي ضرراً على محيطه العائلي، ووسطه المجتمعي، ناهيك عن تنكره لإنسانيته.

من هنا كانت أهمية الميول في حياتنا الفكرية والشعورية، بخلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين من القول بأنه لا علاقة لتأثير أفكارنا على مشاعرنا، لأن الميول تؤلف حالات لا شعورية، بمعنى أننا لا نشعر ولا نحس بشيء اسمه الميل في داخلنا، ولكن نعرف أن لدينا ميولاً عن طريق الحاجات الجسدية، أو من خلال المظاهر التي تتأتّى منها هذه الحاجات، كاللذات والآلام التي نحسّ بها فعلاً، والتي تنشأ في الأصل عن الميول والنزعات. ولذلك يعتبرون، من الناحية النفسية، أن وراء كل لذةٍ ميلاً، ووراء كل ألم نزعة..

وكذلك الرغبات فإنهم يعتبرونها ظواهر نفسية تدل على الميول، لأنها تنشأ في الأساس عن الحاجة أو الشهوة، وتدفع الإنسان إلى هذا التصرف أو ذاك، كما هي الحال بالنسبة إلى الرغبة في الطعام، التي لا توجد إلا عند الشعور بالجوع..

ومهما كانت التفسيرات في أصل الرغبات، فإن من الثابت أن لدى الإنسان بعض الرغبات التي لا يعرف أسبابها. ذلك أن الرغبة قد لا تعني دائماً وجود ميل خفي وراءها، وهي إن دلت على هذا الميل، فقد لا تكون هنالك أية علاقة بينها وبينه. ومن هنا جهل الإنسان، في كثير من الأحيان، لما يرغب فيه، وعلى الأخص في أيام الصبا حيث تتشابك الأماني وتختلط الأحلام، فلا يعرف الشاب من أي مصدر تأتيه الرغبات، ولا يدرك الأسباب الكامنة وراءها..

والرغبات تبدو، عادة، بمظاهر واضحة ومعروفة لدى الإنسان. ولكن قد تكون الرغبات أيضاً مبهمة أو وهمية وكاذبة. فلو رغب الإنسان في تحقيق هدف يعتقد أنه شريف وسام، وعمل على بلوغ هذا الهدف، ـ أي حقق رغبته الدافعة إليه فقد لا يلبث بعده أن يشعر باليأس والحزن، وبأن آماله قد سقطت. وهذه الحالة تنشأ عن التناقض ما بين الرغبة في الشيء والواقع الذي يشكله هذا الشيء. فالشاب الذي يسيطر عليه الحزن بعد بلوغ هدفه، قد يصطدم بالواقع الذي يكشف له بأن رغبته في الهدف السامي لا تنطبق على الواقع الذي واجهه، من أجل ذلك كانت تلك الرغبة العارمة لديه مجرد وهمٍ بدَّده الواقع عندما اصطدم به.

والرغبات، على كل حال، ليست في حقيقتها إلَّا مظاهر للغرائز، ولا سيما غريزة حب البقاء، وغريزة النوع. فالإنسان الذي تحكمه «الأنا» هو، عادة، الإنسان الذي تطغى عليه أنانيته، فيسعى دائماً وراء منافعه أو مصالحه الذاتية أو الشخصية. وهو إنما يفعل ذلك للحفاظ على بقائه، وزيادة قواه، وتوطيد ثقة الناس به، أي أن غريزة حب البقاء هي التي تسيطر عليه. هذا، بخلاف الإنسان الذي تتغلب عليه

«اللاأنا»، أي ذاك الذي يجعل حب الآخرين ومصالحهم هدفه الأساسي في الحياة، فيملأ قلبه بالعطف عليهم، ويتفانى في سبيل خدمتهم، والحفاظ على وجودهم. فهذا الصنف من الناس يشبع غريزة النوع ويحاول دائماً أن تكون «اللاأنا» هي المسيطرة عليه.

وليس هنالك أي إشكال في حياة الإنسان عندما تتضح له ميوله، ويتصرف بما ينمُّ عن تلك الميول، ويتوافق معها. ولكن المشكلة تبرز عندما تكون الميول كامنة في النفس، ولا يهتدي الإنسان إلى أسباب هذا الكمون.. من هنا كانت ظاهرة الكبت كإحدى أهم الظواهر النفسية في الميول، والتي لها تأثيرها الهام على الحياة النفسية لدى الإنسان. فقد تكمن في داخله ميول خفية، ونزعات دفينة، وأحلام مكبوتة، بفعل تركيبه النفساني، وبفعل عوامل البيئة، والتربية، وما إلى ذلك من أسباب داخلية وخارجية. وعندما تسيطر على الإنسان تلك الكوامن النفسية، الناشئة عن اعتبارات كثيرة، نراه يعيش في حالة اضطراب دائم، وفي همٍّ وقلق، وقد تخطر على باله تصورات غريبة عديدة. وكل ذلك دون أن يعرف الأسباب الخفية التي تجعله يعيش في تلك الحالة، فينشأ عنده الكبت.

ولنأخذ على ذلك مثال الكبت المتولد عن الميل الجنسي.. فهذا الكبت قد ينجم عن عوامل عديدة كعلاقة الأبوين ببعضهما. وعلاقتهما بالولد، وتأثير أساليب التربية في المدرسة، وتأثير القيم الخلقية والدينية وما إلى ذلك.. وهي جميعها قد تؤثر بالإنسان حتى يصل إلى الحالة التي يزجر فيها كل ميل جنسي، بل ويحتقر العلاقة الاجتماعية ما بين الرجل والمرأة.

وتعيش المجتمعات البشرية اليوم وضعين مختلفين تجاه التربية

الخلقية، وتجاه العلاقات ما بين الجنسين. فهنالك مجتمعات محافظة إلى أبعد الحدود، تقابلها مجتمعات متفلِّتة من كل قيمة أخلاقية؛ هذا على صعيد المجتمعات. أما بالنسبة إلى الأفراد فإن الأفكار التي تسيطر على المجتمع هي التي يكون لها تأثيرها المباشر على أفراده وتصرفاتهم. فإذا ما أخذنا فكرة «الحرية الشخصية» التي جعلها الغرب أساساً لحضارته وتمدّنه، نجد أنه ذهب بها بعيداً إلى الحد الذي أفقد مجتمعاته الضوابط الخلقية، ولا سيما ما نتج عنها من فوضى جنسية مهلكة. فالغرب، ورغم ما في النظامين الرأسمالي والاشتراكي ـ أو الشيوعي ـ من اختلاف في النظرة الأساسية إلى الكون والحياة والإنسان، نجده متفقاً ـ بكل أنظمته ـ على أنَّ المثل العليا للإنسان هي القيم التي يضعها الإنسان نفسه، وأن السعادة هي بأخذ أكبر نصيب من المتع الجسدية، لأن هذه المتع ـ بنظره ـ هي الوسيلة إلى السعادة، بل هي السعادة نفسها. كذلك يتفق الغرب أيضاً بجميع أنظمته على إعطاء الإنسان حريته الشخصية ليتصرَّف بها كيف يشاء، وعلى نحو ما يريد، ما دام يرى في هذا التصرف سعادته، وليس فيه اعتداء على حريات الآخرين!...

ولو أردنا توضيح ما ذهب إليه الغـرب، فإننا، ومن منظورنا الفكري، نرى بأن الغريزة لا تتحرّك داخلياً مُطلقاً، بعكسِ الحاجةِ العضويّةِ التي تتحرّك داخلياً من ذاتِها، وتُثار للإشْباع خارجيّاً. فالشعور الجنسيّ ـ مثلاً ـ لا يثور من نفسهِ مُطلقاً، وإنما يحتاج إلى ما يُثيره منَ الخارج، فلا رغبة في الجماع الجنسيّ، ولا أيّ شُعورٍ بذلكَ إلاّ إذا رأى الإنسان واقعاً محسوساً يثيره، أو تحدّثَ إنسانٌ أمامَه عما يُثيره مِنَ الوقائِعِ، أوْ تصوّرَ وقائِعَ مرّتْ عليه سـابقاً، فعنـدها يُثـار الشعور الجنسي. ولهذا يجب على المسلمينَ أن يُبْعِدوا عنهم ما يثير غريزةَ

النوعِ، ويحرّك مشاعِرَهُمْ. ومن الـواجبِ إخفاء المُشـوّقاتِ لإثـارةِ الشعور الجنسي كالأفلام والمراقصِ والصورِ والرِّواياتِ والمُؤلفاتِ. وعندئذٍ يُصَفّى المُجتمع، ويهَدأُ الشّابّ ويثوب إلى رشدِهِ، ثم يعود إلى العَلاقَةِ الزّوجية القائِمَةِ على بناءِ الأسرةِ والمُحافَظَةِ عَليها، وتعودُ النظرة المُحتَرَمَةُ إلى المرأةِ على أساسِ أنها أُمّ وربّة بيْتٍ، وعرضٌ يُصان. لا كما يُنْظَرُ إليها الآنَ وكأنّها مُتْعَةٌ، يتمتّعَ بها صاحُبها قدْرَ الاستطاعة.

من هنا كانت ظاهرة الكبت ظاهرة خطيرة، كما أن ظاهـرة الفوضى الجنسية خطيرة جداً.. والكبت يمكن أن يتولد بصورة إرادية، ولكن في حالات قليلة جداً، ومن غير أن يكون لدى الإنسان أي قصد في الأساس لتوليد هذا الكبت، بل إنَّ ما يفعله هو أنه يجهد في السيطرة على بعض غرائزه وحاجاته العضوية، إلى الحدّ الذي يقهر نفسه في مقاومته لميوله ورغباته التي يظن أنها تتعارض وأفكاره، ولا تتناسب مع سلوكه. إنما، وفي أغلب الأحيان، يأتي الكبت من غير فعل إرادي، ومن غير إدراك لمسبباته، ومن هنا تنشأ عنه الآلام، والقلق، واليأس وغيرها.. وقد تتولد عن الكبت «عقد نفسية» من شأنها أن تجعل الإنسان عاجزاً عن القيام بأفعال كثيرة.

وبالإجمال فإن الكبت يؤثر في تكوين الشخصية، ويبين لنا أن أعمالنا الظاهرة متصلة بنزعاتنا الباطنية. ويجد الإنسان، في مفاهيم الإسلام خير عامل على تربيته التربية السليمة التي تبعده عن الانحراف النفسي، وعن الآلام النفسية، وعن كل شيء من شأنه أن يؤذيه في حياته النفسية، كما العضوية. ففي الوقت الذي يجب على الإنسان أن ينمي مداركه الفكرية، عليه أيضاً أن يعيش مشاعره وأحاسيسه بصورة طبيعية وصادقة، فلا يكبت عواطفه، ولا يهمل انفعالاته، وخاصة أن

الإنسان كثيراً ما يتأثر بما يتراءى له من تصورات، وبما تقع عليه حواسه من أشياء، وبما يتفاعل في داخله من كوامن دفينة، فيشده هذا التأثر إلى الانطلاق من كبته، إلى معايشة الواقع بما يتوافق مع مشاعر نفسه. وهذه المعايشة هي من واقع حياته، وليست غيباً فيه، لأن الإنسان في الحقيقة هو عبارة عن روح ونفس وجسد. فهو لا يمكنه أن يكون معافى، جسدياً أو نفسياً، إذا ما تغلبت بعض عناصر تكوينه على بعضها الآخر. بل يجب أن يكون هنالك توافق تام بين مختلف هذه العناصر التي تؤلف تكوينه الحيوي. وتلعب العواطف في هذا المجال دوراً هاماً في حياة الإنسان، لأنها تشكل مجمل ما ينبعث عن نفسه من ميول ونزعات وأهواء وأفكار الخ. . . ولذا لا يجوز له أن يترك لتلك العواطف العنان لتسيّره كيفما تشاء، ولا أن يكبتها كل الكبت حتى يقضي على طاقته الشعورية. . وما عليه إلَّا أن يكبح جماح العواطف، كلما رأى أنها ستطغى عليه، لكي يوجه ميوله ونزعاته إلى الوجهة الصحيحة التي لا تخدعه فيها. ولذا كان على الإنسان ألَّا يتنكر لذاته، وألَّا يعمل على تعذيب نفسه، حتى لا يعطل تكوينه النفسي، ويقضي على مسار حياته الطبيعي، فهذا التعطيل غير مطلوب من الإنسان، بل ليس هو من إنسانية الإنسان في شيء.

وقد عالج الإسلام هذه القضية في حياة الإنسان معالجة دقيقة، لأن الله ـ سبحانه ـ عندما أراد هذا الدين القويم لعباده، إنما أراده دين الفطرة، ولذلك فهو يتناول تربية الإنسان على أساس هذه الفطرة، فيعمل على تنظيم غرائزه وحاجاته العضوية بما يكفل سلامتها وصفاءها وصقلها، ويرشده إلى الإمكانيات التي تشبع تلك الغرائز والحاجات إشباعاً وافياً وطبيعياً.

ومن خلال هذه المعالجة نجد أن الإسلام لا يفاضل بين

الغرائز، ولا يميز بين غريزة وأخرى، ولا يقبل بأن يطغى مظهر هذه الغريزة على مظهر تلك.. وهو كذلك لا يكبت مظهر غريزة كبتاً شديداً، ولا يطلق مظهر غريزة كل الإطلاق. أي أنه لا يريد للإنسان القهر والعذاب، كما لا يريد له العوج والانحراف، أو كل ما من شأنه إفساده بالمبالغة فيه زيادة أو نقصاناً، بل يريده إنساناً مستقيماً، واعياً، معتدلاً، متفاعلاً مع عقيدته الدينية، ومع مفاهيمه الإنسانية، بشكل طبيعي ومنتظم..

والناس في غالبيتهم الساحقة لا يدركون مفاهيم الإسلام، وبالتالي لا يعرفون كيف يتعاملون مع الطبيعة البشرية وفق الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها. ولذلك نراهم يتجاوزون حدود هذه الفطرة بما يعمدون إليه من كبت أو بما ينجرُّون إليه من انحراف، أو بما يطلقون فيه العنان لمظاهر غرائزهم. وتكون النتيجة تعطيل العمل الطبيعي لهذه الغرائز، والسير في الحياة سيراً مضطرباً. وهذا بعض أوجه التباعد عن الدين الإسلامي الذي لا ينفك يخاطب فطرة الإنسان في قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(1).

والله تعالى قد أوجَدَ المنهج للناس، ولكن الذين يتبعون الشهوات يريدون تغيير هذا المنهج، والميل عنه. يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(2). فما هو هذا الميل الذي يريده الناس الذين يتبعون الشهوات؟

---

(1) الروم: ٣٠.   (2) النساء: ٢٦.

ـ هو الميل والانحراف عن منهج الله تعالى. وكل من يميل أو يحيد عن منهجه ـ سبحانه ـ إنما يتبع الشهوات. لأنه ليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام، وكل ما عداه إن هو إلا هوى يتبع، وشهوة تطاع، وانحراف وفسوق وضلال.

وعندما يبين الله تعالى للناس المنهج القويم إنما يريد أن يهديهم، ويعينهم على التسامي، لإبعادهم عن المزالق. وكل هذا لأنه ـ سبحانه ـ يريد لهم التوبة والرحمة والغفران.. هذا ما يريده الله تعالى لعباده.

وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات، فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال ديني، أو أخلاقي أو اجتماعي... يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا ضابط ولا رادع. السعار المحموم الذي لا تطمئن معه نفس، أو بيت، ولا يسلم منه عرض، ولا تقوم معه أسرة.. وكل هذا الفساد، وكل هذا الشر، باسم الحرية وهي ـ في هذا الوضع ـ ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة.

هذا هو الميل العظيم الذي يحذر الله تعالى المؤمنين منه، أي الميل الذي يريده لهم الذين يتبعون الشهوات. وهذا ما تريده اليوم الأقلام المأجورة، والأجهزة الموجهة من انطلاق بهيمي لا عاصم منه إلا منهج الله تعالى، حين تقره العصبة المؤمنة في الأرض إن شاء الله تعالى.

واللمسة الأخيرة في التعقيب تتولى بيان رحمة الله تعالى بضعف الإنسان فيما يشرعه له من منهج وأحكام، والتخفيف عنه ممن يعلم ضعفه ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[1]. فإرادة

---

(1) النساء: ٢٨.

التخفيف واضحة بمراعاة فطرة الإنسان وطاقته، وحاجاته الحقيقية بإشباع غريزة النوع عن طريق الزواج، أو الصبر حتى يجعل الله سبحانه له مخرجاً، ووضع السياج الذي يقيها التبدد وسوء الاستعمال.

وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج الله تعالى ـ وبخاصة في علاقات الجنسين ـ شاق مجهد، والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح. وهذا وهم كبير.. فإطلاق الشهوات من كل قيد، والركض وراء اللذة في كل تصرف، والتحرر في علاقات الجنسين من كل التزام أخلاقي وإنساني.. إنَّ هذه كلها، وإنْ بَدَتْ في نظر الفاسدين المتفلتين راحة وانطلاقاً، ما هي في الحقيقة إلّا مشقة وانقباضٌ، ونتائجها في حياة المجتمع ـ بل وفي حياة كل فرد أو أسرة ـ نتائج مدمرة وماحقة.. فليحذرِ الناسُ أولئك الذين يتبعون الشهوات ويريدون أن يميلوا بالمؤمنين عن الصراط المستقيم ميلاً عظيماً..

وتتكامل التربية الربانية للإنسان، في آية أخرى، من سورة النساء، فالله سبحانه يبين لنا حقيقة الفطرة البشرية، ويدلنا على أفضل السبل في معاملة الرجل للمرأة. يقول تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

والمعاني في هذه الآية المباركة واضحة، وفيها إرشاد للأزواج على كيفية التعامل مع نسائهم. إذ المقصود: أن لا تعدلوا بأهوائكم عن اللواتي لم تملكوا محبّتهنَّ، حتى يحملكم ذلك على أن تجوروا عليهنّ في ترك أداء الواجب لهن عليكم من حق القسمة والنفقة

---

(١) النساء: ١٢٩.

والكسوة والعشرة بالمعروف، وينهاكم الله سبحانه أن تميلوا كل الميل عن تلك الزوجة فتذروها معلّقة، أي كالتي ليست ذات بعلٍ ولا هي مطلقة.

وروي عن أبي عبد الله عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ وبين القولين فرق. أجاب: أما قوله ﴿فإن خفتم ألَّا تعدلوا فواحدة﴾ فإنه عنى به النفقة؛ وأما قوله ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا﴾ فإنه عنى به المودة. لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين في المودة، لأنه سبحانه وتعالى لم يجعل لرجلٍ قلبين في جوفه، بل جعل له قلباً واحداً، فإذا مال هذا القلب لواحدة، فلا يستطيع أن يميل للأخرى نفس الميل للأولى. وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقسم بين نسائه ويدعو إلى ربه قائلاً: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك».

نعم إن الله تعالى الذي فطر النفس البشرية، يعلم فطرتها وأنها ذات ميول لا تملكها. ومن ثم جعل لهذه الميول مُتنفَّساً لينظم حركتها فقط لا ليعذبها ويقتلها. ومن هذه الميول أن يميل القلب البشري إلى إحدى الزوجات ويؤثرها على الأخريات، فيكون ميله إليها أكثر من الأخريات.. وهذا ميل لا حيلة له فيه، ولا يملك محوه أو قتله. إنَّ الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه، ولا يجعل هذا إثماً يعاقبه عليه، فيدعه موزعاً بين ميل لا يملكه، وأمر لا يطيقه! بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ـ ولو حرصوا ـ لأن الأمر خارج عن إرادتهم.

---

(١) النساء: ٣.

ولكن هنالك ما هو داخل في إرادتهم.. هنالك العدل في المعاملة، والعدل في النفقة... وهذا ما هم مطالبون به. هذا هو المتنفَّسُ الذي يوجِّه ذلك الميل، لينظمه لا ليقتله.

وعن ميول النفس الشديدة، وشهواتها المستحبة، يقول الله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾(1).

هذه الآية الكريمة تبين أن التركيب البشري عند الإنسان يتضمن الميل إلى النساء، والبنين، والمال على أنواعه مثل الذهب والفضة والخيول والأنعام والمزروعات.. وبأنه ليس ميلاً وحسب، بل هو أيضاً شهوة لهذه الأمور مجتمعة، وهذه الشهوة هي جزء من تكوينه الأصيل لا حاجة لإنكارها، ولا إلى استنكارها في ذاته، فهي ضرورية للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطّرِد..

ولئن كان هذا الجزء من تكوين الإنسان ضرورياً للحياة البشرية، إلا أنَّ الواقع يشهد كذلك بأن في فطرة الإنسان حُبًّا للنساء آخر يوازن ذلك الميل، ويحول دون الإنسان والانقياد إلى شهواته، فيفقد قوة النفحة العلوية التي نفحه الله تعالى بها.. هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامي، والاستعداد لضبط النفس، ووقفها عند الحد السليم من مزاولة هذه الشهوات، أي أنه الحد الباني للنفس وللحياة،

---

(1) آل عمران: ١٤.

والذي يربط النفس البشرية بالملأ الأعلى، وبالدار الآخرة، وبرضوان الله تعالى..

والتعبير القرآني لا يدعو إلى استقذار تلك الشهوات وكراهيتها، إنما يدعو إلى معرفة طبيعتها وبواعثها، ووضعها في مكان لا تتعداه، حتى لا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى.. وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها، ومحاولة تهذيبها ورفعها لا كبتها وقمعها..

وكل النظريات حول النفس التي تشير إلى «العقد النفسية» ترى أن السبب الرئيسي لهذه العقد هو «الكبت».. أي كراهية دوافع الفطرة واستنكارها من الأساس، مما يوقع الفرد تحت ضغطين متعارضين: ضغط من شعوره، كوَّنته عوامل عديدة، بأن دوافع الفطرة قذرة توقع الإنسان في الخطيئة من الشيطان... وضغط الفطرة الطبيعية ذات الوظيفة الأصيلة في كيان الحياة البشرية التي لا تتم إلَّا بهذه الفطرة، والتي لم يخلقها الله تعالى فيها عبثاً...

ولو سلمنا جدلاً بصحة هذه النظريات، فإن الإسلام يعالج النفس البشرية بطريقة مختلفة، وذلك بإبعادها عن الصراع بين ضغط المشاعر التي تتولد من الشهوات، والرغائب، والميول، والنزعات وما إلى ذلك.. وضغط الفطرة الأصيلة التي تفرض وجود الطاقة الحيوية في الإنسان بغرائزه وحاجاته العضوية. ويتم إبعاد هذا الصراع بترك الدوافع على اختلافها تمارس وظائفها ونشاطاتها ضمن حدود الاعتدال بلا تفريط ولا إفراط، أي ما يمكن أن نسميه عملية «الضبط» وليس «الكبت».

هوى النفس
(الأهواء)

يقال في اللغة. هَوِيَهُ يَهواهُ هَوىً: أحبَّهُ واشتهاه.

والهوى مصدر هَوِيَ، ويعبَّر به عن ميل النفس أو عن العشق الذي يكون في الخير والشر. والهَوى يكون محموداً أو مذموماً، غير أنه غلب على المذموم، نقول: «فلان اتّبع هواه» إذا أردنا ذمَّهُ. ونقول: «فلان من أهل الأهواء» أي ممَّن زاغ عن المنهج القويم. ويسمى أهل الأهواء بأهل البدع. ونقول: «هذا الشيء أهوى إليَّ من كذا» أي أحبُّ إليَّ.

والهُوَّة: الجو بين السماء والأرض أو الوهدة الغامضة من الأرض. والهُوَى والهُوِيّ جمع الهُوَّة. ومنه الحديث: «إذا غرستم فاجتنبوا هُويَّ الأرض».

والهَوَاء: هو الجو. أو الشيء الخالي. أو الغاز الذي نستنشقه. أو الجبان لخلوّ قلبه من الجرأة. وهوى في الأرض ذهب فيها. وهوى الشيء هَوِيّاً وهُوِيّاً: سقط من علو إلى أسفل.

من مختلف هذه المرادفات والمعاني يمكن الاستنتاج بأن هوى

النفس هو ما يتلاعب بها، ليحيدها عن جادة الصواب ويقذف بها إلى أسفل. وفي أبحاث «علم النفس» إن هوى النفس هو ميلها الشديد إلى الشهوة، أو ميلها كل الميل إلى ما تحب وتشتهي. ولذلك كان العشق هوىً لأنهُ ميلٌ قوي يستولي على النفس ويجعل اهتمامها منصبّاً على المعشوق. وهذا الهوى أو العشق كثيراً ما ترافقه الغيرة حتى ليطغى على سلطان العقل.

ومثل العشق الميل القوي إلى السلطة أو الميسر أو المال أو الخمرة... فهذه الميول تصبح أهواء في النفس إذا اشتدت واستولت عليها، وصارت شغلها الشاغل.

وهكذا فإن كل ميلٍ شديدٍ من شأنه أن يُسَخِّر النفس، ويقهر الإرادة فيها، ويرغمها على الاتجاه إلى شيء معين ـ فكري أو مادي، شعوري أو محسوس ـ يصبح هوىً في النفس. وعلى ذلك فإن البخل أو الطمع، أو حب الفن أو الشعر، تصبح من الأهواء إذا طغت على النفس وسيطرت على سلوك صاحبها.

الهيجان والفرق بينه وبين الهوى

الهيجان: هو التحريك والإثارة، أو هو الشعور بالاضطرابات العضوية الباطنة أو الظاهرة التي تصحب التصور. ويتميز الهوى، عن الانفعالات النفسية الأخرى بقوته التي تقربّه إلى حد الهيجان حيناً أو الجنون حيناً آخر. من أجل ذلك يصعب التفريق، في بحث الانفعالات، بين الهوى والهيجان بوضوح، لأن الهيجان يُعتبر المصدر الذي ينبثق عنه الهوى، وهما غير مختلفين، ولا يوجد بينهما فرق كبير من حيث الطبيعة والدرجة، إذ كما تكون هنالك هيجانات هادئة، فإن

هنالك أيضاً أهواء شديدة، وعلى العكس فكما توجد الهيجانات القوية توجد كذلك الأهواء الساكنة. . ورغم الصعوبة في التفريق بين الهيجان والهوى من ناحية الطبيعة والدرجة، فقد جرى التمييز بينهما من الناحية الزمنية، ولذلك يقال بصورة عامة إن الهوى هو حالة دائمة ومزمنة، بينما الهيجان هو حالة مؤقتة وسريعة. فالهيجان قد يبقى في النفس ولا يزول بعد حدوثه، وفي حال تكراره من غير أن ينقطع، وثبوته على حالة معينة أو درجة معينة، فإن هذه الحالة التي تتكون من جراء الهيجان الثابت والمتكرر تشكل الهوى. ولذا قال أحد الباحثين «الهوى إذن هيجان دائم».

لقد انتقد العلماء هذه النظرية وقالوا إنها واهية الأساس، لأنها تعرف الهوى بنتائجه لا بماهيته. فذهب بعضهم إلى القول: ولو أمعنا النظر في حقيقة الهوى لظهر لنا أنه يختلف عن الهيجان كل الاختلاف، وانبثاقهما عن مصدر واحد لا يدل على وحدتهما، إذ من المعروف أن جميع الانفعالات تصدر عن النفس، التي هي مكمن الميول والأهواء والرغبات وكل الانفعالات النفسية. فيكون تعريف الهوى بالميل الشديد أقرب إلى الواقع، وعليه أدل، ويكون الفرق بين الهيجان والهوى ليس في الشدة والمدة فقط، وإنما هو في الماهية، فحيث يوجد كثير من الهيجان لا يوجد في الغالب إلا قليل من الهوى. فالأمم مثلاً التي يغلب عليها الاضطراب والهيجان قلما تشعر بالأهواء العميقة الثابتة. وكثيراً ما تكون الأمزجة الهادئة أكثر تعرضاً للأهواء العميقة من الأمزجة المضطربة. ولذلك شبه أحدهم الهيجان بسيل طغى فهدم سده، وشبه الهوى بالماء الذي يحفر مجراه فيتعمق فيه قليلاً قليلاً.

من ذلك كله يتبين أن الفرق بين الهيجان والهوى كبير جداً.

ومثاله الواضح نفسية الطفل الذي يكون على العموم كثير التهيج قليل الهوى.

وسرعة التهيج تدل على تبدد الحساسية وتبعثرها، فلا نضطرب لأقل شيء إلا لعدم وجود مركز تتجمع حياتنا حوله، ولا ننفعل بسهولة إلا لفقدان التنظيم والوحدة في نزعاتنا النفسية. والذي يبعث على تجمع النزعات حول مركز واحد هو الهوى، فإذا استولى هذا الهوى على النفس فإنه يسخر ميولها كلها، ويوجهها إلى هدف واحد. من هنا كان القول بأن الهوى أقرب إلى الميل منه إلى الهيجان، وكان تعريف الهوى بأنه ميل النفس الشديد إلى ما تحب وتشتهي.

والميول في حالة الاعتدال تكون متسقة ومتوازنة، فلا سيطرة لأحدها على الآخر. ولكن عندما يقع الإنسان في الهوى فإن نظام ميوله الطبيعي يتهدم، ويسيطر ميل واحد على سائر الميول الأخرى، وقد يطردها من ميدان الشعور، لينفرد وحَدَه بالعمل، فيصبح تعلق الإنسان به مانعاً عليه التفكير في غيره. وهذا ما دفع بعض العلماء إلى وصف الهوى «بأنه إله معبود»، تفسيراً لقول الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [1]. فيكون الهوى إذن ميلاً مانعاً لغيره من الاشتراك معه، أو هو نزعة نفسية يثبتها التكرار، وتقويها العادة، وتكيّفها التربية.

ومن صفات الهوى أنه قوة حيوية يجمع بين قوة العادة ومظهر الغريزة. وقد اعتبر بعض العلماء أن الهوى يكتسب اكتساباً بينما يكون الميل فطرياً، واعتبر غيرهم أن الهوى يشتمل على عناصر مكتسبة وعناصر فطرية معاً. فما يثبت بالتكرار ويكتسب بالعادة يكوّن العناصر المكتسبة. وهذه العناصر يمكن التخلص منها لأنها لا تتحكم في

(١) الفرقان ٤٣.

النفس بصورة ثابتة ومطردة، وذلك بخلاف العناصر الفطرية التي يصعب على الإنسان التخلص منها. من هنا كان الشفاء من الهوى صعباً جداً. ولذلك قالوا: «الوقوع في الهوى سهل، والشفاء منه صعب».

والسؤال الآن: ما هي الأسباب الكامنة وراء الهوى؟

تقول غالبية الأبحاث في «علم النفس» إن ميولاً ورغبات كثيرة هي التي تدفع عادة إلى الهوى. وتتحول الرغبات إلى أهواء بصورة فجائية، أو بصورة تدريجية. وهذا التحول التدريجي هو ما يحصل غالباً لأن الهوى لا يظهر إلا بعد ركود الميول الدفينة في خفايا باطن النفس البشرية.

وبصورة عامة إن أسباب الهوى تكون إما خارجية وإما داخلية:

١ ـ فالأسباب الخارجية هي عبارة عن تأثير الإقليم، والغذاء، والصحة، والتربية، والبيئة المجتمعية. فمن حيث تأثير الإقليم نجد أن أهواء الذين يعيشون في أقاليم باردة تختلف عن أهواء الذين يعيشون في أقاليم حارة. ومن حيث تأثير الغذاء والصحة، فإن حب الطعام والشهوة إلى المأكولات كثيراً ما تولد الشره الذي يعتبر بطبيعته شهوة ضارة على العموم. والذين يتمتعون بنعمة الصحة تكون أهواؤهم غير أهواء المرضى؛ والذين يعانون من مشاكل مادية أو حياتية، تكون أهواؤهم غير أهواء الذين يعيشون في جاهٍ وبحبوحةٍ من العيش.

فتأثير الأوضاع المجتمعية إذن لا يكون واحداً على جميع أفراد المجتمع الذين يعيشون فيه، ولذلك تعتبر التربية والبيئة المجتمعية من أكثر الأسباب الخارجية تأثيراً على النفس بوجه عام. فكما تبعث التربية البدنية أو الخلقية على تولد بعض الأهواء دون غيرها، كذلك تعمل

البيئة في البيت أو في المدرسة أو في المجتمع على تولّد بعض الأهواء أو على إزالتها. وهكذا نجد طموحاً عند بعض الناس، وخنوعاً عند البعض الآخر، أو نجد أناساً يهوون القيم والمثل العليا، بينما ينحدر آخرون وراء ميول منحطة ورغبات دنيئة.. وكل ذلك بفعل التربية وتأثير البيئة كعوامل خارجية للهوى.

٢ ـ وأما الأسباب الداخلية فهي متعددة وتشتمل على كثير من العناصر الجسدية والنفسية، مثل الاستعدادات الشخصية، والمزاج، والوراثة، فكلها عوامل تؤثر في تولد الهوى. ولكن إذا ما أخذنا عامل الوراثة بالمقارنة مع غيره من الأسباب الداخلية الأخرى، نجد أن تأثيره أقل أو قد يكون عكس ما يحصل عادة. فقد يورث المدمن على الخمر أولاده استعداداً لشرب الخمر إلا أن هذا الاستعداد قد يزول بتأثير الفعل الشخصي أو بتأثير التربية، فلا عجب أن يصبح ابن شارب الخمر أكثر الناس إيماناً وابتعاداً عن المحرمات ولا سيما شرب الخمر، ومثله ابن البخيل الذي يصبح كريماً، وابن الكريم الذي يصبح بخيلاً..

ومما يؤثر في تولد الهوى أيضاً شدة الإحساس، وقابلية الهيجان، وقوة الخيال.. ومثال الهوى الخيالي أن يرسم الإنسان في ذهنه صورة معينة للشخص الذي يتمناه ويرغب فيه، ومع الأيام تصبح هذه الصورة معشوقاً خيالياً، فلا يكاد يصادف في الحياة شخصاً شبيهاً لهذه الصورة أو يقرب منها حتى يقع في حبه. وقد يطغى عليه هذا الحب حتى يصير هوى يستبد بالعاشق.

وقد ينبعث الهوى كذلك عن ضعف الإرادة، لأن الإرادة القوية تمنع صاحبها من الانقياد للأهواء وسيطرة أحد الميول على الأخرى.. والهوى لا سبيل فيه إلى العبث، لأن كل فعل قد يوجد استعداداً، فقد

يتظاهر المرء بالهوى في بادىء الأمر، فإن كرَّر هذا التظاهر واعتاد عليه انقلب إلى هوىً فعلي...

نتائج الهوى وآثاره

قد يسيطر الهوى على العقل والحس والإرادة، ويدفع بالإنسان إلى ما لا تحمد عقباه. ولعلَّ أهم الآثار التي تنشأ عن الهوى في النفس أنه يشوش نظام الميول الطبيعي، بحيث يؤدي إلى فقدان الاعتدال والتوازن في حياة الإنسان، وذلك نتيجةً للإخلال بتوازن الميول واتساقها الطبيعي، وتسخير جميع النزعات الأخرى وتوجيهها نحو هدف محدد. وقد دعا هذا الإخلال بنظام الميول الطبيعي كثيراً من المفكرين إلى ذم الهوى، لشدة تأثيره في النفس وتغيير مجراها الطبيعي. ذلك أنه من الطبيعي أن تنشأ اللذة عن الفعل، في حين أن الهوى يجعل الفعل خاضعاً للذة. وقد يسيطر على النفس والجسد معاً، حتى لقد سماه القدماء جنوناً لخروج صاحبه عن الاعتدال. وكثيراً ما يؤدي إلى إلحاق الأضرار البالغة بصاحبه. وأكثر ما نجد مثل هذا الهوى الضارّ عند أصحاب الإرادات الضعيفة، الذين يستسلمون لأهوائهم، ويتركون لها العنان حتى تقودهم نحو الضياع، وربما إلى الهلاك..

معالجة الأهواء

إن من الواجب مكافحة الأهواء الضارة التي من شأنها أن تطغى على إرادة الإنسان وتضعفها. ولكن قبل هذه المكافحة، يجب العمل بكل الوسائل والسبل لمنعها من التولد، فالتدابير المانعة أو الوقائية خير من التدابير الرادعة. فإذا ما أحسَّ الإنسان في نفسه ميلاً شديداً إلى شيء غير مستحب أو مكروه، أو إلى لذة أو شهوة دنيئة، فإن عليها مغالبة هذا الميل قبل أن يصبح هوىً مستفحلاً في نفسه، فلا يعود قادراً على دفعه ومغالبته.

ولعلَّ أنجح السبل لتلافي الأهواء هو معرفة الإنسان لذاته أو معرفة نفسه على حقيقتها. فعندما تنكشف له بداية هوىً قد يغلب عليه، وجب محاربة أسبابه بكل الوسائل المتاحة له، حتى ولو اضطر من أجل ذلك إلى تغيير نمط حياته، والانتقال من بيئةٍ إلى أخرى...

والفراغ والبطالة عن العمل من أهم الأسباب الباعثة على تولد الأهواء الضارة. ولذا قيل: «البطالة أم العيوب».

وقد يكون الشبان، ولا سيما من هم في مقتبل العمر، أكثر تعرّضاً للأهواء من غيرهم، وذلك لكثرة الدواعي المتسلطة عليهم، فكان لزاماً أن يملأوا أوقات الفراغ بالعمل المثمر كالمواظبة على الدرس والتحصيل العلمي، أو مطالعة المؤلفات الراقية، أو إيجاد عمل شريف مهما كان نوعه لكي يحصل منه الشاب على الكسب الحلال.

والعمل في خدمة المجتمع خير رادع عن تسلط الأهواء. فالمتطوع في الدفاع المدني وقت الأزمات والنوائب، والمساهم في الجمعيات الخيرية، والنوادي الثقافية والرياضية وما إلى ذلك يعتبر من أبناء المجتمع الصالحين، الذين نأوا عن الأهواء، واتبعوا السبل القويمة المجدية وملأوا فراغهم بعمل الخير.

ومما يذكر في التاريخ أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد أن يعين والياً على حمص، سأله: إذا أتاك الناس بسارقٍ فماذا أنت فاعل به؟ أجاب: قاطعٌ يا أمير المؤمنين يَدَهُ. قال عمر بحدِّة: يا هذا، وإن كان بحاجة إلى ما سرق، قطع أمير المؤمنين يدك. يا هذا، إن الله تعالى خلق الأيدي لتعمل فاشْغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

إذن هنالك مجالات واسعة جداً لأي إنسان كي يملأ قلبه

بالطمأنينة، ويعوِّد نفسه على حب الخير، مثل حب الأهل والأصدقاء، بل وحب الناس أجمعين.. ويأتي في طليعة كل حب، بل وفي رأس كل عاطفة أو شعور حب الله تعالى. وهذا الحب هو الذي يفعم قلوب المؤمنين بالخير ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1].

ويمكن معالجة الأهواء بعد ظهورها بطريقتين:

١ ـ تصور الغايات السامية والسعي لتحقيقها، لأن هذا التصور يحوِّل الذهن عن الأهواء التي تشغل الإنسان ويجعله يولي اهتمامه لنيل تلك الغايات.

ويمكن أيضاً محاربة بعض الأهواء من خلال التفكير في عواقبها الوخيمة. فالذي يطغى عليه شرب الخمرة، أو الاتجار بالمخدرات مثلاً، قد تستهويه اللذة، أو قد تغريه الثروة، ولكنه عندما يسأل نفسه: وما نفع تلك اللذة الزائلة، أو ما فائدة الثروة مهما بلغت إذا ما عصيت ربي، أو إذا ما أمسكت بي السلطات وأودعتني السجن؟!... هذا الخوف من العواقب الوخيمة قد يدفع إلى التخلي عن تلك الأهواء، فتتغلب المشاعر النبيلة، وينتصر العقل على الشهوة...

٢ ـ الامتناع عن الأفعال التي من شأنها إرضاء الرغبات المحرِّكة للهوى. لأن مما يضعف الهوى، أن ترغب وتشتهي وتشقى من غير أن تنال لذة. فالهوى الذي لا تدرك غايته يضعف، فإذا عجز الإنسان عن نيل شيء يرغب فيه أعرض عنه.

وقصارى القول إنه لا يمكن التغلب على الأهواء إلَّا بالصبر على المعاناة من جرائها، والثبات على مقاومتها، والاستمرار على القيام

---

(١) البقرة: ١٦٥.

بالأعمال الخيرة، وتصور الغايات السامية.. وكل هذا يقتضي جهداً إرادياً كبيراً. ولذلك كان الهوى مذموماً من قبل الباحثين جميعاً، وهم يضعون له علاجات نظرية أو عملية، إلَّا أنها لا ترتقي إلى الدرجة التي بلغها التصور الإسلامي حول معاني الأهواء ونتائجها وآثارها على حياة الإنسان، ومن ثم بيان معالجاتها من خلال معالجة النفس الإنسانية ككل لا يتجزأ.

والقرآن الكريم يتحدث كثيراً عن ذم الذين يتبعون أهواءهم، وخاصة ما كان مبعثها وسوسة الشيطان، والاندفاع وراء الشهوات، وارتكاب المعاصي.. وهذا الذم ناتج عن انسياق الإنسان لرغائبه وميوله الشريرة التي تتحول إلى هوىً يطغى عليه ويُضلّه: إن عن دينه أو عن دنياه. لأن الهوى كثيراً ما يميل بصاحبه، في هذه الدنيا، إلى كل داهية، كما يجعل مصيره في الآخرة إلى الهاوية. يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾[1]. فقد استعمل النص القرآني لفظ الجمع ﴿أهواءهم﴾ تدليلاً على أن لكل امرىء هوىً غير هوى الآخر، ثم إن هوى كل واحد لا يتناهى، فيكون إذن اتباع الأهواء، وبخاصة اتباع أهواء الكفار والمشركين والملحدين هو نهاية الضلال.

ويقول الله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾[2] أي الذي حملته الشياطين على اتباع الهوى فأضلَّته، فصار في حياته كلها حيران لا يعرف ما يفعل، ولا يدرك الحقيقة، يهيم في الضلال والكفر، تستعبده شهوات الدنيا الي تزينها له الشياطين. وهذا أدق وأصدق تعبير عن حالة التياه والحيرة التي يتخبط بها الإنسان أمثال من عاد إلى الشرك بعد اعتناقه عقيدة التوحيد يتوزع قلبه بين الهدى

---

(١) الرعد: ٣٧.
(٢) الأنعام: ٧١.

والضلال، بيـن الله تعالى الإله الواحد الأحد، وبين الآلهة المتعددة التي يتخذونها من دون الله تعالى، وجميعها من مخلوقاته سبحانه. فمثل هذا النموذج من البشر يكون ضائعاً، يتخبط في الحيرة وفي الضلال، ولا يجد له من ولي ولا ناصر..

ويقول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[1].

الطغيان هو وصف لكل تجاوز في الحق. والطاغي المقصود في النص القرآني هو من يكون ميدانه في الحياة أوسع مدى وأشمل من ميدان الطغاة ذوي الحكم والسلطان، حيث يشمل ميدانه كل تجاوز للحق، وللهدى، وللصواب والخير، فكان حكماً أنْ يُؤثِرَ الحياة الدنيا ويختارها على الآخرة، ويعمل لهذه الدنيا فقط غير عابىء بالآخرة، وغير حاسب لها أي حساب.

ولكن هذا الطاغي لم يعرف أن اعتبار الآخرة والعمل لها هو الذي يقيم الموازين الصحيحة في عقل الإنسان وقلبه. فإذا أهمل الإنسانُ حساب الآخرة، أو آثر عليها الدنيا، اختلت كل الموازين في حساباته، وتساوت كل القيم في تقديره، واضطربت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، فحق إذن أن يُعدَّ طاغياً، باغياً، ومتجاوزاً للحدود. فأما هذا الطاغي الباغي فإن الجحيم هي مأواه ومثواه. الجحيم التي تتلظى بالنار اللاهبة المحرقة، التي تشوي الجلود والأكباد، وتلتهم العظام والأفئدة، وتقول: هل من مزيد؟!..

وأما الذي خاف مقام ربه فإنه لا يقدم على معصية، وإن أقدم

---

(١) النازعات: ٣٧ ـ ٤١.

عليها بحكم ضعفه البشري، قاده خوفه من مقام ربه الجليل إلى الندم والاستغفار، والتوبة وعدم الإصرار، فعاد إلى الطاعة والعبادة، والله سبحانه وتعالى غفور، تواب رحيم..

﴿ونهى النفس عن الهوى﴾...

وهذا النهي للنفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة، لأن هوى النفس هو الدافع القوي لكل طغيان، وتجاوز كل حدٍّ، وهو أساس كل بلوى، ومصدر كل شرّ. وقلَّ أن يؤتى الإنسان، وأن يسلك طريق المعصية والانحراف، إلا من قبل الهوى.. فقد يجهل الإنسان، فيكون سهلاً علاج الجهل. ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق، طويل الأمد لعلاجها.

والخوف من مقام الله العلي العظيم هو الحاجز الصلب أمام اندفاع هوى النفس العنيف. وقلما يثبت غير هذا الحاجز أمام تيارات هوى النفس.

إنّ الذي يقول لنا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1] هو الله سبحانه وتعالى، خالق النفس البشرية، العالم بدائها، الخبير بدوائها. وهو وحده ـ سبحانه ـ الذي يعلم دروبها ومنحنياتها، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها، وكيف تتصارع الأهواء والأدواء في مكامن النفس ومخابئها! والله تعالى لم يكلف الإنسان ألّا يشتجر في نفسه الهوى، فهو ـ سبحانه ـ يعلم أن هذا خارج عن طاقته، ولكن كلفه أن يروضها ويمسك بزمامها، وأن يستعين بالخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب. وخالقه يعلم أن نهيَهُ لنفسه عن السير في هواها، هو

(١) النازعات: ٣٧ ـ ٤١.

جهاد شاق ضخم، فكتب له بهذا الجهاد الشاق الضخم، الجنة مثابة ومأوى.

كان المشركون في الجاهلية يعبدون الأصنام والأوثان، ومن معبوداتهم تلك اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى.. وطبعاً تلك المعبودات كانت وهماً لا أساس له من العلم ولا من الواقع، ودون حجة أو دليل، لذلك يقول الله تعالى عنها بأنها أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، لأن كل ما لم يقرره الله تعالى فلا قوة فيه ولا سلطان، لأنه لا حقيقة له، إذ إن للحقيقة سلطانها. أما الأباطيل فهي ضعيفة، مهينة لا سلطان فيها. وعن عبادتهم لها واتباعهم إياها يقول الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[1].

وكثيرون اليوم هم على شاكلة المشركين في الجاهلية، يتبعون الظن وما تهوى الأنفس: فيقيمون على الظن عقيدتهم، أو يهوون أشياء تزينها لهم أنفسهم، ويجعلون هذه الأشياء أساس عقيدتهم، بحيث يستمدون من الظنّ ومن هوى الأنفس الدليل، مع أنّ العقيدة الحقّة لا مجال فيها للظنّ والهوى، ولا بدّ فيها من اليقين القاطع، والتجرد من الهوى. وهم لم يتبعوا الظن والهوى وعندهم شيء من برهان أو دليل، أو لهم عذر أو علة ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾.. فبعد أن جاءهم هذا الهدى من ربهم، وقطع كل شبهة لديهم، وأوهى كل عذر، وأبطل كل تعليل، كيف يبقون على ضلالهم وعلى اتباعهم ﴿الظن وما تهوى الأنفس﴾؟.

---

(١) النجم: ٢٣ ـ ٢٥.

ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر، ولن يجدي هدى، لأن هوى النفس يكون جامحاً فلا يعرف حقاً، ولا يقرّ بدليل. بل إن الجموح ليسيطر عليه، حتى تصابَ النفس بشر حالة، فلا يعود ينفعها الهدى، ولا يقنعها الدليل.

ومن ثم يسأل الله تعالى الإنسان في استنكار: ﴿أم للإنسان ما تمنى؟﴾. فهل كل ما يتمنى الإنسان يجب أن يتحول إلى حقيقة، وكل ما يهوى يجب أن ينقلب إلى واقع؟ لا، الأمر ليس كذلك. لأن الحق حقٌّ، والواقع واقع.. وهوى النفس ومناها لا يغيران في الحق شيئاً، ولا يبدلان في الحقائق أي تبديل. بل إنما يضل الإنسان بهواه، ويهلك بمناه. وهو أضعف من أن يغير أو يبدل في خاصيّات الأشياء. ويبقى الأمر كله لله تعالى، يتصرف فيه كما يشاء في الدنيا والآخرة: ﴿فلله الآخرة والأولى﴾، يفعل بهما ما يشاء بحكمته، وبحسب مصلحة العباد، فيعطي الآخرة للمؤمنين دون الكافرين، وأصحاب الظنون، وذوي النفوس الجامحة بالهوى..

وعن هؤلاء الناس الذين يتبعون الأهواء إلى أقصى حدٍّ حتى ليتخذ أحدهم من هواه إلهاً له، يقول الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[1].

إنه خطاب من رب العرش العظيم إلى الرسول الكريم يدله فيه على ذاك الجاهل الذي أشرك بالله تعالى، وذلك باتباعه هواه، والانقياد له حتى جرّه ذلك إلى الشهوة والطمع والحسد وكل الشرور التي تتكالب على النفس فتقتل كل نفحة للإيمان فيها. لقد جعل هذا العبد

---

(١) الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤.

الجاهل، الجاحد، هواه غاية له وهدفاً، حتى غدا عنده هذا الهوى إلهاً يعبده ويأتمر بأوامره ونواهيه.. أوليس في ذلك إنكار منه للحق، وتعطيل لحكم عقله، وتنكر للفطرة التي فطره خالقه عليها؟.

فلست ـ يا محمد ـ وكيلاً عليه، ولا أنت باستطاعتك أن تكون حافظاً يحفظه من عبادة هواه، بل لست قادراً ـ يا محمد ـ على أن تعيده إلى طريق الهداية إذا لم يتدبَّر هو أمره، ويتفكَّر بحاله وبمآله!.

ومن غرَّه هواه، فنسي ربه، وعصى ما يأمره به من السمع والطاعة، لا يمكن أن تكون لديه قابلية للهدى، ولذلك ينبّهُ العزيزُ القديرُ رسولَهُ الكريم بقوله له: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلَّا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾؟ لا، لا تظننَّ فيهم خيراً، فهم لا يسمعون ما ترشدهم وتعظهم به، ولا يفقهون شيئاً مما تدلي به من الحجج والبراهين والشواهد، لأنهم لا يريدون هدايةً من الله، ولا استماعاً إلى رسوله. إن هم، وبتلك الصفات، إلَّا كالبهائم التي تسمع النداء، ولكن لا تعقله. بل هم أكثر ضلالاً من البهائم، لأنهم رغم فهمهم لقولك وتمكنهم من المعرفة، لا يحبون أن يصدّقوك، بينما الأنعام لا تملك ملكة الفهم والوعي بل ألهمت فقط منافعها ومضارها المعيشية، وهي بغرائزها لا تقدم على ما يضرها، في حين أن أولئك البشر قد عرفوا طريق الهلاك وطريق النجاة، فسلكوا الأولى وبعدوا عن الثانية، مُوقعين أنفسهم في التهلكة! أوليسوا في ذلك أضلَّ طريقاً من البهائم؟ وهل أحقر شأناً من مخلوق يؤثر اتباع أهوائه فينقاد لها حتى ينزلق إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان؟ وهل أدنى قيمة من إنسانٍ وُهِبَ العقل والنطق والقدرة على التمييز والاختيار ثم يعطّلها جميعها ويخضعها لأهوائه، حتى يصير هو بالتالي عبداً لهذه الأهواء؟!...

وإنه لمن العدل الإلهي، والقانون الطبيعي لحقيقة الحياة ووجود الإنسان، ألَّا يستوي من كان على بينةٍ، وَمَنِ اتبع هواه. وهذا ما يبينه القرآن الكريم بقول الله تعالى:

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾[1].

قد صدر هذا القولُ من ربِّ العالمين على وجه الاستفهام والاستهجان والتوبيخ للكفار والمنافقين والملحدين حيث قال تعالى: ﴿أفمن كان على بيّنةٍ من ربه﴾ وعَنَى به المؤمن الذي هو على يقين من دينه، وعلى حجة واضحة من اعتقاده في التوحيد والشريعة، فهل يجوز أن يكون هذا ﴿كمن زين له سوء عمله﴾ بالكفر فرآه حسناً، ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ أي شهواتهم، كعبادة الأوثان، واقتراف الآثام، وارتكاب الحرام.. فكان اتباعهم للأهواء بلا ضابط يرجعون إليه، ولا أصل يقيسون عليه، ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل.

لا يتساوى هؤلاء الكفار مع أولئك المؤمنين، والمماثلة لا تصح بين الفريقين. فهم يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً، ولا يمكن أن يستووا جزاءً، ولا مصيراً، ولا مآلاً.

---

(١) محمد: ١٤.

الإرادة

يقال في اللغة: رادَ، يَرود: إذا سعى في طلب شيء. والرائد: طالب الكلأ، وهو الأصل، ثم صار لكل طالب حاجة، حتى قيل أخيراً: رائد الفضاء.

والإرادة في النفس البشرية عبارة عن قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل يحكمها العقل؛ فهي تُعَرَّفُ إذن بنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه عن طريق العقل بأنه ينبغي أن يُفعل أو لا يُفْعَل.

الفعل الإرادي أو إرادة الفعل

والفعل الإرادي يكون عقلياً وذاتياً.

فهو يكون عقلياً عندما يريد الإنسان شيئاً ويفعله مستخدماً في ذلك جميع الإمكانيات والوسائل التي تمكنه من تحقيق هذا الشيء، وكذلك الأمر عندما يريد بلوغ هدف معين فهو يستعمل كامل قدراته وطاقاته من أجله. والإنسان عندما يستخدم عقله للقيام بفعله الإرادي فإنه لا يعني فقط ما يفعل بل ويشعر أيضاً بما يفعل.

والفعل الإرادي يكون ذاتياً بالنسبة للإنسان لأنَّ أقوى البواعث والدوافع هو ما دلَّ على سجايا المرء وخصاله، التي تبرز في تكوين شخصيته المتميزة عن سائر الشخصيات. ولذلك يختلف الفعل الإرادي بين إنسان وآخر، وهو يحصل بحدود طاقة الفاعل، على أن يتحمل صاحبُه وحده تبعة تحقيقه.

والرَّوِيّة إحدى مراحل الفعل الإرادي وهي تقوم على التأمل والتفكير في الأمر قبل الإقدام عليه، وذلك بالموازنة بين الأسباب الداعية إلى الأمر والأسباب الرادعة عنه، فإذا أسفرت هذه الموازنة عن اتخاذ قرار تمت شروط الفعل الإرادي، وإذا لم تسفر عن اتخاذ قرارٍ، وقع الإنسان في الحيرة والتردد.

والفعل الإرادي لا يتبع النزعات الطبيعية التي تسيطر على الإنسان، كالأفعال الاندفاعية، والأفعال المتأتية عن مظاهر الغرائز. فقد يرغب الإنسان القيام بعمل معين، وتدفعه الرغبة إلى القيام به، ولكن اتباع الرغبة شيء والخضوع للإرادة شيء آخر.. فهو من حيث الرغبة لا يشكل حالة اندفاع من غير رويَّة، لأن الروية مقابلة للاندفاع، كما أنه لا يصبح إرادياً إلا إذا تعارضت الرغبات أو تقابلت النزعات، أو تصادمت الشهوات وبدأ الصراع فيما بينها، بحيث يتجمَّع هذا الصراع حول الرغبة في جملة من الصور والأفكار والعواطف، ولا ينتهي إلَّا بتغليبها على غيرها التي هي أضعف منها. ففي هذه الحالة يكون الفعل إرادياً. هذا مع الإشارة إلى أنَّ كل ما يحدث في نفس الإنسان يبقى متأثراً ـ من قريب أو بعيد ـ بما يسبقه في هذه النفس من انطباعات، أو بما هو عليه الإنسان من سجايا وخصال.

والفعل الإرادي لا ينطوي على تصورٍ مسبق وحسب، بل يجب

أن تتضمن الإرادة أيضاً عناصر أخرى كنـزوع النفس إلى الفعل، والحكم عليه بأنه ينبغي أن يُفعل أو لا يُفعل، ومن ثَمَّ التقرير بتنفيذ هذا الحكم. والمثال على ذلك أن يتخذ الإنسان أحد موقفين أمام عزمه على الخروج في نزهة برغم أن بين يديه عملاً يقوم به:

- إما الخروج بعد أن يحكم بأن لديه متسعاً من الوقت لإنجاز عمله، وأنه يمكنه أن يستفيد من أجواء الطبيعة الهادئة، ومن قضاء فترة من الراحة تؤهله ليكون أكثر استعداداً ونشاطاً للقيام بهذا العمل.

- وإما الامتناع عن الخروج، بعد تفكيره بجميع البواعث والدوافع التي تحبب إليه النزهة، ثم الاقتناع، أو تغليب التفكير الذي يقرر إنجاز العمل لأنه ليس لديه متسع من الوقت يتيح له الخروج في نزهة قبل هذا الإنجاز.. وهذا ما يجعل إرادة الفعل متميزة عن نية الفعل.

نية الفعل

قد يكون أحدنا منكباً على عمل من الأعمال الصعبة، أو منشغلاً بإتمام أمر من الأمور الشائكة، وقد يشعر بالتعب، ويجد في نفسه حاجة لأن يترك كل شيء لفترة يذهب خلالها في نزهة قصيرة للراحة والترويح عن النفس. فإذا أغرته هذه الفكرة ودفعته إلى الخروج فعلاً، فإن النية لديه في الخروج تكون هي التي تغلبت على ما عداها من نوايا أخرى. وفي هذه الحالة ينشأ تصور عن النزهة وما تنطوي عليه من أشياء مريحة، وهو تصور متقدمٌ على فعل الخروج، ويسمى بنية الفعل. فالنية إذن هي «فاعلية القصد، وتشتمل عادة على الرغبة والحاجة والأمل».

مقومات الإرادة

يجب أن تكون الإرادة قوية وصحيحة. ويقتضي لهـا جملة مقومات مثل الثقة بـالنفس، وتصور المثـل العليا، ومعـرفة النفس والإيمان بها.

والثقة بالنفس تبدأ بمعرفة الإنسان بقدرة هذه النفس وطاقاتها ومواهبها. أما معرفة النفس فضرورية لأنه «ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه».. وكذلك الإيمان بالنفس فإنه يعزّز الثقة بها، ويدفع إلى مقاومة مشاعر النقص وتصورات الضلال.

ومن يقوي ثقته بنفسه يشعر بأن لديه إمكانية كافية للقيام بأي عمل.. وقد يخفق الإنسان أحياناً وهو يعمل ـ وهذا ليس عيباً طالما أنه يعمل بجدٍ وإخلاص، ويعطي العمل حقَّه ـ إلا أنه يجب ألّا يدع الشعور بالإخفاق يستولي عليه، ويوهن قواه، ويدفعه لترك هذا العمل. لا بل على العكس من ذلك، إذا كان هذا الإنسان يملك إرادة قوية وسعة أفق، فعليه أنْ يتخِذ من فشله حافزاً جديداً، ومن تجاربه السابقة درساً مفيداً كي يقدم ولا يتقاعس، محاولاً أن يتحدّى كل الصعوبات، وأن يذلِّل كافة العقبات التي تعترضه. وليس مهماً بعد ذلك إن استطاع مثل هذا الإنسان إنجاز عمله بالصورة التي يتوخاها، فالمهم أن محاولاته وجهوده التي بذلها تعتبر كافية لترسيخ ثقته بنفسه. والأمثلة على ذلك في الحياة كثيرة: فهذا مريض يتحمل شدة الآلام، ويصبر على قوة الجراح. وذاك رجل شريف لا يعبأ بأقاويل الآخرين فيما يفعل من مكرمات. فكلاهما مثال يدلّ على شدة الاحتمال، والشعور بالقوة، وكلٍّ ما يوحي الثقة بالنفس. وعلى خلافهما كلٌّ من يكون ضعيف الإرادة فإنه لا يقوم بعمل مُجْدٍ، بل لا يمكنه القيام بأي عمل لأنه يعتبر نفسه فاشلاً، لا يصلح لشيء في الحياة. ولذلك تراه مشدوداً إلى

الكسل والتواكل على الغير، يلوذ بالشخص القوي كأنما يحتمي فيه، ويرتمي في أحضان الوحدة هرباً من مواجهة الحياة.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الثقة بالنفس شيء والجنوح إلى المبالغة شيء آخر. فلا يعتقدنَّ أحدٌ أنه قادر على القيام بكل عمل، وأن كل تصوراته وطموحاته قابلة للتحقيق بسبب مهارته وحذلقته، أو بسبب المغالاة بادعاء التفوق. ولذا فإن على الإنسان أن يريد أموراً معينة تكون متوافقة مع مواهبه ومنسجمة مع ميوله وقواه الفكرية والنفسية، وأن يكون لديه إيمان بقدرته على النجاح بهذه الأمور التي تدل على قوة الإرادة والثقة بالنفس، لأن في نفس كل إنسان ميولاً طبيعية تساعده على النجاح وتمكّنه من اتخاذ القرارات الحاسمة بشأنها، واتخاذ التدابير التي من شأنها توفير سبله للنجاح. ومن الثابت أن ذوي الإرادة الفاعلة، يواجهون الأعمال الصعبة المعقدة التي يقتحمون ميادينها بثقة بالنفس أكبر، وقوة في العزيمة والتصميم والمثابرة أشدّ.

هذا عن الثقة بالنفس، أما عن تصور المثل العليا فإن حياة الإنسان لا تقتصر على الأعمال المادية، بل هنالك المعاني المجردة كالأهداف النبيلة والقيم السامية والمثل العليا التي تجذب كثيراً من الناس إليها..

والمثال الأعلى ـ في التصور الإسلامي ـ يقوم على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]. فهذه قاعدة إسلامية هي أمُّ التصور والتفكير والشعور، لأن لله تعالى الصفات العليا والأسماء الحسنى، يتفرّد سبحانه بالألوهية والربوبية وبالخلق، ويتعزَّز بالقدرة والبقاء والمشيئة المطلقة. وعن هذه القاعدة الإسلامية تنبثق سائر القيم والموازين،

---

(١) النحل: ٦٠.

وشتى الأهداف والغايات، وكل المثل العليا في الوجود الإنساني.
وعلى الإنسان أن يستمد ـ قبل كل شيء ـ مثله من هذه القاعدة ثم ينطلق في تصور المثل الأخرى التي يريدها..

وهذه المُثُلُ كثيرة ومتنوعة: كالإيمان الصادق، وإدراك الحق، وطلب العلم، والسعي وراء المال أو السلطة الخ.. وتختلف هذه المثل باختلاف الأفراد، وتتبدل في حياتهم بتبدل ظروفهم المادية والنفسية وطرائق عيشهم في مجتمعاتهم. إلا أن هنالك مفاهيم عامة هي التي تحكم المثل العليا. فالمثال الأعلى للعالم هو الكشف عن الحقائق، وللقائد الفوز في المعركة. ويكون للمثل الأعلى عادةً سلطان قوي على النفس وعلى السلوك؛ فطالب العلم الذي يعتبرُ نجاحَهُ في الحياة متوقفاً على بلوغه مستوىً معيناً من التحصيل العلمي نراه يهجر كل ما من شأنه أن يضيع وقته، أو يدفعه إلى الدعة واللهو، لينصرف إلى الكتب والمذكرات والأبحاث وإلى المثابرة على الدرس الدؤوب الذي ينيله هذه المرتبة أو تلك.

والهدف كلما كان أسمى وأرفع كانت متطلباته أشد وألزم. فالهدف إحدى المقومات الأساسية في تحديد الشخصية، فلا يهدف إلى المثل العليا والغايات السامية إلا الرجال العظام. ومن فضل الله تعالى علينا أنه منح الإنسانَ طبيعةً تزوده بقوى وطاقات واستعدادات غالباً ما تفوق حاجاته ومطامحه، وتمده بما يساعده على تلبية هذه الحاجات والمطامح... ولكن إذا أهمل الإنسانُ قواه الذاتية، وجافى الطبيعة التي منحه إياها خالقه، فإن غاياته تصبح رخيصة، ومفاهيمه عن الأمور تغدو ملتوية، وتصوراته للأشياء تصير خاطئة، لأن الطبيعة البشرية ذاتها تشحّ عند ذلك بعطائها له، وتبخل بقواها عليه.

وهكذا نرى أن الإرادة تستلزم الإيمان بقدرة النفس، وتصور

المثال الأعلى القابل للتحقيق. فإذا فُقِد أحد هذين الشرطين اضطربت نفسية الإنسان ودبَّ الضعف والانحلال بإرادته.

ويتفاوت الناس في قوة الإرادة كما يتفاوتون في قوة التفكير. ولذلك يعتبر «علماء النفس» أن هنالك أنواعاً عديدة من الإرادات، كالإرادة القوية، والإرادة المتوسطة، والإرادة الضعيفة.. إلَّا أنَّ قوة الإرادة شيء، وصحة الإرادة شيء آخر.. فالإرادة الصحيحة تعمل على تنظيم الأفكار والعواطف، وعلى تمكين السيطرة على الأهواء، والرغبات، وكافة الميول غير الطبيعية أو الميول المنحرفة. وأعظم الناس من كانوا أكثر سيطرة على أهوائهم وعواطفهم. فهم يريدون ما يفعلون، ويفعلون ما يريدون.

والإرادة القوية تكون بالأفكار الصائبة والمفاهيم القوية والنزعات العالية. ومثالها في قوتها كمثال الجسم في صحته عندما تكون أعضاؤه سليمة وتؤدي وظائفها بشكل كامل. ولا تتوفر القوة للإرادة إلَّا بتوفر مقومات صحيحة، وبعمل يتصف بالانتظام والانسجام.

أمراض الإرادة

كما أن إرادة الإنسان تكون قوية وصحيحة فهي أيضاً عرضة للأعراض والأمراض التي تؤدي إلى ضعفها وانحلال قوة الترابط فيها. ولذلك يقال: الإرادة الضعيفة مقابل الإرادة القوية.

ضعف الإرادة: قد ينشأ عن عدة مسببات، ويظهر بأحوال مختلفة، كما هي الحال عند أصحاب الحس الضعيف الذين يغطي الركود على حياتهم ويميت لديهم الشعور بالحيوية والحركة. ويعبِّر عن ذلك الفيلسوف الفرنسي «جان جاك روسو» بقوله: «أُنْظرْ إليَّ وأنا

هادىء تجدني مثالاً للتواني والكسل، فكل شيء يخيفني، وكل أمر يرعبني. إني أخاف من طنين الذباب، وأذعر من أقل كلمة، أو أبسط إشارة، ويستولي عليَّ الخوف والحياء، حتى أتمنى أن أحتجب عن الناس فلا أدري ماذا عليَّ أن أفعل، وما ينبغي أن أقول، وإذا نظر الناس إليَّ تشوشت نفسي».

وقد ينشأ ضعف الإرادة أيضاً عن التهور أو شدة الاندفاع أو الإفراط في الإحساس. وهذه الأعراض نراها عند سريعي الغضب، وذوي الرغبات الحادة الذين لا يقدرون على مقاومتها، فتدفعهم إلى التهور واللهاث وراءها.

والارتباك في المواقف أو أمام حوادث معينة، وعدم الاتزان في التفكير لدى الطائشين، والإفراط في التفكير الذي يقود إلى الحيرة والتردد فلا يعود الإنسان معه قادراً على اتخاذ موقف، أو اتخاذ قرار بشأن أمر أو شيء معين يكون موضع الاهتمام، هذه الحالات جميعاً إنما تنم عن ضعف الإرادة. وتكون الإرادة ضعيفة أيضاً عند الأشخاص الفوضويين الذين يتهربون من تحمل المسؤولية فلا يأبهون لأداء أعمالهم، بل يقومون بها كيفما اتفق، والذين لا يهتمون بقانون أو نظام، أو التزام بواجب بحيث تبدو تصرفاتهم عشوائية بلا ركيزة أو انتظام أو قاعدة مستقرة. ومن أبرز الأمثلة أيضاً على ضعاف الإرادة هؤلاء المقلدون لغيرهم في كل أمر، يرون الآخرين يفعلون كذا فيحاولون أن يقلدوهم بنفس الطريقة والأسلوب حتى لكأنهم آلات تتلقى وتتحرك وتنفذ بلا أدنى ذاتية. وقد يتحكم هذا التقليد في نفوسهم فلا يعودون قادرين على تغيير تصرفاتهم أو على اتباع سلوك جديد، بل يظلّون دائماً عرضة للانقياد الأعمى.

ومن عوارض ضعف الإرادة تشتت الأفكار، وتنازع المشاعر، وشدة الأهواء، وكثرة الوساوس التي تجعل الإنسان ضائعاً لا يستقر له قرار، ولا يثبت على اتجاه، مما يفقد الإنسان القدرة على الفعل والتفاعل.

ويعزو «علماء النفس» أمراض الإرادة إلى عوامل عديدة، ولكن أبرزها، كما يتبين من الحالات التي ذكرت، ثلاثة هي: فقدان الاندفاع، قوة الاندفاع، التشويش الذهني أو النفسي.

ـ **فقدان الاندفاع**: في كل إنسان قوة دافعة للحركة قد تتأتى عن النزعات والميول وما إلى ذلك. فانعدام هذه القوة يؤدي حتماً إلى فقدان الإرادة أو ضعفها لدرجة الانحلال. وتظهر هذه الحالة بأعراض عديدة مثل عدم الرغبة في العمل، والشعور بالعجز عن القيام بأي شيء، فتركد النزعات وتتبلّد المشاعر، حتى لتسيطر على المرء حالة من التراخي أو الكسل الحاد. ومن عوارض هذه الحالة الفيزيولوجية إبطاء الدورة الدموية، وهبوط حرارة الجسم... والعجيب في الأمر أن المصاب بفقدان الاندفاع يصبح ذا خيال واسع، يتوهم في نفسه قدرة عجيبة على إتيان المعجزات، وذلك نتيجة لسيطرة الأحلام عليه، وسرحانه في الوهم الذي يزين له قدرته على القيام بما يريد وتحقيق ما يصبو إليه.

ـ **قوة الاندفاع**: وهي تتأتى عن عدم الروية في التفكير، والتبصر بالعواقب والنتائج، إذ تهيج في نفس المرء انفعالات معينة فيندفع إلى القيام بعمله بطيش وقلة احتراز وعدم إدراك. وهذا ما يدفع ببعض الناس إلى ارتكاب الجرائم بما فيها الإقدام على القتل أو الانتحار. ففي هذه الحالة تسيطر الأحاسيس والانفعالات على العقل فيضعف،

وتضعف معه الإرادة التي تصبح نهباً للانفعال الغريزي بحيث يفقد العقل أيَّة سيطرة عليها.

التشويش النفسي: ويمكن تسميته بفوضى الإدراك أو فقدان التوازن في الشعور. ومتى اضطربت النفس وتشتتت بين سلب وإيجاب تأثرت الإرادة بذلك وتلاشت قوتها، فلا تستقر على حالة واحدة بل تنتقل سريعاً من حالة إلى أخرى مناقضة دون أن يطرأ عامل جديد يؤدي إلى هذا التغير أو الانتقال. ومثاله الانتقال من الحزن إلى السرور، ومن البكاء إلى الضحك.. وكل ذلك من غير أن يدري المصاب لماذا يتصرف على هذا النحو، وليس لديه أدنى شعور بكبح جماح نفسه أو مقاومة تلك الدوافع المتعارضة التي تتلاعب به. ومن عوارض هذه الحالة أيضاً مرض الجولان في النوم، حيث يقوم المريض من فراشه ويرتدي ثيابه ويخرج من منزله دون وعي بتاتاً لما يفعل، لأنه في الحقيقة في حالة نومٍ ينعدم معه الشعور بالعالم الخارجي والإحساس بالواقع.

مما تقدم يمكن القول بأن ضعف الإرادة غالباً ما ينجم عن فقدان التوازن الذهني، ويؤدي إلى الإحباط النفسي الذي يظهر بعدم التفاعل مع الواقع، فلا يعود معه الإنسان قادراً على مخالطة الآخرين أو العمل معهم، فيعيش حياة داخلية محضة، منطوياً على نفسه، محباً للوحدة، زاهداً في الحياة.

تربية الإرادة

إن قيمة الإنسان في هذه الحياة تبرز، أكثر ما تبرز، في مواجهته لمتطلبات هذه الحياة وأعبائها. إن الحياة مليئة بالأحداث المتضاربة،

فلا يمرّ الإنسان بحالة سارة إلا وتواجهه حالات غير سارة. فقد يصاب الإنسان بعاهة من العاهات، أو قد يخلق والعاهة معه مثل العمى أو الصمم أو البكم، فهل عليه أن يستسلم ويعتبر نفسه دون الآخرين؟

هنا يتدخل دور العقل، ودور الإرادة معه. فالإنسان الذي لديه عاهة يجب ألَّا يشعر بالنقص الذي يفقدُه قيمة وجوده. وهنالك مشاهير عظام في الحياة أعطوا أروع المُثُل بانتصارهم على العاهات. وفي مواجهة الحياة نجد أن كل عمل يستدعي منا الإرادة، فنحن نعين أولاً هدفاً نريده، ثم نعمل على بلوغ هذا الهدف بعزم ثابت، وتصميم قوي، ثم نسير وفق الطريق الذي نرسمه. ولا نقدر على شيء من ذلك إن لم تكن لدينا الإرادة القوية.

من هنا كانت أهمية تربية الإرادة وتقويتها، حتى تكون لنا خير معين على اجتياز مصاعب الحياة وإدراك أهدافنا ونيل مطالبنا.

والإرادة القوية لا تولد مع الإنسان، كما لا يولد الإنسان ضعيف الإرادة، بل يكتسب قوة الإرادة أو ضعفها من خلال التمرين والممارسة مع بذل الجهد اللازم لذلك. ولا يعتقدنَّ أحد بأن مثل هذا التمرين يقتصر على سنٍّ معينة، أو على وقت معين، بل يمكن للإنسان أن ينمِّي إرادته ويقويها منذ نعومة أظفاره وحتى آخر لحظة في حياته.

ولعل من أبرز عوامل تربية الإرادة وتقويتها العلم والمعرفة، واقتباس العادات الحسنة، والابتعاد عن العادات السيئة. ذلك أنَّ الإرادة ملازمة للعقل الذي ينبثق عنه التفكير والذكاء والانتباه. وهذا ما أثبته العلماء عندما اعتبروا أن الطيش والذهول وتشتت الأفكار هي من معوقات تقوية الإرادة، لأن الإرادة لا تكون قوية إلا إذا كان تصور الهدف واضحاً في الذهن. ولنأخذ مثالاً على ذلك الخطيب اليوناني

ديموستينوس، إذ كان في صغره ألثغ، لا يحسن النطق الصحيح، فوضع نصب عينيه هدفاً: أن يصلح نطقه. صار يذهب إلى شاطىء البحر، ويقف في مواجهة الأمواج وهو يقرأ بصوت عال، ويصرخ، ويتكلم كأنما أمامَهُ جمهور يخاطبه. وبذلك استطاع مع الوقت أن يمرّنَّ عضلات فمه، وأن يقوي أوتاره الصوتية، حتى أصلح نطقه، بل صار خطيباً لامعاً.. كل ذلك بفعل إرادته القوية.

وينصح العلماء في تربية الإرادة بالتقيد بالقواعد الصحية على أكمل وجه: في تناول الغذاء مثلاً بانتظام، وقضاء الوقت الكافي في النوم، وممارسة الألعاب الرياضية، وتقوية الأحاسيس بالمناظر الطبيعية، والرحلات الاستجمامية، والقيام بكل ما من شأنه أن يقوي الجسم ويجعله سليماً معافىً، حتى لا تتأثر النفس بأمراض الجسد فتنعكس هذه الأمراض على الحالات النفسية.

ويستتبع ذلك أن يكون الإنسان مواطناً اجتماعياً صالحاً محباً للقيم، متعاملاً مع الآخرين على أساس الاحترام المتبادل واللياقات الاجتماعية النبيلة.

كما يستتبع ذلك تحمل المسؤولية الشخصية، والقيام بالأعمال بجدٍّ ونشاط، والابتعاد عن الكسل وهدر الوقت بلا طائل، والاعتدال في كل شيء.

وبعد كل هذا فإنَّ الجهود التي نبذلها لتقوية الإرادة، وتهذيب الأحاسيس، وتنمية المشاعر، تبقى جميعها دون جدوى ما لم يؤمن الإنسان إيماناً مطلقاً بأن من وهبه الحياة ابتداءً، هو وحَدَه القادر على أن يمنحه قوة الإرادة، وصفاء النفس. ومن لا يؤمن بهذه الحقيقة المطلقة فكل أعماله هباء، وكل طموحاته وأهدافه إلى ضياع، لأنها لا

تقوم على الأساس المتين، ولا تستقي من المصدر الأعلى الذي هو الله تعالى، خالقنا، ومنشئنا، وباعث الحركة فينا، ومدبرنا في حياتنا وبعد مماتنا.

وقد وردت في القرآن الكريم معانٍ متعددة للفعل الإرادي. ومن قبيل ذلك ما جاء التعبير به في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾(١). أي أن الله تعالى يأمركم باليسر في عباداتكم ومعاملاتكم ولا يأمركم بالعسر. وهذه قاعدة كبرى في تكاليف العقيدة الإسلامية كلها. فهذا النص ورد في الآية الكريمة التي ترخِّص للمريض والمسافر الإفطار في أيام الصوم. وهو نصٌّ يتناول السهولة واليسر في كل أمور الحياة، بحيث تؤدَّى كل التكاليف والفرائض، ويقوم كل نشاط الحياة الجادة على هذا الأساس: أساس اليسر لا العسر. وذلك مع شعور المؤمن الدائم برحمة الله وإرادته اليسر لا العسر في عباده المؤمنين جميعاً.

وقد يرد تعبير الإرادة ويقصد به حكم الله تعالى. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾(٢). وما يريده الله تعالى يدخل في باب القصد مثل قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾(٣). أي أنَّ الله سبحانه وتعالى يجعل الجنة في الدار الآخرة للذين لا يقصدون العلو في الأرض ولا يطلبون الفساد. وبمعنى آخر: إن تلك الدار الآخرة العالية المقام، البعيدة الآفاق، إنما يجعلها الله تعالى لمن يستحقونها، وهم عباده المؤمنون الذين لا يريدون استعلاء في الأرض، ولا يقوم في نفوسهم خاطر بالاستعلاء، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم أو

---

(١) البقرة: ١٨٥. (٢) الأحزاب: ١٧. (٣) القصص: ٨٣.

بشخصياتهم وما يتعلق بها. ويجعل الله تعالى الدار الآخرة أيضاً للذين لا يريدون في الأرض فساداً، فينزعون من نفوسهم، ومن حولهم، كل شيء زائل، وكل عرض مهين، وكل شيء يخرب الأرض ويفسدها.

ومن الإرادة تأتي المراودة وهي أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد أو ترود غير ما يرود، مثل قول الله تعالى: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾(1). أي أنَّ امرأة عزيز مصر أرادت غير ما أراد يوسف عليه السلام. ومثله قول الله تعالى: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾(2). ومعناه (وهذا على لسان إخوة يوسف عليه السلام) أنهم سوف ينازعون أباهم في إرادته ويلحون عليه في طلب أخيهم بنيامين ليأخذوه معهم إلى مصر، أي بمعنى آخر سوف يجهدون كي يتفوقوا على إرادة أبيهم ويجعلونه يوافق على ما يريدونه هم.

وفي معنى الإرادة المطلقة يقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾(3). فالإنسان يعمل في الحياة ويكد ليحقق أهدافه، ومن الطبيعي أن يكون وراء هذه الأهداف إبراز وجوده الإنساني، والإشعار بقيمته الإنسانية، مما يحقق له عزة في ذاته، وفي دنياه.. ولكن الحقيقة أن العزة كلها لله تعالى، فهذه حقيقة مطلقة وثابتة لا يمكن الجدال فيها. ومتى استقرت هذه الحقيقة في نفوس الناس فهي كفيلة بأن تبدل كل المعايير لديهم، وكل مخططاتهم ووسائلهم. فإن آمن الإنسان بهذه الحقيقة، ورام بعدها عزة معينة لنفسه فليطلبها من مصدرها الحقيقي من الله تعالى، فله وحدهُ العزة جميعاً. ولو طلبها من عند غير الله العزيز فلن يجدها أبداً، ولن يتمكّن

---

(1) يوسف: ٣٠.	(2) يوسف: ٦١.	(3) فاطر: ١٠.

منها بنفسه، ولن يمكّنه أحدٌ منها، ولن يدركها بأي سبب من الأسباب إلاَّ أن يشاءَ الله تعالى له إدراكها.

ولئن كانت قريش وقت نزول الدعوة تبتغي العزة لنفسها ولعباداتها القديمة، وتقاليدها وعاداتها التي أَلفتها، ولاذت بأسبابها الذاتية لتبقي عقيدتها الوثنية قائمة، فإنَّ ذلك كله لم ينفعها لأنها أرادت محاربة الحق الذي يمنحها عزَّة الإيمان، وعزة النفس.. وقد حاولت قريش أن تستجدي القوة بتحالف القبائل كلها، وبتحالف اليهود معها، فباءت بالفشل لأنها لم تطلب القوة من مصدرها الحقيقي، ولم تطلب العزة من ذي العزة والجلال.. ومثل قريش لا تملك أية جماعة، بل ولا أية دولة أي سبب للقوة أو العزة إلا أن يشاء الله تعالى. وإن كانت لجماعة من الجماعات أو لدولة من الدول قوة فمصدرها ولا شك هو الله تعالى القوي العزيز.

يقول الله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾[1]. هذه هي الحقيقة ولا شيء غيرها. وهي حقيقة تكفي لتعديل سلوك الناس ومناهجهم، وتعديل وسائلهم وأسبابهم عندما يريدون عزة أو قوة.. ويكفي أن تستقر حقيقة أن: «لا إله إلا الله. وأن العزة لله جميعاً» في أي نفس حتى تقف بها أمام الدنيا كلها عزيزة، قوية، كريمة، عارفة طريقها إلى العزة، متحلية بإرادة طيبة فولاذية، لا يلويها ولا يحيدها عن طريقها شيء. وإذا ما استقرت هذه الحقيقة في نفس أي إنسان فلن يحني رأسه لمخلوق متجبر، ولا لطاغية متكبِّر، ولا لدولة عاتية، ولا لقوة من قوى الأرض جميعاً. وعلامَ ذلك والعزة لله جميعاً؟.

---

(١) الإنسان: ٢٨.



الفصل الثامن

- الشخصيّة
- التقليد والتبعيّة
- العادة



الشخصيّة

مراحل النمو لدى الإنسان

١ ـ نمو الجنين

من الاهتمامات البارزة في «علم النفس» ما يوليه من عناية لمراحل النمو التي يمرُّ فيها الإنسان منذ أن يكون جنيناً في بطن أمه، وعوامل الوراثة والبيئة التي تؤثر في هذا النمو، سواء في مرحلة الحمل أو في مرحلة الطفولة.

وقد توصلت أبحاث علم الأجِنّة إلى توضيح تلك المراحل عندما قالت بأن دفقة واحدة من مني الرجل تحتوي على نحو مائتي مليون من الحيوانات المنوية. وبعد القذف في المهبل تسير هذه الحيوانات في قناة مبيض المرأة، فيصل منها بضع مئات فقط إلى بويضة المرأة الناضجة، المستعدة للتلقيح. ويخرق جدار هذه البويضة حيوان منوي واحد، يقوم بتلقيحها (وفي حال التلقيح من حيوانين منويين أو أكثر يحصل الحمل بالتوائم). عندها يتكون خليط من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة (وهو ما يسميه القرآن الكريم: النطفة الأمشاج، لأن معنى الأمشاج الأخلاط). وبعد تلقيح البويضة باثنتين وسبعين ساعة يزداد

حجمها قليلاً فيتكون منها ما يسمى بالكرة الجرثومية، التي تسري في قناة المبيض لتصل إلى الرحم خلال فترة تتراوح بين خمسة أيامٍ أو أسبوع على الأكثر، فتلتصق بجداره، لتبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة العلقة. وخلال الأسبوع الثاني من التلقيح تنقسم هذه العلقة إلى طبقة خارجية (أكثودرم) وطبقة داخلية (أنثودرم). ثم تظهر في الأسبوع الثالث الطبقة المتوسطة (ميزودرم). ومنذ اليوم الحادي والعشرين تبدأ الكتل البدنية بالتكوين. وتتكون العظام والعضلات في الأسبوعين الخامس والسادس. ثم تكتسي العظام بالعضلات في الأسبوع السادس والأسبوع السابع. ويتم تكوين الجنين، مع اكتمال نمو السمع، وبدء القلب بنبضاته منذ الشهر الرابع. أما البصر فيتأخر في النمو.

وفي هذا التكوين عنصران هامان، الأول هو الحبل السري الذي يتكون على جانبي محور العلقة والذي يؤمن تغذية الجنين من دم الأم. والثاني هو الغشاء الذي يحاط به الجنين في الرحم، ويسمى «الكيس الأمنيوني» الذي يحتوي على سائل مالح يحمي الجنين من الهزات العنيفة ومن تأثيرات الجاذبية.

وأما عن نوع الجنين، من حيث الذكورة والأنوثة، فقد بنيت الدراسات الحديثة على أن الحيوانات المنوية لدى الرجل تكون على نوعين: نوع يحمل «كروموسوم» الذكورة، ونوع يحمل «كروموسوم» الأنوثة. أما بويضة المرأة فلا تحمل إلا «كروموسومات» الأنوثة فقط. فإن قام حيوان منوي يحمل كروموسوم الذكورة بتلقيح البويضة كان الجنين ذكراً، وإن حمل كروموسوم الأنوثة كان الجنين أنثى.

ولا يمكن تمييز الجنين إلا في الأسبوع السادس من الحمل. إذ في مرحلة المضغة ينشأ ما يشبه البرعمين على جانبي الحبل الظهري

(الذي سيؤلف فيما بعد العمود الفقري)، فإن كان الجنين ذكراً يكوّن هذان البرعمان نسيجاً يشبه الخصيتين، وإن كان أنثى فإنهما يشكلان في الأسبوع العاشر نسيجاً يشبه المبيضين. ولئن كانت الخصيتان تبدآن في التكوين على جانبي العمود الفقري في ظهر الجنين، إلا أنهما تنزلان خلال مدة ستة أشهر من مكانهما، حيث تكونان في الشهر التاسع في كيس الصفن (كما يسميه بعض الباحثين).

هذه المعلومات التي توصلت إليها الأبحاث العلمية يشير إليها القرآن الكريم بوضوح، وذلك عندما يبين المراحل المختلفة للحمل وتكوين الجنين. يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾[1]. ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[2].

في هذه الآيات الكريمة تظهر المراحل التي يمرّ بها نمو الجنين: مرحلة النطفة، فمرحلة العلقة، فمرحلة المضغة، ثم تحوله إلى خلق آخر. أما كيف يتم هذا التحول إلى خلق آخر تنبض فيه الحياة فذلك ما يبينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يتلقى الوحي من ربه تعالى.. عن حذيفة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها. ثم قال: يا ربِّ أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب

---

(١) المرسلات: ٢١.

(٢) المؤمنون: ١٢ ـ ١٤.

الملك. ثم يقول: يا ربِّ أجله؟ فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك. ثم يقول: يا ربِّ رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك. ثم يخرج الملك بالصفحة في يده فلا يزيد على ما أُمر ولا يُنقِص».

وعن ابن مسعود أن الرسول ﷺ قال: «إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقِه، وأجلِه، وعمله، وشقي أو سعيد».

من هذين الحديثين يتبين أنه بعد مرور اثنتين وأربعين ليلة على تكوين «النطفة الأمشاج» يحدث التخليق أي ظهور البدن بعظامه وعضلاته ولحمه، وما في داخل الجوف من أعضاء وأجهزة تعمل جميعها ـ وإن كان اكتمالها بالصورة النهائية يتطلب وقتاً أطول ـ وهذا ما أثبتته البحوث الحديثة في علم الأجنة. ومع ذلك فقد يبدو ـ في الظاهر ـ أنَّ هنالك بعض الاختلاف في الحديث المروي عن حذيفة، والحديث الذي رواه ابن مسعود، وذلك لناحية حضور الملك والتخليق. فحذيفة يذكر أنه يتم بعد اثنتين وأربعين ليلة، بينما ابن مسعود يذكر أنه يحصل بعد مائة وعشرين يوماً.. وقد حاول علماء المسلمين إزالة هذا التناقض الظاهري، فقال ابن قيم الجوزية: «... فحديث حذيفة يدل على أنَّ ابتداء التخليق عقيب الأربعين الأولى، وحديث ابن مسعود يدل على أنه عقيب الأربعين الثالثة، فكيف يجمع بينهما؟ قيل: أما حديث حذيفة فصريح في كون ذلك بعد الأربعين. وأما حديث ابن مسعود، فليس فيه تعرّض لوقت التصوير والتخليق، وإنما فيه بيان أطوار النطفة وتنقلها بعد كل أربعين، وأنه بعد الأربعين الثالثة ينفخ فيه الروح. وهذا لم يتعرض له حديث حذيفة

بأن ابتداء تصويرها وخلقها بعد الأربعين الأولى. واختص حديث ابن مسعود بأن نفخ الروح فيه بعد الأربعين الثالثة. واشترك الحديثان في استئذان الملك ربَّه سبحانه في تقدير شأن المولود في خلال ذلك، فتصادقت كلمات رسول الله ﷺ وصدَّق بعضها بعضاً».

ويبدو واضحاً بأن بداية التخليق وحدوث التصوير تكون في الاثنتين والأربعين ليلة الأولى منذ التلقيح. أما تسوية المخلوق ونفخ الروح فيه واكتمال ما قدر له الله تعالى من خلقه فإنه يكون في الشهر الرابع أي بعد مائة وعشرين يوماً من بداية التلقيح. وهذا ما تحس به النساء الحوامل من حركة الجنين في البطون، وما أثبته علم الأجنة أيضاً. وبنفخ الروح في الجنين يصبح خلقاً آخر، ينبض قلبه، ويقدر على الحركة، ويسمع قرقعة الغازات في بطن أمه، وحتى الأصوات الخارجية. وهذا ما يبيّنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

وأما معنى التعبير القرآني: ﴿وغير مخلّقة﴾ أي المضغة، فقد روي أن الرسول ﷺ قال: «إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال: يا ربِّ مخلّقة أو غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلّقة، مجتها الأرحام دماً». وهذا يعني حالات السقط أو الإجهاض التي تحصل، والتي لم يرد الله تعالى للجنين حياةً إلى أجل. لا بل يحصل أن تسقط الحامل جنينها وهي على عتبة الولادة، وهذا مرده إلى مشيئة الله تعالى التي تعيِّنُ الآجال للجنين كما للمولود، فيكون لكل إنسان أن يبلغ أجلاً مسمىً كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[1].

---

(1) الحج: ٥.

٢ ـ مراحل الطفولة

يمر الإنسان في حياته بأطوار متعددة تبدأ بطور الطفولة فطور المراهقة فالبلوغ والرشد، وهذه أطوار القوة. . ثم يصل إلى طور الضعف والشيخوخة. وهذه الأطوار واضحة في حياة كل إنسان، ولا يمكن أن يحيد عنها أحد يمتد به العمر إلى سن الشيب والشيخوخة كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[١]. العليم بتدبير خلقه، القدير على ما يشاء.

ويقسم علماء النفس مرحلة الطفولة إلى أربع:

(أ) مرحلة الرضاعة وهي التي يجب أن تمتد حولين كاملين (أي سنتين) كما يذكر القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[٢] وهي المدة اللازمة ليتغذى الوليد من حليب أمه ويكتسب المناعة الصحية، والعافية البدنية، ناهيك عما للرضاعة من آثار هامة في الحياة النفسية للطفل ومدى ما تكسبه هذه الرضاعة من مشاعر الحنان، والمحبة، والتآلف الخ. .

وفي هذه المرحلة يتواصل النمو الحسي للطفل، ويكون هذا النمو للحواس وفقاً لاستعداداتها الفطرية وتأثيرات البيئة عليها. فقد بيّنت الدراسات الفيزيولوجية أن قدرة الوليد على السمع هي أقوى من قدرته على النظر، فالتكوين الشبكي للعين لا يكتمل قبل الشهر السادس من عمر الطفل، والعين لا تبلغ قدرتها التامة للقيام بوظيفتها إلا في نهاية العام الأول.

---

(١) الروم: ٥٤.　　(٢) البقرة: ٢٣٣.

وإذا كان الطفل لا يرى بوضوح إلا في النصف الثاني من عامه الأول، فإن حاسة السمع لديه يكتمل نموها وهو جنين في شهره الرابع. ولذلك فإن الوليد يستطيع أن يسمع عقب الولادة مباشرة، وهو يستجيب للأصوات الحادَّة العالية أكثر من استجابته للأصوات الخافتة.

والسمع قد يكون أكبر أثراً في حياة الإنسان من البصر. فالطفل الذي يولد فاقد البصر، أو يفقد بصره في فترة مبكرة من حياته يمكنه أن يتعلم، وقد يصل إلى مستوى عالٍ من التعليم والثقافة، فيحصل على أعلى الشهادات، ويرقى إلى أعلى المناصب. وفي الحياة الإنسانية أمثلة لا تحصى من هذا القبيل.. بينما الطفل الأصم لا يستطيع تعلم اللغة التي يتم بها تحصيل العلم، وقلائل من الصم من قدروا على التعلم بواسطة الآلات ووسائل التعليم الحديثة. من ذلك كله تتبين الحكمة من ورود كلمة السمع قبل البصر في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]. وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[2].

(ب) مرحلة الطفولة المبكرة وتمتد من عمر السنتين إلى سن الست سنوات. وحوالي نهايتها يبدأ الطفل في الذهاب إلى المدرسة، بعد تربيته في الأسرة، واكتسابه العادات والتقاليد المجتمعية من الأهل والأقارب، وبدء الاعتماد فيها على النفس بعض الشيء، مع شعور الطفل بأهمية وجوده، وبتكوين عالمه الخاص في المأكل والمشرب والنوم واللعب والتعبير عن حاجاته الأولية، وما إلى ذلك من الأمور

---

(١) النحل: ٧٨.

(٢) الإنسان: ٢.

التي يمارسها الطفل في هذه السن.

(جـ) مرحلة الطفولة المتوسطة وتمتد من السادسة إلى التاسعة من العمر. وفيها يبدأ بتلقي أصول التربية خارج الأسرة على أيدي المعلمين في المدرسة، أو من معاشرة رفاقه، ويبدأ كذلك في تكوين معارف أولية عن الأشياء، وظواهر الكون والحياة. لأن مدارك الطفل في هذه المرحلة تأخذ في التفتح، وتظهر لديه القدرة على التمييز. وقد أشار إلى ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع».

إن هذا الحديث الشريف يتناول أكثر من ناحية في نمو حياة الطفل..

فهو من ناحية يبين وجوب توجيه الطفل إلى الصلاة وهو في سن السابعة، حتى يعتاد عليها منذ الصغر، وتصبح عنده عادة مستقرة. وهذا يسري على جميع القواعد الأخلاقية والعادات الحسنة، والصفات الطيبة. والتوجيه يعني النصح والإرشاد، واستخدام وسائل التشجيع والثواب. وفي ذلك ما فيه من تعليم للمفاهيم الصحيحة، والتمييز بين القيم والمثل الخيرة، وبين ما يضادها من مفاهيم الخطأ والشر..

ومن ناحية أخرى يأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالضرب في سن العاشرة، وذلك في حالة الخوف من انحراف الطفل عن جادة الصواب، واتباعه العادات السيئة، والأخلاق الذميمة. إذ في هذه السن ينضج إدراك الطفل، وتنمو قدرته على الفهم، ويقوى شعوره بشخصيته وفرديته، ويميل إلى الاعتماد على النفس. هنا يأتي دور التربية في اعتماد أساليب التأديب إذا ما أبدى الطفل ميولاً في مخالفة السلوك القويم،

وقيم الدين والمجتمع. والتأديب يجب أن يكون حكيماً واعياً، يهدف إلى رعاية نفسية الطفل ومصلحته. ولا تعتمد مع الطفل وسائل الشدة والقسوة التي قد تكون آثارها سيئة في حياته الإنسانية لما يتجمع في نفسه من مشاعر التحدي والكراهية، والميل إلى العنف كردة فعل على القسوة، أو الميل إلى الضعف والحياء كاستجابة للرضوخ والخنوع.

لقد كانت حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثالاً رائعاً في التربية، لما كانت تحفل به من اهتمام بالأطفال، وما كان يبديه حيالهم من عطف وحنان. وبرزت مشاعره صلى الله عليه وآله وسلم نحو الطفولة في رعايته لحفيديه الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ واهتمامه الشديد بهما. عن أسامة بن زيد، قال:

«طرقت باب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة في بعض الحاجة، فخرج وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو. فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه يا رسول الله؟ قال: فكشفه فإذا هو حسن وحسين عليهما السلام على وركيه. فقال: هذان ابناي وابنا ابنتي. اللهم إني أحبُّهما فأَحبَّهما وأحبَّ من يحبّهما».

وعن البراء، قال: «رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم واضعاً الحسن بن علي على عاتقه وهو يقول: اللهم إني أُحبه فأحبَّه». وعن أنس بن مالك، قال: «سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي أهل بيتك أحبّ إليك، قال: الحسن والحسين. وكان يقول لفاطمة عليها السلام: ادعي ابنيَّ، فيشمهما ويضمهما إليه».

وعن أبي بريدة، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران. فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله العظيم إنما أموالكم وأولادكم فتنة».

هذه هي معاملة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحفيديه. وهي تدل على مقدار الحب والحنان والعطف والرعاية التي كان يحوطهما بها. وهي ضرورية في حياة كل طفل لما تحقق له من أمن نفسي، وتثبت فيه من ثقة بالنفس تؤدي إلى نمو شخصيته نمواً سليماً.

وهكذا فإن الطفل بحاجة إلى الاهتمام والرعاية بصورة كافية. وقد رأى بعض علماء المسلمين من قبل أن النفس الإنسانية خلوةٌ من أي نقش أو صورة. وهذا ما يذهب إليه أصحاب المدرسة التجريبية الانجليزية في العصر الحديث (أمثال لوك وهيوم) الذين يرون أن النفس تولد صفحة بيضاء خلوة من أي نقش، وأن ليس في الفكر ما لم يكن من قبل في الحس. والحديث الشريف يقول: «يولد الإنسان على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه».

وقد نصح المربون المسلمون اعتماد الحكمة في التربية، فقال ابن سينا في تأديب الوالد لولده: «. . . فينبغي، لغنم الصبي، أن يجنبه أبوه مقابح الأخلاق، وينكّب عنه معايب العادات بالترهيب والترغيب، والإيناس والإيحاش، وبالإعراض والإقبال، وبالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى ما كان كافياً. فإن احتاج إلى الاستعانة بالضرب لم يحجم عنه. وليكن أول الضرب قليلاً لا موجعاً كما أشار به الحكماء من قبل، بعد إرهابه ـ الولد ـ شديداً، وبعد إعداد الشفعاء، فإن الضربة الأولى إذا كانت موجعة ساء ظن الصبي بما بعدها، واشتد منها خوفه، وإذا كانت خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقي فلم يحفل به».

ويبدو أن موضوع معاقبة الطفل كانت موضع نظريات كثيرة لدى علماء التربية. ولكن غلبت في الغرب النظرية الداعية إلى عدم معاقبة الطفل لما تؤدي إليه من الإضرار بشخصيته. غير أن ما شاع في

صفوف الشباب من استهتار بالقيم، وعدم تحمل للمسؤولية، وشدة الميول إلى الانحراف جعل كثيراً من المربين يقتنعون بفائدة العقاب، ولكن ينصحون باستخدامه بطرق حكيمة ومشبعة بالحب والحنان، بما يشعر الولد بخطئه ويدفعه إلى ترك هذا الخطأ.

ومن ناحية ثالثة فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد أدرك بحكمته البالغة ما للتفريق بين الأخوة الذكور والإناث في المضاجع منذ سن مبكرة (قبل سن البلوغ الجنسي)، من أهمية في حياة الأولاد، إذ إن مثل هذا التفريق يجعلهم يعتادون على الحشمة والأدب، وعلى احترام الخِلقة الإلهية التي توجد فوارق في التكوين ما بين الذكر والأنثى، وعلى اتباع منهجية الاستقلال في الحياة ورعاية حقوق الآخرين واحترامها. هذا فضلاً عما يوجد هذا التفريق منذ سن مبكرة من تنمية للعادات الخلقية البعيدة عن التهتك، والتفتح الجنسي قبل أوانه، وما قد ينشأ عنه من أضرار تلحق بالفرد والمجتمع على السواء، لا سيما وأن الغرب ذاته يدعو، ومنذ الطفولة الأولى إلى تخصيص غرفة نوم للأولاد غير غرفة نوم الأهل، حتى يكون الأولاد بمنأى عن أي جوٍّ من المشاحنات العائلية، وبعيدين عن مظاهر الحياة الجنسية التي يمكن أن يمارسها الأبوان في الحياة الزوجية..

(جـ) وبعد سني الطفولة تأتي مرحلة المراهقة التي تمتدّ عادة من سن الثانية عشرة إلى سن الواحدة والعشرين تقريباً. وفي هذه المرحلة تحدث في حياة الفرد تغيرات فسيولوجية هامة، ولا سيما حدوث البلوغ الذي يدل على النضج الجنسي. وهذا البلوغ، وإن كانت فيه فروق فردية، إلَّا أنه يحدث عند الذكور بين سن الحادية عشرة والخامسة عشرة على الغالب، وقد يتأخر لدى البعض حتى سن الثامنة عشرة. أما لدى الأناث فالبلوغ يحصل في سن مبكرة أكثر، قد تبدأ في

التاسعة من عمر الفتاة، وهو في المتوسط يحدث في سن الثالثة عشرة.

وقد ذهبت مدرسة التحليل النفسي إلى أن النمو الجنسي يبدأ منذ الطفولة، ويمر بمراحل مختلفة حتى يبلغ غايته في مرحلة المراهقة. ولكن وفقاً للمفاهيم الإسلامية فإن بلوغ النمو الجنسي يبدأ بالاحتلام، ومن علاماته ظهور شعر العانة وشعر اللحية والشارب والإبطين، وتغير الصوت وميله إلى الغلظة عند الذكور، وحدوث أول حيض، ونمو الصدر والثديين، وظهور شعر العانة والإبطين، واتساع الحوض والردفين، واستدارة الفخذين، وتغير الصوت وميله إلى الانخفاض والعمق عند الأناث.

وقد اعتبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ سن الخامسة عشرة هي سن البلوغ وذلك لما روي عن ابن عمر، قال: «عرضت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الجيش وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يقبلني، فعُرضت عليه وأنا ابن خمس عشرة سنة فقبلني».

وفي هذه المرحلة التي يحدث فيها البلوغ يكون النمو العقلي عند الإنسان قد بلغ حداً يجعله مسؤولاً، من الناحية الشرعية، عن أعماله. عن علي عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل».

وبالإضافة إلى التغيّرات الفسيولوجية التي يشعر بها الإنسان في سن المراهقة، فإنَّ مشاعره وأحاسيسه تتبدل أيضاً، ولا سيما في ميله نحو الجنس الآخر، وفي شعوره بازدياد أهميته في المجتمع، وفي نزعته الفردية واعتقاده بأنه على صواب في كل ما يقوم به، بل وبشعوره بأنه فريد في العالم وأنه محور العالم بأسره..

وهنا تأتي الحكمة في فهم المراهق، ومعرفة قيادته قيادة رشيدة، تأخذ بيده إلى الاعتدال في التصرف والسلوك، والأناة في المؤاخذة والانتقاد، حتى يقطع هذه المرحلة دون التواءات نفسية، وتكديس عقد بالذنب. وفي ذلك ما ينمّي شخصيته، ويجعله معتدلاً متزناً، قادراً على أن يشق حياته بكل ثقة واعتزاز، بعيداً عن الشطط أو الزلل.

وقد شبه بعض علماء المسلمين النفس بالجسم: فإن كان الجسم متناسقاً في أعضائه، متزناً في تكوينه، فإنه يكون سليماً من الأمراض، أما إذا اختل عضو فيه فإن الجسم يفقد توازنه ويصبح سقيماً. وهكذا النفس فإن اعتدالها في الأخلاق والصفات دليل على صحتها، بينما انحرافها دليل على سقمها. وإذا كان شفاء الجسم يحتاج إلى المعالجة وإزالة المرض فكذلك النفس فإنها تحتاج إلى تطهيرها من الشوائب، وإزالة الرذائل حتى تعود إليها صحتها.

من أجل ذلك يؤكد علماء النفس على أهمية مرحلة المراهقة واعتبارها من أخطر المراحل التي يمر فيها النمو الجسدي والنفسي عند الإنسان، لأن في نهايتها يتقرر المستقبل الذي ينتظره، بما يكون قد تكوّن لديه من وعي ونضوج، أو بما يكون قد حمل من أعباء نفسية تبعده عن الحياة الطبيعية.. ولذلك ينصح الرسول ﷺ باكتساب المهارات العقلية وتحصيل المعرفة والثقافة في هذه السن. فقد كان يحث شباب المسلمين على تحصيل العلم واكتساب المعرفة، وتنمية الإمكانات الجسمية وتحقيق الصحة البدنية عن طريق ممارسة الألعاب الرياضية. روى سلمة بن الأكوع «أن رسول الله ﷺ خرج على قوم من أسلم وهم يتناضلون في السوق فقال: ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً. ارموا وأنا مع بني فلان لأحد الفريقين. فأمسكوا

أيديهم. فقال: ارموا. قالوا: يا رسول الله كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ قال: ارموا وأنا معكم كلكم».

وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعلم المسلمين شباباً وكباراً آداب السلوك في الأكل والشرب وغيرها.. عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله». وأما تعليمه صلى الله عليه وآله وسلم للقيم الخلقية عامة فيظهر فيما رواه عبد الله بن عباس قال: إنه ركب خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً، فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. وإذا سألت فاسأل الله، وإن استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف».

هكذا يجب أن تكون تنمية الجسم، والمدارك الحسية والفكرية، بما يؤهل الفرد لحياة حافلة بالقيم الدينية والأخلاقية والإنسانية.

وأما في مرحلة الشباب فإن الإنسان يكون في أقصى درجات قواه الجسدية والفكرية كما يشير إليه القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾[1]. وقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾[2].

فالشدة والقوة اللتان يتمتع بهما الإنسان هما بما حباه خالقه، وأغدق عليه من نعمة الخلق والتكوين، وبما زوَّده من طاقات وملكات، يقدر بها جميعاً على أن يعمل في الحياة، وينتج، ويتفاعل، ويتأثر،

---

(١) غافر: ٦٧.   (٢) الروم: ٥٤.

ويؤثر في شتى مجالات الحياة. ومن جهود الإنسان كانت عمارة الأرض ومدنياتها وحضاراتها.. والسن الأمثل للعطاء هو الشباب لأنه يتدفق حيوية ونشاطاً. وقد لا يحفل الشابّ بالمتاعب مهما كبرت، أو بالصعاب مهما تعقدت، فيظل يناضل ويجاهد حتى يحقق غاياته ومثله. ولكن يظل هنالك الفارق الخطير بين عملٍ يرضي الله تعالى، وعملٍ يغضب ربَّ العباد. فإن تمنطق الإنسان بسلاح الإيمان سار على الطريق المستقيم، وإلَّا وقع في المتاهات، وغابت عنه الحقيقة مهما زين له من أعماله، ومهما بلغت به الغايات.

(د) وتأتي أخيراً مرحلة الشيخوخة التي يشير إليها قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾(1). وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(2). وقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾(3).

هذه الآيات القرآنية واضحة فيما يصيب الإنسان بعد مرحلة القوة، من ضعف ووهن في مرحلة الشيخوخة. فقد بينت الدراسات الحديثة أن الإنسان في سنه المتأخرة يعتريه نوعٌ من التدهور في أنسجة الدماغ ناتجٌ عن تصلب في الشرايين مما يقلل قدرة الدماغ على أداء وظائفه. ويكون الشيوخ ـ عادة ـ معرضين لأمراض جسدية عديدة ومتنوعة، كما يصابون باضطراب سلوكي وعقلي فيما يسمى «ذهان الشيخوخة» وهذا ما يجعل الذاكرة لديهم ضعيفة، ويجعلهم عاجزين

(1) الحج: ٥.
(2) التين: ٤ ـ ٦.
(3) يس: ٦٨.

عن التركيز الذهني، وغير قادرين على إصدار الأحكام العقلية.

وقد يصاب بعض الأشخاص بتلف خطير في الدماغ، ولكن قد لا يفقدون القدرة على التفكير الصحيح. إلّا أن عوارض الشيخوخة تظهر عليهم بوضوح في مختلف أقوالهم وتصرفاتهم. وغالباً ما يصل الإنسان إلى مرحلة من العجز الكلي جسدياً، فلا يعود قادراً على القيام بحاجاته الضرورية، حتى أن سلوكه ينحدر فيصير مثل الطفل في متطلباته، وفي أحاديثه. فسبحان الخالق الذي يقول: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾. ينسى كل شيء في حياته الماضية، وتختلط عليه الأمور في حاضره، فلا يعود قادراً على الإدراك والتمييز. وهذا أيضاً ما يريده الله تعالى بقوله: ﴿ومن نعمّره ننكسه في الخلق﴾ فالشيخوخة نكسة إلى الوراء، حتى لترجع بالإنسان إلى مثل عهد الطفولة ولكن بغير ظرافتها وملاحتها. ويظل الشيخ يتراجع، وينسى ما علم، وتضعف أعصابه، وتضعف قواه الجسدية، ويضعف احتماله، حتى يرتد إلى أرذل العمر، ويصبح طفلاً عاجزاً. ولذلك فإن من يعمّره الله تعالى، بإطالة عمره، فلا بد أن يصل إلى هذا المصير من الشيخوخة والهرم، وقد يصاحبهما خرف، ونكسة في الشعور والتفكير. أفلا يهتدي الناس، ويتدبرون حكمة الله تعالى في خلقه ﴿أفلا يعقلون﴾؟

تكوين الشخصيّة

إنَّ تلك المراحل المختلفة التي يمرُّ فيها النمو تجعل لكل منا شخصية خاصة، تميزه عن الآخرين. ويبدو أن تكوين الشخصية يتأثر بالعوامل الناتجة عن الأحاسيس الجسدية، وبالعوامل النفسية المتعلقة بالأفكار والتصورات والذكريات، وبعوامل المجتمع والبيئة، ومع ذلك فإنَّ الشخصية تبقى واحدة لدى كل إنسان، مهما كانت العوامل المؤثرة فيها، ومهما تباينت تلك العوامل أو جعلت اختلافاً بين الشخصيات.

فمن حيث الأحاسيس يكون للحواس، ولتكويننا الفيزيولوجي تأثيره الهام على شخصيتنا. فقوة الجسد أو سلامة الصحة يكون تأثيرها مختلفاً عن الأعراض والأمراض التي تصيب الجسم وتوهنه. ويقول علماء الطب إن للغدد الصم أثراً خطيراً فيما يطرأ على الشخصية من تغييرات، فإذا ازداد إفراز الادرينالين مثلاً أدى إلى سرعة الانفعال، وإذا ازداد نشاط الغدة الدرقية ازداد النشاط وقوة الاحتمال.

ثم إن التكوينات العامة للإنسان مثل هيئة وجهه، أو طوله وقصره، أو نحوله وضخامته... جميعها تؤثر في تصرفاتنا وفي علاقاتنا

بالآخرين. وغالباً ما يكون وجه المرء مرآة لنفسه بحيث تظهر عليه ملامح الرضا أو الغضب، الفرح أو الحزن، الارتباك أو الصلابة. . . وكلها تأتي من انفعالات النفس، أو من تركيب الأعصاب عند الفرد، وهذا ما يجعل لجسده وحدة عضوية متكاملة تبنى عليها شخصيته، فإذا فقدت هذه الوحدة أو لحق بها خلل، أدى ذلك إلى فقدان الشعور الواضح بالشخصية. ولذلك يتولد من اختلال إحساس الإنسان بجسده كثير من أمراض الشخصية.

وكما تؤثر الوحدة العضوية على الشخصية، فكذلك التصورات والذكريات تكون ذات تأثير هام على هذه الشخصية. فلكل إنسان مثل عليا وقيم معنوية، وهو يسعى محاولاً إثبات وجوده من خلال المثل والقيم التي يؤمن بها ويعمل على تحقيقها، وذلك من خلال تصوراته ومفاهيمه التي يكتسبها خلال مسار حياته كلها. مما يجعل تلك التصورات والمفاهيم من مقومات شخصيته. والذكريات لا تقل عنها شأناً في تقويم الشخصية، إذ لولا الذاكرة لما كان للإنسان عقل، ولا شعور ولا شخصية. فالإنسان يعيش في الماضي، كما يعيش في الحاضر، وكما يفكر دائماً في المستقبل الذي يريد، فحياته الماضية تبقى منطبقة في نفسه، وتكوّن جزءاً من شخصيته، لأنها لا تنفك تلاحقه في كل ما يقوم به. والذكريات الواضحة قد تنمي شخصية الإنسان، بعكس الذكريات الغامضة، التي قد تولد ـ كما يقال في طب الأمراض النفسية ـ خللاً في الشخصية، بحيث إذا تضاربت الذكريات في نفس الإنسان، وطغت طائفة منها على غيرها، قد تؤدي إلى انقلاب في شخصيته، فيصبح وكأنه شخص آخر غير الذي يعرفه الناس.

وللعلاقات المجتمعية أيضاً أهميتها في تكوين الشخصية، لأن

الإنسان يعيش في بيئة[1] معينة، حيث ينظم حياته، ونشاطه، ووجوده، وفقاً للقيم السائدة، والقوانين المطبقة، وهي تفرض عليه اتجاهات محددة، وروابط معينة، في كثير من الأحيان، فضلاً عن الاتجاهات والروابط الشخصية من عائلية، ومهنية، ونمط عيش وما إلى ذلك..

وهكذا تتضافر العوامل في حياة الإنسان، منذ طفولته وحتى نهاية عمره، لتكوين شخصيته.. فالحياة في الأسرة والمدرسة لها تأثيرها الهام على شخصية الطفل، وعلاقاته مع أترابه في المجتمع لها تأثيرها أيضاً، وسعي الإنسان لكسب رزقه وبناء نفسه لما سيكون عليه في المستقبل... كل ذلك يشكل عوامل أساسية مؤثرة في تكوين الشخصية، وفي جعل كل فرد يتميز بشخصية معينة عن شخصيات الآخرين.

وقد كانت تلك العوامل مدار اهتمام المفكرين منذ زمن قديم. وقد أعطى المفكرون، على مدى عهود طويلة، معلومات وأفكاراً كثيرة حول الوجود الإنساني، وحول نفس الإنسان وسلوكه. إلَّا أن الإنسان، برغم ذلك، ما يزال الكثير منه مجهولاً: إنْ في دقائق تكوينه الفيزيولوجي ومدى ترابط الأعضاء لديه وأداء وظائفها واختصاصاتها، وإن بتكوينه النفسي من حيث العقل والتمييز، ومن حيث الشعور والإحساس، وما إلى ذلك من تركيب الإنسان وتكوينه الذاتي، ممّا

---

(١) هي الحالة، أو مجموع الأشياء التي تحيط بالفرد من الناس: حالة العائلة التي يسكن معها في منزل واحد، والأصدقاء الذين يعاشرهم، والمدرسة التي يتلقى فيها علومه الخ.. ومن الطبيعة التي تحيط به: حالة النبت والشجر والماء والهواء والتربة الخ.. فإن كانت حالة هؤلاء الناس الذين يعايشهم هذا الشخص حسنة، وأشياء الطبيعة التي تحيط به حسنة، كانت البيئة حسنة، ولذا يقولون إنَّ فلاناً بيئته حسنة أو نشأ في بيئة حسنة، وإلا كان العكس.

يجعل لكل واحد شخصية متميزة عن شخصيات الآخرين في السمات أو في السلوك.

ولذلك لم يتمكّن المفكرون، وعلماء النفس المحدثون، من وضع تصوّر موحد وشامل للشخصية الإنسانيّة، وذلك نتيجة لاختلاف نظرة كل منهم إلى الإنسان. ولم يتوصلوا إلى التوافق على نظرية موحدة للشخصية، بل ما زالوا يعرضون نظريات تلو نظريات قد تتقارب في نواحٍ معينة، إلاَّ أنها تتصادم وتتناقض في معظم النواحي. وهذا ناتج عن اعتمادهم، في دراسة الإنسان، على مناهج البحث الموضوعية، أو المناهج التي تعتمد الطريقة العلمية وسيلة وحيدة في مختلف العلوم والمعارف. ولا يمكن أن تؤدي هذه الطريقة إلى فهم الإنسان، فهماً حقيقياً ودقيقاً، لأنها تقوم على الملاحظة والاستنتاج، وعلى التجربة والاختبار، أي على البحوث في المختبرات العلمية، والمناهج التجريبية، وهي بحوث ومناهج تقصّر كثيراً عن المعرفة الدقيقة والصحيحة للشخصية الإنسانية..

وفي دراسة العوامل التي تحدد الشخصية يجري التركيز، في أكثر الدراسات والأبحاث، على العوامل البيولوجية والعوامل المجتمعية والثقافية.

والحقيقة أنه لا يمكن فهم شخصية الإنسان على حقيقتها إلاَّ بدراسة مختلف العوامل المذكورة مضافاً إليها العامل الأهم وهو الجانب الروحاني في الإنسان. ذلك أنَّ خلق الإنسان كان من جسد وروح ونفس كما يبيّن لنا القرآن الكريم. وقد مرَّ هذا الخلق بمراحل عديدة: من تراب، ومن طين أي من اختلاط التراب بالماء، ومن حمأ مسنون وهو الطين الذي يتغير بتأثير الهواء، ومن طين لازب أي الطين

الذي يصبح قابلاً للتخليق والتشكيل، ومن ثم من صلصال كالفخار وهو تحويل الطين إلى فخار بفعل النار (كما هو معروف في صناعة الفخار)... وبعد هذا التكوين المادي نفخ الله تعالى في هذا المخلوق السويِّ، فصار بشراً تدب فيه الروح، ثم أودع الله تعالى فيه النفس فاستوى آدم عليه السلام بخلقه الإنساني، وبهذا التكوين، من صنع رب العالمين. ثم بما أودع الله تعالى في آدم وحواء (عليهما السلام) من نظام ثابت، وجد الجنس البشري، وكان متميزاً عن سائر مخلوقات الأرض بخصائصه الذاتية الإنسانية. فالإنسان يشارك الحيوان في كثير من الخصائص الجسمية وخصائص غريزة النوع وغريزة البقاء، إلا أنه يتميز عن الحيوان بالخصائص التي تمنحه قوة الإدراك والتمييز، أو قوة الربط الدماغية للمعلومات التي تجعله قادراً على المعرفة: معرفة حقيقة وجود الله تعالى وما تقتضي هذه المعرفة من إقرار بألوهية الله تعالى الواحدة، وبربوبيته المطلقة، ومعرفة المنهج الذي يجب أن يسير عليه بما يتوافق مع عبوديته لخالقه، هذا بالإضافة إلى نزعته الإنسانية في حبه للمثل والقيم التي تمكنه من الترقي في معارج التكامل الإنساني.

من هنا وجب التركيز في أية دراسة أو بحث يتعلق بشخصية الإنسان على تكوين الإنسان ككل متكامل، وكوحدة غير قابلة للتجزئة.. وحدة تتكامل فيها عناصر الجسد والروح والنفس تكاملاً كلياً، بحيث يؤدي إهمال أي عنصر من هذه العناصر إلى هدم الكيان الإنساني، والإطاحة بمكرمة خلقه.

ومعرفة شخصية الإنسان تقتضي معرفة المفاهيم والمعلومات والسلوك، التي تنتج عنها العقلية والنفسية.

المفاهيم والمعلومات

ويقصد بالمفاهيم معاني الأفكار لا معاني الألفاظ. فإذا قال الشاعر:

وأخفتَ أهـل الشرك حتى أنّـه   لَتَخافُكَ النُطَفُ التي لم تُخلَقِ

فإن المعنى في الشطر الأول موجود في الواقع ومدرك حسياً، بينما المعنى المقصود في الشطر الثاني لا وجود له في الواقع القائم والمحسوس، إلَّا أنه يبقى مجرد معنى لألفـاظ يمكن تفسيرهـا أو بيان المقصود منها.

فماذا يعني المفهوم؟

عندما يظهر الفكر بلفظ ما ويتضمن هذا اللفظ معنىً معيناً، وكان لهذا المعنى واقع يقع عليه الحسّ أو يتصوره، ويصدقه الذهن كشيء محسوس، فإن هذا المعنى يشكل **مفهوماً** عند من يحسّه ويتصوره، ولا يشكل مفهوماً عند من لا يحسه ولا يتصوره، بل يظل مجرد معلومات معينة...

فعلى المتلقّي أن يفهم معاني الجمل كما تدل عليه في حقيقتها لا كما يريدها واضِعُها أو لافِظُها، وأن يدرك في نفس الوقت واقع هذه المعاني في ذهنه إدراكاً يشخّص له هذا الواقع، عندها تصبح هذه المعاني مفاهيم. ولذلك نقول بأن المفاهيم هي المعاني التي يُدرك لها واقعٌ في الذهن، سواء كان واقعاً محسوساً في الخارج، أم واقعاً مسلماً به أنه موجود تسليماً مبنياً على واقع محسوس. وما عدا ذلك من معاني الألفاظ والجمل لا يسمى مفاهيم، بل مجرد معلومات. فالمفاهيم إذن تتكون من ربط الواقع بالمعلومات مع التصديق الجازم بصحتهما أو من

ربط المعلومات بالواقع.

والأفكار التي يحملها الإسلام هي مفاهيم بالنسبة للمؤمنين لأنهم صدقوا بواقعها، وهي أفكار ومعلومات بالنسبة للناس أجمعين. فإذا آمن الناس بها تصبح لديهم مفاهيم، وإذا لم يؤمنوا بها فإنهم يحملونها مجرّدَ معلومات أو معارف. أما في حقيقتها فليست هي معلومات لمجرد المعرفة، بل هي مفاهيم لأن لها مدلولات واقعة في معترك الحياة، ويمكن للإنسان أن يضَعَ إصبعَهُ على كل مدلولٍ منها، سواء كانت مفاهيم عميقة يحتاج إدراكها إلى فكر نيّر ومستنير، أو كانت مفاهيم ظاهرة يمكن فهمها بسهولة. وسواء كانت مما تدركه الحواس كالمعالجات والأفكار والآراء العامة، أو كانت من الأمور الغيبيّة أخبرنا عنها من صدّقه العقل بصورة قاطعة، مثل المفاهيم المتعلقة بالملائكة والجنة والنار ويوم البعث.. فهذه مدلولات واقعة في الذهن على شكل قطعيّ لأنها وقائع قرآنية صدّقها العقل وآمن بها القلب.

والمفاهيم قابلة للتغيير. إلا أن هذا التغيير لا يأتي إلّا من داخل الذات الإنسانية. يقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[1].

---

(١) الرعد: ٨ ـ ١١.

هو علم الله تعالى الواسع.. ومن غير الله تعالى يعلم ما تحمل كل أنثى في رحمها؟.. كل أنثى من الناس أو الحيوان. ويعلم كل قطرة من دم تغيض أو تزداد في كل رحم من أرحام الإناث جميعاً.. ومن غير الله تعالى يتعقب بعلمه الواسع كل فرد وهو يسرّ القول بنفسه أو يجهر به أمام الآخرين؟ كل فرد مستخفٍ بالليل أو سارب في النهار، يقيد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار.

ومن يعلم ما في الكون الشاسع، البعيد المدى، من غيوب وأسرار، وما في أغوار النفس من خفايا ومكنونات... من يعلم ذلك كله غير الله تعالى الكبير المتعال؟ إنه الله الذي لا إله إلا هو سبحانه، إلهٌ واحد في السماوات والأرض، رب الكون، ورب الإنسان، يبعث لكل إنسان ملائكة يحفظونه من المهالك، ويتعاقبون على حفظه ليلَ نهار من أمر الله تعالى. قال أحد الصحابة لقومه: «لولا أن الله تعالى أوكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطّفنكم الجن».

والناس على ما هم عليه من غفلة لا يعرفون أن الله تعالى لا يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. فهو سبحانه يتعقبهم بالحفظة من أمره، يحفظونهم حقاً، ولكن يراقبون أيضاً ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم. وهذا التغيير وهذا التصرف تترتب عليه آثاره. فهو سبحانه وتعالى لا يغير نعمة أو بؤسى، ولا يغير عزاً أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة... إلا أن يغير الناس من أفكارهم ومشاعرهم وأعمالهم، فيغير الله تعالى ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم. نعم إنها سنة الله تعالى في خلقه. وقد قضت هذه السنة أن تترتب مشيئة الله تعالى بالبشر على تصرف هؤلاء البشر أنفسهم. وإذا

أراد الله تعالى بقوم سوءاً ـ يكونون قد استحقوه بأنفسهم ـ فلا دافع له عنهم، ولا يعصمهم منه والٍ يناصرهم. فتطوّر أحوال الناس موقوف على ما في نفوسهم، وتغيير أوضاعهم مرهونٌ بتغيير نواياهم.

يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]. لو تفكّر الإنسان بهذه الآية المباركة وتدبَّرها حقَّ تدبّرها لعرف ما حباه الله تعالى به من مكرمة عظيمة، وما جعل له من مكانةٍ رفيعة بين خلائقه. فقد أوكله الله تعالى، في كثير من أمور حياته، إلى نفسه، وجعلها مدار النعمة أو النقمة، كما يدّلنا عليه النصُّ القرآنيُ الكريم. فالله سبحانه وتعالى لا يسلب نعمة أنعمها على عبادٍ من عباده، إلاَّ بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم من الأحسن إلى الأسوأ.. وهذا عدل إلهي، إذ عند هذا التغيير يستحقون ما يستحقونه من سلب النعم التي أعطاهم إيَّاها في الأصل تفضلاً منه تعالى وتكرّماً. فالله سبحانه يعطي نعمته ويمنح فضله لعباده لا على وجه الاستحقاق لهم، بل من أجل الابتلاء والاختبار، فإن لم يقدِّروا ولم يشكروا استحق عليهم سلب النعمة. هذا من حيث مفهوم العقاب للعباد. ولكن قد يكون سلب النعمة أيضاً لمصلحة للعباد يعلمها سبحانَهُ وتعالى وحده، فهو خبير لطيف بعباده ويعلم مصالحهم وأحوالهم، فيزيد من نعمه أو يسلب من هذه النعم، ما تقتضيه مصالح عباده، ووفق ما يشاء سبحانه ويقدر.

والفضل العظيم من الله تعالى هو عندما يجعل سلب النعمة أو عطاءها منوطاً بالناس أنفسهم، فرادىً وجماعات... فالله تعالى يكرِّم

---

(١) الأنفال: ٥٣.

هذا المخلوق البشري أكبر تكريم حين يجعل أمرَهُ به ينفذ ويجري عن طريق نفس الإنسان وعمله، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم وسلوكهم، وأفعالهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم. وإكمالاً لهذا التكريم الإلهي فإن الله سبحانه وتعالى يلقي التبعة على الإنسان نفسه، وذلك بأن يترك له المجال في التقدير والاختيار بحيث يملك هو ـ هذا الإنسان ـ أن يستبقي نعمة الله تعالى عليه، ويملك أن يستزيدها إذا هو عرفها فشكر، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكرها، وبطر، وانحرفت نواياه، فانحرف سلوكه وعمله.

لذا نجد هذه الحقيقة تتلازم بين العمل والجزاء في حياة الإنسان.. في تفكيره ونشاطه، وفي إرادته وتصرفه. ومن هذه الحقيقة يمكننا أن نتصور مشيئة العلي الحكيم في جعل هذا التلازم سنةً من سننه تعالى يجري بها قدره، ولا يظلم فيها عبداً من عبيده. فهو سبحانه سميع لأقوال عبيده، عليم بجميع أعمالهم، وما تنطوي عليه قلوبهم، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

السلوك

الأصل في السلوك هو الطاقة الحيوية. وقد بات معروفاً، في تفكيرها وتصورنا، أنَّ الطاقة الحيوية هي الغرائز والحاجات العضوية، التي تدفع الإنسان وتتطلب منه الإشباع، فيتحرك ـ قولاً أو فعلاً ـ لتحقيق هذا الإشباع. ولذا كان السلوك متوقفاً على الطاقة الحيوية.

إلَّا أن ما يعيّن سلوك الإنسان هو المفاهيم، وليس الأفكار فقط. فالأفكار لا تؤثر على السلوك إلَّا إذا صدَّق بها الإنسان وارتبط هذا

التصديق بالطاعة، فعندها تصبح الأفكار من المفاهيم. من هنا فإن سلوك الإنسان يكون ـ قطعاً ويقيناً ـ بحسب مفاهيمه.

والفكر يتأتى عن العقل، كما يتأتى السلوك عن الطاقة. ولذلك كان السلوك غير الفكر، وكان التفكير غير الميل، وكانت العقلية غير النفسية. إذن هنالك في الإنسان طاقة تتطلب الإشباع، وهنالك فيه أيضاً عقل يفكر ـ وهما أمران مختلفان ـ فإن ارتبطا وحصل سلوك بحسب الأفكار كانت الشخصية. وإذا لم يرتبطا وظلا منفصلين كانت هنالك ميول، وكانت معها أفكار. إلَّا أن مخالفة السلوك للفكر أكثر ما تكون في الجزئيات، ولا يؤثر ذلك على الشخصية، وإنما يؤثر على بعض التصرفات، في بعض الأحيان. ففي أحدى غزوات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، المعروفة بغزوة بني المصطلق، ثارت في نفوس الأنصار والمهاجرين نعرة العصبية بسبب نفاق عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول الذي أرادَ أن يشعل فتنة بين صفوف المسلمين. . في تلك الحالة، وقد وقف الأنصار يتنادون، ووقف المهاجرون يتنادون، بدعوة العصبية، انفصل السلوك عن الفكر، مع أن المفهوم واحدٌ عند المهاجرين والأنصار. ولكن ذاك المفهوم الإسلامي في تصور الجميع، لم يعد في هذا الوقت مفهوماً لأنه انفصل عن الارتباط بالطاقة، فتصرف كل من هؤلاء وهؤلاء حسب ميوله السابقة لا حسب أفكاره الجديدة، ولكن من غير أن يؤثر ذلك بشيء على شخصية الأنصار أو على شخصية المهاجرين، إذ إنهم ما لبثوا أن عادوا جميعاً للمفهوم بعد أن وضع الرسول العظيم الأمور في نصابها. ولذلك يمكن القول بأن انفصال السلوك عن الفكر لا يؤثر، في بعض الأحيان، على الشخصية. وكذلك يكون القول بأن للإنسان وجهتي نظر في الحياة قولاً خاطئاً، إذ

لا يكـون لـلإنسـان إلا فكـرٌ أسـاسي واحـد عن الحيـاة تحـوّل إلى مفهـوم. فإذا وجد فكر غيره فإنه يبقى مجرد فكرٍ ولا يتعداه إلى مفهوم...

العقلية والنفسية

العقلية هي الكيفية التي يُربط فيها الواقع بالمعلومات، بقياسها إلى قاعدة واحدة أو قواعد معينة. ومن هنا تختلف العقليات وتتنوع فتقول هناك عقلية إسلامية، أو عقلية شيوعية، أو عقلية رأسمالية، أو عقلية فوضوية، أو عقلية رتيبة... أما **النفسية** فهي الكيفية التي يجري عليها إشباع الغرائز والحاجات العضوية، أي هي الكيفية التي تُربط فيها دوافع الإشباع بالمفاهيم. فهي مزيج من الارتباط الحتمي الذي يجري طبيعياً في داخل الإنسان: بين دوافعه والمفاهيم الموجودة لديه عن الإشباع.

والكلام عن النفس يعني البحث عن كل ما يتعلق بالإنسان بصورة كاملة وشاملة: عن العقل وأحكامه، وعن القلب وغرائزه. فعندما نتكلم عن الغرائز والحاجات العضوية التي تتمثل بالطاقة الحيوية وما ينبثق عنها جميعاً من دوافع للإشباع نكون قد تكلمنا عن النفسية فقط، لأن تلك الدوافع للإشباع إنما تحدد سلوكاً معيناً، أي نفسية معينة.

وعندما نتكلم عن العقل فقط نكون قد حددنا قسماً من النفس، لأن العقل هو ما يشتمل على التمييز والإدراك والتفكير والحكم على الوقائع والأحداث، وما إلى ذلك من أمور تتعلق بالعقل.

ومن هذه العقلية والنفسية تتكون الشخصية وهي جميعها ككل متكامل تظهر بها الشخصية. فالعقل أو الإدراك، وإن كان فطرةً، ووجوده حتميٌّ لدى كل إنسان، إلاَّ أن تكوين العقلية يكون بفعل

الإنسان نفسه. وكذلك الأمر بالنسبة لإشباع الغرائز والحاجات العضوية، فهي وإن كانت فطريةً، ووجودها حتمي لدى كل إنسان، إلا أن التكوين النفسي يجري أيضاً بفعل الإنسان.. فإن تطابقت هذه القاعدة أو القواعد التي يجري عليها تكوين العقلية مع القاعدة أو القواعد التي يجري عليها تكوين النفسية، كانت للإنسان شخصيته المميزة. وإن حَصَل تباين بين القاعدة أو القواعد التي يجري عليها تكوين النفسية وبين تلك التي يجري عليها تكوين العقلية، كانت عقلية الإنسان غير نفسيته، لأنه حينئذٍ يقيس ميوله على قاعدة أو قواعد موجودة في أعماقه، فيربط دوافعه بمفاهيم غير المفاهيم التي تكونت بها عقليته، فيصبح شخصيةً غير متماسكة لأنَّ أفكارَهُ غير ميوله، ولأنه يفهم الألفاظ والجمل ويدرك الواقع على وجه يختلف عن ميله للأشياء.

الشخصية الإسلامية

الإنسان بنظر الإسلام كائن حيوي متميّز بخصائص عديدة. وقد عالج أحوالَهُ النفسية والفيزيولوجية معالجة تتوافق مع تكوينه وفطرته. فهو يرى أن البدن له حاجاته العضوية مثل الغذاء، والنوم، والراحة، كما يرى أنَّ النفس لها غرائزها التي تحتاج فيها إلى الأجواء والمناخات الإيمانية، فتتشوق إلى معرفة حقيقة وجود الله تعالى، والقيام بعبادته وطاعاته، والإقدام على الأعمال الصالحة، أو قد تنحرف عن طريق الإيمان ومستلزماته وتهوي في مستنقع الكفر والرذيلة والأعمال السيئة... من هنا قد ينشأ صراع داخل الإنسان بين متطلبات البدن والغرائز من ناحية، ومتطلبات النفس وأحوالها من ناحية ثانية، وقد يكون لهذا الصراع آثاره الهامّة على سلوك الإنسان، وعلى شخصيته. رأى الإسلام ذلك كله فتعامل مع تكوين الشخصية الإنسانية على أسس

سليمة عن طريق الأحكام الشرعية المنبثقة عن العقيدة. ويقوم هذا التعامل على تنظيم إشباع الغرائز والحاجات العضوية تنظيماً دقيقاً، ميزته الاعتدال في كل شيء.. فلا يطلق الإنسان لغرائزه العنانَ، ولا يكبتها، ولا يتبع متطلبات الجسد ويتخلّى عن متطلبات النفس، أو العكس... ولذلك قامت تلك الحالة التوفيقية التي ترتكز على إشباع الغرائز والحاجات العضوية دون إفراط أو تفريط. فالمنطلق إذن هو العقيدة، والأساس هو هذه العقيدة أيضاً. وذلك لتحقيق التوازن في الشخصية كما يأمرنا بذلك رب العالمين. يقول الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾[1]. ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس خيركم من عمل لدنياه دون آخرته، ولا من عمل لآخرته وترك دنياه، وإنما خيركم من عمل لهذه وهذه».

وبذلك يكون الإسلام قد عمد إلى تكوين الشخصية الإسلامية بالعقيدة الإسلامية نفسها، إذ بهذه العقيدة تتكون عقليته، وبها تتكون نفسيته. والإسلام يجعل من الإنسان مقياساً لجميع الأفكار عملياً وواقعياً، وهذا ما يجعل عند الإنسان المسلم عقلية إسلامية ونفسية إسلامية، ويكون هذا الإنسان بهما معاً صاحب شخصية إسلامية، بغض النظر عن كونه عالماً أو جاهلاً. لأنَّ كل من يفكر على أساس الإسلام، ويجعل هواه تَبَعاً للإسلام يكون ذا شخصية إسلامية.

وقد أمر الإسلام بالاستزادة من الأفكار والمفاهيم الإسلامية وبذلك تنمو لدى الإنسان عقلية إسلامية تكون قادرة على احتواء كل فكر من الأفكار. كما أمرَ بأشياء ونهى عن أشياء تقويةً للنفسية

---

(١) القصص: ٧٧.

الإسلامية لتصبح قادرة على ردع كل ما من شأنه أن يخالف الإسلام. وبمقدار الالتزام بالإسلام، عقيدةً دينية ومنهجاً حياتياً، أو الابتعاد عن هذا الإسلام، يأتي التفاوت في الشخصيات الإسلامية، وفي العقليات الإسلامية، والنفسيات الإسلامية. ولذلك يخطىء كثيراً أولئك الذين يتصورون الشخصية الإسلامية بأنها مَلَكٌ سماوي. فهم يبحثون عن الملك بين البشر فلا يجدونه مطلقاً، ومن الطبيعي ألاَّ يجدونه في أنفسهم، فييأسون، ويبدون عجبهم من الإسلام، بينما هم لم يدركوا حقيقة الإسلام، ولم يعرفوا طريق الإسلام، وما اهتدوا إلى هداه أبداً.. إنهم خياليّون يتصورون أنَّ الإسلام خياليّ، وأنه مستحيل التطبيق، مع أن الإسلام في حقيقته، ما أنزل إلَّا ليكون أقربَ عقيدة دينية لحياة الإنسان وتسييرها تسييراً عملياً، مطابقاً لمنهاج الله تعالى بصورة واقعية، واعية، بعيدة عن أي تصور خيالي، أو صعوبةٍ في التطبيق. ومن يعرف الإسلام يجده واقعيّاً بكل معنى الكلمة، لأنه يعالج الواقع بشرعٍ سمحٍ لا يصعب تطبيقه، وهو في متناول كل إنسان، مهما بلغت درجة التفكير لديه من القوة أو الضعف، ومهما بلغت غرائزه وحاجاته العضوية أيضاً من القوة أو الضعف. فكل إنسان يمكنه أن يطبق الإسلام في حياته، وعلى نفسه بسهولة ويسر. والمسلم الذي يطبق الإسلام على نفسه يكون صاحب شخصية إسلامية، ويصبح مؤهلاً للقيام بجليل الأعمال ولا يأنف أن يقوم بأصغرها، فهو تلميذ ومعلم، جندي وقائد، في آنٍ معاً، يجمع بين الرحمة والشدة، بين الزهد ومتعة العيش، ويفهم الحياة فهماً صحيحاً، فيستولي على الحياة الدنيا بحقها، وينال الآخرة بالسعي لها. ولذا، لا تغلب على الشخص المسلم صفة من صفات عُبّاد الدنيا، ولا يأخذه الهوس الديني ولا التقشف الهندي. وفي الوقت الذي يكون سريّاً يكون

متواضعاً، ويجمع بين الإمارة والفقه، وبين التجارة والسياسة. وأسمى صفةٍ من صفاته أنه عبد لله تعالى خالقه وبارئه.

والمثال البارز على الشخصية الإسلامية هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي حباه الله تعالى من الصفات، ومنحَهُ من المزايا ما جعله إنساناً كاملاً في شخصيته. يفيض بالحيوية الجسدية، فيعيش حياته البشرية كغيره من الناس. وتشفُّ نفسه بعبادة ربه فيرتقي إلى أسمى المعارج في تقديس الله تعالى وطاعته والامتثال لأوامره ونواهيه. فهو الإنسان الكامل، والشخصية النموذجية التي أمَرَ الله تعالى الناس أن يقتدوا بها: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(1).

وفي القرآن الكريم تصوير للشخصية الإسلامية، كما فيه تصوير للشخصيات غير الإسلامية. ونتلمّس هـذه الشخصيات من تصنيف القرآن للناس، وعلى أساس العقيدة الدينية إلى ثلاثة أنماط هي: المؤمنون، الكافرون والمنافقون. وأهمية هذا التصنيف تكمن في تأثير العقيدة على تكوين شخصية الإنسان، وعلى إبراز صفاته التي تميزه عن غيره من الناس إنْ في حياته الخاصة أم في علاقاته مع الآخرين.

وسوف نحاول إبراز الصفات العامة لكل نمطٍ من هذه الأنماط الثلاثة لبني البشر التي تتبين من خلالها شخصية المؤمن أو الكافر أو المنافق، وذلك بعد أن نفهم حقيقة الإيمان..

الإيمان والمؤمنون

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس الإيمان بالتمنّي ولا بالتحلّي، ولكنْ

(1) الأحزاب: ٢١.

هو ما وَقَرَ في القلبِ وصدَّقه العمل».

هذا هو الإيمان كما أوضحَهُ لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. إنه ما انطوت عليه النفس، وما ظهر على حقيقته بالعمل. فيجب أن يكون هنالك توافق وتلاق ما بين باطن الإنسان وظاهره. فالباطن هو هذه النفس بجميع مركباتها وأحوالها، إنه مجمع العقل والقلب وما ينبعث عنهما من أحوال نفسية. أما الظاهر فهو السلوك أو التصرف الذي يصدر عن الإنسان، والذي يكون في حقيقته مرآة صادقة لما انبعث من داخل النفس، وعبَّر بأمانةٍ عن مكنوناتها.

ومن يتقصَّ حقائق القرآن الكريم يجد أنَّ الإيمان أفضل مزايا الإنسان وأعلاها مقاماً.. فعندما يخاطب الله تعالى المؤمنين إنما يخاطبهم بصورة مباشرة ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. وهذا شرف رفيع، وتكريم عظيم لهم، لأنَّ مخاطبة الله تعالى لهم، ترفع من قيمتهم الشخصية، وتسمو بهم إلى المرتقى الأعلى من مراتب الإنسانية..

وعندما يتحدَّث الله تعالى عن المؤمنين إنما يقرنُ إيمانهم بالعمل الصالح، كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[1]. أفرأيت أيها الإنسان هذا الوصف الكريم لهؤلاء المؤمنين ﴿هم خير البريّة﴾. إنهم خير الناس جميعاً.. ومَنْ هذه صفتهم، فلهم الجنةُ نزلاً بما كانوا يعملون في هذه الدنيا. يقول الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

إنها مزايا ثلاث يخصُّ بها الله تعالى هذه الفئة من الناس:

---

(١) البينة: ٧.

(١) السجدة: ١٩.

الإيمان، العمل الصالح، الجنةُ منزلهم. أما الإيمان، فهو ليس مجرد كلام ينطلق من اللسان، بل هو ما وقَرَ في الصدر، ولامَسَ شغاف القلب، واختزنَ في قرارة نفس الإنسان: أنْ لا إلٰه إلا الله. وحده الإلٰهُ المتعال. الذي تفرَّد بالألوهية وبالربوبية. إنه التصديق الجازم بحقيقة وجود الله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والبعث، والحساب، والجنة والنار.

وهو التصديق الجازم أيضاً بحقيقة بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً لله وخاتماً للنبيين، وأنه حمَلَ الإسلام عقيدة سماوية وخاتمة الرسالات وأكملها، فكان بشيراً ونذيراً للناس كافة.

ومن هذا الأساس المتين: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.. تنطلق جميع المقاييس والمناهج والسبل والقيم والمثـل في مسيرة الإنسان على الأرض، وفي مصيره في الآخرة..

وأما العمل الصالح، فأول ما ينبثق عنه عبادة الله تعالى، وأداء الفرائض من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد في سبيل الله.. والإيمان بقضاء الله تعالى وقدره، والتوكل عليه في كل أمر وشأن.. وقد يكون أجر هذه الأعمال عائداً للإنسان نفسه الذي قام بها، ومنفعتها له وحده، ولكنّ العمل الصالح لا يقتصر خيرُه على الإنسان الذي يقوم به، بل يجب أن ينالَ منه الآخرون من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، بل ويجب أن يطال نفعه الناسَ أجمعين.

ثم إن العملَ لا يقترن فقط بوجهه الإيجابي، بل يجب أن يتصف بالابتعاد عن أي جانب سلبي، حتى يكون صالحاً.

وأما الجنة، فهي كما يصفها الله تعالى في قرآنه الكريم، خير

مقام ومستقرٌ للمؤمن في الحياة الدائمة، حياة النعيم والخلود.. وذلك هو الفوز العظيم الذي يفوز به المؤمنون بعد رحلة حياتهم على الأرض وبعد أن يقوم الحساب...

والإيمان يخاطب النفس الإنسانية ليرى المؤمن من آيات ربه ما يجعله متفكراً في خلق الله تعالى، قائماً على طلب العلم والمعرفة ليهتدي إلى أسرار نفسه، وأسرار هذا الكون، فيجد من نعمة الله تعالى، ومن عجيب صنعه وخلقه، ما يثبت عقيدته الدينية ويرسخها في نفسه، وما ينطلق به في الحياة على أنوار الهداية والخير، التي تجعله قادراً على مواجهة المصاعب بعزم وثبات، وبصبر واحتمال...

ولكي يميّز الله تعالى المؤمنين عن بقية الناس الآخرين، من الأمم والشعوب جميعها، يضع لهم القرآن الكريم صفاتٍ يُعرفون بها، وتدلُّ عليهم كما تدلُّ المناراتُ على السُّبل وتهدي التائهين، وتلك الصفات يمكن لكل إنسان أن يكتسبها وأن يدخل في جماعة هؤلاء المؤمنين بمشيئة الله تعالى وهدايته. يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1].

هذه هي سمات المؤمنين كما يبرزها لنا ربُّ العالمين في هذه الآية المباركة. إنها:

---

(١) الأنفال: ٤.

- وجَل القلوب عند ذكر الله تعالى:

﴿الذين إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم﴾.

فالقلب المؤمن هو الذي يخشع لذكر الله تعالى، ويغشاه جلاله فيتمثل عظمته وقدسيته. والإنسان المؤمن يخاف الله تعالى لمجرد الذكر، أكان في نفسه شعور بالتقصير والذنب، أو ندم على فعل مضى قد أتاه في ساعة غفلة.. لأنه يستشعر بالذكر العظيم عـذابَ الله الشديد، وآلام ذلك العذاب ومآسيه..

- التأثر القلبي بآيات الله تعالى:

﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾.. فالقلب المؤمن تزيده آيات القرآن إيماناً فوق إيمانه. والتلاوة لا تكون مجرد قراءة وحسب، بل تكون تفهماً للمعاني وتدبّراً للأفكار التي تحتويها النصوص. وكلما أوغل المؤمن في فهم القرآن وما ينطوي عليه من آيات وعظات، ومن عجائب الحياة، وأسرار الكون.. عَرف حقيقة القدرة الإلهية في الخلق والصنع والتدبير، فزاده ذلك إيماناً وتصديقاً.

- التوكل على الله تعالى:

﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾.. فالمؤمن يعرف أن الله ربُّهُ، وربُّ العالمين، رب السماوات والأرضِ وما بينهما. مالك الملك. المتصرف في ملكه فلا شريك له ولا معقِّب لحكمه. وهو يعلم أن ما شاءَ الله تعالى كان، وما لم يشأ لم يكن. فعلى مَن يتوكل المؤمِنُ إذن بعد ذلك؟ إنه على ربه يتوكل، لا يرجو ولا يقصد سواه، ولا يطلب حاجة إلا منه سبحانه. إن المؤمن يعمل ويجهد في حياته، ولكن مهما عمل

وسعى فإن الأمر كله متروك إلى الله تعالى. هو وحده سبحانه ينشىء الأسباب، وينشىء النتائج. وفي شعور المؤمن لا علاقة بين السبب والنتيجة إنه يقوم بواجباته ويترك الأمور والنتائج لمشيئة الله تعالى. وهذا منتهى الشعور بالاطمئنان والقناعة والرضا.

ـ إقامة الصلاة:

﴿الذين يقيمون الصلاة﴾.. وإقامة الصلاة هي أول الطاعات والعبادة عند المؤمن. إنها شعور دائم يرافقه، فلا يرتفع صوت المؤذن في ليل أو نهار، ولا يعرف مجيء وقت الصلاة، إلَّا ويلازم قلبه شعور بالعبء الثقيل حتى يؤدي صلاته فينزاح عن قلبه ذاك الثقل ويغمره الاطمئنان والارتياح.

والمؤمن لا يقيم صلاته مجرد تلاوة أو قراءة، بل يجد فيها الوقت لملاقاة ربه بخشوع وتقوى وبقلب متَّعِظ ونفس صافية. إنه يتخلَّى عن الدنيا وأعبائها ويتوجه بكليته إلى خالقه وبارئه يعبدُهُ لأنه أهل للعبادة، ويتضرّع إليه خوفاً من ناره وطمعاً في جنته.

وتبقى الصلاة في مظهرها المادي عنواناً لنظافة البدن، وشاهداً قائماً على الإيمان لدى المسلم.

ـ الإنفاق من رزق الله تعالى:

﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾.. المؤمنون ينفقون مما رزقهم ربهم سواء في الزكاة أو غير الزكاة. فهم يعلمون أن الأرزاق هي من الله تعالى، وأن عملهم للحصول على الرزق الحلال ليس هو السبيل الوحيد الذي يمكنهم بسببه الحصول على هذا الرزق. فإن الله تعالى

يرزق من يشاء بغير حساب. يقول الإمام علي كرم الله وجهه في هذا الصدد «الرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك». ولذلك جعل الله فيه نصيباً لمن يستحقونه من عباده: ذوي القربى واليتامى والمساكين، والسائل والمحروم وابن السبيل، وكل من هو بحاجة إلى مساعدة أو عون مما يتفضَّل به الله تعالى على عباده المؤمنين، وييسر لهم سبل تحصيله ونيله..

والإنفاق من رزق الله تعالى يجب ألَّا يكون للتباهي والتفاخر، والمصانعة أمام الناس في سبيل الجاه. إنه في هذه الحالة يفقد معناه، ويصبح عطاءً لغاية لا يحبها الله ورسولُهُ. الإنفاق، كما يقوم به المؤمنون، سبيل تفرح به النفس وتتزكّى، ووسيلة للتضامن مع إخوانهم في الدين وفي الإنسانية، وتعاون على البر والتقوى.. هذا هو الإنفاق الذي يتصف به عمل المؤمنين فيما يعطون أو يبذلون أو يقدمون من مالٍ أو عمل أو مساعدةٍ معنوية...

وهذه الصفات التي حدَّدها الله تعالى للمؤمنين في هذه الآية المباركة تنطوي على الاعتقاد بوحدانية الله تعالى، والاستجابة الوجدانية لذكره، والتأثر النفسي بآياته، والتوكل عليه وحده، وإقامة الصلاة والتعبد له، والإنفاق من أرزاقه على أنفسهم وعلى غيرهم... هذه الصفات هي مما يجدها المؤمنون حقاً في نفوسهم، وفي أعمالهم.. وتترتب على التحلي بهذه الصفات عاقبة حسنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾(١). فيا لها من عاقبة: الهداية من ربهم، والفوز في جنات

(١) يونس: ٩.

النعيم. ومن حظي بهذا المقام كانت له مغفرة عظيمة وأجر كبير.. والعاقبة دائماً للمتقين.

جاء في الحديث عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مرَّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟». أجابَ: «أصبحت مؤمناً حقاً». فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «أنظر ماذا تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟». قال الحارث: «عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرتُ ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها». (ومعنى يتضاغَوْن: يتذللون، يتخاونون، يصرخون من العذاب).

فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «يا حارث، عرفت فالزم». قالها ثلاثاً...

إن المؤمنين اليومَ يجب أن يتحركوا بتلك الصفات في نفوسهم وأعمالهم. وسلاحهم القرآن فهو يهدي للتي هي أقوم. وأمامهم عمل واسع وكبير جداً، لأجل استئناف حياة إسلامية عملية، من أجل إقامة أحكام هذا الدين القيم في واقع الحياة العملي.. هذه الحياة التي غلبت عليها الجاهلية المادية العمياء، التي طغت على الأرض جميعاً، وأورثت فيها الشرور والمظالم والمفاسد... إلّا أنّ قلوب المؤمنين يعمرها دائماً الإيمانُ الصادق، الذي لا يكون بالتمني أو بالتحلي، بل هو ذلك الإيمان الذي وقر في القلب وصدقه العمل، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

تلك حقيقة الإيمان، وحقيقة المؤمنين الذين يميزون بين نور

الإيمان وظلام الكفر، ويتفكرون في خلق الإنسان بدقة في الصنع هي غاية في الإعجاز لبني البشر، وفي تركيب الكون وانتظامه بما يذهل بصائر الناس، ويدهش عقولهم.

إنها عظمة الله تعالى في الخلق..

وفي الاكتشافات التي تتقدم يوماً بعد يوم، أكبر دليل على ما بثَّ الله تعالى في الوجود البشري، وفي الكون بأسره، من آيات دالّة على قدرة الله تعالى، وأنه الصانع الحكيم، والمدبر العليم...

وكم تمتلىء نفوس المؤمنين بالاستقرار والاطمئنان، وهم يرون، ويبصرون هذه الآيات، وكم تعمر قلوبَهم السعادة وهم يسبحون الخالق الباري، ويعبدونه على جلال عظمته، وقوة إحكامه، وهم يعلمون علم اليقين بأنه سبحانه على كل شيء قدير. إنهم في ذلك يستجيبون ولا شك للفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها، فيهتدون بها إلى الحق، ولا يحيدون عن سبيله...

الكافرون

وبخلاف المؤمنين، نجد الكفار والمشركين قد عاندت نفوسُهُم فطرة الإنسان فيهم، فعاشوا في غيابة الجهل والظلام، يكذبون النبيين، ويقاتلون المرسلين، ويسخرون من كل بشير ونذير.. وكم أهلك الله تعالى من القرون السالفة، وأنزل بها من ألوان العذاب، لتكون عبرة لغيرها من أجيال البشرية اللاحقة. إلَّا أن الناس ظلوا على ما يبدو، يفضلون الجهل على الوعي، والضلال على الهدى، ويناصرون الباطل على الحق، ويؤثرون الشر على الخير... وإلَّا فما بال هذه الأوضاع المليئة بالشقاء والبؤس والقلق التي يعيشها الناس في أيامنا؟!... وما سبب هذه المفاسد والشرور والمظالم التي تعم العالم بأجمعه، وكأن الإيمان بالبعث والحساب أصبح نسياً منسياً، فما من مرتدع عن غيٍّ، وما من مرتدٍّ عن ضلال، وما من منقلب على نفسه، مُنكرٍ لما يجري على مسامع الدنيا وأبصارها؟!..

إنه الابتعادُ عن الله تعالى، والجنوح إلى المادية القاتلة.. هذا هو محور الهلاك الذي يرتمي الناس في أحضانه وهم لا يشعرون!. ولئن كفر الإنسان من قبل، وعبَدَ آلهة مزيفة ابتدعها، أو اتخذ من

الأصنام والأوثان آلهةً تقربه زلفى إلى الله تعالى، فما بالُ الإنسان اليومَ، والإسلام بين يديه، لا يفتح بصيرتَه على هذا الدين كي يجد الخلاص لآلامه النفسية، ويتوصَّلَ إلى محاربة الفوضى التي تعم العالم، ودرء المخاطر التي تهدد معظم الشعوب والأمم؟!...

إنها المادية في جاهلية أعتى وأشد من الجاهليات القديمة كلها، وهي التي تمثل في صورها وأشكالها ألواناً جديدة من الكفر والشرك لا تختلف في مضمونها عما سبق للقرون الغابرة أن أوقعت نفسها فيه.. وهذا هو مثار العجب والدهشة من هذا الإنسان الذي بلغ درجة عالية من النضوج الفكري، والتقدم العلمي، لا تجيز له أبداً أن يتفلَّت من قضية الإيمان التي تبقى هي المقياس الصحيح والوحيد لكل تقدم أو تطور أو ارتقاء..

وكم يجب أن يكون العمى ضارباً على بصيرة أي منكر أو ملحدٍ أو كافر حتى لا يهتدي إلى حقيقة وجود الله تعالى، ويقيم وجوده الإنساني على أساس هذه الحقيقة. أفلا يرى أي إنسان من هؤلاء اسم خالقه موقعاً على كل قسيمةٍ من قسائم تكوينه، وعلى كل صفحة من صفحات هذا الكون الفسيح، وآثار الله تعالى وآياته بادية وظاهرة على كل شيء في الوجود؟!.

ولو عادَ الكافر أو الملحد أو الضال إلى نفسه فماذا يجد فيها غير الضياع والشتات، وغير القلق والاضطراب.. ألا يجد أنه أبعد خلق الله عن سكينة النفس، وراحة الضمير، واطمئنان القلب؟

وقد يجهل هو السبب في ذلك، بينما في الحقيقة لا سببَ يدفعه لذلك إلَّا أنه اتخذ هذه الدنيا غاية قصوى له، فاندفع وراء الشهوات واللذائذ، وارتمى في أحضان الطمع والجشع، حتى أنهك نفسه،

وأسقم جسمه، وأضنى حياته كلها. . ولو وَجَدَ يوماً راحةً، فحياته كلها شقاء. . ولو أنَّ مثل هذا الإنسان أغمض عينيه عن الدنيا، وفكَّر وقدَّر ما هو فيه، وما سيصير إليه، ألا يجد أن جهده ضاع عبثاً، ولهاثه توزَّع بدداً، لأنه لا مندوحة له من مفارقة هذه الدنيا، وتركها من ورائه للآخرين، وأنه لو حاول التأسّي على فِراقه لهذه الدنيا، لكان في تأسِّيه قلق إضافي له، وغمٌّ يزيد من أعبائه وهمومه الكثيرة؟.

هكذا هي نفوس الكافرين: شقية، متعبة، يأكلها الضنى، ويقتلها التمسك بأهداب الحياة الزائلة. . . وهي نفوس قلقة حائرة لأنها ابتعدت عن سنن الله تعالى في الخلق، وجافت منهج الله تعالى في الحياة، فلم تحفل بالفضائل والمثل، وفي مقدمها التمسك بالدين والقيم الروحية التي تبقى خير معين للإنسان على عبور هذه الدنيا إلى دار الأمان والاطمئنان، إلى دار الخلود والنعيم، وهي التي يجب أن تبقى غاية الإنسان بعد رضوان الله تعالى. . وقد يتوهم الكافرون أن سعادتهم هي هنا، في هذه الدنيا، وأن شقاءهم سوف يدفن معهم في قبورهم. وهذا منتهى عمى البصيرة، وضلال النفس عن الحق، كما هو منتهى الجهالة التي توقع في الخسران المبين. . لأنَّ الحقيقة التي يجب أن يؤمن بها كل إنسان، وأن يوقن بها يقيناً قاطعاً هي أن حياتَهُ لا تنتهي بموته في هذه الدنيا، بل هنالك بعثٌ يوم القيامة، وهنالك حسابٌ لا مفر منه على ما قدَّم في دنياه، ووفق ميزان هذا الحساب، الذي هو ميزان الحق والعدل، يتوقف مصير الحياة الأبدية للإنسان: فإما نعيم دائم، وإما عذابٌ دائم. . مسكين هذا الإنسان الذي كفرَ أو أشرك بربه، مسكين هو لأنَّ أبوابَ الهداية قد شرَّعها له الإسلامُ من أجل توبته وخلاصه، ولكنه أصرَّ وعاند واستكبر، ولسوف يلقى جزاءه الذي يستحقه على كفره ومعاندته واستكباره عن دين الله تعالى. . .

إنها دعوة مخلصة للإنسان، أينما وجد على هذه الأرض، وإلى أي جماعة أو دولة ينتمي، وبأي عقيدة يعتقد... إنها دعوة صادقة له كي يعود إلى الحقيقة التي تناسب فطرته، وتتوافق مع وجوده الإنساني، وهي الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والبعث والحساب، والجنة والنار...

وليست هذه الدعوة إلّا من قبيل الحرص على الإنسان، والأخذ بيده إلى الطريق الصحيح. لأن الله تعالى يريد بهذا الإنسان الخير، والرأفة، والرحمة، والعفو والمغفرة. وقد توسعت، وأبانت، وفصّلت، وعقّبت، وأوجزت آيات قرآنه الكريم سبل الهدى والضلال، ومصائر المؤمنين والكافرين... ولعلَّ في توضيح معاني بعض الآيات، ما يوضح صفات الكافرين، ويرسم صورة صادقة لأعمالهم، فنعرف كم هي مكروهة تلك الصفات، وكم هي مذمومة هذه الأعمال.

فمن صفات الكافرين: تقليد الآباء والأجداد دون تفكّرٍ أو تدبّر، ومن شيمهم الغرور والاستكبار، واتباع الأهواء والفجور والفسوق، وإنكار البعث والحساب، والإعراض عن آيات الله تعالى البيّنات.

تقليد الآباء والأجداد

من المعروف أنه ما من نبي أو رسول بعثه الله تعالى إلى بني قومه، يهديهم للدين، إلّا وكانوا يواجهونه في أول الأمر بالتمسك بعقيدتهم التي ألْفَوْا عليها آباءهم.

فهذا إبراهيم عليه السلام يجابه أباه آزر وقومه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]. و﴿ إِذْ

(١) الأنعام: ٧٤.

﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾(١).

وكذلك نوح عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾(٢). ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾(٣).

وكذلك هود عليه السلام: يقول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾(٤). ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٥).

وكذلك صالح عليه السلام: يقول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾(٦). ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾(٧).

فهي إذن حقيقة يثبتها القرآن الكريم.. إن الأقوام الكافرة ألفت آباءها تعبد آلهة مزيفة ما أنزل الله بها من سلطان، فعبدت تلك الآلهة بفعل التقليد الأعمى، ولم تأبه لدعوة الحق التي يدعوها إليها رسلُ الله

---

(١) الأنبياء: ٥٢.
(٢) هود: ٢٦.
(٣) نوح: ٢٣.
(٤) هود: ٥٠.
(٥) هود: ٥٣.
(٦) هود: ٦١.
(٧) هود: ٦٢.

تعالى، لأنها لا تريد التخلي عن عقيدة الآباء والأجداد، حتى ولو كانت هذه العقيدة تقوم على عبادة تماثيل من حجارة أو أخشاب يصنعونها بأيديهم، أو على عبادة كواكب تطلع عليهم في الفضاء، وما إلى ذلك من تلك العبادات الضالَّة. .

إنها إحدى صفات الكفار التي تدل على قصر النظر، وعلى عمى البصيرة. . لقد أعماهم التقليد فلم يروا في آلهتهم جمادات حقيرةً لا تنفع ولا تضر بشيء. ولم يجدوا في تقليدهم التعصبي للآباء هدراً لكرامتهم الإنسانية. إذ عيب على الإنسان وقد وهبه الله تعالى العقل والتفكير، ومنحه القدرة على التمييز والاختيار أن يعكف على عبادة شيء حقير، تافه، يصنعه هو بيديه أحياناً.

الغرور والاستكبار

إنَّ من يعود إلى قصص الأنبياء في القرآن الكريم، يجد أن الغرور والاستكبار كان يغلب على نفوس الكافرين. فتارة يبرّرون عدم الاستجابة لدعوة النبي بحجة انضمام المساكين إليه والتصديق برسالته، وتارة يكذبونه أو يستكبرون عليه لأنه بشر مثلهم، أو لأنه لم يكن من الشرفاء وذوي الجاه فيهم. وحتى لو كان من هؤلاء - في زعمهم - فهم لا يرتضون أن يكون متقدماً عليهم في النبوة. وكلها عوامل غرور واستكبار لأن نفوسهم تائهة عن الحق ولا تريد الاستجابة للإيمان.

اتباع الأهواء والفجور والفسوق

وهي صفات تلازم الكافر في كل زمان ومكان، لأَنَّهُ إنسان استهوته الدنيا بمتاعها فانقلب يغرف من ملذاتها، ويوغل في شهواتها

ممّا يبعد عنه التأمل والتفكير بالحقائق، ويصرفه عن السلوك القويم. مثل هذا الإنسان الذي يتخذ «إلهه هواه» لا بد أن يقع في الفجور والفسوق، فلا مثل عليا تهمُّه، ولا قيم أخلاقية تربطه. يتحلل من كل فضيلة، وينزوي في ظلام كل رذيلة، ما دام الفجور ديدنَهُ، والفسوق دأبه.. لا يميز بين حلال أو حرام، بل تستوي عنده الأمور وفقاً للمقاييس التي يضعها هو، أو للعادات التي يألفها وتطغى عليه.. يكفي الكافر أنه اتخذ هواه إلهاً له حتى ينعدم عنده كل حق أو خير، وحتى يغلب عليه كل باطل أو شر..

إنكار البعث والحساب

بالرغم من أن الله سبحانه وتعالى وهبَ الإنسان ميزة الإدراك والمعرفة، وبالرغم من أن الموت حقيقة راهنة في الوجود البشري، فإنَّ الكافر يعطل مداركه ومعارفه فلا يفكر في مصيره بعد الموت الذي يأخذه من هذه الدنيا. ولو تفكّر الكافر بهذه الحقيقة وحدَها، لوجَدَ أن وجوده البشري نفسه يفرض انتظار حياة أخرى حتى يكون لهذا الوجود معنىً، وإلَّا فما معنى أن يفلت كثيرون من عدالة الأرض وهم يستحقون القصاص، وما معنى أن تذهب الأعمال الصالحة سدى بلا جزاء في هذه الأرض؟

والقرآن الكريم عندما يؤكد مراراً وتكراراً حقيقة البعث والحساب، فإنما يدعو إلى هذه العدالة المطلقة التي ينالُ فيها كل إنسان ما يستحق من خيرٍ أو خسران. ولكن الكافرين، وقد أعرضوا عن حقيقة وجود الله تعالى، وعن حقيقة القرآن، لا يقيمون وزناً ولا اعتباراً لعدالة السماء، فيجحدون بأنعم الله تعالى، وينكرون البعث والحساب.

والقرآن يعطي هؤلاء الكافرين صورة واضحة، يستقيها من واقع حياتهم هنا، ليبيّن لهم أن إنكارهم للبعث والحساب هو ضد مصلحتهم، وضد المنطق الذي به يدعون، والعقل الذي به يتميزون. وهذه الصورة يرسمها القرآن الكريم عندما يسأل الكفار عن أسباب دخولهم النار، ويجيبون هم عن هذا السؤال بقولهم: ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (البعث والحساب) ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ (الموت) ﴾[1].

الإعراض عن آيات الله تعالى

يقول الله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾[2].

ومن هم المعرضون عن ربهم، والمعرضون عن الاتعاظ بآيات قرآنه المبين، غير الكافرين وأمثالهم.. قد يعترفون ـ ولو عرضاً ـ بحقيقة وجود الله تعالى، ولكنهم يخالفون، في واقع حياتهم كله، أوامره ونواهيه..

ويأتي النص القرآني ليدلَّ ببلاغة ما بعدها بلاغة، وبتصوير دقيق ورائع، على حالة الإعراض عن آيات الله تعالى وعن ذكر الله عز وجل، وذلك عندما يشبه هؤلاء المعرضين كأنهم في إعراضهم مثل حمر وحشية تفرُّ لرؤية الأسد. فهم يعرضون عن ذكر الله تعالى ويفرون

---

(١) المدثر: ٤٣ ـ ٤٧.
(٢) المدثر: ٤٩ ـ ٥٦.

من هذا الذكر العظيم كفرار تلك الحمر لرؤية الأسد وخوفها من افتراسه لها. وهذا التشبيه أو التصوير من بديع القياس التمثيلي لأنَّ الإعراض عن آيات الله تعالى هو دليل الجهل والضلال، فكأنهم لا يعقلون مثل هذه الحيوانات البريّة المستوحشة.

ولكن لماذا هذا الإعراض عن الإيمان وعن ذكر الله تعالى وآياته؟ بل ماذا يريد أهل الكفر والإلحاد؟ وكأنّا بكل امرىء منهم يريد أن ينزَّل عليه كتاب من السماء يدعوه إلى الإيمان، أو يقول له هذا هو القرآن كتاب الله المبين فاتبعه. بل كل امرىء منهم يريد أن تنزَّل عليه صحيفة فيها براءة وعفو له عن كفره وإلحاده، وعن العقاب المعدّ له، حتى يؤمن. أم يطمع كل واحد منهم أن يكون ممن يوحى إليهم؟

كلا! لن يكون لأحدهم شيء من ذلك.. بل هم في إعراضهم عن آيات القرآن الكريم قد نسوا الآخرة، فلا يخافون عذابها. ولو تذكروا الآخرة لخافوها، ولما أعرضوا عنها، ولما كانوا جاحدين منكرين. كلا! أيها الكفار. إن الحق حق. وليس كما تتصورون أو تتوهمون. إن هذا القرآن تذكرة لكل عبد منيب، فيه آيات محكمات، وعظات بينات، فمن شاء فليتخذ هذا القرآن كتابَهُ، فيذكر الله تعالى سراً وجهراً، ويمتثل لأوامره ونواهيه في أعماله وتصرفاته. ولكن! وما يذكرون أو يتذاكرون إلا أن يشاء الله تعالى أن يغير ما بأنفسهم، وأن يهدي هذه النفوس، ويطمئن قلوبهم.. وفي مطلق الأحوال هو الله لا إله إلا هو سبحانه وتعالى، إله واحد في السماوات والأرض. وهو سبحانه غني عنهم، لأنه أهل بذاته لأن يُتقّى. وهو سبحانه أهل لأن يغفر لمن تذكر، فذكر اسم ربه فصلّى واتقى..

هذه الصفات التي تطبع الكافرين في نفوسهم، وفي بعض

أعمالهم، هي التي تجعلهم بعيدين عن الحقائق، وهي ذاتها التي تزين لهم أعمالهم في الدنيا، فيرضون ـ واهمين ـ عن تلك الأعمال، في حين أنها في الحقيقة سراب خادع تشدهم أكثر إلى الابتلاء حتى يكون العقاب أشد وأقوى!.

وما درى الكافرون أنهم وهم أحياء على هذه الأرض كأنهم موتى في إصرارهم على الكفر، واستكبارهم عن الإيمان. ويصور القرآن هذا الإنسان الكافر وهو بمثابة الميت بقول الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]. الحياة والموت هما أهم حدثين في حياة الإنسان، وذلك لما لهما من أثر بالغ عليه. ففي الحياة يتجسد وجود الإنسان، وتتحقق كل مظاهر آماله وطموحاته. وفي الموت يتم انتزاع هذا الوجود، والقضاء على كل الآمال والطموحات. ومن هنا كان تشبيه القرآن الكريم للإيمان بأنّه نور وحياة، وهو حياة فعلاً. وتشبيهه للكفر بأنه ظلام وموت، وهو موت فعلاً..

صورتان متقابلتان ترسمهما الآية الكريمة:

الصورة الأولى إنسان ميت فأحياه الله تعالى من جديد. والمقصود بهذه الصورة هذا الإنسان الذي كان الكفر يسيطر على نفسه، حتى جعله بمثابة الميت، ولكن الله سبحانه وتعالى يهديه، فيخلصه من الكفر القاتل ويملأ قلبه بالإيمان. وينطلق هذا الإنسان بعد إيمانه في سبيل الله تعالى، فيجعل له سبحانه نوراً يهديه، ويمشي على أضوائه في تعامله مع الناس. وهذا النور هو القرآن الكريم.

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

وأنـواره وإشعـاعـاتـه هي الحكمـة والعلم والعـظة والبيـان والخُلُق والفضيلة.. وكل ما فيه خير الإنسان وصلاحه (وقد جاءت تسمية القرآن بالنور في آيات كثيرة مبينة).

الصورة الثانية: إنسان حي ولكنه يعيش في الظلمات وليس بخارج منها أبداً. ولكن ما هي هذه الظلمات؟ إنها ظلمات النفس التي تختزن في طياتها كل حالك أسود من همّ وقلق واضطراب وتعاسة وشقاء.. وهي ظلمات العقل الجاهل، المنحرف، الضال، الجاحد، المنكر، المستكبر... كمـا أنها ظلمـات السلوك الضّار، القـاتل، المهلك...

ظلمـات فوق ظلمـات يعيش في دياجيـرها مثـل هذا الإنسـان. ولِمَ؟ لأنه كافر ضال. فهو قابع في ظلمات الكفر التي لا تجعله يبصر نوراً، ولا يرتقب هدىً.. وهو مع ذلك يستمرىء أوضاعه ويستحب عماه، لأن ما تجنح إليه نفسه هو ما يريده ويرتضيه فلا يعود يميّز بين ظلام ونور، ولا بين علم وجهل، ولا بين إيمان وكفر.. أليس هذا الإنسان كافراً ونفسه تزيّن له كل ما يعمل؟ فكيف يهتدي إلى حقيقة الإيمان وقد غابت عنه كل حقيقة، لأنّ الحقائق لا تعيش إلا في النور، وهو يعيش في ظلمات الكفر!..

ومن الأمثال التي تبرز أعمال الكافرين تشبيه هذه الأعمال بالرماد الذي تذروه الرياح العاصفة. يقول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾(1).

أعمال الإنسان عادة مرآة لما في نفسه. فالنفوس المؤمنة الصافية

---

(1) إبراهيم: ١٨.

تشيع الأعمال الخيرة، بينما النفوس الكافرة المضطربة تعكس الأعمال الشريرة. وكما تكون الأعمال مرآة للنفس، فهي أيضاً الطريق الذي يقود الإنسان إلى غاية يريدها أو إلى مصير محتوم يقع فيه.. والقرآن الكريم يشبه أعمال الكافرين ومآلها ونتائجها كرماد، والرماد يكون هشاً خفيفاً قابلاً للانتشار بسرعة، فكيف إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف. ورياح الأيام العاصفة قد تقتلع كل ما يعترض اندفاعها من شجر، وبناء، وجسور، فكيف بالرماد حيث تذروه وتبعثره ذراتٍ خفيفة لا تعود ذرة منه متماسكة مع أخرى، فينعدم وجوده بتاتاً!.. هكذا أعمال الكافرين هي مثل هذا الرماد الذي جاءته ريح عاتية قوية وشديدة، لا بد وأن تذهب أدراج الرياح يوم الحساب وكأنها لم توجد في الأصل، مما يعني أن تلك الأعمال، ومهما بلغت من قوة وحققت من مكاسب في هذه الدنيا فإنها تكون بلا أدنى فائدة لصاحبها في الآخرة: بل الصحيح أنه كلما زادت تلك الأعمال وآتت ثمارها المحببة في حسبان أصحابها، المكروهة والباطلة في ميزان العدل الإلهي.. ترتبت عليها نتائج وخيمة، لأن حسابَ الإنسان في الآخرة يكون على النوايا، وفي معظمه يكون على الأعمال التي هي في جزء منها مظاهر للنوايا. فالمثال واضح، والطريق واضح.. فما كان من أعمال الإنسان خالصاً لوجه الله تعالى، وموافقاً لشرعه، نافعاً للحياة، كان مقبولاً ونالَ الإنسانُ عليه الثواب. وما كان لغير الله ـ عز وجل ـ ومخالفاً لشرعه، ومضراً بالحياة، كان غير مقبول، وهو لن يتبدَّد ويتحسَّر عليه صاحبه وحسب، بل ويؤدي به إلى نار جهنم المستعرة وما فيها من ألوان العذاب الشديد..

ويعقب القرآن على أعمال الكافرين ممثلة بالرماد المبعثر المبدَّد، بما يتوافق مع النتائج التي تترتب على تلك الأعمال ﴿ذلك هو الضلال

البعيد﴾. الضلال عن إدراك الحقيقة، والضلال عن الإيمان، والضلال عن الفائدة الشخصية، والضلال الذي يقود إلى الوقوع في مهاوٍ سحيقة مُحرِقة..

فالقرآن الكريم واضح وضوح الشمس في تبيان ما يترتب على أعمال الناس من نتائج حتمية. وما على الإنسان إلا أن يتأمل في آيات هذا الكتاب المبين، وأن يدرك حقيقة معانيها، ثم يقرر ما عليه القيام به.. وطريق الرجوع إلى الله تعالى مفتوح دائماً لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد.



المنافقون

المنافقون وصفاتهم

من أسوأ العادات وأنكرها على الطباع الصادقة عادة النفاق. وهي عادة ذميمة تولد مفاسد كثيرة مثل الكذب، والحيلة، والمراوغة، والمداهنة، والمراءاة، وما إليها من صفات سيئة، وأعمال شنيعة.

وطبيعة الإنسان باتفاقها مع الفطرة السليمة ليس فيها نفاق في الأصل. ولذلك فإن النفاق لا يولد مع الإنسان، بل هو يكتسب في الحياة اكتساباً، تدفعه إليه عوامل نفسية إطارها الضعف والهوان، وتشده إليه منافع مادية دائرتها الخبث والدهاء. والإنسان في وجوده عليه التزامات متنوعة تجاه ربه، ونفسه، وعائلته، ومجتمعه، والإنسانية بأسرها. فعندما يتفلّت من أحد هذه الالتزامات، بل وحتى عندما يمتنع أو يتقاعس عن القيام بما هو مطلوب منه بصدق وإخلاص ـ وهذا ما يفعله كثيرون في أيامنا هذه ـ حينها يكون النفاق قد دخل قلب هذا الإنسان، وعشش السوء في نفسه. ومع الزمن يمرد على النفاق فيصبح طبعاً متأصلاً فيه، يتحكّم بتصرفاته، ويسيّره وفق الرغائب والشهوات والأهواء.

إنّ المنافق يبدأ بمخالفة التزاماته، الخاصة منها والعامة، كي يتملّص من اللوم، أو يتخلّص من الشعور بالذنب، أو العقوبة التي قد تطاله، وينتحل الأعذار الكاذبة لذلك، ثم يتمادى في الكذب، فلا يعود يَصدُق بعدها في قول أو فعل، حتى يغدو خائناً لنفسه وواجبه. ومع الأيام يستمرىء ما قام به، فتحلو له أكاذيبه، ويستسيغ طعم خيانته، فيمرد على النفاق، ويمارس كلّ أسلوب من أساليب المراوغة والمخادعة، ويسلك كلّ سبيل من سبل الالتواء والتلاعب. هكذا ينشأ النفاق، وهكذا يكتسبه الإنسان السيء..

وهذا النفاق يطال بآثاره كل من يعرف هذا المرء أو يتعامل معه. لأن المنافق كثيراً ما ينطلي خداعه على الآخرين، فيما يظهر لهم من أفانين برّاقة، وبما يمالئهم به من ألاعيب خفية. والعجيب في الأمر أن الناس قد يعتبرونه حاذقاً ذكياً أو شهماً كريماً، بينما هو في حقيقة نفسه أشدهم حقارة، وأذلهم صغاراً.. تلك هي أولى صفات المنافق: الكذب..

والمنافق مخلف لوعده وعهده. هذه قاعدة عامة وثابتة يتبيّن منها المنافق عن غيره..

ذلك أن المنافق يُظهر عادة غير ما يبطن للوصول إلى أغراضه وتحقيق مآربه. فهو لا يتورع عن استخدام أي وسيلة، في سبيل مآربه الدنيئة، لأن الغاية عنده تبرر الوسيلة، فيمكن أن يتآمر، ويدبر المكائد، وقد يضحي بأمور مادية كثيرة، وغير مادية، وقد يتوسل أو يتذلل، وقد يستخدم الجريمة وقتل الأبرياء... ولكن ما إن يصيب ما يريد، حتى يرتدّ إلى طمعه ومكاسبه الخاصة، وهنا يفتش من جديد عن اختلاق الأعذار لكي يتهرب من وعدٍ قطعه، أو ينكث بعهد التزم

به، ولا يتورع عن الحنث بأيمانه وقسمه.

ويضربُ الله تعالى مثلاً على هؤلاء المنافقين، الذين ينقضون العهود، ويحنثون بالوعود، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[1]. وإذا كان هذا حال المنافقين مع الله ـ عز وجل ـ مالك الملك، القدير على كل شيء، الذي يعلم ما تسرُّ القلوب، وما تخبىء الصدور.. وإذا كانوا يخلفون عهد الله ويتولون ويعرضون عن الوفاء تجاهه سبحانه وتعالى، فكيف يفعلون مع الناس، مع عباد الله الذين لا يملكون حولاً ولا طولاً؟.. فسبحان الله الذي أعقب المنافقين نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا ما وعدوه، وبما كانوا يكذبون.

ومن صفات المنافقين: اتباع الشياطين: شياطين الجن والإنس، والسفاهة، والاستهزاء، والضعف، والوهن عن اتخاذ المواقف الحاسمة، والإفساد في الأرض..

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[2]. لقد هاجر محمد ﷺ إلى المدينة بأمر من ربه. وهناك أعزَّ الله تعالى الإسلام، فلم يبقَ في المدينة بيت إلَّا دخله الدين الجديد. ولم يدخل

---

(١) التوبة: ٧٥ ـ ٧٨.

(٢) محمد: ٢٥ ـ ٢٦.

الجميع في الدين قناعةً واختياراً، بل كثير منهم خاف على نفسه وعلى مكانته في قومه، فاضطر للتظاهر بالإسلام، بينما كان في الحقيقة كارهاً لهذا الدين، كارهاً لرسول الله ﷺ الذي يدعو إليه. وعلى رأس هؤلاء في المدينة كان عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول رأس النفاق والشرك.

وذِكْرُ المنافقين، ووصف دسائسهم، والتنديد بمؤامرتهم وسلوكهم يتكرر كثيراً في السور التي أنزلها الله تعالى في المدينة المنورة. وفي هاتين الآيتين من سورة محمد ﷺ في القرآن المجيد، نرى صورة أولئك المنافقين وهم يرتدون عن الإسلام، بعدما تبين لهم أنه الهدى من الله تعالى لمن يؤمن به إيماناً صادقاً. وحركة الارتداد تلك ترتدي طابعها الحسي في التعبير بالارتداد على الأدبار، أي بحركة الرجوع إلى الوراء بعد التقدم إلى الأمام. وهو تصوير لا يقدر غير القرآن المبين على إبرازه بالحركة والفعل وما انطوى وراءهما من غايات. فالارتداد عن الإسلام هو رجوع إلى الوراء. وفي هذا ما يكفي لبيان هذا الرجوع وآثاره.. ثم إن وراء هذا الارتداد يكون الشيطان دائماً. هو الذي وسوس في صدورهم، وسوَّل لهم، وأملى عليهم بأن يرجعوا عن الهدى.. أما ما سوَّل لهم به، وما أملاه عليهم فهو دفعهم إلى النفاق، بما يتوافق مع أهوائهم، ومع مكامن نفوسهم. عندما زيَّنَ لهم الاغترار بمكانتهم، وشحن نفوسهم بالكراهية للإسلام، وبالبغضاء لرسول الإسلام... فاغتروا به وأطاعوه حتى قوي سلطانه عليهم، وكان له ذاك السلطان في انحرافهم عن الحق، وارتدادهم عن الهدى..

ويوضح النص القرآني هنا حالة واحدة من تلك الحالات التي كان الشيطان أملى عليهم فيها ما يقولون وهي: قولهم للذين كرهوا ما

نزَّل الله: سنطيعكم في بعض الأمر.

والذين كرهوا ما نزَّل الله تعالى هم اليهود. لأنهم كانوا يتوقعون أن تنزل الرسالة فيهم، وأن يكون النبيُّ الموعود، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل من بني يهود. ورأوا أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم النبيين، ومن أبناء مكة المكرمة، البيت المقدس عند العرب حتى في جاهليتهم.. فلم يصدقوا، ولم يقبلوا. لذلك ظهرت عداوتهم السافرة للإسلام ورسوله. ولكن ضعفهم عن مقاومة المسلمين جعلهم يخبثون، وينصرفون إلى الدسائس والمؤامرات، والكيد للإسلام وأتباعه. وكان موقفهم يتطابق مع موقف المنافقين، فكانوا يتشاورون مع بعضهم بعضاً في السر. وكان المنافقون يطيعون اليهود في بعض الأمور التي يملونها عليهم من التآمر والكيد، لتلاقيهم على الهدف الواحد وهو مقاومة الإسلام ومنع انتشاره.. ولكن غاب عن اليهود الذين كرهوا ما نزَّل الله تعالى، وغابَ عن المنافقين وهم يطيعون الشيطان، ويطيعون بني يهود، أن الله تعالى يعلم إسرارهم، وما يحيكون في السر والخفاء، وأنه علَّام الغيوب لا تخفى عليه خافية في الأرض والسماء!.. هذه حالة تظهر حقيقة نفوس المنافقين: يتظاهرون بالإسلام، ويعيشون بين المسلمين، بينما هم ألدُّ أعدائهم، لأنهم أعوان الشيطان وأتباع الأهواء. فقبحاً لتلك النفوس الخبيثة التي تؤثر طاعة الشيطان على طاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله الكريم!.

السفاهة والاستهزاء..

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾[1].

ويظهر القرآن الكريم، مرة أخرى، المنافقين على حقيقتهم.. إنهم سفهاء. وإنهم مستهزئون. وهاتان الصفتان تبرزان مدى الصفاقة التي يتغنّى بها المنافقون. إنهم يقولون عن أنفسهم إنهم مستهزئون. ومن يدرك معنى الاستهزاء يعرف مدى ما يحمل من حقارة ودناءة..

ولنلاحظ هذا التلوّن في السلوك الذي كان يعيشه المنافقون:

إن المؤمنين يدعونهم إلى إيمان صادق، متجرد عن الهوى. يدعونهم لأن يسلموا وجوههم لله تعالى، ويسلّموا مقاليد أمورهم لخالقهم. ويدعونهم لأن ينضووا تحت راية الإسلام فيطيعوا الرسولَ الكريم الذي يحمل الإسلام نور هداية لهم وللناس كافة.. تلك كانت دعوة الإيمان لإبعاد الناس عن الخصائص الحيوانية والارتقاء بهم إلى الكمال الإنساني. ولكن ماذا كانت ردة الفعل عند المنافقين: كانت اغتراراً واستعلاءً واستكباراً بغير حق.

قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟

ومن يقصدون بالسفهاء: الأوس والخزرج، وهم الذين رفعهم الله تعالى من عليائه عندما سماهم: الأنصار؟.. أمِ الفقراء والمستضعفين الذين دخلوا في الإسلام مختارين، مسلمين وجوههم وقلوبهم لرب العالمين؟.. أم أسياداً ونبلاء من قريش هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هرباً بدينهم وتخلُّصاً من فتنة المشركين لهم؟..

---

(1) البقرة: ١٣.

لا!.. وجاءهم الرد الحاسم، والتقرير الجازم من السميع العليم:

﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾.

أجل! إنهم هم السفهاء بنفاقهم وخداعهم وكذبهم. وأولئك جميعاً هم المؤمنون بإسلامهم وصدقهم وإخلاصهم. وليست السفاهة وحدَها من صفات السفهاء، بل الجهل أيضاً، حتى أنهم لا يعلمون أنهم هم السفهاء. ومتى كان السفيه يعلم أنه سفيه، ومتى كان المنحرف يدرك أنه يميل عن الطريق المستقيم؟

وعلى نسق السفاهة كانت حياتهم تقوم على الذبذبة في المواقف، والخداع في التنقل ما بين المؤمنين والكافرين.. فإذا لقوا المؤمنين، قالوا: آمنا.. وإذا انتقلوا إلى الناحية الأخرى، إلى الخلوات التي كان يعقدها أعداء الإسلام، وهي تجمع المنافقين والعرافين والكهان واليهود.. الذين يصفهم الله تعالى بالشياطين (لشدة كفرهم وشركهم ونفاقهم).. إذا خلوا إلى أولئك الشياطين، قالوا: إنا على دينكم، إنما نحن نستهزىء بأصحاب محمد، ونسخر منهم عندما نقول لهم: آمنا...

ولكن القرآن الكريم ما يكاد يحكي فعالهم وأقاويلهم تلك حتى يصبَّ عليهم من التهديد ما يهدّ الرواسي:

﴿الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾..

وما نفع حيلهم ومكائدهم ونفاقهم وخداعهم، بعد، وجبار السماوات والأرض يستهزىء بهم.. ولا يقف الأمر عند حد الاستهزاء وحسب، بل يبرز لهم مصائرهم، عندما يمدّهم في طغيانهم، ويُعمي

بصائرهم، فيبقى الضلال يحيق بنفوسهم ويبعدهم عن طريق الهدى. ويظلون منحرفين عن طاعة الله تعالى ورسوله الكريم، حتى يأتي المصير المشؤوم، فتمتد إليهم أيدي زبانية النار لتلقيَ بهم في جهنّم وبئس المصير.

الضعف عن اتخاذ المواقف الحاسمة...

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[1].

في رأس الصفات المنطبعة على قلوب المنافقين يأتي الخداع.. ومن كان في طبعه خداع فلا يمكن أن يتبع مسلكاً سوياً، ولا منهجاً معروفاً.. ومن جهالة المنافقين العمياء أنهم يخادعون الله تعالى. فما أجهلهم وما أحقرهم في هذا الاعتقاد!. فكيف يظنون أنهم يخادعون الله عز وجل وبيده سبحانه أسرار القلوب وخفايا النفوس؟ إنَّ من يحاول أن يخادع الله ربَّهُ، وخالقه، ذا الفضل عليه والرحمة، لا بد وأن تكون نفسه قد تاهت في غيابة السوء والجهل والغفلة.. ولكن خسىء المنافقون وهم يتوهمون أنهم يخادعون البارىء عز وجلَّ! ما حسبوا أنه سبحانه يستدرجهم، ويتركهم في غيهم يعمهون، فلا يوقظهم من غفلتهم، ولا يوقع بهم بلاءً ينبِّههم، حتى تحل بهم القارعة، ويسقطوا في الهاوية.. والحقيقة هي أن الله تعالى هو خادعهم.

والله تعالى يأمر بالصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر..

---

(١) النساء: ١٤٢ ـ ١٤٣.

والمنافقون، لا يقومون إلى الصلاة، وإذا قاموا كانوا كسالى، كمن يحمل على ظهره عبئاً ثقيلاً. وحتى في قيامهم هذا يراؤون الناس ويمالقونهم ويخادعونهم. ولا يذكرون الله تعالى في قيامهم إلا قليلاً. وهذا كله يجعل قيامهم للصلاة زيفاً وخداعاً، ومراءاة للناس.. وفي ظنهم أنهم يخادعون الله تعالى.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن أولئك المنافقين لا يتخذون موقفاً ثابتاً في أي شأن من شؤون حياتهم. إنهم يتقلّبون بين صفوف المؤمنين تارة، وصفوف الكافرين تارة أخرى، مذبذبين بين هذا الفريق وذاك، لا إلى هؤلاء ينتمون ولا مع أولئك يثبتون. وهذا كله دليل ضعف وهوان، لأنه يجعل أصحابه غير قادرين على اتخاذ أي موقف في نهج يسلكونه، أو عقيدةٍ يختارونها..

ومن نعمة الله تعالى على المسلمين في أيامهم الأولى في المدينة المنورة، أنهم كانوا يرون تلك المواقف من المنافقين، وكان القرآن الكريم يحذرهم من سيئات صفاتهم، ومن شرار فعالهم، فكانوا يتقززون منهم قرفاً، ويبعدونهم أو يبتعدون عنهم. بينما نحن اليوم نمالىء المنافقين ونداهنهم، وقد نسير في ركابهم، معلنين الولاء لهم.. فأي مفارقة هذه التي يعيشها المسلمون اليوم خلافاً لدينهم؟!...

الإفساد في الأرض...

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ

اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1].

هنا يكشف الله تعالى حقيقة المنافق الذي لا يترك وسيلة في القول إلاَّ ويتبعها، ليظهر غير ما يبطن، ويعلن غير ما يُسرّ. كثيراً ما تشاهد من الناس من يكون حذقاً في كلامه فيعجبك قوله، وذلاقة لسانه، ويعجبك حديثه عن الخير والبر والصلاح والإخلاص... وقد يشدِّد هذا الإنسان في قسمه، ويشهد الله تعالى على أنه صادق القول والنية لأنه يخاف الله تعالى، فحذارِ أن يخدعك مثل هذا الإنسان الذي قد يكون، في حقيقته كذاباً، مراوغاً، لا يعرف شيئاً من بر أو صلاح أو خير، بل غالباً ما يكون أشد الخصام للحق والخير والإيمان..

ومثل هذا الإنسان ما إن يدير لك ظهره وينصرف إلى العمل حتى يعود إلى حقيقته فيسعى إلى الفساد، وارتكاب المعاصي. لا يضرب في مكان في الأرض إلاَّ ليفسد فيه، بإتلاف ما يقدر على إتلافه من الزرع والنبات والثمار، ولا يقف أذاه عند هذا الحد بل يطاول النسل الذي يمثل امتداداً للحياة البشرية. وإهلاك النسل هنا كناية عما يعتمل في نفس هذا المخلوق من الحقد والشر والغدر والفساد، أي كل ما فيه ضرر وأذى لبني الإنسان.

وإذا كُشِف أمر هذا المخلوق، في سعيه بالفساد وإهلاك الحرث والنسل، وقيل له: اتقِ الله، إنه تعالى خبير بنواياك عليم بأفعالك، يرى كل شاردة وواردة تقوم بها.. إذا قيل له ذلك أخذته العزّة بالإثم، فثار غاضباً، مستكبراً، مستقوياً بالإجرام والذنوب والمعاصي..

أرأيت التناقضات الكثيرة التي تطبع هذه الصورة للمنافقين..

---

(١) البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٧.

وأنت، يا مَنْ يخاطبك القرآن، أيها الإنسان، إذا فكرت وتأملت في تصرفات الناس من حولك ألا تجد كل يوم كثيرين من هؤلاء المنافقين الذين يخادعون الناس بالمظاهر، ويضارونهم بالفعال؟!..

وقد يعتز المنافق بإثمه، إلا أن في مواجهة ذاك الاعتزاز تهديدَ العزيز الجبّار: ﴿فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾.. يكفي هذا المنافق من مصير أن تكون جهنم قراره في الآخرة، جهنم التي وقودها الناس والحجارة، ولبئس المهاد. وهل أشد بؤساً وعذاباً من استقرار أبدي في نار جهنم.. لقد دعي المنافق لأن يتقي الله تعالى ويترك النفاق في حياته، ولكنه استكبر وأخذته العزّة بالإثم فاستحق مصيرَهُ المشؤوم. قال الصحابي عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): «إن من الذنوب التي لا تغفر أن يقال للرجل: اتقِ الله. فيقول: عليك بنفسك».

وفي الحديث عن النفاق لا يجوز أن نغفل دور اليهود القديم والحديث في محاربة الإسلام والكيد للمسلمين. وقد برزت حملات اليهود على الإسلام، بشكل خاص، بعد معركة بدر. وذلك بما اتبعوا من نفاق وكذب، لتضليل المسلمين، وحملهم على التنكر لدينهم، من أجل إعادتهم، بالتالي، إلى الشرك والكفر... ولكنَّ الله سبحانه وتعالى حذّر المسلمين من أضاليل اليهود وخداعهم، فأنزل قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

وأهل الكتاب الذين يشير إليهم النصُّ هم اليهود. لقد ثبت لهم أن الإسلام هو خاتمة الرسالات السماوية، وتبين لهم أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم النبيين. وهذا هو الحق من ربهم. ولكنهم لم يرتضوا ذلك

(١) البقرة: ١٠٩.

لسبب كامن في نفوسهم وهو: الحسد، ولذلك كانوا يجهدون، بدوافع ميولهم، وحبهم لأنفسهم، لو يردون المسلمين بعد إيمانهم كفاراً. إلاّ إنهم فشلوا بفضل الله تعالى، وتحذيره ـ سبحانه ـ المسلمين من دسائسهم، وكيدهم وحسدهم..

ويبيّن الله تعالى وجهاً آخر من دسائس اليهود ومكائدهم على المسلمين، ويبيّن ما شحنت به نفوسهم من خبث ودهاء، ومن رياء ونفاق، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

إنها طريقة أخرى من طرق اليهود الرخيصة، ووسيلة أخرى من وسائلهم الخبيثة. لقد حاولوا وجربوا كثيراً لكنَّ جميع محاولاتهم وتجاربهم في النيل من المسلمين لم تفلح بشيء. ولذلك ابتدعوا هذا الأسلوب المخادع، علّه يوقع بذوي النفوس الضعيفة من الاضطراب والبلبلة ما يجعلهم يرجعون عن دينهم الذي ارتضاه لهم خالقهم. وأسلوبهم واضح في النص: أن يدخلوا في الإسلام، ويجتمعوا مع المسلمين وهم يظهرون الإيمان في النهار، فإذا انصرم النهار يظهرون كفرهم بما سمعوه وعملوه، لعلَّ في ذلك ما يحقق مآربهم في إرجاع بعض المسلمين عن دينهم.. ولكن والحمد لله لم ينجح ذاك الأسلوب الخادع، وظل المسلمون جميعاً على عهدهم باقين، يعمر الإيمانُ قلوبهم، ويقدمون الولاء والطاعة لله ورسوله، حتى كتب الله تعالى لهم النصر على أعدائه وأعدائهم.

وما تزال خدعة اليهود وأعداء الإسلام تمارس حتى اليوم في

---

(١) آل عمران: ٧٢.

شتى الصور والأساليب التي تتناسب وتطور الأحداث في كل جيل. وها هي الخديعة الكبرى تتمثل بما تجنِّد قوى الشر من العملاء للنفاذ إلى العقيدة الإسلامية وإضعاف المسلمين، وذلك من خلال الأبحاث العلوم والآداب والفنون والصحافة وغيرها.. التي يستخدمها العملاء وأسيادهم للنيل من شأن الشريعة الإسلامية وتأويلها وتحميلها ما لا تطيق، والقول المتواصل برجعيتها وعدم ملاءمتها لروح العصر.

إنها حرب الافتراء، معلنةً ومستترة، التي يشنها أعداء الإسلام بصورة متواصلة لإبعاد الناس عن الإسلام، وإبعاد الإسلام عن الحياة تحت شعار: الإشفاق عليه من الحياة، أو الإشفاق على الحياة منه...

إنها الحرب اللئيمة المبتدعة لتشويه حقائق الإسلام المطلقة، وقيمه الروحية والأخلاقية..

إن العملاء والمأجورين الذين يحملون فقط أسماء إسلامية وما هم من الإسلام في شيء، جاهزون للقيام بهذه الحرب، والدعوة إلى الضلال. وما سليمان رشدي إلا أحد أفراد هذا الجيش المتخفي، الذي أنعم عليه أسياده، كما يفعلون مع غيره، بوظيفة أو جنسية، أو لعاعة من لعاعات هذه الدنيا، فارتكب جريمته النكراء في طبع اسمه على كتابٍ هو عنوان للقباحة والسوء واللعنة على أصحابه.. أوليس هؤلاء العملاء والمأجورون مما ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾... إنهم يَظهرون أمام الناس بلباس الإسلام، وبكلامٍ عن الإسلام، ولكن ما إن تحل مواعيد الاجتماعات وتنعقد المجالس، ويخلون إلى شياطين الكفر والإلحاد، حتى يخلعوا رداء الزيف، ويقدموا ولاء الكفر للكفار.. إنه نفس الدور الذي قامت به طائفة من

أهل الكتاب من قبل. . . ولا يزال الأمر يتعاقب، ولا تزال الخديعة تحاك، ولا يتغير إلا الشكل والإطار، مع تغير الأشخاص والفجّار، بحكم الزمن. . وهكذا تظهر صفات المنافقين. . وما مثل الذين مردوا على النفاق إلا كمثل إبليس مرد على مخالفة أمر الله تعالى وطاعته حتى أعقبه الله تعالى حرمان التوبة، فسلبت منه القدرة على هذه التوبة، فهو على الضلال قائم، وعلى البغي باق، وعلى الفساد عامل إلى اليوم الذي يلقى فيه الله تعالى. .

والمنافقون قد يخادعون الله تعالى، وقد يخادعون الناس، ولكن يكون ذاك لزمن قصير محدود. لأنه مهما طال رياء المنافق وكذبه، وخداعه وفساده، فلا بد أن يكشف الله تعالى أمره في نهاية المطاف. قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾[1].

وقال الشاعر المؤمن:

ثوب الرياء يشفُّ عما تحته فإن التحفتَ به فإنك عارِ

فحذار أيها المسلم من المنافقين، وبخاصة من هؤلاء الذين يُظهِرون من عقيدتك غير ما يبطنون، فإنهم شر خلق الله على عباده المؤمنين. فلا يخدعنك منافق بقول أو دعوة أو عطاء، ولا تسمح له أن يسلكنَّ بك سبل إبليس حتى لا تكون مع المنافقين والكفار في نار جهنم التي وعدهم الله تعالى بها: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[2].

---

(١) محمد: ٣٠.
(٢) التوبة: ٦٨.

وصدق رسول الله ﷺ وهو يلخص صفات المنافقين بقوله: «صفات المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

ويقول ﷺ: «إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً. أما المؤمن فيمنعه الله تعالى بإيمانه، وأما المشركُ فيقمعه الله بشركه. ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان عالمِ اللسان، يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون».



التقليد والتبعية والعادة

التقليد والتبعية

القَلْد هو الفتل. وقلَّدتُ الحبل فهو قليد أي مفتول. والقِلادة: المفتولة التي تجعل في العنق من خيط أو فضة أو غير ذلك. وبها شُبّه كل ما يُتَطوَّق به، أو كل ما يحيط بشيء، فيقال: تقلَّد سيفه، على نسق: توشَّح سيفه تشبيهاً بالوشاح.

وأما قول الله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ ﴾[1] فيعني أنه سبحانه يمسك كل ما يحيط بالسماوات والأرض. وقيل في تفسيرات البعض: إن مقاليد السماوات والأرض هي خزائنها، وقيل: مفاتيحها.. ولكنها تشير كلها إلى معنى واحد وهو إحاطته ـ سبحانه ـ بأحوال السماوات والأرض وقدرته عليها، ضمن المشيئة المطلقة التي لا يحدها شيء..

والتقليد هو اتِّباعُ الغيرِ دونَ تأمُّل. يقالُ: قلَّدَهُ في كذا: تَبِعَهُ من

---

(١) الزمر: ٦٣.

غير تأمُّلٍ ولا نَظَرٍ. والتقليدُ شرعاً هو العملُ برأي الغير من غير حجّةٍ مُلْزِمَةٍ.

وأما عن التبعية، فيقال: تبعَه واتّبعَهُ: قفا أثره بالإرادة تارة، وتارة بالائتمار. يقول الله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

فمن تبع هداي، أي آمن بي وعمل بطاعتي، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الآخرة، فيدخلون الجنـة آمنين مطمئنين، راضين مـرضيين بهذا الفـوز العظيم.

وقول الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2]. قيل إنه نزل في حبيب النجار، وهو أحد سكان إنطاكية، على ما يُروى، وكان بيته في أقصى المدينة. وقد بعث الله تعالى إلى أهل تلك المدينة اثنين من الرسل فكذبوهما، فعززهما بثالث، يبلغون إليهم رسالة ربهم ويدعونهم إلى هداه واتباع طاعاته، ولكنهم كذبوا أولئك الرسل، فجاء حبيب، وكان مؤمناً بدين الوحدانية، ينصح قومه قائلاً: «يا قوم اتبعوا المرسلين».

ورغم أن رسالات السماء كانت تترى على الأرض بصورة دائمة، لتبين هدى الله تعالى وتدعو لاتباعه، إلاَّ أن الناس في معظم الأمم، كانوا لا يؤمنون برسالات ربهم، بل كانوا يعبدون آلهةً من تماثيل، أو من تصورات خرقاء لا طائل فيها، ويتبعون ما أَلْفَوْا عليـه آباءهم من تلك العبادات الخرقاء. والقرآن الكريم يبين أن تلك الالهة المزعومة، وأياً كان نوعها أو شكلها، المتبوعة من الكفار، سوف تتبرأ من تابعيها

---

(١) البقرة: ٣٨.

(٢) يس: ٢٠.

يوم القيامة. يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

في هذه الآيات الكريمة نجد التقليد، أو الاتِّباع بأجلى مظاهرهما..

فالإنسان يكتسب كثيراً من عاداته في المرحلة المبكرة من حياته عن طريق تقليد والديه وإخوته، وأساتذته وأصدقائه. فهو، مثلاً، يبدأ تعلمه للغة بمحاولة محاكاة والديه وإخوته في النطق ببعض المقاطع الصوتية التي يكررونها أمامه عدة مرات، كما يبدأ تعلمه المشي بمحاولة تقليد والديه وإخوته فيما يقومون به من حركات وأعمال. وهكذا يتعلم الإنسان كثيراً من سلوكه عن طريق تقليد أفراد أسرته.

ولما كان الإنسان يميل بطبيعته إلى التقليد، ويكتسب كثيراً من سلوكه عن طريق الاتباع والتقليد، كانت للقدوة الحسنة أهمية كبيرة في التربية والتعليم. وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قدوة حسنة للصحابة رضي الله عنهم، يقتدون به ويتعلمون منه، ليس شعائر العبادات فحسب، وإنما كانوا يتعلمون منه كذلك حسن السلوك، وآداب التعامل مع الناس. وقد أوصانا القرآن الكريم بالاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[2].

---

(١) البقرة: ١٦٥ - ١٦٧.
(٢) الأحزاب: ٢١.

وكما يكون التقليد نعمة في بعض الأحيان إلّا أنه في كثير منها يُعَدّ نقمة، خصوصاً عندما يكون فيه تعطيل لنعمة العقل، وأَسْرٌ لموهبة الإدراك. ولذلك فإن المقلّدين يعطلون أفهامهم ومداركهم فيقودهم ذلك إلى عدم التفكّر في خلق السماوات والأرض، وعدم البحث والاستقراء ليتوصلوا إلى الاعتقاد الجازم، والإيمان المكين. أي أن تعطيل خصائص الإنسان النفسية والذهنية يميت فيهم التكوين المتأثّر والمؤثّر في المجالات الحيوية للإنسان، وفي طليعتها مجال الإيمان والعقيدة الدينية.. وفي هذا الصدد تجدهم قد صمّوا آذانهم عن سماع دعوة الحق سماع تدبّر وتبصّر وتفهّم، وسُلبوا النعمة التي خصَّ الله تعالى بها الإنسان (التمييز والاختيار)، ولم يتجاوبوا مع دعوة الداعي بل قالوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[1]، فلن نحيد عن معتقداتهم، ولن نخرج على عاداتهم وتقاليدهم.. فالمقلدون الذين قالوا: ألفينا آباءنا على دين ونحن على آثارهم مقتدون، لم يدركوا حقيقة الإسلام، ولا شعَّ نوره في قلوبهم، لبعدهم عنه، أو لاكتفائهم بظاهر إيمانهم. فإن قنعوا بتقليدهم الأعمى وبتبعيتهم الجهلاء، فالله تعالى لا يقبل منهم هذه التبعية وذاك التقليد. ولذلك ضرب لهم في القرآن أمثالاً تبيّن صفاتهم وأحوالهم، التي نراها في كل زمان ومكان، في أناسٍ يتخذون من دون الله ـ جلَّ وعلا ـ أصناماً أو أشخاصاً أو كائنات معينة يعبدونها، فيقعون في الشرك والضلال، لأنها كلها شرك ظاهر أو خفي، إذا ذكرت إلى جانب اسم الله تبارك وتعالى، أو إذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله ـ والعياذ بالله من ذلك ـ .. فكيف إذا نزع حبَّ الله تعالى من قلبه، وأفرد تلك الأنداد بالحب الذي لا ينبغي ولا يجوز إلَّا أن يكون للخالق؟ تلك هي

---

(١) الزخرف: ٢٢.

حال المشركين ومن تبعهم.. أما المؤمنون فلا يداني شيء حبَّهم لله: لا أنفسهم، ولا أهلهم، ولا سواهم من البشر مهما عظم وسما، ولا يقيمون وزناً أو يعطون قيمة لما يجري وراءه الناس إزاء حبّهم لله تعالى ﴿والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله﴾ خالقهم، وهاديهم، والمنعم عليهم. وحبهم له سبحانه يكون خالصاً مطلقاً من كل موازنة، ومن كل قيد، ومتجهاً إليه تعالى دون سواه، لأنهم أدركوا عن طريق تفكيرهم حقيقة وجود الله، وسناء عظمته، وجلال شأنه، وعظيم فضله عليهم، فعبدوه حبّاً، وطاعة وقناعة، وشكراً، وامتناناً وثناءً...

إذن فأين هم الذين اتخذوا أنداداً أو أرباباً من دون الله، يحبونهم مثل حب الله، ويخلصون لهم الودَّ والطاعة؟.. أين أولئك من المؤمنين الذين صدقوا في حبهم لله تعالى، وأخلصوا له الإيمان والطاعة؟ إنَّ حب المؤمنين لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أشدُّ من حب غيرهم، من وجهين:

الأول إخلاصهم في العبادة والتعظيم لله الواحد الأحد، والثناء عليه، وتسبيحه وإجلاله، وتنزيهه من الإشراك.

والثاني حبهم لله تعالى عن علمٍ بأنه المنعم ابتداءً، وأنه يفعل بهم في جميع أحوالهم ما هو الأصلح لهم في التدبير، وقد أنعم عليهم بالكثير، ولذلك فإنهم يعبدونه عبادة الشاكرين، ويرجون رحمته رجاء المتقين. فلا بد أن يكون حبهم له أخلص وأشدَّ.

﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾. ومن هم الذين ظلموا؟ هم الذين اتخذوا أنداداً من دون الله، فظلموا بذلك أنفسهم وظلموا معهم غيرهم من الذين اقتدوا بهم.. لو يرى هؤلاء الظالمون عذاب الله الذي سينزل بهم، لأدركوا أن القوة والبأس، والشدة والجبروت، والعظمة، كلها لله تعالى

الواحد القهَّار. ولو رأوا ذلك لرأوا مضرَّة فعلهم وسوء عاقبتهم، ولَعَلِموا عندئذٍ أن الله شديد العذاب لما يذوقون من شدّته وألوانه. . إذن فتقدير المعنى: أنهم لو علموا في الدنيا ـ ويا ليتهم يرون ويعلمون ـ شدَّة عذاب الله، وأن القدرة له تعالى وحده، فلا يملك أحدٌ غيره ـ سبحانه ـ أسباب القوة، لما اتخذوا من دونه أنداداً، ولا أشركوا به شيئاً، ولتركوا تقليد آبائهم، ولرفضوا عباداتهم السخيفة!. .

﴿إذ تبرَّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا﴾ يوم القيامة. حيث يتبرأ الآباء والرؤساء، والآلهةُ والأربابُ وسائر المتبوعين من الذين اتَّبعوهم في معتقداتهم، أو من الذين أقاموا على عبادتهم بتقليدٍ من غيرهم، منكرين عليهم ضلالهم، وذلك حين ﴿رأوا العذاب﴾ جميعاً ـ التابعون والمتبوعون ـ عندما حلَّ بهم ذلك العذاب الأليم، وعندما تقطعت بينهم كل أسباب القرابة والأرحام والمودة، أو الحلف أو العهد، وكل الصلات التي كانت تربطهم في الدنيا. . . بحيث لم تعد تنفعهم بشيء في الآخرة، لأنَّ مدار النفع والثواب والأجر لن يكون إلَّا عمل الإنسان وحده، وما كسبت نفسه في دنياه. . .

فماذا يحصل؟؟

يحصل التبرؤ، وتنقطع الأسباب والصلات، ويقعون جميعاً في العذاب: تابعين ومتبوعين. وماذا بعدُ؟ هنا يأتي دور التابعين: ﴿وقال الذين اتَّبعوا: لو أن لنا كرَّة فنتبرَّأ منهم كما تبرَّأوا منا﴾ أي لو أن لنا عودةً إلى دار الدنيا، وفرضت علينا التكاليف من جديد، فإننا نتبرَّأ هناك من الذين اتبعناهم كما تبرأوا هم منا هنا، ولن نقتدي بهم، ولن نعود إلى اتباعهم أبداً. . فيا له من مشهد مؤثر: مشهد التبرّؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين، فكلٌّ يريد أن يتنصَّلَ من تَحمُّل

وزر الآخر، ومن إضلاله له.. ولكن هيهاتِ أن تكون لهم عودة، فقد أُحضروا إلى الآخرة التي لا رجوع منها إلى دار الدنيا.. وكما بدت لهم سيئات أعمالهم باتباع الضالين المضلّلين، فكذلك يريهم الله تعالى أعمالهم حسراتٍ، وندامات تختنق بها أنفسهم. فهم يتحسرون على أعمالهم التي ارتكبوا فيها الشرك والمعصية، وتركوا التوحيد والطاعة، لأنهم أدركوا يومئذٍ مقادير الثواب التي عرضت عليهم لو فعلوا الطاعات، فتحسروا على ذلك الثواب الجزيل حسرةً دائمة، قد تكون أشدَّ من حسرةِ العذاب، وإن كانت في صميم العذاب الذي منه يعانون. ولكنها حسرة لا تفيدهم بشيء، لأن مصيرهم النار يخلدون فيها وبئس المصير.

يقول الله تعالى:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1].

يضرب الله تعالى مثلاً عن الذين كفروا فلم يستجيبوا لدعوة التوحيد، وركنوا إلى التقليد، مصمّين آذانهم عن دعوة الرسل، فيشبههم بالبهائم التي يصرخ فيها الراعي فلا تفقه منه شيئاً، بل تسمع صراخه أو نَعيقه أو دويَّ صوته، ولكن من غير أي إدراكٍ لما تسمع..

فالكفار الذين اتبعوا دين آبائهم، وقلَّدوهم في عقائدهم وعباداتهم، يمثلهم القرآن الكريم بالسوائم أو البهائم التي تطيع صيحات راعيها من غير تفكير في مدلولاتها: لا تفهم أوامره، ولا تفقه نواهيه، ولا تعقل صيحاته ونداءاته.. بل تسمع منه أصواتاً اعتادت عليها: تؤمر بصوت فتأتي مقبلة، وتصرف بآخر فتعود مدبرة. هكذا هم

---

(١) البقرة: ١٧١.

الكفار، دُعوا للشرك والكفر فاتَّبعوه، فكأنهم في اتباعهم إيَّاه صمٌّ لا يسمعون نداءَ الإيمان، بكمٌ لا ينطقون بكلمة الحق، عميٌ لا يبصرون آيات الله تعالى في أي شيء. فهم إذن لا يعقلون الحقيقة، ولا يدركون الطريق السويَّ الذي يجب أن يسيروا عليه، ولذلك تاهوا في مجاهل الكفر والضلال. وكان مصيرهم إلى النار وما هم بخارجين منها أبداً.

العادات

العَوْد: الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه، إما انصرافاً بالذات، أو بالقوة، أو بالعزيمة. ومنه قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾[1].

إنَّ كثيراً من الكفار يوم يحين الحساب، ويأتي الحشر العسير، وتتكشف لهم مغبة أعمالهم السّيئة يرجون ربهم أن يخرجهم من النار، ويعِدُون لو أنهم ردوا إلى الدنيا لما كذبوا بآيات ربهم، ولكانوا من المؤمنين. إلَّا أن الله تعالى يعرف أسرار نفوسهم، وهم هذه الفئة الطاغية في كفرها.. ولذلك يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾[2]. فالله تعالى يعلم طبيعتهم، ويعلم إصرارهم على باطلهم، ويعلم أن الموقف المرعب على النار هو الذي أنطق ألسنتهم بهذه الوعود التي يتوهمونها..

ويقال: إعادة الشيء، مثل إعادة الحديث أي قوله مرة ثانية..

---

(١) المؤمنون: ١٠٧.
(٢) الأنعام: ٢٨.

وعن الفعل عندما يكرر مرتين أو أكثر، مثل قول الله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾[1].

والعادة: اسم لتكرار الفعل والانفعال حتى يصير تعاطي ذلك سهلاً كما لو أنه من داخل الطبع، ولذلك قيل: العادة طبيعة ثانية.. إلا أن هنالك فرقاً بين العادة والعرف. فالعادة هي العمل المكرر من الفرد، والعرف هو العمل المكرر من الجماعة.

والعادة تتأتى عن النفس، ولذلك يقال عنها بأنها ظاهرة نفسية. ويقسم البعض العادات إلى أنواع ثلاثة: العادات الحيوية، والعادات الحركية، والعادات النفسية المحضة.

١ ـ العادات الحيوية

العادة الحيوية هي التي تزيل الشعور بالمؤثرات الخارجية، كما يتعود الإنسان قساوة الحر أو البرد، أو كما تتعود العين الظلام. وذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا: إنَّ المناعة عادةٌ حيويةٌ، بمعنى أن الكرويات البيضاء في الدم تتعود قتل الجراثيم والتغلب عليها وعلى سمومها. ومنهم من يعلِّل هذه المناعة بنوع من تطبيع (الكرويات البيض)، ومنهم من يعللها بالتوازن الفيزيائي الكيماوي.

ولذلك يسمون مثل هذه العادة بالحيوية، ونطاق دراستها علم الحياة.

٢ ـ العادات الحركية

العادة الحركية استعداد مكتسب لتكرار بعض الحركات، والقيام

---

(١) طه: ٢١.

ببعض الأفعال. ومن هذه الأفعال ما يكون بسيطاً مثل الحركات الطبيعية التقليدية التي تصدر عن الإنسان، أو الإشارات التي يقوم بها. ومنها ما يكون مركباً كالحركات التي نقوم بها وقت الأكل أو عند ارتداء الملابس. ومنها ما يتطلب التدريب كركوب الخيل أو الدراجة أو قيادة السيارة أو الطيارة، أو العزف على آلة موسيقية أو حفظ الشعر.. وهي تتولد من التكرار والتعلم الإرادي إلا أنها بعد مضي مدة من الزمن تصبح غير محتاجة إلى شحذِ الإرادة أو تعمق في التفكير..

٣ ـ العادات النفسية المحضة

وهذه العادات هي أيضاً استعدادات مكتسبة تحمل الإنسان على الإحساس بنفس الصورة التي رآها من قبل، أو التفكير بما تعرف به من قبل، أو القيام بعمل قام به سابقاً. ومن عادات التفكير: التناسق في الأفكار، التأني أو السرعة في الحكم، حصر الانتباه، الاستدلال الخ... ومن عادات الإحساس: ضبط النفس، كظم الغيظ، محاربة الهوى، الرضا، العفة، المروءة، وغيرها من العادات السامية. ويعتبر البعض أن هذه العادات هي عادات انفعالية أو إرادية، تنبثق عن كوامن النفس، وعن تربية الإرادة أو إهمالها.

والسؤال: كيف تكتسب العادات، أو ما هي العوامل المؤثرة في اكتسابها؟

يذهب كثيرون إلى أن العادة تنشأ عن التكرار. ولذلك قيل: «العادة بنت التكرار». فالتكرار، بنظرهم، عامل أساسي في تكوين العادة، لأنه لا يمكن أن تتكون العادة لمجرد القيام بعمل مرة واحدة. فالعادات الحيوية، والعادات الحركية تحتاج كلها إلى التكرار. ولكنه في العادات الحيوية ليس تكراراً حقيقياً، وإنما هو تمديد للمؤثر.

على أن البعض يقول بأن العادة لا تحتاج إلى التكرار عدة مرات، إذ ربما يتم اكتسابها من أول مرة، وعلى ذلك فالتكرار ليس ضرورياً لاكتساب العادة، وإنما هو ضروري لتقويتها وضبطها، وتسهيل الحركة. ويقولون: إن كل فعل هو بداية عادة، فإن لم يبق للفعل الأول أثر في النفس، فلا يمكن أن تتكون العادة حتى ولو تكرر الفعل مائة مرة. ويُبنى هذا الرأي على أن الأثر الذي يبقى في النفس هو في الحقيقة تغير يطرأ على هذه النفس. فإذا كان هذا التغير عميقاً، أدَّى إلى ترسيخ العادة لأن تغيراً تتقبله النفس باهتمام وانتباه، أو بلذة قويةٍ من أول مرة، قد يكفي لتكوين عادة تبقى ما بقيت حياة صاحبها.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن للعقل والإرادة والانتباه تأثيراً هاماً على اكتساب العادات، ولا سيما الحركية منها، لأن هذه العادات خاصة بالإنسان، في حين أن العادات الحيوية مثلاً، لا يكون في كثير منها أثر للفاعلية الذهنية في اكتسابها وهي موجودة لدى الإنسان كما لدى الحيوان. وقد رد البعض الآخر على ذلك بالقول إن التأثير قد يكون خارجياً، ولا دخل للعقل أو الإرادة في حصوله حتى يؤدي إلى تكوين عادة.

ويبقى الرأي الغالب القائل بأن العادة تنشأ عن التكرار، واكتسابها يكون بالتمرين، لأن تكرار التمرين والحصول على شيء من النجاح فيه يقوي بعض الأفعال، مما يشكل آليةً لاكتساب العادة.

وتصل العادة، من خلال التمرين، إلى حالة من النضج يسمى النضج الحيوي أو العضوي، وذلك عند استقرارها، وانتظام عناصرها، واتساقها. وقد دلت التجارب التي أجراها بعض العلماء على أن العادة يمكن أن تصل بنفسها إلى حالة من التقدم أو النضج وذلك بعد

الانقطاع عن التمرين. فقد يحب الإنسان ممارسة لعبة رياضية وقد يتمرن على ذلك فترة من الزمن، دون أن يتعلم هذه اللعبة، كما لو تمرن أحدهم مثلاً على السباحة دون أن يتعلم كيف يسبح ، فيترك ذلك مدة من الزمن، قد تصل إلى شهور، وربما سنوات، ثم ما إن يستأنف تلك اللعبة، أو يحاول السباحة من جديد، حتى يجد نفسه قادراً على ذلك. «فقانون نضج العادة هو الذي يوضح كيفية تولد العادة من الفعل الأول».

ولا بد في اكتساب العادة من تقسيم الفعل على مراحل متعددة، بحيث يتعلم الإنسان في كل مرحلة جزءاً من الفعل، ومن ثم وفي المرحلة الأخيرة تجمع الأجزاء إلى بعضها بعضاً، وتستقر العادة. والمثال على ذلك تعلم الكتابة إذ يرسم الطفل أجزاء الحروف على شكل خطوط، ثم ينتقل إلى مرحلة تكوين الحروف، ومنها إلى جمع الحروف لتأليف الكلمات. ومثل ذلك ممارسة لعبة كرة القدم، أو الكرة الطائرة وما إلى ذلك..

وإذا كان القيام بالفعل يصطدم ببعض الصعوبات، فيجب لاكتساب العادة ألا يتكرر الفعل كله دفعة واحدة، بل تكتسب حركاته بالتدريج من السهل إلى الصعب، فالعادة الحيوية تحتاج إلى هذا التدريج. كما لو أراد الإنسان أن يعتاد الإقامة في الجبال العالية، فلا يكون له ذلك إلا إذا تدرج في الارتفاع شيئاً فشيئاً. وكذلك العادة الحركية تحتاج أيضاً إلى تدريج التمارين بعد تقسيم الفعل إلى حركات بسيطة، لأن العادة لا تتولد من تكرار الفعل على نمط واحد، بل يجب في كل مرحلة من مراحل التدريب أن يبدل تركيب الحركات، بضم الحركات التي تلي إلى الحركات التي تسبق. وعلى ذلك فإن تعلم

الكتابة مثلاً ليس تكراراً للحركات الأولى على نمط واحد، وتعلم السباحة ليس تكراراً من غير تصحيح وتنظيم وتنسيق.

ومما يسهل اكتساب العادات عند الإنسان العوامل النفسية المحضة: كالاهتمام، والجهد، والإرادة، والانتباه. وتركيز الانتباه ضروري كل الضرورة في بداية الفعل، لأنه يوفر كثيراً من الجهد، ويغني عن كثير من الحركات الزائدة على الحاجة. وكلما كان الانتباه أقوى كان الاكتساب أسهل، لذلك كان التكرار الذهني أصلح للاستظهار من القراءة الفعلية عدة مرات.

نتائج العادة

تؤثر العادة تأثيراً كبيراً في حياة الفرد لأنها تؤلف جزءاً هاماً من سلوكه، وتجسد مشاعره، وأفكاره، وتحفظ أفعاله. كما تؤثر في المجتمع لناحية تنظيمه، وحفظ أوضاعه على أنماط معينة بدلاً من التغيرات المفاجئة. ويمكن أن تنحصر نتائج العادة في الأمرين التاليين:

(أ) العادة تؤدي إلى آلية الفعل حيث يتضاءل فيها شعور المرء، ويقل إحساسه وانتباهه، وتخف أحواله الانفعالية شيئاً فشيئاً. إذ كلما تمكن المرء من العمل، وحذق به، خف اهتمامه وانتباهه له، كما لو اعتاد الإنسان شم رائحة معينة من العطور أو اعتاد على المشي أو الكتابة، أو ركوب الدراجة. . . ففي جميع هذه الأمور ينصرف الجهد الإرادي، والانتباه عن الحركات الجزئية ليستقر الفعل في المراكز العصبية السفلية، وتتوقف المراكز العصبية العالية عن الاشتغال به. وهذا ما يؤدي إلى حالةٍ من تخفيف الشعور. قال أحد العلماء: «إن

العادة تخفف من شدة الحساسية، وتمنع تدخل الشعور في الأعمال العادية الآلية، لأن تدخله فيها يعرقلها، ويشوش نظام آليتها».. وهذا ما ينطبق على جميع الإحساسات كإحساس اللمس، والشم، والذوق. فالعادة تقلل من إحساسنا بالحرارة أو الرطوبة، أو بالملوحة والحلاوة، أو بالرائحة التي نتطيب بها.

وعلى عكس ذلك فقد اعتبر كثيرون أن العادة كثيراً ما تقوي الشعور بالشيء بدلاً من أن تنقصه، فهي مثلاً تزيد في قوة الذوق لدى الطباخ، وفي قوة تمييز الألحان عند الموسيقار، والألوان عند المصور، والروائح عند الكيماوي. فهي إذن لا تنقص الإحساس، بل تقلل الانتباه. وهكذا فإن الطفل عندما يتعلم الكتابة، أو السباحة مثلاً، فإنه يقوم بجميع الحركات اللازمة للفعل بكل ما أوتي من انتباه، ويبذل كل جهد يملكه، ولكنه بعد اكتساب العادة يقوم بالفعل من غير جهد، ويقل انتباهه له، وتزيد سرعته فيه، وتقل أخطاؤه، حتى تصبح حركاته في النهاية آلية تماماً. وهذه الآلية هي نتيجة تؤدي إليها أنواع العادات جميعها من حيوية، وحركية، ونفسية.

(ب) العادة تؤدي إلى التكيّف. ولكن هذا التكيف في العادات الحيوية لا يتم إلا بجملة من ردود الفعل الداخلية، وفي العادات الحركية يظهر في التكامل التدريجي الذي يتصف به الفعل حتى يصبح أسهل من ذي قبل. ويكفي أن تحدث الحركة الأولى بإرادة حتى تجري الحركات الأخرى من ورائها بصورة آلية. وكثيراً ما تحدث الحركة الأولى بدون إرادة كما هي الحال لدى المدخِّن، الذي يقوم بفتح علبة السجائر لمجرد رؤيتها، ثم يتناول سيجارة منها ويشعلها من غير أن يكون لإرادته في ذلك أثر يذكر. وهذه الآلية في العادة هي التي تسهل القيام بالفعل، وتزيد في سرعته، وتقلل الخطأ، والتعب،

وتجعل العادة متقنة ومحكمة. حتى لقد قيل إن العادة تتقدم بالتهديم، كما تتكامل بالإنشاء، فهي تحذف من الفعل كثيراً من الحركات الزائدة، وتصحح القديم بما تضمه إليه من الحديث. مثال ذلك: إن الطفل الذي يتعلم الكتابة تصدر عنه في البداية حركات لا علاقة لها بإنجاز الفعل كإخراج اللسان، وتقطيب الحاجبين، وإمالة الرأس. ولكنه بعد اكتساب ملكة الكتابة توزع حركاته على الأعضاء التي تقوم بتلك الحركات. وهكذا، فإن العادة تحرر فاعليتنا من القيود الزائدة، لأنها تعهد في القسم الأكبر منها إلى الآلية، وتجعلنا نوجه انتباهنا إلى أمور أعلى منها.

والعادات النفسية تولد أيضاً نفس النتائج التي تولدها العادات الحركية، بل والحيوية، لأنها تؤلف آليات فكرية. فعادة التفكير تؤدي إلى سرعة الفهم، وسهولة استعمال البراهين، وتجعل المفكر يختار الحجة الأحسن، والنتيجة الأدق، بعيداً في ذلك عن العمليات الفكرية الزائدة. ولذلك اعتبرت عادة التفكير من عوامل التقدم، لأنها تحرر الفكر من ربقة الاتباع، وتوجهه إلى الغاية الصحيحة.

قيمة العادة وفوائدها

للعادة أثر كبير في حياة الإنسان، فهي التي تحفظ الماضي وتهيء للمستقبل، سواء في حياة الأفراد، أم في حياة المجتمعات. فالعادات القديمة قد تشكِّل تراثاً للأمة إذا كانت تعبر عن مآثرها، ومفاهيمها، وتطلعاتها نحو المثل والأهداف السامية. وتكون دافعاً للحفاظ على هذا التراث وتعزيزه بمآثر جديدة.

أما في حياة الفرد فإن العادة توفر عليه كثيراً من الجهد الفكري، فلا يحتاج في بعض الأفعال إلى شدة الانتباه، لأنه يأتيها آلياً، فيصرف

انتباهه واهتمامه إلى غيرها، بحيث يمكنه القيام بعملين في وقت واحد: الأول يكون عادة راسخة، ينجزه بصورة آلية، بينما يوجه نفسه للعمل الآخر، وهذا ما يوفر عليه جزءاً من الوقت، ويخفف من تعبه، ويثبت سلوكه، ويكسبه المهارة، والسرعة في الإنجاز وفي اتخاذ القرار.

ولكن بمقابل هذه الفوائد فإن هنالك مساوىء عديدة قد ترافق العادة، إذا ما أصبحت سبباً للركود والجمود، بحيث يصعب تغييرها أو استبدالها. وإذا ما حاول المرء مثل هذا التغيير فقد يعجز عن ذلك لأن العادة تستبدّ به حتى يصير عبداً لها، وتجعل حياته تسير على نمط واحد تغلب عليه الآلية بدلاً من الحيوية. ولذلك قيل: «خير عادات الإنسان أن لا يتعود شيئاً».

والعادات الخلقية إما أن تغلِّب الفضيلة في حياة المرء، أو أن تجعل الرذيلة تسيطر على هذه الحياة، لأن المرء يمكنه أن يتعود أي شيء، وأن يوطن نفسه على كثير من الأمور التي تقف حائلاً دون تقدمه، وتحقيق نجاحه. وهذا ما يدفع إلى اكتساب العادات الصالحة، التي تشكل قوة دافعة للإنسان نحو التكامل، وتحول بينه وبين التباعد عن إنسانيته. ولعل أفضل السبل لذلك هو اكتساب العادات الفاضلة والتخلي أو الابتعاد عن العادات السيئة. وقد قيل: «يجب على المرء لاكتساب عادة جديدة، أو للتخلص من عادة قديمة، أن يغتسل كل يوم بماء جديد، وأن يُشعِرَ نفسه بالإقدام والقوة والعزم، وأن يجمع الأسباب الباعثة على العمل، ويربط نفسه بوعود علنية».

ويجب على الإنسان أن لا يتراجع إلى الوراء أمام داعي الإرادة، إذ خير له أن يقطع صلته بالعادات السيئة دفعة واحدة وأن يتخلى عنها

بصورة نهائية، لأن نيران الشهوة سرعان ما تخمد لعدم إضرامها. والتخلص من العادات السيئة يقتضي قتلها سريعاً، واكتساب عادة فاضلة مضادة لها، والتمرن على هذه العادات الحسنة الجديدة تمرناً متتابعاً. وقد قيل: «لو عرف الشباب أنهم سيصبحون يوماً من الأيام كتلة متحركة من العادات لانتبهوا لسلوكهم وهم في نضارة الحياة. فالمرء ينسج أقداره بيديه، وسواء أكان ذلك خيراً أم شراً، فإنَّ خيطه المنسوج لن يحل». وقد قالت العلماء: «إن آثار أفعالنا لا تمحى، فينبغي للشاب أن يدأب في الحياة من غير أن يفكر في النجاح، وأن يتعود العمل المستمر، لأن النجاح ليس صفة ذاتية مقومة للعمل، وإنما هو نتيجة خارجية تنضم إليه كما تنضم اللذة إلى الفعل».

نصائح تربوية حول العادة

على المربي أن يعلم ما للعادة من تأثير هام في حياة المرء. وعليه أن يكافح العادات السيئة منذ ظهورها. إن ترويض الطفل على العادات الطيِّبة يجب أن تبدأ منذ سني حداثته الأولى، ويستمر خلال مراحل حياته كلها. ففي سني الطفولة يمكن ترسيخ العادات أو التخلص منها بسهولة أيسر من أيام الكبر. فالشيخ يحافظ دائماً على الأنماط القديمة في حياته، ويتمسك بقوة بعاداته، ومن العسير إقناعه بتغيير ما تعوَّده. لهذا كان الشباب عماد التقدم، وكان الشيوخ عماد الاحتفاظ بهذا التقدم.

والطفل يكتسب أكثر عاداته بالتقليد، والتلقين، والإيحاء، والتدريب، فكانت تبعة الآباء والمربين من جراء ذلك عظيمة جداً. وبقدر ما تكون العناية بتربية الأطفال جيدة، بقدر ما وجب تعويدهم على الشعور بتحمل المسؤولية، وفي ذلك إنماء لمواهب الطفل،

وتحسين لشخصيته، مما يرتد بالنفع العميم على المجتمع بأسره. لذلك وجب أن يكون اهتمام الموجهين وعنايتهم بغرس العادات الطيبة في نفوس الناس والتلاميذ خاصة، أهمّ من عنايتهم بحشو عقولهم بالعلوم. لأن قسماً كبيراً من هذه العلوم ينساه التلميذ بعد مغادرة المدرسة، بينما تبقى العادات الطيبة ظاهرة في تفكيره، وسلوكه، لأنها تلازم الإنسان مدى حياته.

انتهى المجلد الأول
من هذا الكتاب
ويليه المجلد الثاني والأخير
بعون الله وتوفيقه

الفهرس

المقدمة: معرفة النفس الإنسانية

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن